دراسات

حميد دباشي

هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟

ترجمة: عماد الأحمد

المتوسط

حميد دباشي

هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟

ترجمة: عماد الأحمد

المتوسط

Was first published in 2015 by Zed Books Ltd, 7
Cynthia Street, London N1 9JF, UK

المؤلف: حميد دباشي / المترجم: عماد الأحمد
عنوان الكتاب: هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟
الطبعة الأولى: ٢٠١٦.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-00-7

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟

تشكر هيئة التحرير في "منشورات المتوسط" كلاً من الأساتذة: ***ماريان كمال وخالدة حامد وأحمد عبد الحسين وإسماعيل الكردي*** لجهودهم في مراجعة وتدقيق هذا الكتاب ليصدر بالوجه الذي هو عليه.

شكر وتقدير

هذا الكتاب هو ثالث كتبي الصادرة، عن دار زد بوكس للنشر، والتي تشكّل ثلاثية، يمكننا تسميتها «ثلاثية الانتفاضة»، تكريماً لحركة التحرير الوطني الفلسطينية. لم يكن ليتم نشر الكتب الثلاثة دون اهتمام وكفاءة محرّري زيد بوكس الرائعَين اللذين عملت معهما، إلى جانب زملائهما أيضاً، للوصول، للشكل النهائي، لتلك الكتب. كانت تامسين أوريوردان محرّرة كتابي «إيران والحركة الخضراء والولايات المتحدة الأمريكية: مفارقة قناة فوكس نيوز العجيبة» (٢٠١٠) و«الربيع العربي: نهاية حقبة ما بعد الاستعمار» (٢٠١٢) (صادر أيضاً بالعربية عن منشورات المتوسط). ولعبت كيم ووكر دوراً أساسياً، في صياغة هذا المجلد الثالث، بقدر كبير من العناية والمراجعة المتأنّية للمادة الهائلة المقدمة للكتاب.

اقترحتُ تسمية الكتب الثلاثة، بثلاثية الانتفاضة؛ لأنها تحمل - في جذور كل منها - المنطق الموسع للانتفاضة الفلسطينية، كمثال لجميع حركات التحرير العابرة للحدود؛ حيث تتّضح، وتُستثمر فيها الأطياف الكاملة لجغرافيا التحرير المعاصرة. تتطلب الضرورة الملحة للأحداث الجارية - على مدى السنوات القليلة الماضية - نوعاً من التفكير النقدي الذي يمنحها الإيقاع السردي المناسب، والموسيقى المناسبة. كنت محظوظاً للغاية بعد أن وجدتُ نفسي منخرطاً، في هذه الأحداث، بوجود محرّرتين، على درجة عالية من الثقافة والاهتمام والكفاءة. لم يكن للكتب الثلاثة أن تتمتّع بزخمها الديناميكي لولا وجودهما. أشكر تامسين أوريوردان وكيم ووكر، لسخائهما، وإسباغهما الاهتمام والثقة، على هذه الكتب.

كانت كانديس بريدجيت لوكازيك مساعدتي البحثية عندما كنت أعمل على المسودات الأولية، لهذا الكتاب. أنا مدين لها، بالامتنان الحار، لجمعها الحثيث لكتاباتي، من مصادرها المختلفة. وكان مساعدي الحالي للأبحاث هاوا الأنصاري مفيداً للغاية - أيضاً - خلال الجزء الأخير، من المشروع أثناء إعداد الكتاب للنشر. كان لناصر (ناز) يوسفزاي خان، محرّر أعمالي في موقع الجزيرة، لسنوات طويلة، وللعديد من الزملاء - أيضاً - دور أساسي، في مساعدتي في وضع ونشر مختلف المواد التي تشكّل الكتاب اليوم. ويعود الفضل - بداية - في كتابة مقال «هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟» لناز الذي لم أكن لأعرف السياق الأوسع للقضايا التي أُثيرت في هذا المقال، لولا حماسته، ودعمه. وشكّل كلّ من سيمون كريتشلي وبيتر كاتبانو، من صحيفة نيويورك تايمز، وريتشارد جالانت، من سي إن إن، ومنى أنيس ورشا سعد، من الأهرام ويكلي، عناصر رئيسة، في وصول المواد التي تم جمعها - اليوم - في هذا الكتاب، إلى مرحلة النشر، في وسائل الإعلام التي يعملون بها.

حميد دباشي / نيويورك، أكتوبر ٢٠١٤

المقدمة
هل يقرأ الأوروبيون؟

المقدمة
هل يقرأ الأوروبيون؟

«تبـاً لـك، يـا والـتر ميغنولـو»، بهذه العبارة المُفحِمة والمُستفِزّة والمصحوبة - من دون شك - بحركة يده الشهيرة، بدأ الفيلسوف الأوروبي الشهير سلافوي جيجك ردّه على مقالة والتر ميغنولو، التي كتبها في خضمّ الأخذ والردّ على مقالتي «هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟». جيجك فيلسوف بليغ، ويميل إلى الاستطراد عادة: «حسن، تباً لك، مَن هم هؤلاء المفكّرون الأكثر أهمية؟ دعني أقول بأنني لم أكن مُنبهراً للغاية».

قد تتساءل عن سبب ثورة هذا الفيلسوف الأوروبي الشهير، ولماذا كان رد فعله مُفرِطاً ومبالغاً فيه، إلى هذا الحد؟ ما الذي قاله والتر ميغنولو؛ ليستحق مثل هذا الرد البالغ الدقّة، من المفكّر الأوروبي العظيم؟

سؤال بسيط

نشرتُ مقالاً على موقع الجزيرة الإلكتروني في يناير ٢٠١٣، عنونته - على سبيل الدعابة - «هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟». حقّق المقال انتشاراً واسعاً، على الفور، وأصبح أحد أكثر المقالات التي كتبتُها شهرةً خلال مسيرتي الأكاديمية؛ إذ انتشر المقال، على شبكة الإنترنت، بشكل، لم تحظَ به مقالة جدلية، في التفكير الفلسفي، من قبل. ولاقت هذه المقالة نجاحاً كبيراً، على موقع الجزيرة، أكثر من أي مقالة أخرى، كتبتها على الموقع ذاته. لقد لامست المقالة وتراً عاطفياً لدى الناس، الذين بدؤوا، بقراءتها، والتعليق عليها، بشكل فاق الحدود التي تخيّلتها، أو التوقّعات التي راودتني لدى كتابتها.

اليوم، تُشكِّل هذه العبارة عنوان كتابي هذا، والذي يتحدث عن تلك النوعية من التفكير التي أسمّيها التفكير الذي يتخطّى حدود الحالة التي ندعوها «حقبة ما بعد الاستعمار». يأتي هذا الكتاب، بمثابة إعلان استقلال، ليس عن حقبة ما بعد الاستعمار، وحسب، بل عن الحدود المعرفية التي ترتبط، بهذه الفترة، تاريخياً، والتي استنزفت كلياً اليوم. نأمل أن تجد في هذا الكتاب بحثاً دقيقاً، يدلّك على الطريق المناسب، ويوضح الحاجة الملحّة للتفكير، فيما وراء الاستعمار وحقبة ما بعد الاستعمار، وقبل كل هذا، لا بد من البحث، فيما وراء الوجود الواضح، أو الضمني، للمُحاوِر الأوروبي الذي يراقبنا أثناء الكتابة.

وهنا تكمن المشكلة! فبعد نشر مقالتي، بوقت قريب، جاء ردّ البروفيسور الباحث في الفلسفة - جامعة برشلونة - سانتياغو زابالا، عليها عبر مقال مضاد، ظناً منه أنني كتبت ما كتبت رداً، على مقال سابق له، مستكملاً - بذلك - الرد والحوار. بدا هذا الأمر غريباً جداً، بالنسبة لي، ليس لأنني لا أرحّب، بالرد، بل لأنني لم أكتب مقالتي رداً عليه، ولكنني استخدمت شيئاً مما كتبه سابقاً، كطُعم؛ لأستطيع عرض أفكاري فقط. ولكن الرجل بدا وكأنه تلقّى إهانة كبيرة، بسبب مقالتي؛ إذ ظن أنني أتهمه (وبالتالي بقية الفلاسفة الأوروبيين)، بالنزعة المركزية الأوروبية، وفي المقابل، أخذ عليّ إشارتي للفيلسوف الماركسي الإيطالي الجليل أنطونيو غرامشي، في مقالي، كدليل على أنني أوجّه إليه اتهاماً، بشيء ما، أعمله أنا شخصياً. كان هذا رداً غريباً، للغاية، على تهمة، لم ألقها أبداً. فأنا أرى - عموماً - أن إلقاء تهمة النزعة الأوروبية بات شيئاً مملاً، إلى درجةٍ كبيرة، كما أنني لا أهتم، بمناقشة مبالغ فيها مثل تلك المناقشة، وقد رأيت أن الأسلوب الذي استخدمه زابالا - في مقالته - أسلوب صبياني، يمكن استخدامه في مسابقات التبول المدرسية، كتلك التي كنا نقيمها، في باحة مدرستي الثانوية، في إيران التي تركتها منذ عقود مضت.

يعاني الأوروبيون من النزعة الأوروبية قطعاً، كما أن الملا نصر الدين (على

سبيل السخرية) ظن بأن الموقع الذي ثبّت فيه لجام بغلته هو مركز الكون - فلماذا لا يفكرون كذلك، الأوروبيون، أو نصر الدين؟ في الحقيقة، لم أكن أخاطب زابالا أبداً، أو أي فيلسوف أوروبي آخر. ولكنه ظن بأنني فعلت[١].

انضمّ زميل زابالا في الجامعة السيد مايكل ماردر، إلى أخيه الأوروبي، وكتب مقالة أخرى ضدي، على صفحات موقع الجزيرة؛ حيث وجد - أيضاً - أن مقالتي موجّهة إلى زابالا، كما رآها مقالة هزلية. كان اعتراض ماردر قائماً على أنني تجاهلت حقيقة أن جميع الفلاسفة الذين استشهد بهم زابالا كانوا «مضادين لنزعة الهيمنة»، وبالتالي؛ تخريبيين، للغاية، وقد وضعتْهم تلك المكانة المشرفة إلى صفي في هذا التقسيم الخاطئ[٢]. أكرر، يمكنه أن يقرأ مقالتي، بالطريقة التي يريدها، حتى بقراءته شديدة السخف هذه، ولكن أكثر ما وجدته مسلياً، أن هؤلاء الفلاسفة الأوروبيين صغار السن، كانوا واعين للغاية، لكونهم «فلاسفة أوروبيين»، لدرجة شعورهم، بمسؤولية التجمهر، للدفاع عن أنفسهم ضد الفتى الملوّن الذي تجرّأ، على التعدّي، على منطقتهم. كانت أمي الراحلة تقول بأن القطة التي سرقت شيئاً ما، ستهرب بعيداً، ما إن تلوح، بعصاك، بالرغم من أنك قد لا تمتلك الرغبة، في ضرب أي كان، ولكن القطة عرفت بأنها لصة. لم أكن أخاطب زابالا، أو ماردر، بأي شكل من الأشكال. لم أكن أخاطب أي فيلسوف أوروبي، على الإطلاق. ولكنهم يظنون - حقاً - بأن أي شيء يحدث في جميع أنحاء هذا العالم متعلق بهم حصراً. وهذا غير صحيح، على الإطلاق، ولم يكن الأمر هكذا يوماً. وهذه هي النقطة الحاسمة، بالضبط، فلم يعد شخص مثلي مهتماً، بأي شيء، قد يتوهمون بأنه «هيمنة»، أو «مضاد للهيمنة» لدى الأوروبيين. فلدينا حقول معرفية أكثر خصوبة، من هذه الحقول، بكثير.

كما أن هؤلاء المدافعين المتأخرين عن المحاوِر الميت الذي يسمّونه «الغرب» لم يكونوا على علم، بكل ما نعرفه نحن. كنا نقوم (وأعني بنا نحن الفتيان والفتيات الملوّنين من مستعمراتهم السابقة)، برسم تضاريس جديدة للعالم (عالمنا، هذا الكوكب الكروي الذي نعيش فيه)، في تفكيرنا

ودراساتنا الأكاديمية، بينما كانوا يحوّلون جهلهم، بمجموعة الأعمال هذه، إلى نقطة حاسمة، في قوة حججهم الفلسفية - تماماً كما فعل أسلافهم مع قوة عمل آبائنا؛ حيث أهانوها، وتجاهلوها. إنهم لا يعلمون بأننا قد قلنا لجيجك خاصتهم أن يذهب؛ ليلهو مع نفسه قبل أن يقول لميغنولو خاصّتنا «تباً لك!» بفترةٍ طويلة.

كانت هذه هي النقطة التي انطلق منها والتر ميغنولو، في كتابة مقالته العميقة، كرد مباشر على مقالتي؛ حيث أعاد صياغة سؤالي، كإجابة. كان مقال ميغنولو هذا هو الأول الذي أخذته، على محمل الجد؛ لأنه بدأ فيه، بمعالجة القضايا التي طرحتُها، بشكل جدّي. أثار مقالي الكثير من الردود، من بينها - وربما كانت المادة الأكثر إثارة للمشاعر فيما يخصّ حجّتي. مقالة رائعة، بقلم أديتيا نيغام، «نهاية حقبة ما بعد الاستعمار والتحديات أمام الفكر «غير الأوروبي»[٢].

كان ما يميّز مقالة نيغام بأنه كان على معرفة عميقة دائمة، بعملي، وقد تعامل مع حجّتي، من داخل أعمالي نفسها. أوضحت مقالة نيغام نقطة هامة، للغاية، بالنسبة لي: أن هؤلاء الأشخاص مثل زابالاوماردر لا يملكون أدنى فكرة - بالفعل - عن عملي، أو عمل أيّ شخص آخر بعيداً عن أوروبا؛ لأنهم لا يمتلكون أيّ اهتمام، أو سبب، يدفعهم إلى ذلك. أنتمي أنا وميغنولو ونيغام، إلى جيل من مفكّري الحقبة ما بعد الاستعمارية الذين نشؤوا مضطرّين لتعلّم لغة وثقافة محاوريهم الاستعماريين. ولم يكن لدى هؤلاء المحاورين أيّ سبب، يدفعهم، للقيام بالمثل. قد أصبحوا محليين، بافتراضاتهم، عن الكونية. ولقد أصبحنا كونيين تحت وطأة الاستعمار الذي سعى إلى جعلنا محلّيين.

بدأ جيجك بتلك الافتتاحية الحادّة، كردٍّ مباشر، على مقالة والتر ميغنولو، ثم تابع بناء حجّته موضحاً سبب عدم أخذه أيّ شيء، يقوله غير الأوروبيين، على محمل الجد. سأترك ميغنولو، يدافع عن نفسه؛ لأنه

أقدر مَن يقوم، بذلك، على الأخص، في وجه جيجك. لم تعد مهمّتي - هنا - الدفاع عن الحجج التي أوردتُها في مقالتي «هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟» أو تقويتها؛ لأن المقالة قادرة على الدفاع عن نفسها. بدلاً من ذلك، أنا أكثر اهتماماً، بالسؤال الغريب حول ما إذا كان الفلاسفة الأوروبيون قادرين - فعلاً - على قراءة شيء ما، والتعلم منه بدلاً من إحالته، إلى ما يعرفونه، بالفعل. وأود أن أتأمل - في هذا السياق - بما يدفع مفكّراً أوروبياً، لاستخدام مثل هذه الكلمات الخشبية عندما تتم مواجهته، بشيء، قد يقوله أمثال ميغنولو، أو نيغام، أو دباشي.

استطراد

لماذا يتعيّن على الأوروبيين أن لا يكونوا قادرين على القراءة، حتى عندما نكتب باللغة التي يفهمونها؟ إنهم لا يستطيعون القراءة؛ لأنهم («كأوروبيين»، وقعوا في فخّ المجاز المستنزف الذي يتوق إلى ماضيه) يُحيلون ما يطّلعون عليه - مجدداً - إلى ذلك الفخ، وإلى ما يعرفونه، بالفعل؛ وبالتالي فهم غير قادرين على رؤيته، على أنه شيء، لا يعرفونه، ولكنْ؛ بالإمكان تعلّمه. الظروف التاريخية هي حجر الأساس، للأفكار. العالم، بأسره، يتغيّر، والعالمان العربي والإسلامي، على وجه الخصوص، وهذه التغييرات شرط، لا غنى عنه، للأفكار الجديدة التي لم تُصَغ بعد، بالضبط، كما ولدت أسطورة «أوروبا»، أو «الغرب»، وبدأت بتوليد الأفكار. وكانت حجّتي المركزية - على مدى العقود القليلة الماضية - أن حالة الاستعمار قد أدّت إلى وضع معيّن، في إنتاج المعرفة، في جميع أنحاء العالم الاستعماري؛ من آسيا، إلى أفريقيا، إلى أمريكا اللاتينية، والذي نعرفه - اليوم - وندرسه في اللحظة التي نسمّيها «ما بعد الاستعمار».

زعمتُ في كتبي عن الثورة العربية والحركة الخضراء في إيران، وكما اتضح من هذه الانتفاضات الثورية، أن أشكال إنتاج المعرفة في حقبة ما بعد الاستعمار (الإسلامية المتشددة، والقومية المناهضة للاستعمار، واشتراكية العالم الثالث) قد استنفدت نفسها، في حقيقة الأمر.

يظل المفكّرون الأوروبيون المهمّون والثاقبون - مثل جيجك وزابالا، في الدوائر الضيقة الخاصة بهم - بعيدين كل البعد، عن هذا الواقع، ولا يستطيعون - على اختلاف درجاتهم - تفهّم خصوصياتهم التي تكشف عن نفسها، بشكلٍ وثيق الصلة، باصطلاحاتهم. تشكّل «الفلسفة» - بالنسبة إليهم - لعبة جمباز عقلي، يؤدّونها - مع ما يستقبلونه، من خصوصيات الفلسفة الأوروبية، في أشكالهما بعد الحداثية، أو البنيوية، بشكل مثير ومنتج إلى الحدّ الأقصى. ولكنْ؛ ما لم تترابط تلك اللحظات الحاسمة هيكلياً، وتتحرك، في موضوعها، وتكتمل، في مفاهيمها، وتصبح - بالتالي - منتهكة معرفياً، فسيكون لديهم - حتى يتم ذلك - القليل جداً، أو لا شيء أبداً؛ ليقولوه عن العالم الذي يتكشف أمامنا.

يدّعي جيجك امتلاكه لفانون وحده، من خلال رفضه لميغنولو:

> *دعنا نعود - الآن - إلى ميغنولو، يقترح ميغنولو - بالتالي - نسخة، من صيحة بودريار ... «انس فوكو»... انس أوروبا، فلدينا أشياء أفضل، من التعامل مع الفلسفة الأوروبية، للقيام بها، أشياء أهمّ من التفكيك، إلى ما لا نهاية. إنه يتضمّن التفكيكية، بالتحديد. وهذا سبر نرجسي، لا ينتهي للنفس، [و] ينبغي علينا - ببساطة - الخروج. المفارقة - هنا - أن هذه الصيحة غير صحيحة، بالنسبة لفانون نفسه، الذي تعامل - بشكل مكثّف - [مع الفلسفة الأوروبية]، وكان فخوراً، بذلك. أول إهانة تبدو أمامي، تكمن في مدى جرأته، في اقتباس كلام فانون! فانون بطلي أنا، ولهذا أدافع عنه ضد الرجال الضعفاء مثل هومي بابا، الذي كتب نصوصاً طويلة محاولاً تصفية فانون، وتطبيعه. لا، بالتأكيد، إنه لا يعني القتل والعنف؛ بل كان يقصد تلميحاً سامياً، لا يوجد فيه دم، ولا يتأذّى فيه أحد حقاً، وما إلى ذلك. دعونا نواجه الأمر، تعامل فانون - بشكل مكثّف - مع*

هيغل، مع التحليل النفسي، مع سارتر، ومع لاكان حتى. كانت ردة فعلي الثالثة ستكون: عندما أقرأ سطوراً مثل كتابات ميغنولو، لن أمدّ يدي، إلى البندقية، بل سأستعين، بفانون. (١)

يمكن أن يحتفظ جيجك، بفانون الخاص به، لنفسه، فهناك الكثير من فانون للآخرين. ولكنْ؛ هل هذا فانون نفسه؟ حقاً؟ ما الذي يفترض أن يعنيه هذا؟ هل يعني أننا «معشر الملوّنين» كان لدينا - يوماً ما - فانون، لذا؛ كان من الأفضل لنا الجلوس والتزام الهدوء؟ كان فانون مخطئاً - للغاية - في مقالته «كشف النقاب عن الجزائر»، وتعامى - تماماً - عن طبيعة وظيفة الحجاب، في الآداب الإسلامية. ماذا نفعل الآن، إذاً؟ هل علينا - كمسلمين - أن نغلق أفواهنا، ونعيش سعداء؛ لأن السيد جيجك قد قرأ فانون الخاص به. إنني أتفق مع انتقادات جيجك التي وجّهها إلى بابا، والذي لا أستطيع تحمّله ما بعد حداثيته البرجوازية التي لا طائل منها. ولكنْ؛ لماذا يتصرف الأستاذ جيجك مثل طالب دراسات عليا مبتدئ، يتقيأ هذه الأسماء؟ إذنْ؛ وماذا لو كان فانون قد قرأ هيغل، وتعامل معه؟ يبدو أن العالم، بأسره، قد اجتمع خلف جيجك، باسم فانون؛ حيث كان لنا - كمُستعمَرين - قولنا في هذا الشأن، وهكذا كان من الأفضل لنا أن نسكت، أو - كما قال، بفصاحة أكبر - : «اخرسوا!»

لا تعني هذه النقطة - وبأي حال من الأحوال - ادعاء الحق الحصري، في امتلاك فانون، أو تمجيده (ولا تمجيد أيّ مفكّر غير أوروبي آخر، في هذا الشأن) كتعويذة جامدة للأوروبيين، يستشهدون بها لإثبات أنهم ليسوا عنصريين فلسفياً. والفكرة لا تقوم على رفض أسطورة «الغرب» كمقياس للحقيقة، بل على التغلب عليها، وتجاوزها. يزعم جيجك ما يلي:

أنا رجل، وأمامي ماضي العالم، بأسره، لاستيعابه، ولست مسؤولاً عن العبودية التي نشأت في سانتو

دومينغـو، وحسـب، ولكـنْ؛ في كل مـرة، حـاول فيهـا الإنسـان الانتصـار لكرامـة الـروح، وفي كل مـرة، رفـض فيهـا رجـل محاولـة إخضـاع رفاقـه، شـعرت بالتضامن مع تصرّفـه. ولا ينبغـي أن تكون مهمّتي الأساسـية - بأي شـكل مـن الأشـكال - مسـتمدة مـن مـاضي الشـعوب الملوّنـة. وإنـي لسـت مجـبراً، عـلى تكريـس نفـسي، بـأي طريقـة لإحيـاء حضـارة سـوداء، تـم تجاهلها ظلمـاً. لن أجعـل مـن نفـسي رجـلاً، ينتمـي إلى أي مـاض، كان. إن بشرتـي السـوداء ليسـت مسـتودعاً لقيـم محـددة. أليس أمامـي الكثـير مـن الأشـياء الأفضـل؛ لأقـوم بهـا عوضـاً عـن الانتقـام للسـود، عمـا حصـل معهـم في القـرن السـابع عـشر؟! (٥)

كل هذا جيد ومدهش، بالنسبة لجيجك. ويمكنه أن يدّعي ما يشاء. ولديه كل الحق في ذلك. ولكن الفكرة تكمن في تفرّد هذا العالم، عالمه: إنه يدّعي أنه - كأوروبي - غير مسؤول عن العبودية، وحسب، بل عن محاربة الظلم أيضاً. وهو محقّ في ذلك تماماً. ولكن «الرجل الأسود» الذي دفنه حياً، وأحاله إلى القرن السابع عشر محقّ أيضاً. ويؤكد جيجك - بشكل رؤيوي - على أنه «رجل». ويأمل المرء أنه لا يعني هذا، من الناحية التشريحية فقط. ولكنه ليس الرجل الوحيد، سواء من الناحية الجسدية، أو كنموذج نمطي. «الرجل الأسود» - كما سمّاه - هو رجل أيضاً، رجل مختلف، بجسد، تعرّض للجلد، ونموذج نمطي مرفوض. الشخص الأسود والبني - ذكراً وأنثى - لديه عالمه أيضاً، عالم معاصر، العالم الذي يحتله جيجك.

جيجك محق - تماماً - بأن لديه الحق في هذا العالم الذي يحتله، والذي يترأسه مع أسلافه الفلاسفة. ولكنْ؛ ماذا عن غير الأوروبيين. التعبير الذي تم إطلاقه، بحكم وجود «الأوروبيين»؟. هل يمكن أن يكون لديهم - أيضاً - ممتلكات، في هذا العالم، وأن يقوموا من خلال حركة فلسفية، أو فنية، أو ثورية، تنسب إليهم التراث الاستعماري، وما بعد الاستعماري،

والأوروبي، وغير الأوروبي، وبالتالي؛ تجاوز العالم الذي يدّعيه جيجك لنفسه حصراً، ووضع أنفسهم، في عالم آخر، وفي وجود متفاعل مع العالم اليومي مختلف، يتجاوز خيال جيجك الأوروبي؟ يمكنهم ذلك، بالطبع، ومن دون انتظار الإذن، أو الاعتراف، أو حتى الملاحظة، من جيجك. يمتلك العالم الذي نعيش فيه - كوكب الأرض - العديد من المناطق الجغرافية الخيالية. ويشكل كلٌّ من جيجك وجميع زملائه الأوروبيين إحدى هذه المناطق الجغرافية، وحسب. الفكرة أنهم يتعامون - تماماً - عن الإمكانيات التي تمتلكها هذه المناطق الجغرافية البديلة - التاريخية والمعاصرة، على حد سواء.

ويحقّ لأشخاص آخرين أيضاً - كما هو الحال، بالنسبة لجيجك طبعاً - «استعادة» عالم، يتجاوز خيالهم. جيجك محقّ، في أنه «لا ينبغي أن تكون مهمّتي الأساسية - بأي شكل من الأشكال - مستمدة من ماضي الشعوب الملوّنة». ولكن هؤلاء «الملوّنين» (كما يصنّفهم، وفقاً لصلاحياته) لا يمتلكون ماضياً، وحسب، بل يمتلكون حاضراً ومستقبلاً أيضاً. يتعامى جيجك، عن هذا الحاضر، ما لم يقم بإحالته إلى حاضره هو، ولن يبالي بذلك المستقبل، ما لم يحاول (بشكل متفرّد) تحديده. وجيجك محقّ دون أي قيد، أو شرط، في قوله «*لست مجبراً، على تكريس نفسي، بأيّ طريقة، لإحياء حضارة سوداء، تم تجاهلها ظلماً*». ولكن «الحضارة السوداء» التي تم تجاهلها ظلماً مأهولة، بأشخاص آخرين، بأشخاص آخرين مفكّرين، أشخاص قادرين، على الاحتجاج، وقادرين، على الكلام، والرد، والتحدث - باستمرار - مع جيجك دون الاستماع إلى بعضهم البعض. يمتلك جيجك كل الحق - تماماً - في أن يقول «*لن أجعل من نفسي رجلاً، ينتمي إلى أي ماض، كان*» ولا ينبغي عليه، أو على أي شخص آخر، أن يفعل ذلك. ولكن الملوّنين الذين دفنهم أحياء للتوّ في ماضيهم، يعيشون، ويتنفّسون - أيضاً - في حاضر، يبدو أنه يجهله، بكل سعادة. إنه يهينني - بالطبع - عندما يقول: «*إن بشرتي السوداء ليست مستودعاً،*

لقيـم محددة». ولكن بشرتي أنا كذلك، وأنا مستودع حيّ، ليس «للقيم»، وحسب، بل وللأكوان، والعواطف، والكلمات، والمشاعر، والثورات التي لم يحلم بها بعد، في فلسفته، ولا في فلسفة جميع المدافعين عنه.

يغفل كل من جيجك وزملائه الفلاسفة تلك الجغرافيات؛ لأنهم لا يستطيعون قراءة أيّ سيناريو آخر، أو أيّ خريطة أخرى، سوى النص الاستعماري، والخريطة الاستعمارية التي قرأها الأوروبيون، ونقلوها حول العالم، وبالعكس، لا يستطيعون قراءة أيّ نص آخر، أو خريطة؛ لأنهم يتعامون عن مناطق جغرافية بديلة مقاومة لذلك الاستعمار، وما كتبه، وما نشره. وتتفاقم الحالة عندما ينهض أيّ شعب في جميع أنحاء العالم، للتأكيد، على أن منطقته الجغرافية تمثّل نقطة الانطلاق لحدث عالمي تاريخي. إن كل ما يحاوله جيجك وأتباعه - في هذه الأوقات - هو إحالة العالم - مرة أخرى - إلى ما يعرفونه، بالفعل. هناك حالة جديدة تتجاوز حقبة ما بعد الاستعمار، لا يستطيع هؤلاء الأوروبيون قراءتها، على قدر محاولاتهم المستميتة لإحالتها - مرة أخرى - إلى الحالة الاستعمارية. لا تقوم المهمة، على مجرد نقد الاستشراق الجديد، وحسب، والذي يتوافق - دائماً - مع المصالح السياسية الآنية وقصيرة النظر، بل على تجاوز «أوروبا» كفكرة، وجعلها تتعامل مع نفسها، كواحدة من بين المجازات العديدة المستنفدة الأخرى، لا أكثر أو أقل قوة، أو أصالة، أو جدارة، بالثقة. كانت أوروبا «اختراع العالم الثالث»، كما أدرك فانون تماماً، سواء فيما يتعلق بالجوانب المادية، أو المعيارية، لهذا المصطلح.

لقد جادلت - بالفعل - في أننا بحاجة، إلى تغيير المُحاوِر، إلى مُحاوِر، نناقش معه شروط عوالمنا الناشئة. لم يعد ينبغي علينا مخاطبة مُحاوِر ميت بعد اليوم. أوروبا ميتة.

يحيا الأوروبيون. لقد مات الإسلام الذي كانوا قد اخترعوه، في استشراقهم. يحيا المسلمون. المشرق الذي اخترعوه، والعالم الثالث

الذي صنعوه؛ ليحكموه، ويشوّهوا سمعته اختفى اليوم. فقط، في حال بدأ أولئك الذين لا يزالون يعدّون أنفسهم مَشرقيين، في إنهاء استعمار عقولهم أيضاً.

الفلاسفة الأوروبيون الشباب مثل زابالا وماردر، الذين يعتقدون أن الأوروبيين يملكون عالم الأفكار، ويزعمون امتلاكهم سلطة أسلافهم، كما لو كان أيّ شيء، يقوله أيّ شخص، في أيّ مكان، لا بد أن يدور عنهم، وحسب. لقد بدأ التاريخ - من جديد - على مستوى العالم - من الحركة الخضراء، في إيران، إلى الربيع العربي، إلى الاحتجاجات الإسبانية، في أوروبا، وحركة «احتلّوا وول ستريت»، في الولايات المتحدة، إلى الاحتجاجات واسعة النطاق، في البرازيل. وستشكّل هذه الانتفاضات أنظمَتَها المعرفية الخاصة، دون صرف النظر، عن القوى الرجعية والمعادية للثورة التي أطلقت ضدهم، بل بسبب هذه القوى، على وجه التحديد. والمبدأ الأول الذي تم نسفه إلى العدم هو أنثروبولوجيا تلك الثورات. وهذه هي فكرة «أوروبا» الحالية التي تُعدّ - اليوم - نافلة، ومشكوكاً فيها. قد يدخل الأوروبيون - كشعوب أيضاً - التاريخ مرة أخرى، إذا ما حرّرهم الفلاسفة الأوروبيون المسنّون والشباب، من قبضتهم، وسمحوا لهم بأن يحقّقوا ذواتهم، وإذا تعلّموا منهم كلمات جديدة. طارد الفلاسفة الأوروبيون ذيولَهم بدءاً من الحداثة، إلى ما بعد الحداثة، من البنيوية، إلى ما بعد البنيوية، من البنائية، إلى التفكيكية. وما كان يسمّى «حقبة ما بعد الاستعمار» - في حدّ ذاتها - كانت نتاجاً، للخيال الاستعماري الأوروبي الذي عاث فساداً، في هذه الأرض، ثم جنحت سفينته. لم نعد مخلوقات ما بعد استعمارية بعد اليوم.

المرحلة الاستعمارية التي ولدتنا فكرياً - بدءاً من سيزير مروراً بفانون، وحتى سعيد - أخذت مجراها. لم يعد هذا النظام المعرفي ينتج أيّ معرفة ذات مغزى. إننا أحرار، ولكنْ؛ لسنا، بلا هدف. متحرّرون، ولكنْ؛ لسنا، بلا جدوى. لم تعد كلمة «نحن» تعني الشعوب المجتمعة في

جنوب العالم، بالنسبة للبعض منا، فقد هاجروا إلى شمال العالم مطاردين رؤوس الأموال بحثاً عن فرص عمل، وذهبت رؤوس الأموال - بالتأكيد - عبر الحدود؛ لتطارد عمالتنا الرخيصة، في جنوب العالم. ولذلك لم تعد كلمة نحن» هذه متعلّقة، باللون، أو بالقارة، بل تشمل جميع أولئك المحرومين من العملية العالمية لرأس المال سواء في شمال كوكب الأرض، أو في جنوبه، أو في عمق الفضاء الإلكتروني، أو الفضاء الخارجي، وأولئك الذين أثروا، من خلال الامتيازات التي تقدّمها هذه العملية نفسها. أصبح رأس المال المعولم هذا - في حداثته الأصلية - «أوروبياً»، بشكلٍ أسطوري. ولكنه لم يعد كذلك، فقد تحرّر، من النزعة الأوروبية، وتحرّر، من تعاويذها النافذة. إن أصحاب المشاريع الأغنياء، من العرب، أو الهنود، أو الروس، أو الصينيين، أو الأفارقة، أو هؤلاء، من أمريكا اللاتينية، ودول المافيا، والدول العميقة، والدول العسكرية، وأمراء الحرب الإسرائيليين، وقتلة «الدولة الإسلامية في العراق والشام» المرتزقة جميعهم جزء، لا يُجتزأ، من الواقع الدنيوي الذي تخلى - للأبد - عن أسطورة «الغرب».

الاستشراق آنذاك واليوم

ما هو الشكل الذي تجاوزنا فيه أسلافنا حقاً، من خلال الحقبة الاستعمارية، وما بعد الاستعمارية، والحداثة، وما بعد الحداثة؟ أين قمنا - بالضبط - بالبدء، بالتفكير؟ وما هي الأرضية المستوية التي نقف عليها ميغنولو، ونيغام، وأنا، والتي يمكنني فيها دعوة جيجك، وزابالا، وماردر، بأن يتكرموا، بالتخلي، عن محاذيرهم، والانضمام إلينا؛ لنفكر، ونلهو معاً؟

نقدتُ في مقالة كتبتها لموقع الجزيرة في يوليو ٢٠١٢، نيكولاس كريستوف كاتب العمود في صحيفة نيويورك تايمز، من أجل سلسلة من المقالات التي تعاني من كثرة الكليشيهات (الأفكار النمطية) التي كتبها عن إيران بعد زيارة سريعة إلى هناك[٦]. وسرعان ما ظهرت مقالة في صحيفة جيروزاليم بوست تتّهمني بإساءة استخدام مصطلح «الاستشراق»،

واستعماله للاستقواء، على السيد كريستوف[٧]. يؤكد كاتب تلك المقالة، سيث جيه. فرانتزمان، أن «مصطلح «الاستشراق»، أو بشكل أكثر تحديداً، الاتهام القائل بأن شخصاً ما «مستشرق»، يجب استئصاله من الخطاب، مضيفاً أن هذا المصطلح أصبح «لا معنى له تطبيقياً». يعتقد فرانتزمان أننا بانتقادنا للكليشيهات الاستشراقية، نقوم - في الحقيقة - بتضليل العالم: *«إنها محاولة لجعل العالم جاهلاً؛ بحيث يمكن للباحث الإيراني - فقط - أن يخبر الآخرين عن إيران، ولمسؤول الحزب الشيوعي الصيني - فقط - أن يتحدث عن الصين للغرباء. وعلينا - كما هو مفترض - الاعتماد على إسلامي مالي؛ ليشرحوا لنا لماذا يقومون بتدمير «الأصنام الكاذبة» الموجودة في المقابر الصوفية، في تمبكتو»*، وبالتالي؛ فقد ساوى - بكل فعالية، ودون أي مهارة - بين «الباحث الإيراني» والشيوعي الصيني وإسلامي مالي الإرهابيين (هل تتوافق هذه المعادلة مع قاتل جماعي بعينه، في النرويج؟).

يمكن للمرء - بالطبع - اختبار المتعة العابرة، بوضعه على القائمة السوداء الصهيونية، كما حدث معي قبل أن يعرف ذلك الشخص في جيروزاليم بوست اسمي، من كتاب صديقه الصدوق ديفيد هورويتز بعنوان «١٠١ من أكثر الأكاديميين خطورة في أمريكا»[٨]. ولكنْ؛ فيما يخص هذا «الباحث الإيراني» (بعدما جرّدني كاتب العمود في جيروزاليم بوست من الجنسية الأمريكية - تماماً - بضغطة، على لوحة المفاتيح، فمن الواضح، للغاية، أن شخصاً، يحمل اسم «حميد دباشي» لا يمكن أن يكون أميركياً، في حين أن سيث جيه. فرانتزمان يمكنه أن يكون - في الوقت نفسه - مواطناً «أمريكياً» ومستوطناً «إسرائيلياً» مُستعمِراً، وهذا الافتراض العنصري لا يمكن - بالطبع - أن ندْعوه «استشراقاً»)، وفي المقالة نفسها التي انتقدتُ فيها نيكولاس كريستوف، أشدتُ - أيضاً - بزميله روجر كوهين مراسل نيويورك تايمز، من إيران.

لذلك من الواضح - تماماً - أنه ليس من شأني إسكات أيِّ شخص كان، بمَنْ في ذلك غير الإيرانيين، ومنعه، من قول أيِّ شيء (معقول، أو تافه) حول إيران، أو أيِّ مكان آخر.

ومع ذلك، وعلى الرغم من نبرتها غير الناضجة ومنطقها المعيب، فإن مقالة سيث جي فرانتزمان تتضمّن - في الواقع - فكرة مشروعة، وهي إساءة الاستخدام المنتشرة لمصطلح «الاستشراق»، في الكتابات الصحفية، على الرغم من أن مقالته - ويا للسخرية - ملائمة - تماماً - لوضعها ضمن نطاق مثل هذه الانتهاكات التي يقوم بها الهواة.

رافق إدوارد سعيد الكثير من الاستياء إلى يوم وفاته؛ حيث لم يكن لكتابه ومفهومه عن «الاستشراق» تأثير كبير، وحسب، كما يستحقّان، بل حظيا - أيضاً - بإساءة استخدام كبيرة، وعلى نطاق واسع أيضاً. ويستمر هذا الاعتداء على قدم وساق حتى اليوم. لم يتوقف سعيد عن بذل قصارى جهده، في تصحيح هذه القراءات الخاطئة لفكرته الرائدة. ولكن هذه الإساءة اتخذت - في نهاية المطاف - شكل عبارة مجازية موثّنة. هناك الكثير من الناس الذين يعتقدون اليوم أن مصطلح «الربيع العربي»، من اختراع المستشرقين، متغافلين - بكل وضوح - عن حقيقة أن مصطلح «ربيع الشعوب» استُخدم - أيضاً - في الثورات الأوروبية عام ١٨٤٨. يكفي تعليق واحد عن التحركات السلمية اللاعنفية للربيع العربي، في بداية انطلاقه، لإثارة الاتهامات، بالاستشراق، أو بما هو أسوأ من ذلك «الاستشراق الذاتي». وبالفعل، صدّق، أو لا تصدّق، هناك مدوّنون يعدّون أيّ مقارنة بين الثورتين الإيرانية والمصرية لا تعدو كونها حالة من حالات الاستشراق!

تكمن جذور المشكلة في حقيقة أن استشراق إدوارد سعيد (١٩٧٨) قد أصبح يشبه العمل «الكلاسيكي»: الكتاب الذي يستشهد به الجميع، ولكنْ؛ نادراً ما يطّلع عليه أحد حقاً. ولكن مجرد إساءة استخدام مصطلح «الاستشراق» منهجياً من قبل بعض المنتقدين والمعجبين، على حد سواء، أو تحوّله، إلى مصطلح، يستخدمه الناس، للإساءة، إلى أي شخص، أو

أي شيء، لا يحبونه، لا يعني - أبداً - أنه يجب تجنّب أحد أقوى المفاهيم التحليلية، في القرن الماضي، أو تجاهله، أو «اجتثاثه، من الخطاب» في الحقيقة، كما يعلمنا كاتب العمود في جيروزاليم بوست أن نفعل. بل على العكس تماماً، يحتاج المصطلح - أمام مثل هواة الإساءة هؤلاء - إلى إعادة صياغة متواصلة، على المستوى النظري. لا يمنع التنظير المستمر - بالطبع - من إساءة استخدام المصطلح، بطريقة، أو بأخرى، ولكنه قد يساعد البقية منا على تجنّب الارتباك الذي لابد، وأن تؤدي إليه محاولات إساءة الاستخدام، بهذا الشكل.

وخلافاً لارتباك السيد فرانتزمان وآخرين كثيرين - «مستشرقين» وغير «مستشرقين» على حد سواء - فقد كان نقد الاستشراق نقداً لطريقة إنتاج المعرفة، ولم يكن - بكل تأكيد - انتقاداً لأيّ جنس، أو شعب، أو ثقافة. كان نمط إنتاج المعرفة الذي يُدعى «الاستشراق» متناسباً مع المشروع الإمبريالي الأوروبي. الحقيقة الحسنة القائلة إن العلماء الذين يتراوحون بين عبد الرحمن الجبرتي و«في. جي. كيرنان»، و«برنارد اس. كوهين»، وأنور عبد الملك، وطلال أسد، قد تناولوا العلاقة بين الإمبراطورية وإنتاج المعرفة قبل إدوارد سعيد (أو حتى قبل ميشيل فوكو) تدل على أن هذا النقد كان له تاريخ معرفي أعمق، بكثير، يجهله - تماماً - على ما يبدو أولئك الذي يسيؤون استخدام المصطلح، وأولئك الذين يغضبون، من استخدامه، على حد سواء. يمكن تتبّع ذلك التاريخ - بشكل مستقل تماماً - عن مسار سعيد/ فوكو، كما بيّنتُ في كتابي «ما بعد الاستشراق: المعرفة والسلطة في زمن الخوف» (٢٠٠٨)، إلى تقليد واسع ومتنوع، في علم اجتماع المعرفة، الذي يتضمّن أصله كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣)، وماكس شيلر (١٨٧٤-١٩٢٨)، وجورج هربرت ميد (١٨٦٣-١٩٣١). هناك ما هو أكثر فيما يتعلق «بالاستشراق» - وفيما يتعلق بالعلاقة العضوية بين المعرفة والسلطة - مما يمكن أن تتصوّره صحيفة نيويورك تايمز، أو صحفي، في جيروزاليم بوست.

إذا كان لنا أن نفكّك مصطلح «الاستشراق»، واضعين نصب أعيننا تفكيك سعيد له، في دراسته الكلاسيكية، يغدو التطور التاريخي للتعايش بين المعرفة والسلطة واضحاً. تساعد هذه القراءة على توفير نظرة ثاقبة، على النظام الجديد للمعرفة، والذي كنت أكتب عنه منذ ظهور الثورات العربية في عام ٢٠١٠ - الفرضية التي قد تمكّن الأوروبيين وغير الأوروبيين - على حد سواء - من التحرّك في المجال نفسه - في محاولة التغلب على الحالة الاستعمارية التي جعلت أحدهما غير قادر على التفكير، وجعلت الآخر غير قادر على قراءة مصطلحات عالم ناشئ.

المعرفة والسلطة

إذاً؛ أين نجتمع معاً لنفكر في تعاملنا مع شؤون الواقع اليومي الهش، حتى يتم - أخيراً - تجريد «الأوروبي»، من صفاته الأسطورية، ومن بقايا الغطرسة الاستعمارية والإمبريالية، وحتى عندما يتفلسف أحدهم معي (أنا المسلم، أو الشرقي، أو المفكّر من العالم الثالث، أو أيّ مصطلح آخر، يُستخدم في تحديدي، والتنفير مني) لا يصبح الأمر بمثابة إرسال أوباما، أو هيلاري كلينتون، أو حلف شمال الأطلسي طائرات، بدون طيار على طالبان البدائية؟ لقد طال انتظار خروج الأوروبيين من يقين تفلسفهم الذاتي الأسطوري، وإعادة الدخول في التاريخ. ينبغي عليهم أن يترجّلوا عن خيولهم العالية وعربات الهمفي الضخمة، والتوقف - لطفاً - عن فلسفتي، والنظر بدلاً من ذلك - رجاء - في التفلسف معي، وفي اللحظة التي يترجّلون فيها، سوف يرونني، ووالتر ميغنولو، وأديتيا نيغام، في انتظارهم، واضعين أجهزة الكمبيوتر المحمولة الخاصة بنا، على أهبة الاستعداد.

ولكنْ؛ أين سيكون موقع هذا الموعد التاريخي، بالضبط؟ دعونا ننعطف قليلاً في هذا الاتجاه.

أصبح «الاستشراق» - اليوم - مجموعة من الكليشيهات، أو الأفكار النمطية الصحفية. وتكمن المشكلة مع الاستخدامات والانتهاكات الصحفية، في أن

الكتّاب يميلون إلى توثين المصطلح دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء معرفته، وشرحه، ونقل ما يعنيه، وكيف يمكن له - كمفهوم - أن يتطور، وأن يحظى، بحياة عضوية. أجادل - في نهاية كتابي «ما بعد الاستشراق» (الكتاب الذي لم تلحظ صحيفة جيروزاليم بوست وجوده بعد) - أن طريقة عمل إنتاج المعرفة التي نصنّفها باسم «الاستشراق»، والتي كانت موضع النقد الرزين لإدوارد سعيد، قد تفكّكت الآن، ووصلت إلى مرحلة الانحلالية التي عرفتها، باسم «التناضح الداخلي»، أو المعرفة التي تُستخدم لمرة واحدة - المعرفة لم تعد تستند على أيّ نظام معرفي متين. ويستند هذا الاقتراح على تأريخ نشط «للاستشراق» يتجاوز التنظير الفوري لإدوارد سعيد، الذي كان - في المقام الأول - وجهة نظر نقدية أدبية حول أزمة التمثيل، كجزء، لا يُجتزأ، من العلاقة ما بين المعرفة والسلطة.

أحاول أن أبرهن أن الاستشراق - كوسيلة لإنتاج المعرفة - ليس أمراً واقعاً، وليس مشروعاً مغلقاً، ومكتملاً. كان الاستشراق نتاجاً للحظة معينة، في تاريخ الاستعمار الأوروبي، وإنه - كنتيجة لذلك - يتغيّر ويتداعى مع مصير الإمبريالية. وهكذا سعيت لصياغة لاستشراق مختلف من الناحية التاريخية. عرّفت الوضع الحالي، ما بعد ١١ سبتمبر، على أنه وضع غير منتظم، للإنتاج المعرفي، أو حالة من حالات التناضح الداخلي المعرفي، لم يعد فيها التشكيل العدواني لأحد حقول المعرفة العامة عن المسلمين، يفضي إلى التشكيل المعاكس لذات، تتمتّع بالسيادة (أوروبية أو أمريكية)، وذات عارفة، بكل شيء (كانطية).

أرى أن تحوّلَ الاستشراق الكلاسيكي إلى دراسات المناطق، ومنها إلى المعرفة التي تُستعمل، لمرة واحدة المنتجة، بواسطة مراكز البحوث الأمريكية والأوروبية، جاء بالتزامن مع صعود إمبراطورية دون هيمنة. هذا التناضح الداخلي المعرفي، أو المعرفة ذات الشأن الناتجة من مراكز البحوث التي تتسرّب إلى المجال العام، يفضي - كما أزعم - إلى الأوضاع المتنوعة لإنتاج المعرفة القابلة للاستخدام، لمرة واحدة، وغير المبنية على أي معرفة دائمة،

أو متماسكة، ولكنها - في واقع الأمر - على غرار السلع الاستهلاكية التي توفّر المتعة اللحظية، ثم يتم التخلص منها بعد استخدامها، لمرة واحدة فقط.

إنها «المعرفة السريعة» التي يتم إنتاجها، على غرار «الوجبات السريعة»، مع أكواب بلاستيكية، وسكاكين بلاستيكية، وشوكات بلاستيكية، وفائدة غذائية سيئة، وإشباع كاذب. تغزو الولايات المتحدة أفغانستان، وتُنتج مراكز البحوث هذه المعرفة التي تفضي إلى هذا المشروع؛ ثم تقود الولايات المتحدة غزواً آخر، على العراق، وتبدأ هذه المراكز البحثية، بإنتاج المعرفة حول العراق، مع اتصال ضئيل، أو معدوم، مع ما تم قوله عن أفغانستان، أو ما يمكن أن تقوله عن إيران. هناك اتساق معرفي ضئيل، أو منعدم، حتى بين الثلاثة - لهذه الأشكال من المعرفة التي يتم إنتاجها، بالإكراه (في وقتٍ ضيق)، ويمكن التخلص منها تماماً؛ حيث ترميها بعد استخدامها، لمرة واحدة.

أناقش في كتابي «ما بعد الاستشراق» فكرة أن مراكز البحوث اليمينية - اليوم - مثل معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى الصهيوني (WINEP)، أو معهد هوفر التابع للمحافظين الجدد، باعتبارها انعكاساً مؤسّسياً لهذا التحوّل، قد حلّت - إلى حد كبير - محلَّ الجامعات، كمؤسّسات أساسية لهذه الأنماط، من إنتاج المعرفة التي تعمل تحت الخدمة الفورية للإمبراطورية. تقوم هاتان المؤسّستان اللتان تشكّلان نماذج مثالية عن بقية المؤسسات، بتوظيف مخبرين محلّيين، بدون أية مؤهلات أكاديمية، أو علمية، لمجرد كونهم متوافقين فكرياً مع أجندتها. قدم لويس لافام - في مقاله الرائع «مجسّات الغضب: طاحونة الدعاية الجمهورية، تاريخ موجز»[٩] - خريطة تفصيلية لهذه المؤسسات، المرتبطة مع شبكة من أصحاب الملايين الأمريكيين والمؤسسات اليمينية، والذين دعموها - بقوة - منذ حركة الحقوق المدنية والحركة المناهضة للحرب في الستينيات.

كان تقييمي لذلك التحلّل الذاتي للاستشراق، وسيظل قائماً، على افتراض أنه في هذه المرحلة الأخيرة (أو على الأقل، المرحلة الأحدث)

من مراحل الرأسمالية - مع ندرة الموارد، ومع العسكرة الأكثر عدوانية من الهيمنة الإمبريالية - فإننا لم نعد - بعد الآن - شهوداً على التشكيلات التأديبية المستمرة للاستشراق، في المرحلة التي أحسن إدوارد سعيد تشخيصها. وبالتالي؛ لم يعد يظهر في الأفق أيّ مستشرق رئيسي وفقاً للنموذج الذي نعرفه، من القرن التاسع عشر، إذا قارنّا الدراسات الأكاديمية الرائعة لشخص مثل إغناتس غولدتسهير (١٨٥٠-١٩٢١) - على سبيل المثال - مع آلة النسخ الدعائية المتكدّسة، في الصحف، والمعروفة، باسم برنارد لويس (مواليد ١٩١٦). (كانت إحدى المهام الرئيسية التي اضطلعت بها في كتاب «ما بعد الاستشراق» إنقاذ وتبرئة إغناتس غولدتسهير، من الكثير من الإساءة التي طالته من قِبل كتّاب سيرته الصهيونيين ومهاجميه المسلمين).

كانت فكرتي - بخصوص هذا الاقتراح - تستند - كلياً - على آخر الكلمات الرؤيوية لماكس فيبر، في كتابه «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» (١٩٠٥)، فيقول فيبر: *«إحدى العناصر الأساسية للروح الرأسمالية الحديثة، وليس للرأسمالية الحديثة، وحسب، بل للثقافة الحديثة، بأكملها: وُلد السلوك العقلاني، على أساس فكرة الدعوة ... من روح الزهد المسيحي»*. كانت هذه الرؤية الفريدة لفيبر للحداثة الرأسمالية تقوده إلى الاستبصار الرائع الذي يقول *«أراد البيوريتانيون العمل في إطار دعوة، فكنا مضطرّين، للقيام، بذلك»*. ويُستنتج من هذا أنه:

> *«منذ قام الزهد لإعادة تشكيل العالم والعمل وفقاً لُمُثُله فيه، اكتسبت السلع المادية - أخيراً، وبشكل متزايد - قوة، لا ترحم، على حياة الإنسان، كما لم تكن؛ في أي فترة سابقة، في التاريخ. لقد هربت اليوم ... روح الزهد الديني، من القفص. ولكن الرأسمالية المنتصرة، التي ترتكز على الأسس الميكانيكية، لم تعد بحاجة إلى دعمها بعد الآن»*(١٠).

أما بالنسبة للتنوير، لجأ فيبر إلى روح الدعابة الرائعة التي يتصف بها، في بعض الأحيان: «*كما يبدو أن احمرار وجه الوريث، التنوير، خجلاً يتلاشى إلى غير رجعة، وتطوف فكرة الواجب، في دعوة المرء خلسةً إلى حياتنا مثل شبح المعتقدات الدينية الميتة*»(١١). يغدو - عندها - التشخيص الثاقب لتلك الدوامة التنكّسية الفرضية التي يبني عليها فيبر حكمه الثاقب، بشأن مصير إنسانيتنا، ككل، وبشأن روح الرأسمالية، على وجه الخصوص:

> *لا أحد يعرف مَن الذي سيعيش، في هذا القفص، في المستقبل، أو لعله سيأتي أنبياء جدد - تماماً - في نهاية هذا التطور الهائل، أو إذا كانت ستبعث الأفكار والمثل العليا القديمة، أو إذا لم يحدث هذا، فسيسود التحجّر الآلي، الموشّى بنوع من الإحساس المتشنّج، بأهمية الذات، وتقديسها. ويمكننا أن نقول - بحق عن هذه المرحلة الأخيرة لهذا التطور الحضاري - : «متخصصون، بلا روح، شهوانيون دون قلب؛ حيث يتصور هذا العدم أنه قد بلغ مستوى من الحضارة، لم يصل إليه أحد، من قبل»*(١٢).

تطلب وجود الاستشراق، في تلك العهود التي تتوافق مع تلك الروح الناشئة للرأسمالية والإمبريالية المفترسة - في نهاية المطاف - التحوّل الذي طرأ على برنارد لويس الذي أصبح ماكينة للدعاية، تتوافق مع ذلك الفراغ الذي حدّد فيبر، وصنّف ميزاته الأساسية، بكل جدارة. ولكنْ؛ في الوقت الذي ينبغي علينا الجزم بأن برنارد لويس كان المثال المتميّز لما قيل عنهم: *متخصصون، بلا روح، شهوانيون دون قلب؛ حيث يتصور هذا العدم أنه قد بلغ مستوى من الحضارة، لم يصل إليه أحد، من قبل*. أدعو قرائي لإلقاء نظرة، على نيكولاس كريستوف (وعلى سيث جيه. فرانتزمان)، في تلك الصفحات الثمينة لصحيفة جيروزاليم بوست التي يسمّونها «صفحات التاريخ»؛ حيث يتابع ذلك «الفراغ» الفيبري انحلاله.

لا ينبغي - فيما ما هو أبعد من حدود هؤلاء الصحافيين الهواة - توجيه نقد آثار الاستشراق في المجال العام ضد سياسة التمثيل بعد اليوم، بل في الاتجاه المعاكس ضد أزمة الأيديولوجية، والشرعية، والهيمنة التي تواجهها تلك المرحلة، من الإمبريالية المعولمة. يُعدّ هذا النقد ضرورياً؛ لأننا، في العالم الإسلامي - على وجه الخصوص - على أعتاب جغرافية التحرّر الجديدة (التي نوقشت - بالتفصيل - في كتاب «الربيع العربي: نهاية ما بعد الاستعمار»[١٣])، والانتفاضات الديمقراطية التي نشهدها، بحاجة إلى استعارات جديدة، وتحوّل جذري لنظام المعرفة الذي يُعدّ جزءاً، لا يُجتزأ، من شعار ميدان التحرير «الشعب يريد إسقاط النظام».

في غياب إعادة التشكيل الجذرية تلك للنظام المعرفي الذي نقرؤه، في الثورات العربية والإسلامية، فإننا تحت رحمة برنارد لويس المفضّل لدى صحيفة جيروزاليم بوست، والذي يعتمد مفرداته المفضلة، في قراءته لهذه الثورات، من خلال مفهومه العارض والعجوز، للجنس وبيوت الدعارة. قال لويس مرة لأحد زملاء سيث جيه. فرانتزمان، في صحيفة جيروزاليم بوست خلال شرحه للثورات العربية «*لديك هذه الأعداد الهائلة من الشباب الذين يترعرعون دون وجود المال، للذهاب لبيوت البغاء، أو لدفع المهور، مع الرغبة الجنسية المستعرة. فمن جهة، يمكن أن تؤدي إلى الانتحاري الذي تجذبه عذارى الجنة - الفتيات الوحيدات المتاحات أمامه. ومن جهة أخرى، الإحباط المحض*»[١٤]. وهذه هي الوسيلة المفضّلة لدى فرانتزمان، في فهم الأحداث التاريخية العالمية التي نشهدها. إن أيّ نقد يوجّه إلى هذه الرطانة المنبثقة عن الخيال المتعب، والتي من الواضح أنها لا تزال حية، في ذهن المستشرق العجوز سوف تزعجه.

وهكذا رُسمت خطوط المعركة - كما هي، في شوارع وساحات فضاءاتنا العامة لدينا - على أنها تدور حول نظام المعرفة الجديد الذي نحتاجه حتى نتمكن من فهم وتغيير عالمنا الناشئ. إننا بحاجة - في هذا الاتجاه

- إلى مسح الموروثات المتبقّية، من استشراق الطراز القديم وتحوّلاتها المتنوعة، عن طاولة البحث، وفضح الأمية النظرية لأولئك المهووسين بهذا المصطلح، والمستمرين في إساءة استخدامه، والسماح للحقائق الخارجة من المجال العام، بتحديد النظام الجديد للمعرفة التي من شأنها أن تتعاطى مع إرادتنا لمقاومة السلطة، وتساعد في تغييرها، إلى حجة مؤسّسية، على هذا الفضاء.

إن جويل بينين محقّ في ملاحظته، في هذا المجال، في أننا نحتاج - في أعقاب الانتخابات الرئاسية المصرية - إلى لغة سياسية جديدة[١٥]. ولكن تلك اللغة ستظهر وفقاً لتحالفات سياسية جديدة، وأيضاً من خلال إطار من المراجع المعرفية أكبر بكثير من الإطار الذي نتجت عنه هذه الثورات، كما يقترح بينين عن جدارة. ويُعدّ اقتراح شيموس ميلن بنفس الأهمية والبصيرة الثاقبة عندما يقول إنه: «*سيتمّ الحفاظ على ثورة مصر - فقط - في حال انتشارها*»[١٦]. ولكن عملية الانتشار هذه تحتاج - أيضاً - إلى: «لغة سياسية جديدة»، والتي يدعو إليها بينين اليوم، قبل أن يتصل سيث جيه. فرانتزمان بمسؤولي الأمن القومي؛ ليجردنا جميعاً من الجنسية، ويرسلنا إلى خليج غوانتانامو!

السلطة هي السلطة

أخذت هذا الانعطاف من نقد ما بعد/الاستشراق؛ لأن هذا - بالضبط - المنظور الوهمي الذي يفصلني، ووالتر ميغنولو، وأديتيا نيغام، عن جيجك، وزابالا، وماردر. بدلاً من الشكل المعتاد الذي نتحدث إليهم، من خلاله اليوم، كما يتحدثون إلى أنفسهم، فإننا بحاجة إلى تغيير هندسة هذا الحوار تماماً، ومخاطبة المُحاوِر الوحيد الذي تبقّى لنا جميعاً: العالم الممزّق الذي يدمّر ذاته. يمكن للفلاسفة الأوروبيين التغلّب على ما يعدّونه «أزمة الذات»، من خلال تجنّب طريق كانط المسدود الذي يعرف الذات العارفة، بالذات الأوروبية العارفة، ويصفنا نحن - بقية العالم

- موضوعاً للمعرفة. إننا لم نعد (هذا إذا كنا كذلك سابقاً) موضوعاً للمعرفة، بالنسبة لتلك الذات الأوروبية العارفة. لأننا لم نعد موجودين، كما يفهموننا، من خلال عمليتهم القائمة، على الخضوع للذات المركزية. لذلك فقد توقّفوا عن الحياة، كذات عارفة لنا، أو لأي شيء آخر. إنهم لا يعرفون، ولن يستطيعوا أن يعرفوا بعد الآن. لا يمكن لتلك الذات الأوروبية العارفة، لدرجة تجعلها مسجونة ضمن الثوابت الميتة، لكونها «أوروبية» - وهي، كما قال فانون من «اختراع العالم الثالث» - أن تمتلك أدنى فكرة حول ما نحن عليه، وعما هم عليه. ينبغي علينا تفكيك الحقيقة القائلة إن كلاً منا يشكّل جزءاً، من نسج خيال. لقد أودعنا اليوم كلاً من كيرتز من رواية «قلب الظلام» و«مصطفى سعيد» بطل رواية «موسم الهجرة إلى الشمال»، في مزبلة التاريخ.

ولذلك فإننا نلتقي معاً - اليوم - في تجمع جديد من المعرفة والقوة، ليس للنحيب، بل لنفكّ هذا الارتباط. الإرادة هنا لا تسعى للسلطة، بل لمقاومة السلطة. بمجرد افتراض الجدلية السلبية (لأدورنو)، فسوف نرى عوالم بديلة تظهر فيما وراء «الغرب وبقية العالم». تلك العوالم موجودة، وتمتلك إمكانيات مختلفة هنا والآن، ولا تقع، في الماضي، في القرن السابع عشر. كما أن كل تلك العوالم على وشك أن تندرج - أيضاً - في قطبي الفضاء الإلكتروني والفضاء الخارجي الذي يربط الجغرافيا السياسية التي تحكم حياتنا بالفضاء، والسياسة الفضائية التي تقزّم ذواتنا الجسدية، في اللحظة نفسها، عندما يذهب كل الأغنياء إلى الجنة، للعيش على القمر الصناعي، ويتركوننا، نحن المعذّبين في الأرض، على كوكب الأرض[١٧]. أتمنى أن أعلمهم من هذا الموقع أحمد شاملو، وناظم حكمت، ومحمود درويش، وفايز أحمد فايز، امتناناً مني، لما تعلمته من هايدغر، ودريدا، وباديو، ورانسييه. وأود أن أدعو الفلاسفة الأوروبيين لقراءة هؤلاء الشعراء، ليس من خلال العدسات الغرائبية للاستشراق، أو دراسات المناطق، ولكنْ؛ من خلال وجهة النظر الحميمة والدقيقة نفسها التي يقاربون بها

فلاسفتهم. وهكذا أتمنى منهم الانضمام إليّ في هدم تلك الثنائية بين الفلسفة والشعر، والوقوف بجانبي، وأنا أبيّن لهم الفلسفة الشعرية لشعرائنا، وأشرح لهم كيفية إعادة قراءة الشعر الفلسفي، من نيتشه إلى بلانشو. فإذا قرؤوا شاملو، سيتمكنون من فهم كلام هايدغر عن ريلكه، بشكل أفضل، وإذا تعرفوا على درويش، سيفهمون لانغستون هيوز وجيمس بالدوين وسي. ال. آر. جيمس، بشكلٍ مختلفٍ تماماً.

وليس هذا مجرد عالم، من نسج خيالي، بل إنه عالم واقعي. فقد أنشأ استنزاف أسطورة «الغرب» تحالفات جديدة - هنا - على الأرض. يفكّر الصهاينة في إسرائيل، ويتصرفون - بالضبط - مثل الإسلاميين، في إيران؛ حيث انتقل جيل جديد من المثقّفين الكمبرادوريين إلى أوروبا وأمريكا الشمالية، وتعاونوا مع أفواج المحافظين الجدد لدمج أوطانهم، في مستنقع النيوليبرالية المعولمة. أيان حيرسي علي وفؤاد عجمي من المسلمين الذين سأهرب من صحبتهم، بكل سعادة، إلى صحبة كل من جورجيو أغامبين، وآلان باديو، ودانيال بن سعيد، وويندي براون، وجان لوك نانسي، أو جاك رانسييه، في أي يوم من أيام الأسبوع، بل أهرب عنهم بعيداً، في نهاية الأسبوع. وعلى الجانب من هذا التقسيم، نجد أولئك الذين يسيؤون استخدام تهمة «الاستشراق»، من موقع القوة.

لا يتوقّف موضوع الغضب من مصطلح «الاستشراق» على مجرد كاتب العمود هذا في جيروزاليم بوست. فلقد تمت إساءة استخدام المصطلح - أيضاً - من قبل كبير موظفي الدعاية الرئيسيين للجمهورية الإسلامية، كتكتيك تخويفي، لإسكات نظرائهم[١٨]. يُعدّ محمد ماراندي نظير سيث جيه. فرانتزمان في إيران. السمة المشتركة بين كل من هاتين القوتين الممثلتين بفرانتزمان (الصهيوني) وماراندي (الإسلامي) هي تلك النظرة الثاقبة لحجة سعيد في «الاستشراق»، وهي العلاقة بين المعرفة والسلطة. يكره الممسكون بزمام السلطة في إسرائيل مصطلح «الاستشراق»، بالدرجة نفسها التي يحبّه بها القابضون على السلطة، في الجمهورية الإسلامية،

ويسيؤون استخدامه لمصلحتهم الخاصة. فالشيء المشترك بين الدعائيين الإسرائيليين ونظرائهم في الجمهورية الإسلامية - إذاً - أنهم جميعاً، في السلطة. ليس هناك مقدار ذرة من الفرق الأخلاقي بين الصهاينة على شاكلة فرانتزمان الذين يريدون إسكات الفلسطينيين، وبين موظفي الدعاية في الجمهورية الإسلامية مثل ماراندي الذين يرغبون، في كتم أصوات خصومهم.

ونظراً لحقيقة أن الجمهورية الإسلامية تموّل طلاب الدراسات العليا الفقراء، في أي مكان من العالم الإسلامي، سواء من خلال جلبهم إلى إيران، للدراسة في الحوزات الشيعية الإيرانية، أو الدراسة في أوروبا، أو الولايات المتحدة، للحصول على شهادة، في «الدراسات الإسلامية «؛ لينضموا - بعد ذلك - إلى أفواج قوات المؤسسة الدينية الحاكمة للترويج لقراءتها المتشدّدة، للمذهب الشيعي، والتي تتفق مع المصالح السياسية للإيديولوجيا الحاكمة. سرعان ما يرى طلاب الدراسات العليا هؤلاء - الذين يدرّسون في الكليات، فيما بعد - ارتباط مصدر عيشهم، بمساعدتهم لموظفي الدعاية الرئيسيين في الجمهورية الإسلامية، ومدّ يد العون لهم، في كتابة وتوليد المعرفة، من منطق السلطة التي يخدمونها.

إن عملية التعايش هذه بين السلطة/المعرفة مثالية لهذا النوع من الاستشراق.

يطلق هؤلاء الدعائيون على أنفسهم اسم «الأساتذة»، ويعملون في الأراضي المحتلة لجامعة طهران. يجرؤ هؤلاء على كتابة ونشر المقالات على موقع الجزيرة؛ ليعادلوا حمولة الاستشراق في «الغرب». وعلاوة على ذلك، يمكّنون - أيضاً - العملاء السابقين، في المخابرات المركزية الأمريكية، من كتابة مقالات وكتب، تُنكر شرعية الحركة الخضراء. بعد ذلك، بأربع سنوات، اعترف أكبر القادة العسكريين في الجمهورية الإسلامية، في وضح النهار، أنهم قاموا بتزوير الانتخابات، وقمعوا المحتجّين، بعنف[١٩]. ليس

المستشرقون الأوربيون وحدهم مَن يقومون بإساءة استخدام مواقفهم من السلطة لإنتاج المعرفة في خدمة تلك السلطة. لقد وقفتُ بشأن هذه المسألة، بحزم، ضد أطروحة الدعائيين الذين قاموا بتحويل أمّة، يتحكّمون، بمصيرها، إلى أمّة، من الوحوش. إن كوني «باحثاً إيرانياً» لا يشكّل سوى تشويش، على الموضوع الرئيس.

هل والدة ستار بهشتي، التي قُتل ابنها في سجون الجمهورية الإسلامية، مستشرقة؟ هل أمهات كل من ندا آغا سلطان، وسهراب العربي، اللذين قتلهما عملاء الأجهزة الأمنية للجمهورية الإسلامية وجهاً لوجه، مستشرقات؟ هل محمد نوريزاد، الذي خاطر بحياته لإعلام العالم عن الفظائع التي ارتُكبت في الجمهورية الإسلامية، مستشرق؟ هل السجناء السياسيون البارزون مثل محسن أمين زاده، ومصطفى تاج زاده، وعبد الله رمضان زاده، وفيض الله عربسورخي، ومحسن صفائي فرحاني، ومحسن ميردامادي، وبهزاد نبوي جميعهم مستشرقون؟ هل مير حسين موسوي، وزوجته زهراء رهنورد، ورفيقهم المرشح الرئاسي مهدي كروبي - الذين اتّهم كل منهم النظام الحاكم، بالتزوير، وسوء استخدام السلطة - مستشرقون أيضاً؟

لقد تخطّت خطوط التحالف والتضامن منذ فترة طويلة الثنائية الزائفة القائمة على «الغرب وبقية العالم».

الإلحاح الرهيب للحاضر

أصبحت مراكز القوى المتغيّرة، بلا ملامح، وأصبحت تنتج أنماطاً من المعرفة، على القدر نفسه، من عدم الاستقرار. يتشارك العالم، بأسره - اليوم - بفاعلية، في ما دعوته «جغرافيا التحرر»، في إعادة تخيّل نفسه. تم إنجاز هذا الكتاب تحت وطأة «الإلحاح الرهيب للحاضر»، كما أطلق مارتن لوثر كينغ هذه العبارة على اللحظات المفتاحية، كشكل من أشكال الشهادة على التاريخ، من الخنادق. إن هذه الطريقة في التفكير هي المادة للتاريخ المستقبلي لحاضرنا. كانت هناك نقطة تفاعلية، مما بعد الاستعماري،

فيما وراء مزاعم حقبة ما بعد الاستعمار. الآثار المجتمعة للحركة الخضراء في إيران والثورات العربية قد وضعت حداً، لذلك، على الصعيد المعرفي أكثر من الصعيد السياسي. المعارك مستعرة سياسياً، ليس - فقط - في مصر وسورية، بل في خنادق الأفكار - أيضاً - التي لم تعد تتحمّل بعد اليوم مللَ هذه التشعّبات التافهة مثل «الإسلام والغرب»، و«الغرب وبقية العالم».

لقد سألت سؤالاً بسيطاً، للغاية، في مقالتي «هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟» واعتقد اثنان من الفلاسفة الأوروبيين أنني أخاطبهما، مع أن نظرة سريعة على العنوان وحده كافية بأن تشير - بوضوح - إلى أن المقالة تستهدف غير الأوروبيين. ولقد استنتجت من ردّهما أن هناك خللاً هيكلياً، في تركيبة العقل الفلسفي الأوروبي، على الأقل، في النسخة التي يمارس هذان الفيلسوفان الفلسفة، من خلالها: إنهم غير قادرين على قراءة أفكار الآخرين، حتى عندما يعبرون الفجوة اللغوية، ويتكلمون، بواحدة من لغاتهم، إحدى تلك اللغات التي فرضوها على العالم، بأسره، من خلال الاستعمار، كما أنهم - بالتالي - يتعامون عن العوالم الأخرى، لا يقرؤون نصوصهم، ولا يمكنهم فهم أكوانهم، ويُرجعون كل ما يقرؤونه - بشكل منتظم واعتيادي - إلى ما يعرفونه، بالفعل، ويلصقونه معرفياً، بالعالم. وهذا أمر طبيعي، بالنسبة إليهم دون شك، ولكنه مصدر إزعاج كبير للعالم، بأسره، ولقاطني العوالم الأخرى، الذين اجتاحتهم الإمبريالية الأوروبية، وتركتهم في حالة من الخراب، تلك العوالم التي قد يفهم قاطنوها الأمور - في يوم ما - من تلقاء أنفسهم.

لا يمكن لهؤلاء الفلاسفة استيعاب مفهوم اللحظة التي لا يوجّه فيها المفكّر حديثه إليهم، بل يقوم - بدلاً من ذلك - بالوقوف، بجانبهم، ليس تحتهم، ولا فوقهم، وبالطبع؛ ليس في موضع أعلى منهم. يتعامون عن العالم الذي يفكر فيه مفكّرون آخرون، بأفكارهم التي لا يمكن تصوّرها. عندما يقوم علماء الأنثروبولوجيا وخبراء المناطق بقراءة العالم لهم، يحيلون هذه القراءة إلى ما يعرفونه، بالفعل، وما يعرفونه هو كيفية إطلاق الحكم، وكيفية التملك، وكيفية الامتلاك، وكيفية تقسيم العالم، في تحدّ لإرادة قاطنيه، ورغباتهم،

ومقاومتهم لإرادة المعرفة. لقد جعلت منهم إرادة المعرفة هذه الذات العارفة منذ كتابات إيمانويل كانط. الكتابات ذاتها التي تقول بأننا - معشر الملوّنين - لا يمكننا التفكير؛ لأننا ملوّنون، وبالتالي؛ فإننا جزء من المعرفة. وستقودهم أيّ خريطة أخرى مألوفة أكثر لدى الآخرين، إلى أن يفقدوا صوابهم، ولذلك يعدّون الذين قد أنشؤوا هذه الخرائط، وأولئك الذين يعيشون وفقاً لها مجانين. يدور الاستشراق حول المعرفة والقوة. لا يتعلّق الاستشراق، بمجرد القوة الأوروبية والمعرفة التي تحتاجها لحكم العالم. لقد أنتجت جميع الإمبراطوريات المعرفة المتوافقة مع مصالحها الإمبريالية، ويشهد العرب، والفرس، والمغول، والرومان، وغيرهم الكثيرون، على ذلك.

لن يكون الأوروبيون كأوروبيين (العلامة التجارية المتخمة بخدعة الرفع من الشأن الذاتي، والتقليل من شأن آخرين) قادرين على القراءة، ما لم ينضموا إلى بقية الجنس البشري، في سعيه المشترك لإعادة رسم خارطة العالم، على قدم المساواة. العلاقات متعددة ومتنوعة بين المعرفة والقوة. وهكذا فإن جمهورية إيران الإسلامية يمكن أن تحاكي، وتقلّد، وتعادل الرهان على نموذج الإيحاءات الإمبريالية للقوة الناعمة، بمراجعتها، من خلال الحرب المختلفة. إننا بحاجة - في هذه الحالة - إلى تغيير المُحاوِر، لأنه لم يعد بإمكاننا - بعد اليوم - الحديث إلى المُحاوِر الميت الذي أُطلق عليه اسم «أوروبا»، أو «الغرب»؛ ولأن «الغرب» (كما يقول فانون وسعيد) من اختراع العالم الثالث؛ لا سيما وأن العالم الثالث قد انهار، وذهب بحثاً عن مستقبله، فيما وراء الخيال الأوروبي، وهكذا فعل «الغرب»؛ حيث إن موقع العالم الاستعماري قديماً قد تحوّل - اليوم - إلى حجرة فارغة، يتردد فيها الصدى، بانتظار الفلاسفة المستقبليين، يحتاج المفكّرون الأوروبيون - على غرار زابالا ومارد - إلى التوقف عن استخدام همهماتهم الفلسفية، وإلا، عندما يصرخ معلّمهم المفضل قائلاً: «*تباً لك، يا والتر ميغنولو!*» فإن كل ما يسمعه هو رجع الصدى، بكلماته نفسها، وبصوته قائلاً: «تباً لك، يا سلافوي جيجك».

هوامش المقدمة:

١.للاطلاع على مقالتي الأصلية يرجى زيارة الرابط: (١٥ يناير٢٠١٢)

www.aljazeera.com/indepth/opinion/2013/01/2013114142638797542.html

وللاطلاع على رد زابالا يرجى زيارة الرابط: (٢ فبراير٢٠١٢)

www.aljazeera.com/indepth/opinion/2013/01/2013127122357321377.html

وللاطلاع على رد ميغنولو يرجى زيارة الرابط: (١٩ فبراير٢٠١٢).

www.aljazeera.com/indepth/opinion/2013/02/20132672747320891.html

وللاطلاع على رد جيجك يرجى زيارة الرابط: (٢٨ فبراير ٢٠١٢)

http://backdoorbroadcasting.net/2013/02/slavoj-zizek-a-reply-to-my-critics

و الرابط:

www.critical-theory.com/zizek-responds-to-his-critics

٢.يمكن الاطلاع على مقالة مايكل ماردر على الرابط التالي:

www.aljazeera.com/indepth/opinion/2013/03/2013314112255761369.html.

٣. http://criticalencounters.net/2013/05/19/end-of-postcolonialism-and-the-challenge-for-non-european-thought.

٤. www.critical-theory.com/zizek-responds-to-his-critics

٥. www.critical-theory.com/the-critical-theory-guide-to-that-time-zizek-pissed-everyone-off-again.

٦. www.aljazeera.com/indepth/opinion/2012/07/201271131925534684.html?utm_content=automate&utm_campaign=Trial6&utm_source=NewSocialFlow&utm_term=plustweets&utm_medium=MasterAccount.

٧.مقالة صحيفة جيروزاليم بوست على الرابط:

www.jpost.com/Arts-and-Culture/Arts/Terra-Incognita-The-orientalist-shield

٨. ديفيد هورويتز، "١٠١ من أكثر الأكاديميين خطورة في أمريكا"، رينجري للنشر، واشنطن، ٢٠٠٦.

٩. http://harpers.org/archive/2004/09/tentacles-of-rage.

١٠.ماكس فيبر، "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية"، روتليدج، لندن ٢٠٠١، ص ١٢٤.

١١.المرجع نفسه

١٢. المرجع نفسه

١٣. زد بوكس، لندن، ٢٠١٢

١٤. يمكن الاطلاع على هذه المقابلة على الرابط:

www.jpost.com/Opinion/Columnists/A-mass-expression-of-outrage-against-injustice.

١٥. يمكن الاطلاع على مقال جويل بينين على الرابط:

www.jadaliyya.com/pages/index/6207/in-search-of-a-new-political-language.

١٦. يمكن قراءة نقاش ميلن:

www.theguardian.com/commentisfree/2012/jun/26/egypt-revolution-secured-by-spreading.

١٧. كما بينت في مقالي عن فيلم الإثارة والخيال العلمي "إيليزوم Elysium" (٢٠١٣). يمكن الاطلاع على المقال على الرابط:

www.theguardian.com/commentisfree/2012/jun/26/egypt-revolution-secured-by-spreading

١٨. وهذا مثال واضح عن واحد من موظفي الدعاية للجمهورية الإسلامية يتهم "الغرب" بالاستشراق:

www.aljazeera.com/indepth/opinion/2014/04/iran-orientalism-western-illusio-20144383631581810.html.

١٩. هنا رابط مقطع الفيديو للفريق محمد علي جعفري، قائد الحرس الثوري الإيراني، يفتخر علانية بتزوير الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٨ والسحق السريع للمتظاهرين عندما تدفقوا إلى الشوارع:

www.kaleme.com/1393/03/11/klm-186448.

الفصل الأول
هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟

نقرأ في إطراء جميل عن الفيلسوف الأوروبي الشهير سلافوي جيجك، نُشر مؤخراً، على موقع الجزيرة:

> *هناك العديد من الفلاسفة الهامّين والفعّالين اليوم: جوديث بتلر في الولايات المتحدة، سيمون كريتشلي في إنكلترا، فيكتوريا كامبس في إسبانيا، جان لوك نانسي في فرنسا، شانتال موفي في بلجيكا، جياني فاتيمو في إيطاليا، بيتر سلوترديك في ألمانيا وفي سلوفينيا سلافوي جيجك، ناهيك عن غيرهم من الفلاسفة الذين يعملون في البرازيل وأستراليا والصين.*

ما يصدم القارئ - على الفور - عند رؤية هذه الفقرة الافتتاحية ذلك الطابع الأوروبي الواضح، والنزعة نحو الأشياء التي يدعوها الكاتب «فلسفة اليوم»؛ حيث يؤسّس زعمه - بالتالي - على كلّ من الذات والزمن الغربيين، واللذين يُعدّان - في الحقيقة - ملكية حصرية، لأوروبا.

حتى جوديث بتلر، التي أستشهد بها كمثال من الولايات المتحدة، تُعدّ - بالتأكيد - تتاجاً للسلالة الفلسفية الأوروبية؛ حيث يقع فكرها، في مكان ما بين دريدا وفوكو، اللذين فُرضا على فهمنا، للنوع والهوية الجنسية.

تمّ ذكر كل من الصين والبرازيل دون شك (وأستراليا، التي تعدّ - أيضاً - امتداداً أوروبياً) كمواقع لفلاسفة آخرين، يستحقّون الذكر، ولكنْ؛ من الواضح أن لا أحد منهم يتميّز، باسم معين، يجعله يستحق الذكر، بجانب هؤلاء الفلاسفة الأوروبيين.

ولا يدور السؤال - بالطبع - حول مدى شمولية الرؤى الفلسفية لدى كل من هؤلاء الفلاسفة الأوروبيين البارزين (وبالتبعية بعض الأمريكيين المعينين) التي يتشاركها الفلاسفة حقاً، والتي يمكن لأشخاص من أقصى زوايا أفريقيا، إلى أبعد القرى، في الهند والصين وأمريكا اللاتينية، والعالمَيْن العربي والإسلامي («النائي والبعيد»، وهذا من وجهة نظر، المركز الأوروبي الوهمي) أن يتعلّموها حقاً، وأن يفهموا حياتهم وفقها، بشكل أفضل.

وذلك يُعدّ من المسلمات؛ لأنه، بدون هذه الثقة والوعي الذاتي، فإنه يمكن - بالكاد - لهؤلاء الفلاسفة والتقاليد الفلسفية التي يمثّلونها أن يضعوا أيّ مزاعم عالمية، بشأن نظامنا المعرفي الساذج. ولن يكون باستطاعتهم وضع القلم على الورق، أو أصابعهم، على لوحة المفاتيح وكتابة الجملة.

المفكّرون خارج أوروبا

هؤلاء المفكّرون ليسوا الفلاسفة البارزين الوحيدين فقط. وتحظى شمولية الفلسفة التي يمارسونها، بدرجة معينة، من الثقة الذاتية الواعية، والتي لا يمكن لأيّ تفكير، من دونها، أن يفترض العالمية.

ولن يكون السؤال - في هذه الحالة - سوى: ماذا عن المفكّرين الآخرين الذين يعملون خارج هذه السلالة الفلسفية الأوروبية، سواء كانوا يمارسون تفكيرهم، باللغات الأوروبية التي ورثوها، من مستعمريهم، أو بلغاتهم الأم الخاصة - إن كان ذلك في آسيا، أو في أفريقيا، أو في أمريكا اللاتينية - المفكّرين الذين اكتسبوا كرامة الاسم حقاً، وربما لقب «المثقّف العمومي» لا يختلفون عن حنة أرندت، وجان بول سارتر، وميشيل فوكو، الذين تم تقديمهم، في مقالة جيجك، على موقع الجزيرة، على أنهم أسلافه؟

ماذا عن المفكّرين خارج نطاق هؤلاء الفلاسفة الأوروبيين؛ كيف علينا تسميتهم وتعيينهم وتكريمهم بلقب «المثقّف العمومي»، وأن نتعلّم منهم، في عصر الإعلام المعولم؟

هل تجتمع كوكبة المفكّرين، من جنوب آسيا، والتي تتجسّد في شخصيات بارزة مثل آشيز نادي، بارثا تشاترجي، غاياتري سبيفاك، راناجي جوها، سوديبتا كافيراج، ديبيش شاكراباريي، هومي بابا، إعجاز أحمد، بانكاج ميشرا، وعقيل بيلغرامي، مع بعضها البعض، لتشكيل نواة التفكير التي تسمح لها بأن تعي نفسها؟ وهل تستحق هذه الكوكبة من الفلاسفة كلمة «التفكير»، بطريقة، من شأنها أن تؤهّل أحدهم - كشخص من جنوب آسيا - أن يحمل لقب «الفيلسوف»، أو «المثقّف العمومي»؟

هل هم «مفكّرون جنوب آسيويين»، أو «مفكّرون»، بالطريقة نفسها، كما هؤلاء المفكّرون الأوروبيون؟ لماذا تُعدّ عطسة موزارت «موسيقى» (وأنا واثق - تماماً - بأن العباقرة العظام يعطسون، بشكل موسيقي)، فيما تُعدّ موسيقى الراجا الهندية الأكثر تطوراً موضوعاً «لعلم الموسيقى الإثنية»؟!

وهل هذه «التصنيفات العرقية» لا تنطبق - أيضاً - على التفكير الفلسفي الذي يمارسه الفلاسفة الهنود، لدرجة، تجعل من تفكيرهم موضوعاً للعمل الميداني الأنثروبولوجي والتقصّي الغربي الأوروبي والأمريكي الشمالي؟

يمكننا أن نستدير، وننظر، في أفريقيا. ماذا عن المفكّرين أمثال هنري أوديرا أوروكا، نجوجي واثينغو، وول سوينكا، تشينوا أتشيبي، أوكوت بيبتيك، تابان لو ليونج، اشيل ميمبي، ايمانويل تشكوودي، سليمان بشير ديان، في واي موديمبي: هل يستحقون أن نطلق عليهم لقب «الفيلسوف»، أو «المثقّف العمومي» ربما؟ أم أن هؤلاء، ينتمون إلى «الفلسفة الإثنية» أيضاً؟

لماذا تُعدّ الفلسفة الأوروبية «فلسفة»، بينما تُعدّ الفلسفة الإفريقية فلسفة إثنية، بالطريقة نفسها التي يتم بها اعتبار الموسيقى الهندية موسيقى إثنية؟!

ويستند هذا المنطق على المنطق نفسه الذي يحكم موضوع زيارة المرء متحف نيويورك، للتاريخ الطبيعي (الذي تمّ الترويج له، في فيلم شون ليفي

«ليلة في المتحف»، في عام ٢٠٠٦)، يرى المرء الحيوانات فقط، والشعوب غير البيضاء، وثقافاتهم مدرجة داخل الأقفاص الزجاجية، مع عدم وجود قفص، في الأفق، للأشخاص البيض وثقافاتهم، إنهم يقومون، بمجرد التنزّه عبر الممرات، والتمتّع، بمشاهدة الثيران المحنّطة، وسكان الكهوف، والفيلة، والأسكيمو، والجواميس، والسكان الأصليين لأمريكا، وهلم جراً.. جميعهم في صف متعرّج واحد.

تتّضح النظرة الإثنولوجية نفسها للنزعات الفكرية للعالم العربي والإسلامي: عزمي بشارة، صادق جلال العظم، فواز طرابلسي، عبد الله العروي، ميشيل كيلو، عبد الكريم سروش. وقائمة المفكّرين البارزين التي لا تنتهي.

في اليابان، كوجين كاراتاني. في كوبا، روبرتو فرنانديز ريتامار. وحتى في الولايات المتحدة، أشخاص أمثال كورنيل ويست، الذين لا يندرج فكرهم كله ضمن التقليد القاري الأوروبي؛ ماذا عن هؤلاء؟ أين يمكن وضع فكرهم؟ هل بإمكانهم ممارسة الفكر؟ وهل ما يفعلونه متصل بالتفكير الفلسفي أيضاً؟ وهل هو ملائم - أيضاً - للدراسات والبحوث الإثنولوجية؟

إن مسألة النزعة الأوروبية - اليوم - مسألة منتهية تماماً. فالأوروبيون يتمتعون - بالطبع - بالنزعة الأوروبية، ورؤية العالم، من وجهة نظرهم العتيقة، ولماذا لا يكونون هكذا؟ إنهم ورثة الإمبراطوريات المتعددة (المنحلّة اليوم)، ولا يزالون يحملون، بدواخلهم، الغطرسة الوهمية، لتلك الإمبراطوريات.

إنهم يعتقدون بأن فلسفتهم الخاصة هي «الفلسفة»، وتفكيرهم الخاص هو «التفكير»، بينما كل شيء آخر هو - كما كان يقول الفيلسوف الأوروبي العظيم إيمانويل ليفيناس دائماً - «مجرد رقص».

ويجب أن يكون السؤال، بالأحرى: هل يمكن أن تصل الطريقة التي يفكر فيها غير الأوروبيين إلى الوعي الذاتي، والعالمية الواضحة، ليس من منطلق ما الذي يفكر فيه الفلاسفة الأوروبيون، بأنفسهم، للعالم، بأسره، ولكنْ؛ بغرض تقديم بديل، من الرؤى للواقع أكثر تجذّراً، في التجارب المعاشة

للناس، في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية (المتكاملة أو المتناقضة)؛ البلدان والمناخات التي كانت - يوماً ما - في ظل سيطرة ما يُطلق على نفسه اسم «الغرب»، والتي لم تعد موجودة، لحسن الحظ.

إن مسار التفكير المعاصر في جميع أنحاء العالم غير مشروط تلقائياً، في زمننا الفوري الخاص والمواقع المتباينة، ولكنه يتميّز، بطيف أعمق من ذلك، بكثير وأوسع، يعود إلى الأجيال السابقة من المفكّرين، بدءاً من خوسيه مارتي، إلى جمال الدين الأفغاني، إلى إيمي سيزير، دابليو ايه بي دوبوا، ليانغ كيشاو، فرانتز فانون، رابندراناث طاغور، المهاتما غاندي، وغيرهم.

لذلك يبقى السؤال، لماذا لا يوجد تقدير «للفلسفة»؟ وأين الفضول الأنثروبولوجي لل»الفلسفة الإثنية»؟

دعونا نبحث عن الحل، في أوروبا نفسها، ولكنْ؛ في أوروبا أخرى ثانوية.

المثقّفون كطبقة عالمية

يبحث أنطونيو غرامشي في كتابه: «مذكرات السجن»، في نقاش صغير عبارة كانط الشهيرة في كتابه «أرضية ميتافيزيقا الأخلاق» (١٧٨٥) التي تُعدّ عنصراً حاسماً جداً، في فهمنا لما يلزم للفيلسوف أن يصبح واعياً لنفسه عالمياً، ليفكّر في نفسه، كمقياس ومعيار للشمولية. نص غرامشي هو كل ما يهمّنا، في هذه النقطة. هكذا يبدأ نقاشه:

> *مقولة كانط «اعمل، بطريقة، تمكّنك من أن تجعل سلوكك قاعدة لجميع الرجال، في ظروف مماثلة،» أقل بساطة ووضوحاً، مما تبدو، للوهلة الأولى. ما هو المقصود من عبارة «ظروف مماثلة»؟*

مما لا شك فيه، وكما أشار كوينتين هور وجيفري نويل سميث (المحرّران والمترجمان للترجمة الإنكليزية لمذكرات السجن لغرامشي)، فإنه - في الحقيقة - قد نقل خطأ عن كانط: فعبارة «ظروف مماثلة» لا

ترد في النص الأصلي. ولكن الفيلسوف الألماني يقول بدلاً من ذلك: *«لن أتصرف - أبداً - بطريقة مختلفة، ولهذا أستطيع - أيضاً - أن أجعل من مقولتي قانوناً عالمياً»*. إن هذا المبدأ، الذي يُدعى *«الضرورة الحتمية»*، يشكّل - في حقيقة الأمر - الأساس الحقيقي للأخلاق لدى كانط .

لذلك، عندما يكتب كانط «القانون العالمي،» يكتب غرامشي «قاعدة لجميع البشر»، ثم يضيف «ظروف مماثلة»، والتي لا وجود لها، في الأصل الألماني.

يمرّ العالم، بأسره، والعالمَين العربي والإسلامي - على وجه الخصوص، بالتغيّرات التاريخية العالمية، وقد أنتجت هذه التغييرات المفكّرين والشعراء والفنانين والمثقّفين العموميين، في مركز خيالهم الأخلاقي والسياسي.

إن هذا الخطأ في الاقتباس أمر حاسم جداً هنا. وإن استنتاج غرامشي هو أن سبب قدرة كانط على قول ما يقوله، وتقديم سلوكه الخاص كمقياس للأخلاق العالمية، يتمثل في أن «مقولة كانط تفترض - مسبقاً - وجود ثقافة واحدة، دين واحد، وخضوع واحد على «مستوى العالم» ... إن مقولة كانط متصلة، بزمنه، بالتنوير العالمي، والمفهوم الحاسم للمؤلف. إنها مرتبطة، باختصار، بفلسفة المثقّفين، كطبقة عالمية».

ما يكتشفه غرامشي - في الواقع، كإيطالي جنوبي، يعاني في حصون الفاشية الأوروبية - هو ما نسمّيه، في بروكلين الوقاحة؛ أي أن تظن نفسك مركز الكون، والضمان الذاتي الذي يعطي للفيلسوف تلك المهارة والسلطة الخاصة في التفكير؛ من حيث تبنّي السردية الكبرى المطلقة.

وبالتالي؛ فإن الذي يدّعي الوكالة هو حامل «الظروف المماثلة»، وخالقها، بالفعل. ويعني هذا، أنه «يجب» التصرّف وفقاً «للنموذج» الذي كان يود أن يراه منتشراً بين جميع البشر، ليعمل وفقاً لنوع الحضارة المناسبة لأولئك القادمين، أو المحميين الذين «يقاومون» القوى التي تهدّد تفكّكها.

إن هذه الثقة بالنفس والوعي الذاتي - بالضبط - ما يجعله يظن نفسه

وكيلاً للتاريخ، ويجعله يظن أن تفكيره الخاص هو «التفكير»؛ من حيث العالمية، وفلسفته هي «الفلسفة»، وساحة مدينته هي «الفضاء العام»، وبالتالي؛ يعتقد بأنه مثقّف عمومي معترف به عالمياً.

وهناك - بالتالي - صلة بنيوية مباشرة بين إمبراطورية ما، أو إطار الإمبراطورية المرجعية، والعالمية المفترضة للمفكّر الذي يفكر في حضن تلك الإمبراطورية.

وكما هو الحال مع جميع الأشخاص الآخرين، فالأوروبيون محقّون - تماماً - في نزعتهم الأوروبية الخاصة.

الغطرسة الإمبريالية التي مكّنت تلك النزعة الأوروبية التي لا تزال تنتج المروّجين والدعائيين، من نوع جيجك الذي نقرأ له على موقع الجزيرة، تمثّل الذكريات الوهمية لذلك الوقت الذي أكّد فيه «الغرب» ثقته وشعوره الكوني وشموليته، أو، كما قال غرامشي «*لا يزال يعمل، على ذلك النوع، من الحضارة، لأولئك القادمين*».

ولكن هذه الشمولية لم تعد موجودة أبداً. والناس من كل المناخات والقارات يتحركون - بحرية - تجاه ادعاء عالميتهم الدنيويّة الخاصة، ومعها القدرة الفطريّة على التفكير خارج زنازين النزعة الأوروبية، والتي لا تزال - بكل تأكيد - تحقّق لهم المتعة الوهمية، في التفكير، في أنفسهم، على أنهم مركز الكون. «الظروف المماثلة» الغرامشية التطبيقية آخذة في الظهور - اليوم - في مواقع متعددة، للإنسانية المحررة.

يمر العالم، بأسره، والعالمَين العربي والإسلامي - على وجه الخصوص - بتغييرات تاريخية عالمية. وقد أسفرت هذه التغييرات عن تبدّل كبير، في مركز الخيال الأخلاقي والسياسي لديهم، ولدى مفكّريهم، وشعرائهم، وفنانيهم، ومثقّفيهم العموميين؛ ليفكروا، ويعملوا وفقاً لهذه التغييرات، في مناخ محلي واحد متعلّق، بجغرافيتهم الحالية والعواقب المترتّبة على هذه التغييرات عالمياً.

مقارنة مع فيضانات التسونامي التحررية التي تقلب العالم اليوم رأساً على عقب، فإن الافتراضات التي تعاني من الأفكار النمطيّة عن أوروبا والسلالة الفلسفية الإقليمية المتكاثرة، أصبحت لا تعدو كونها بقايا زوبعة في فنجان. لدى أوروبا - في طور تناقص نصيبها إلى المقدار العادل، في البشرية جمعاء، ومثل كل القارات والمناخات الأخرى - الكثير؛ لتعلمه للعالم. ولكن هذا سوف يحصل - اليوم - على مستويات أبعد، بكثير، وفي لعبة ديموقراطية؛ حيث فلسفتها هي الفلسفة الأوروبية، وليس «الفلسفة»، وموسيقاها هي الموسيقى، في أوروبا، وليست «الموسيقى»، ولا حاجة أبداً لأي مروّجين، أو دعائيين لتسويق المفكّرين على أنهم «المثقّفون العموميون».

نُشرت لأول مرة على موقع الجزيرة، يناير ٢٠١٣

حاضر في الترجمة

رغم أنه من الشائع بأن رثاء أوجه القصور في القراءة عمل مهمّ، في أي لغة أخرى غير اللغة الأصلية، وعلى الرغم من «استحالة» الترجمة، فأنا مقتنع بأن أعمال الفلسفة (أو الأدب في هذا المقام؟ - هل هناك أيّ اختلاف بينهما؟) تحقّق مكاسب حقيقية أكثر، بكثير، مما تخسر.

لننظر ملياً إلى هايدغر. لولا المترجمون والمعلّقون الفرنسيون، لكانت الفلسفة الألمانية - في وقتها - قد ظلت في غياهب غابة الميتافيزيقيا الغامضة. ولن يمرّ وقت طويل حتى تجد كتابات دريدا نفسه، عن هايدغر قرّاء، باللغة الإنجليزية، في الولايات المتحدة وبريطانيا، لبدء التقويض الكامل الهايدغري والدريدي Heideggerian-Derridian (وفقاً لأسلوب هايدجر ودريدا) للميتافيزيقيا، في هزّ أسس التراث الفلسفي اليوناني. يمكن للمرء أن يجادل في حقيقة أن الكثير من الفلسفة القارية المعاصرة، نشأت، باللغة الألمانية، مع أهمية اللغة الفرنسية، ولمعان اللغة الإيطالية قبل أن تُطبع بطابع العولمة، من خلال اللغة الإنكليزية الأمريكية المهيمنة، وافتراض قراءة عالمية جديدة، وواقع جديد تماماً. ليس لهذا أي علاقة، بالقدرات الفلسفية الألمانية، أو الفرنسية، أو الإنجليزية. الموضوع متعلق - تماماً - بوظيفة القوة الإمبريالية، وانتشار أيّ لغة، على حساب اللغات الأخرى.

اللغة الأم

في نقاط مختلفة في التاريخ، كانت إحدى اللغات، أو غيرها - اللاتينية والفارسية والعربية - لغة مشتركة للتفكير الفلسفي. واليوم اللغة الإنكليزية. وقد تتحول - مرة أخرى - لتكون الصينية نظراً للكثير من الأسباب التي نعرفها.

كتب الفيلسوف الشهير ابن سينا معظم أعماله، باللغة العربية، في القرن الحادي عشر، في إيران. وسأله الأمير الذي يعيش تحت كنفه - في يوم ما، والذي لم يكن يقرأ العربية - فيما إذا كان يمانع في كتابة أعماله، باللغة الفارسية بدلاً من العربية، حتى يتمكّن من فهمها. اضطُر ابن سينا إلى كتابة موسوعة كاملة، عن الفلسفة، وسمّاها، باسم الأمير، «موسوعة الأمير علاء الدولة الفلسفية - دانش نامه علاء».

ولم يكن ابن سينا - بطبيعة الحال - الفيلسوف الوحيد الذي اختار كتابة عمل فلسفي له، باللغة العربية. بل هذا ما فعله الغزالي (١٠٥٨-١١١١ م) وشهاب الدين يحيى السهروردي (١١٥٥-١٢٠٨م) اللذان كانا قادرين - تماماً - على الكتابة، بلغتهم الأم الفارسية، وهذا ما قاما به، بالفعل، في بعض الأحيان، خصوصاً الغزالي في كتابه «كيمياء السعادة» (كتاب في الفلسفة الأخلاقية)، والسهروردي في أطروحاته الشعرية القصيرة الرائعة. ولكن اللغة العربية - على أيام ابن سينا - كانت مؤسّسة - بقوة - في مفرداتها الفلسفيّة الغنيّة والمظفّرة، والتي لا يمكن لأي فيلسوف جاد أن يختار كتابة أعماله الرئيسية، في أي لغة سواها. كان على النثر الفلسفي الفارسي الانتظار لبضعة أجيال بعد ابن سينا. ووصل النثر الفلسفي الفارسي إلى أوجه مع العمل الرائع لأفضل الدين الكاشاني (١٢١٤م) وتلميذ ابن سينا خواجة محمد بن محمد بن الحسن الطوسي (١٢٠١-١٢٧٤)، وخصوصاً في كتابه «أساس الاقتباس».

لا يمكن - اليوم - فصل مصطلح «الفلسفة الفارسية» - بسهولة - عن «الفلسفة الإسلامية»، التي كُتب الكثير منها، باللغة العربية. كان هذا هو الحال حتى في القرن السادس عشر، عندما كتب الملا صدرا مؤلّفه الرئيس - بالكامل تقريباً - باللغة العربية. ورغم أن بعض الفلاسفة الكبار في القرنين التاسع عشر والعشرين لم يكتبوا - في كثير من المناسبات - باللغة الفارسية، لم يكن أمام العلامة محمد إقبال (١٨٧٧-١٩٣٨) خيار كتابة الأعمال الفلسفية الكبرى له في اللغة التي يفترض النثر الفلسفي الفارسي أن لها أهمية كبيرة

في سياق إسلامي أكبر. (كما كتب إقبال - أيضاً - الأطروحات الرئيسة في الفلسفة الفارسية، باللغة الإنجليزية).

إن الترجمة الفارسية الرائعة لأمير حسين أريانبور لكتاب محمد إقبال «تطور الفكر الفلسفي في إيران» (١٩٠٨)، والذي صدر بالفارسية، باسم «مسار الفلسفة في إيران» (The Course of Philosophy in Iran, ١٩٦٨) التي لا زلت أذكرها - اليوم - على أنها المثال الأسمى للتميّز في النثر الفلسفي الفارسي، وشهادة على مدى أهمية الترجمة الفلسفية، وإلى أي مدى تُعدّ عنصراً أساسياً، في تاريخنا الفكري المعاصر. وإذا كان هناك عالم للفلسفة، أو إذا كان للفلسفة أن تكون عالمية، فإن هذين الرجلين، الفيلسوف والمترجم، اللذين يزينان اثنين من العوالم الفلسفية المتجاورة، سيكونان من بين مواطن الشرف الأكثر تكريماً، في هذا العالم.

المُعَلِّمَان

لا يوجد أيّ مبالغة على الإطلاق، في كل ذلك الفضل والامتنان الذي يكنّه جيلي من الإيرانيين لأريانبور (Aryanpour ١٩٢٥-٢٠٠١)، أحد المنظّرين الاجتماعيين ونقّاد الأدب والفلاسفة والمترجمين الأكثر تأثيراً، في زمنه، وقد كان يشكّل - بالنسبة إلينا - نافذة واسعة، ودعوة إلى العالم الغني والتحرري، للتفكير النقدي، في بلادنا.

لايزال ذكر أريانبور اليوم حياً، بالنسبة لأجيال من الطلاب الذين درّسهم في جامعة طهران، وخارجها، ولا يزال معروفاً، بالمجموعة الغنية، من الكتب العظيمة التي كتبها، أو قام بترجمتها، والتي مكّنتنا، من تطوير خيال فلسفي أوسع.

وبعد أن تعلّم، من خلال النظامين التعليميّين المدرسي والحديث، وتلقّى تعليمه - أيضاً، على نطاق واسع وعميق - في إيران (جامعة طهران)، وفي لبنان (الجامعة الأمريكية، في بيروت)، وفي بريطانيا (كامبردج)، وفي الولايات المتحدة (برينستون)، فإن أريانبور كان المفكّر العالمي،

والشخصية الريادية التي روّجت للتعاطي الجدلي (jadali) بين العالم المادي وعالم الأفكار. مرّ اليوم أكثر من أربعين عاماً على اليوم الذي وصلت فيه إلى طهران، من مسقط رأسي في الأهواز، في أواخر صيف ١٩٧٠ لارتياد الكلية، لا زلتُ أشعر بإثارة كبيرة، وفرحة في داخلي، لاكتشاف كم كان هناك الكثير لتعلّمه من الرجل الذي كان اسمه مرادفاً، للتفكير النقدي، والتنظير للحركات الاجتماعية، وفوق كل شيء الفرع المعرفي لعلم الاجتماع.

كان أريانبور نتاجاً لعوامل كثيرة: التوجّه الثقيل نحو «التحديث» الذي ترعاه دولة رضا شاه، الازدهار الفكري الموجز لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، السفر والتعليم العالي في إيران والعالم العربي وأوروبا والولايات المتحدة، شبح المكارثية الذي كان يخيم في الخمسينيات، وأخيراً انقلاب عام ١٩٥٣ المدعوم من المخابرات المركزية الأمريكية، ومن ثم؛ حرم الجامعات في وطنه التي أصبحت الموقع الأساسي لقيادته الفكرية لجيل جديد، بأكمله. وكان أريانبور شوكة في خاصرة كل من النظام الملكي البهلوي والجمهورية الإسلامية التي تلته، مما جعله دوغمائياً، في بعض الأوقات، في مواقفه الخاصة، ولكنه كان - دائماً - استثنائياً، في منهج التفكير الجدلي الذي أصبح أساسياً لدى طلابه، سواء مَن حالفهم الحظ؛ ليعرفوه، وليعملوا معه مباشرة، أو الملايين (مثلي) الذين استفادوا من عمله، عن بعد.

أُقيل أريانبور من وظيفته كمدرس في كلية اللاهوت في عام ١٩٧٦. وقد تقاعد في عام ١٩٨٠. وقبل وفاته في ٣٠ يوليو عام ٢٠٠١، كان واحداً من آخر أعماله العلنية التوقيع على عريضة، تندّد بالرقابة في الجمهورية الإسلامية.

لم تغدُ ترجمة أريانبور الأسطورية وتعليقاته الدقيقة الموسعة على كتاب إقبال «تطور الفكر الفلسفي في إيران» الكتاب الأول والأهم، بالنسبة إلى جيلي، من المهتمين بتاريخ علم الفلسفة في وطننا، وحسب، بل حققت

- أيضاً - وعياً أوسع بكثير، وأكثر رحابة لعالم الفلسفة. فمن المستحيل المبالغة في التأثير الجميل والغامر والمثير والمحرر للقراءة الأولى لذلك النص الرائع على الصبيّ القرويّ المندهش الذي جاء إلى العاصمة التي كوّنها، من خياله الأخلاقي والفكري.

وُلد إقبال، ونشأ، في البنجاب، الهند البريطانية (باكستان اليوم)، لعائلة مسلمة تقية. تعلّم على يد مدرّسين مسلمين، في كلية البعثة الاسكتلندية، في سيالكوت؛ حيث تربىّ في بيئة متعددة اللغات والثقافات. ودرس إقبال - بعد زواج غير سعيد، وطلاق لاحق - الفلسفة، واللغة الإنجليزية، واللغة العربية وآدابها، والفارسية، في الكلية الحكومية، في لاهور؛ حيث تأثر - بشدة - بتوماس أرنولد، الذي أصبح ممرّه للتعرف على الفكر الأوروبي، التأثير الذي أدى به - في نهاية المطاف - إلى السفر إلى أوروبا، للمزيد من الدراسة.

حصل إقبال على درجة البكالوريوس، من كلية ترينيتي، في كامبرديج أثناء وجوده في إنجلترا، في عام ١٩٠٧؛ حيث بدأت تظهر - في ذلك الوقت - أولى قصائده الفارسية. وتمكّن مع انجذابه المتزايد نحو السياسة، من كتابة أطروحة الدكتوراه، عن «تطور الفكر الفلسفي في إيران»، مع فريدريش هومل.

أصبحت قراءة الترجمة الفارسية لاريانبور لكتاب «سيرة الفلسفة في إيران» عمل إقبال الأول، جزءاً من طقوس العبور لجيلي، من طلاب الجامعات، الحريصين على اكتشاف تراثهم الفلسفي.

لقد نشأنا، ونضجنا، في دائرة أوسع بكثير من المعرفة حول الفلسفة الإسلامية، ومكانة الإيرانيين في هذا التراث. كانت هناك حقول أكثر خصوبة، والمزيد من الفلاسفة العظماء أمام عقولنا وأرواحنا. تعلّمنا من الكتابات المهيبة للسيد جلال أشتياني، الفيلسوف الأكبر بين العديد من حكماء الفلسفة الآخرين، في عصرنا، الذين بدؤوا، بتوجيه طريقنا، إلى مجاهل الفكر الفلسفي العربي والفارسي. ولكن الطابع المختلف - بالتأكيد - للعلامة إقبال، بترجمة أريانبور، استدعت - على وجه التحديد

- حقيقة أنها لم تصل إلينا، من خلال المناهج الدراسية التقليدية، بل تم تعلّمها، من خلال التموضع العالمي، لتحدياتنا الخاصة. كنا نقرأ - في هذا النص - النثر الفارسي الفائق للفيلسوف الباكستاني الذي كان يؤتي ثماره، في كل من شبه القارة الاستعمارية والمدينة العالمية ما بعد الاستعمار. كانت هناك دنيوية واضحة، في هذا النثر الفلسفي التي أصبحت مطلقة، بالنسبة لجيلي.

ما وراء الشرق والغرب

عندما أقرأ - اليوم - عبارة جوفاء مثل «العقل الغربي»، أو «العقل الإيراني»، أو «العقل العربي»، أو «العقل الإسلامي»، في هذا المجال، أكاد أرتجف. وأتساءل ما الذي يمكن أن تعنيه عبارة «العقل الغربي» عند قراءة النسخة الفارسية، من النثر الإنجليزي، للفيلسوف الباكستاني الذي تم تأليفه، في ألمانيا، عن جانب من جوانب الفلسفة الإسلامية التي كانت خاصة، بإيران؟ لنلق نظرة، على خط سير فيلسوف مثل العلامة إقبال: لننظر إلى الفكر العميق والعناية الفائقة التي أولاها لكتابته أمير حسين أريانبور. أين هو «العقل الغربي» في تلك المناطق الجغرافية المتنوعة للتعلم؟ وأين هو «العقل الشرقي»؟ فما الذي يمكن أن تعنيه هذه المصطلحات؟

وكانت حالة كتاب «سيرة الفلسفة في إيران» نموذجية للثقافة الفلسفية لجيلي؛ نقرأ اليسار واليمين والوسط، ثم الشمال والجنوب، من شبه القارة الهندية، إلى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية وأمريكا اللاتينية وما بعد الاستعمار أفريقيا، مع عالمية شرهة لا تملك الصبر أمام الشرق، أو الغرب، لأي جغرافية استعمارية. كنا فلسفياً «في العالم»، وقدم عالمنا الفلسفي مصنوعاً من الجغرافيا الخيالية التي لا تعرف الشرق، ولا الغرب.

إن أعمال الفلسفة،وقرّاءها تربح، بالترجمة، ليس - فقط - لأن مؤلفيها بدؤوا، بالتنفس، في لغة جديدة، ولكنْ؛ لأن النص يشير إلى عالم غريب، عن تأليفه الأولي.

من ذلك أنها تربح؛ لأنه ينبغي لهؤلاء المؤلفين ونصوصهم أن يواجهوا جمهوراً جديداً. كان لأفلاطون وأرسطو حياة جديدة، في اللغة العربية والفارسية الغريبتين - تماماً - عن التدوين الاستعماري «للفلسفة الغربية». والطريقة الوحيدة الفعّالة لجعل الأصداء الخارجية لهذه الفكرة مألوفة، تكمن في جعل تلك الاستعارة المألوفة التي تُدعى «الفلسفة الغربية» استعارة غريبة.

نُشرت لأول مرة في صحيفة نيويورك تايمز، يوليو ٢٠١٣

الفصل الثاني
لحظة أسطورة إدوارد سعيد
١٩٣٥-٢٠٠٣

لطالما كان الالتصاق الحميم، بجبل مهيب نعمة ونقمة، في الوقت نفسه، فمن جهة، ينعم المرء، بنبل مراعيه، وكرم سفوحه، ولا يمكن للمرء - من جهة أخرى - أن يعرف مكانه - على وجه التحديد - في ظل تلك العظمة، والراحة المحتضنة التي تبعث على الاطمئنان. لا يمكن رؤية روعة جبال مثل الهيمالايا وجبال الروكي وجبال ألبروز إلا حين يُنظر إليها، من بعيد، من مسافة آمنة، تمنحك القدرة البصرية، على الإدراك والتقدير والفهم لمذهل لمواقعهم الحقيقية.

امتلك القلائل من سعداء الحظ فقط، والذين يعيشون - اليوم - مكسورين ومعزولين، ذلك الشرف النادر في تسمية إدوارد سعيد، بالصديق، وامتلك عدد أقل شرفاً دعوته زميلاً، وعدد أقل دعوه رفيقاً، وحفنة - فقط - من البشر، أسموه جاراً. كلما اقتربت أكثر من إدوارد سعيد، تعرفت أكثر على إنسانيته الحميمة، وشخصيته البسيطة العادية الحلوة المتحبّبة والآسرة الفاتنة - وشخصيته كزوج، وأب، وصهر، وعم، وقريب - التي ظلّلت، ولوّنت عظمته. لا تزال رسائل البريد الإلكتروني والبريد الصوتي لديّ تعجّ بكلماته الكريمة، وتعازيه التي تأتي، في الوقت المناسب، ونكاته القصصية، وأسئلته البسيطة، ومشورته التي لا تُقدّر، بثمن. وكل هذا أعزّ من أن يُمحى، وأكثر حميمية، من أن أشاركه.

كنا جميعاً كالطيور التي تحلّق حول سطح منزله الكريم، والهندباء الصغيرة السعيدة في ظل الفناء الخلفي لمنزله، والمخلوقات الصغيرة جداً التي ترعى على السفوح الوافرة لذلك الجبل الذي كان يمثّله. لقد

كان أمير قضيتنا، والمحارب العظيم، وصلاح الدين، في محاججتنا لخصومنا المهووسين، كان مصدر التعقّل في لحظات اليأس، وعزاءنا، في حزننا، وأملنا، في إنسانيتنا، كل هذا لم يعد موجوداً اليوم.

من الممكن - في غيابه الآن - أن تتذكر عندما كنت موجوداً، ولم يكن إدوارد جزءاً من وعيك النقدي، ونزعتك الإبداعية، ووجودك في العالم، عندما لم يكن ينظر من فوق كتفك مراقباً كل كلمة، تكتبها. إذا وجدت أن تذكر الوقت الذي لم يكن فيه جزءاً، لا يُجتزأ منك، ليس ضرباً، من العبث الأركيولوجي، إذاً؛ لا بد أن يكون هناك تفسير للمسافة والتناقض بين النزعة المدرسية الخجولة للتعلّم التي تلقّاها جيلي من المهاجرين المثقّفين والثقة والشجاعة التي يمكننا أن نقف - من خلالها اليوم - لمواجهة هذا القدر الغاشم - جنباً إلى جنب، مع إخواننا وأخواتنا، من جميع الأجناس والأمم والعقائد والاختلاطات - لنقول: «لا!»

هناك تضامن في الهدف - اليوم - بين عصبة من المتمرّدين والثوّار - بيننا غير المؤمنين واليهود والمسيحيون والوثنيون والهندوس والمسلمون، كما يوجد بيننا الملحدون والموحّدون، والسكّان الأصليون والمهاجرون - الذين يقولون الحقيقة للسلطة، مع صدى صوت إدوارد سعيد المتردّد لأصواتنا المجتمعة. كيف جئنا إلى هنا؛ حيث نحن الآن، نستمع، بأذنيه، ونرى، بعينيه، ونتحدث، بلسانه؟! إنه ليس سؤالاً لصنع حدث تاريخي، بل للتمتّع بالشجاعة الأدبية.

والآن، وفي لحظة أسطورته، عندما تركنا إدوارد سعيد لآلياتنا الخاصة، وانضم إلى هيكل الآثار الأسطورية، الوقت المناسب - بالضبط - لتحديد موقعنا غرامتشياً، كما سمّاه إدوارد ذات مرة، مرة معه، والآن، بدونه. العالم اليوم أكثر فقراً، بدونه، وأكثر ثراءً، بذكراه، في الوقت نفسه. في هذا التناقض - على وجه التحديد - تنطوي بذور المعارضة لدينا، ووعد مستقبلنا، وجدية قسمنا في الموقع المقدّس لنعشه.

تحدّر من جيل، من المثقّفين المهاجرين الذين يميّزون، بمنشئهم وذكائهم الناقد منذ وقت نشر كتاب «الاستشراق» لإدوارد سعيد (١٩٧٨)، ذلك النص الإلهامي الذي نبعت - من كل زواياه وأركانه - شخصياتنا النقدية، وصوت المعارضة لدينا، ونسيج سياساتنا، وشجاعتنا ذاتها. في العام نفسه الذي قامت فيه الثورة الإيرانية، عام ١٩٧٩، بعد أقل من موسم واحد، من نشر كتاب «الاستشراق»، في ذلك الوقت، قدّم لي صموئيل كلاوسنر الذي كان يدرّسنا النظرية والمنهج نصّ إدوارد سعيد المذهل، بطريقة عادية إلى أبعد الحدود. كنتُ طالب دراسات عليا، في جامعة بنسلفانيا، أنهي الدكتوراه المزدوجة، في علم اجتماع الثقافة والدراسات الإسلامية. وبحلول الوقت الذي قرأت فيه «الاستشراق» (أو بالأحرى، استنشقته، على دفعة واحدة عميقة؛ شربته ككأس، من عصير الليمون الطازج، في يوم صيفي حار)، كنت قد قرأت - بالفعل - كارل ماركس، ماكس شيلر، ماكس فيبر، وجورج هربرت ميد، في علم اجتماع المعرفة. ما قاله سعيد في الاستشراق، جاء مباشرة من زاوية علم اجتماع المعرفة، ولكنْ؛ مع شمولية الرؤية، والجرأة، ومع خيال مقدام متمرّد، وجرأة واثقة، إلى حدّ، جعلني، لا أصدّق ما أراه! لقد كنت أقرأ هذه الكلمات مغموراً بذلك العناق الخاص بين المنطق والبلاغة.

بحلول منتصف السبعينيات، كان جيلي - من علماء الاجتماع في جامعة بنسلفانيا - قد بدؤوا - بالفعل - بقراءة ميشيل فوكو، في منهج منظّم، وغير معتاد، نظراً إلى أن ذلك الفرع المعرفي لعلم الاجتماع كان يُهجَر سريعاً، لصالح بحوث السياسات والديموغرافيا المموّلة فيدرالياً، في دوامة هابطة، لم يتعافَ منها - أبداً - هذا الفرع الثوري، من فروع المعرفة. ولكنْ؛ في ذلك الوقت، في بنسلفانيا، كان كلّ من فيليب ريف، ديغبي بالتزيل، صموئيل كلوزنر، هارولد بيرشادي، فيكتور ليدز، وفريد بلوك منظّرين جادّين، مع نهج عالمي نسبياً، في اهتماماتهم، في علم الاجتماع.

كتبت رسالتي للدكتوراه، مع نصائح فيليب ريف لي في الجانب

الاجتماعي، من عملي، ونصائح الراحل جورج مقدسي، على الجانب الإسلامي. ولكن البذور التي قد زرعها الاستشراق في وعيي النقدي لم تفارق أفكاري بعد ذلك الخريف المصيري من عام ١٩٧٩ عندما قرأناه مع صموئيل كلوزنر، في غرفة صغيرة خافتة الإضاءة، في الطابق الخامس، من مبنى ماكنيل خارج ممر لاكوست، في الحرم الجامعي لجامعة بنسلفانيا، في خضمّ أزمة الرهائن، في إيران، عندما كنت أسمع جوقة من طلاب جامعة بنسلفانيا يهتفون، بصوت واحد: «اقصفوا إيران، شوّهوا الإيرانيين!»

إذا نزعت «الاستشراق»، من هذا المنهج الدراسي، ونزعت إدوارد سعيد، من وعينا، فإن جيلي من المثقّفين المهاجرين سيكونون مجرد حفنة، من الأرواح المتشائمة التي تعيش عرضة للحزن المزمن، أو قد تتحوّل - بكل أسف، وبشكل مثير للشفقة - إلى هذا النوع، أو ذاك، من الجواسيس والمخبرين المحليين؛ ممّن يبيعون أرواحهم، إلى سلاطين، بلا روح، في واشنطن العاصمة، أو للآباء الخرفين، في برينستون.

لم يكن لدي أي فكرة حول عمل إدوارد سعيد، في النقد الأدبي قبل «الاستشراق»، وبقيت غافلاً عنه - تماماً - لعدة سنوات بعد تخرّجي. ولم يفارق «الاستشراق» طريقة تفكيري وكتابتي عن التاريخ الفكري الإسلامي الحديث، أو القروسطي، أو الإيراني. ومنذ ذلك الحين، وقد شرعتُ في رحلتي، المهنية والشخصية والأخلاقية والفكرية، في الوقت نفسه، التي جلبتني - بالمعنى الحرفي للعبارة - إلى عتبة بابه، في حرم جامعة كولومبيا؛ حيث أدرّس الآن. حتى يحين أجلي، سوف أظل أعتزّ، بالمكان الجليل الذي التقيتُ فيه إدوارد - للمرة الأولى - قرب مسرح ميلر، على ناصية الشارع ١١٦ وبرودواي، وصعدتُ إليه، وعرّفته، عن نفسي، مع امتنان الصوت الحر، في تحيتي.

اكتشفت إدوارد سعيد - أولاً - من «الاستشراق»، ثم من خلال كتاباته عن فلسطين، ومن هناك، إلى تأملاته المحرّرة، عن الثورة الإيرانية. ثم بدأت

- بعد ذلك - في تدريب أشبه، بالرهباني، في كل كتاب كتبه، مع غالبية مقالاته وكتاباته، فقرأتها، وأعدت قراءتها مثل طالب مطيع، يستعد لامتحان الدكتوراه، بعد فترة طويلة، من انتهائي، من امتحانات الدكتوراه.

لا شيء يهمّني - اليوم - من الأشياء التي لا تُعدّ، ولا تُحصى التي تعلّمتها من إدوارد سعيد أكثر من البلاغة والحماسة الشديدة، في صوته، والعظمة، والثقة، والشجاعة، والجرأة، ورباطة الجأش، في قاموسه اللغوي، والتي - بدونها - كان سيقع جيلي - من المثقّفين المهاجرين تحت رحمة الأكاديميين المرتزقة، والصحفيين المغروسين الذين يملؤون اليوم مزاريب وسائل الإعلام - ينطقون، بأمراضهم، بعربية وفارسية رطينة، أو لهجات جنوب آسيا، ولكنهم يتحدثون، بلهجة «النحن» التي تدعو للغثيان، والتي تتّخذ جانب المهندسين المعماريين المفلسين، لهذه الإمبراطورية المفترسة. في ظل وجود صوت إدوارد سعيد، في موقفه النبيل، وفي محيطه الرزين، من الثقة، فإن لهجتنا الهشّة، من الاعتراضات الصامتة تقريباً، وضعف أقوالنا، في هذا الأمر، من شأنها أن ترتقي فجأة؛ لتصبح على مستوى الحدث.

لقد وجدنا - فجأة، من خلال إدوارد سعيد - الرفاق الذين لم نكن نظنّ أننا قد نحظى بهم، والأصدقاء والعائلات الذين لم نشتبه حتى في وجودهم، في منطقتنا، وأصبحت آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية - فجأة - امتداداً لوطننا بعيداً عن أرض الوطن. اكتشفت خوسيه مارتي، من خلال إدوارد سعيد، كما اكتشفت - أيضاً - كوجين كاراتاني، تشينوا أتشيبي، إقبال أحمد، طارق علي، رانجيت غوها، غاياتري سبيفاك، شيموس دين، ماساو ميوشي، نغوغي واثيونغو. كما أصبح - هناك - معنى جديد، لكل هؤلاء الذين كنا نظن أننا نعرفهم؛ إيميه سيزير، فرانتز فانون، المهاتما غاندي، محمود درويش، ناظم حكمت، فلاديمير ماياكوفسكي، فايز أحمد فايز.

عندما بدأ لون بشرتنا، بتشويش الخطّ الاستبدادي الفارق بين السود والبيض، في الولايات المتحدة الأمريكية - المعزولين عن بعضهم البعض، كلّ

في زاوية ثقة عرقية، وُضعت، في غير محلّها - ونحن الآسيويين واللاتينيين والعرب والأتراك والأفارقة والإيرانيين والأرمن والأكراد والأفغان والجنوب آسيويين، جمعنا - على الفور - ما وراء القاسم غير المشترك لأصولنا نحو التضامن، في سبيل هدفنا الناشئ، والنبل الكامن، في مصافحتنا لإدوارد سعيد.

بعد أن أتيت إلى جامعة كولومبيا، بسنوات، لم أكن أستطيع التوفيق - تماماً - بين إدوارد الجماهيري والأسطوري والمبدع، وإدوارد الراهن الذي كان يزداد تعرّفي عليه، وتغدو صداقتي به أكثر متانة، وأكثر حميمية وتضامناً. بدا الأمر، كما لو كان ثمة إدوارد سعيد المهيب لبقية العالم، ومن ثم؛ إدوارد آخر، لعدد قليل، ممّن أسعدهم الحظ. ولم يكن الاثنان غير متوافقين، ولكنهما طرحا سؤالاً، أو مسافة، في حاجة، إلى أن نعبرها: كيف يمكن لبشريّ هشّ جداً، وضعيف، وسهل الوصول إليه، أن يشكّل هذه الشخصية العالمية، بهذا الشكل الملحمي والمجازي والمثالي؟

عندما أهانني دجّال شائن، في إحدى الصحف الفاضحة، في نيويورك، وأنشأ موقعاً فاضحاً، على شبكة الإنترنت، للإساءة إلى موقفي العلني ضد الأعمال الوحشية الإجرامية التي يؤيّدها، غصّ بريدي الصوتي، بالرسائل العنصرية، أو الفاحشة، أو التهديدية، من قِبل عناصر فاقدة العقل، أطلقها هو عليَّ. وكما لو أنها أعجوبة، في وسط كل هذه البذاءات، كانت هناك رسالة، من إدوارد، أعطتني نَفَساً، من الهواء النقي، والمنعش، والمفرح، والمطمئن، والمؤكد على الحياة: «عزيزي حميد، أنا إدوارد ...». أصبحت الحياة رائعة. ظللتُ أستمع إلى هذه البذاءات، لمجرد الفرح، بالوصول لرسالة إدوارد. كان هناك شيء، من العناية الإلهية، في صوته، أعاد إليّ الأمل، في الإنسانية. اليوم في جنازة إدوارد، كان هذا العدد القليل من الحزانى الذي يمكنهم أن ينظروا إلى فوق أكتاف حاملي نعشه، شاهدين - اليوم - على استعادة سامية أخرى، للأمل، عندما عزف دانيال بارنبويم مقدمة «الكلافيير المعدل» لباخ في سلم مي المنخفض، كتحية موسيقية

لصديقه الراحل. لقد شهد مَن كان حاضراً، في تلك المعجزة، وسمعوا كيف كان الوداع المحبّ للمايسترو، لم يكن مجرد عازف بيانو موهوب، يعزف قطعة جميلة، من الموسيقى؛ لقد كانوا شاهدين، على حديث دانيال بارنبويم مع إدوارد سعيد، للمرة الأخيرة، في لغة مشتركة، من اختيارهما، وامتيازهما، وتفوّقهما.

كان إدواردُ سعيد التجسيدَ الحيَّ، للأمل، الحادث الاستثنائي الذي سعى، وكشف، عن التألق الاستثنائي، في أشخاص، كانوا عاديين قبل أن يمروا، على ناظريه. عندما خضعت قبل عدة سنوات لجراحة القلب المفتوح، وعندما تم تشخيص مرض زميلتي وصديقتي ماجدة النويهي التي رحلت عن عالمنا منذ ذلك الحين، بسرطان المبيض، كان إدوارد استثنائياً، في دعمه: يتصل بنا، بانتظام، ويرسل لنا كتبه الجديدة، ومقالاته، ويقرأ مخطوطاتنا، ويسخر ممّا أسماه نزعاتنا ما بعد الحداثية. كان صوتَ ضحكاتنا، ولونَ فرحنا، وشكلَ أملنا. قاتلت ماجدة السرطان الخبيث لسنوات حتى أصبح أطفالها الصغار، بعمر المراهقة، وتحديتُ أنا قدري الوراثي، وعشت، وكان إدوارد المثل الأعلى لصمودنا، ومعيار حقيقتنا، ومعنى جرأتنا، للسير باتجاه قاعة الدراسة. وكلما اقتربتُ من إدوارد، بدا من المستحيل معرفة كيفية تشكّل شخصيته البطولية، بهذا الشكل الأسطوري. في ذلك الوقت، كنت قريباً جداً، من الجبل، مغموراً، بإحسانه، وغافلاً عن جلاله. ولكنْ؛ حتى في حياته العامة، لم تختلف قصة حياة إدوارد سعيد، كما نشرها، عن ذلك. عندما يقرأ المرء كتابه «خارج المكان» (١٩٩٩) يحاول - عبثاً - البحث عن دليل، سلسلة من الأسباب والصفات التاريخية، أو النفسية، تتضح منها الأحداث التاريخية العظيمة، والاستثنائية التي صنعت حياة، وصلت إلى تلك الدرجة الهائلة، من الأخلاق. كان كل ما يتعلق، بإدوارد سعيد عادياً، إلى حد ما، ولكنْ؛ نتجت عن تلك الأحداث العادية في حياته مغامرة استثنائية.

وُلد في فلسطين عام ١٩٣٥. وتمّت تسميته إدوارد، على اسم أمير ويلز. وعاش حياة المنفى مثل الملايين من الفلسطينيين الآخرين، في

العالم العربي. أُرسل إلى مدرسة جبل حرمون الثانوية، في نيو انغلاند، وبعد ذلك، تلقّى تعليمه العالي، في برينستون وهارفارد، لم يتحدث إدوارد سعيد عن أيّ حدث استثنائي، يمكن المرء تحديده، وتحليله، ووضع نظريات له، على أنه اللحظة الفارقة، في تكوين هذه الشخصية الأسطورية التي كان عليها عند وفاته المفاجئة. كان إدوارد رجلاً عادياً. كان إدوارد سعيد عملاقاً. ولم يصنع الفارق بين الاثنين سوى عظمة خياله الجريء.

كانت معرفة إدوارد سعيد - بشكل شخصي - دراسة، في كيفية صناعة الأبطال، من لحم ودم أكثر الوقائع اعتيادية وتلفاً. فلسطيني، منفي، ومثقّف أكاديمي، ومدرّس، وعالم، وزوج، وأب، وصديق: لا شيء من هذه الأدلة المشتركة الوفيرة من هذا العالم المفكّك يمكن أن يفسّر المجموع الكلي لإدوارد سعيد، كشخصية عظيمة، تحدد المعنى الدقيق، للحياة الأخلاقية.

سألت تشابلن ديفيس - هنا - في كولومبيا: «هل كنت تعرفين البروفيسور سعيد؟»، عندما كنا نبحث عن مكان لمريم سعيد، لتلقي ذلك السيل من الزوار الذين أرادوا تقديم تعازيهم يوم الجمعة الماضي. قالت: «لم ألتق به، ولكنني أعرف أنه كان محارباً». ثم نظرت في وجهي، بعيون لامعة مشرقة، وأضافت: «محارباً، من أجل العدالة». وقال زميل آخر عن سعيد، في يوم وفاته: «لقد كان مثل ضوء، انطفأ، في الحرم الجامعي».

إذا أراد المرء أن يبدأ في وضع تفاصيل الحياة الأدبية والفكرية لإدوارد سعيد معاً، فلن يجدها، في سرديات، من حياته، في المنفى التي يشترك فيها مع ملايين آخرين، من الفلسطينيين، أو غيرهم، بل في شاعرية تحدّيه الإبداعي لمصيره؛ حيث تمكّن - مراراً وتكراراً - من إعادة استيلاد نفسه. كان إدوارد سعيد - عند وفاته - صاحب الولاية الأخلاقية، وفورة بركانية، لحياة كانت ستُهدر، على خلاف ذلك، في حوادث، تتراكم في النهاية؛ لتشكّل لا شيء. كان المنفى مصيره، ولكنه حوّله - بشكل بطولي - إلى ثمرة حياته - الهدية التي منحها لعالم، يرتحل، إلى ما لا نهاية منفياً عن نفسه.

يمكن أن نجد حالات قليلة في كتاب «خارج المكان»، تكشف السلسلة الإبداعية لمثل هذه اللحظات أفضل من الفقرة الختامية من الكتاب. في شكل مشابه لحياته، يجب قراءة السيرة الذاتية لسعيد، من نهايتها، وليس من بدايتها. يقول إدوارد: «إن الأرق - بالنسبة لي - حالة حميمة، يجب السعي إليها، بأيّ ثمن». بقي إدوارد مستيقظاً عندما ذهب العالم للنوم - الضمير المؤرّق للعالم، متعمّقاً مثل مينيرفا، ومراقباً، بعينيه المتيقّظتين، كالبومة الحكيمة، يرى كل شيء، يسمع كل شيء، ويعي كل شيء. «لا يوجد محفّز يماثل طرح الوعي الناقص الغامض لليلة المفقودة، مثل الصباح الباكر؛ حيث أعيد استكشاف ما قد أكون خسرته منذ بضع ساعات، أو أستأنف مساره».

وهنا، على حدود الوعود المتكررة لبزوغ الفجر ضد الاستمرار المؤكد للظلام، وعندما يبدو أن اللحظات الأكثر قتامة من اليأس، ينبغي أن تُذعن للآمال الأكثر إشراقاً، سنجد إدوارد سعيد - هنا دائماً - بانتظار أن نصحو، وأن نصل إليه. «لقد تعلمت - حقاً، من خلال تلك المتناقضات الكثيرة - أن أفضّل ألا أكون على حقّ، في كل شيء، وفي غير مكاني». ولقد أثبت إدوارد سعيد - هنا - باعتقادي وجهة نظره، وترك أثراً، لا يُمحى، على بقيتنا ممّن يحاولون مثلنا أن يتعلّموا منه كيف يكتملون عن قصد، بينما يبقون غير مكتملين، كعادة البشر. ذلك في رأيي، هو السبب الرئيس الذي يجعل هذا العدد الهائل من الناس الذين عادة ما يكونون، على خلاف سياسي وأيديولوجي، مع بضعهم البعض، يحبون إدوارد، بعمق، دون أن يتناقضوا مع أنفسهم، أو معه. كان يتمتع بروح عفوية. لقد خلق حالة مستمرة، من الألفة والهدف الأخلاقي لبديهيات الفرضية التي تم إعطاؤها له، وحافظ عليها، وليس على المثالية المتوقّعة ليقين ميتافيزيقي، أو آخر.

كان أبرز شيء في إدوارد سعيد، أنه - وفي قمة عزلته المطلقة - لم يكن وحده. كان يدافع - دائماً - عن فكرة، كانت ستظل غير منطوقة، بدونه، وهي إمكانية أن تعيش حياة أخلاقية، بالرغم من كل الظروف المضادة،

كداوود الرشيق الذي يلفّ مقلاعه، ويسدد الحجارة، على جليات هذا العالم المطروح، بلا رحمة، في منطق جنونه الخاص؛ ليكون الصوت الأخلاقي لشعب، وأن يحوّل المصير المأساوي لذلك الشعب، إلى مأساة مأزق عالم، بأكمله، تحوّلنا فيه جميعاً إلى فلسطينيين، بلا مأوى. كانت فضيلته تكمن، في تحويل رذائل زمنه، إلى مناسبات مهمّة، للمزيد من الخير العالمي الذي يتجاوز خصوصية خطأ، بعينه، أو آخر.

كان هناك شمول، في معرفته التحرّرية، وسخاء كبير، في استقامته الأخلاقية، تخطّت جميع الحدود، بسهولة، وتفوقت على جميع المزاعم الإقليمية، بالأصالة. وكان - دائماً - كما قال - محقاً - في غير مكانه، إلى حد ما، ولكنْ لم يُظهر ذلك سوى مدى خطأ المكان ذاته، في استيعابه، بكامل شخصيته وثقافته.

خلق سعيد فضيلة عالمية في إرثه، من المأزق الذي أهداه إياه العالم، في لحظة ولادته. وُلد في فلسطين، ولكنه حُرم من حقوق أجداده، في تلك الأرض، وترعرع في مصر، ولكنه تعلّم تعليماً بريطانياً استعمارياً، ثم بُعث إلى الولايات المتحدة لتحقيق طموح والده، بالحصول على جزء أكثر ديمومة، من الحلم الأمريكي، ولكنه كان مدفوعاً - باستمرار - بقول حقيقة تلك الكذبة للقوى التي تتحكّم فيها، فحوّل سعيد حتمية مصيره، إلى لحظة فارقة، في مكانته، كشخصية فارقة، في جيل كامل من الأمل ضد ثقافة كاملة من اليأس.

كان لحياة إدوارد سعيد أثرها الأقرب، كشهادة بليغة، لشعب تعرّض لضرر هائل، ووحشية منقطعة النظير، على مر التاريخ. لا يمكن، ولا ينبغي، أن تُسلب حياته وإرثه تلك الآنية. أولاً - وقبل كل شيء - تكلم إدوارد سعيد، كفلسطيني - فلسطيني مهمّش، مشرّد، منفي. اعتيادية قصته - وخاصة، في تلك اللحظات عندما تحدّث، بانفتاح، وبصراحة، وببراءة، عن شبابه المبكر، وفترة المراهقة، ومنافسات الإخوة، والنضج الجنسي، وهلم جراً - هي - بالضبط - ما يعيد الكرامة لشعب، شوَّهت سمعته سلسلة

من الدعاية السلبية، ونزعت عنه إنسانيته، لدرجة سلبه وطنه أمام أعين التاريخ. لا إمكانية لحصر وتقييم إنجازاته متعددة الأوجه، كمدرّس، وناقد، وباحث، ولا أي اعتراف تمجيدي، لإنسانيته الكونية، ولا تقديره المستحقّ، كموسيقي، ككاتب مقالات، وكمنظّر مجهول، وناشط سياسي، كل هذا لا يمكن أن ينتقص من مكانته الأسمى، كفلسطيني مصاب، بجرح عميق من القدر الذي أسماه - وبكل إخلاص، ومراراً وتكراراً - «شعبي».

لكن إدوارد سعيد لم يكن مجرد فلسطيني، على الرغم من أنه كان يفخر بكونه فلسطينياً. أصبح إدوارد سعيد رمزاً، ونموذجاً أخلاقياً، في الوقت الذي قد يلقي فيه اتخاذ تدابير يائسة ظلالاً من الشك، على إمكانية وجود صوت أخلاقي، وهنا صنعت الاعتيادية التي سادت على حياته ذلك الصوت الاستثنائي الذي كان أكثر صموداً. لم يكن سعيد مجرد فلسطيني فقط. ولكنه جعل كل شخص آخر، يبدو وكأنه فلسطيني: الذي أصبح، بلا مأوى، نتيجة المنطق المجنون للعبة وحشية للسلطة، سلبت العالم كله من أيّ مظهر، من مظاهر الثبات.

كيف يمكن أن يبقى الصوت الأخلاقي صادحاً، باستمرار، في عالم زائل، من الناحية الأخلاقية؟ وكيف يمكن أن يغيّر مظهر الطفرات المشوّهة للعالم، إلى مقياس مهذّب للحقيقة؟ وكيف يمكن تفكيك السلطة، مشاريع المعرفة الخاطئة، والإصرار - مع ذلك - على أن العدالة حق، والحقيقة جميلة؟ هذا هو إرث إدوارد سعيد، من قمة جبل هيبته المرئية من بعيد، وصولاً إلى سفوح مراعيه الوفيرة التي سعدت بعض النفوس، بتسميتها وطناً لها.

نُشرت لأول مرة في آسيا سوسيتي، سبتمبر ٢٠٠٣

الاسم الذي يمنح القوة:
في استحضار إدوارد سعيد

اوقفوا كل الساعات ... دعوا المشيعين يأتون.

دبليو. إتش. أودن

الفكرة المهيمنة المشتركة، للكتابة، في ذكرى هامة، لرحيل صديق، هي ذلك العنصر القوي، من الحنين، إلى الماضي: كم كانت الأمور رائعة عندما كان على قيد الحياة! وكم من المحزن أنه لم يعد معنا!

يصبح هذا الحنين أقوى عندما يكون الصديق الذي رحل شخصية فكرية شاهقة، كان صوته ورؤيته محدداً لعصر، يبدو - الآن - كما لو كان تغيّر، بلا رجعة. عندما يكون موقع ذلك التغيير الدراماتيكي هو منزل ومسكن هذا الزميل، مع فلسطين، كمركزه، ويجتمع حوله - بزخم متزايد - بقية العالمَيْن العربي والإسلامي الأكبر، فيغدو فعل الذكرى ذلك مجازياً.

نحتفل - في سبتمبر هذا العام - بالذكرى السنوية العاشرة لرحيل إدوارد سعيد، في وقت، يشهد فيه العالم العربي الاضطرابات، وتتعرض فلسطين للسرقة، بشكل أكثر وحشية، على مدار الساعة. نتذكر - نحن أصدقاءه ورفاقه وزملاءه - صوته، ورؤيته، وعزمه الراسخ لقيادة قضايانا، في جميع أنحاء العالم. ولكنْ؛ كيف لا يزال يظهر الطريق لنا بعد صمته، بعقد كامل؟!

والحقيقة هي أنني عندما أفكر في إدوارد سعيد اليوم، وبالمدة التي امتدت إلى أكثر من عقد من الزمان التي كنت محظوظاً فيها، في التعرف عليه شخصياً، كصديق وزميل هنا في «جامعة» كولومبيا، لم تكن الأهمية القصوى لشعوري هي الشعور، بالخسارة، ولكنْ؛ الشعور، بالتوقف. يبدو لي أن بعض الناس لا يموتون - أبداً - لدى أولئك الذين كان خيالهم السياسي

والأخلاقي متجذّراً - بشكل عضوي - في ذاكرتهم الحية. لقد تجمّد عدّاد الزمن - بالنسبة لي، على الأقل - لحياتنا السياسية منذ ذلك الصباح المشؤوم ليوم ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٣، عندما اتصل بي جوزيف مسعد؛ ليقول بأن إدوارد قد لفظ أنفاسه الأخيرة. ولقد كنت قد تلقّيت - للتو - خبر وفاة شقيقي الأصغر عزيز، وهكذا تجمّد - في مسار الزمن - شعوري، بخسارة الشقيق، بل خسارة شقيقين، أخاً أصغر، وأخاً أكبر، وتشكّل، على رفّ موقد، كان مركز مكان، كان يمثّل لي البيت.

لقد كتبت بضع مقالات - تحديداً - عن رحيل إدوارد سعيد، عن مشاعري وأفكاري الفورية عندما وافته المنية، ثم رحلتي إلى فلسطين، والتي عدتُ منها، بحفنة، من التراب، من المقبرة المقدّسة لصحابة النبي، في القدس، بالقرب، من قبة الصخرة، ثم ذهبتُ إلى برمانا، في لبنان، ووضعتها على المثوى الأخير لإدوارد. ثم كتبتُ مقالة أخرى - بناء على طلب أرملته مريم سعيد - لوضعها، في كتاب صغير محدود التوزيع؛ لتأبين إدوارد، في كولومبيا في مارس ٢٠٠٤.

ولكنْ؛ لم تكن أيّ من تلك المقالات، بقادرة، على وضع أي شيء، يشبه نقطة النهاية، للارتباطات الأخلاقية الخيالية والسياسية والعلمية مع سعيد. فهي لم تكن تتعلق بشخصية إدوارد سعيد، على قدر ما كانت تتعلق، بالشخص الذي مكّنني من أن أكونه. أقرأ اليوم هذه المقالات، كعلامات ترقيم مختلفة، في محادثاتي المتطورة مع ذكراه الباقية. بعد فيليب ريف وجورج مقدسي، الشخصيتين الفكريتين الشاهقتين اللتين تلقيان بظلالهما، على كل جملة أكتبها، يجلس إدوارد سعيد، بجوار جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بي، كما كان حاله دائماً، حسن الهندام، وفضولياً، ومرحاً، ومصمِّماً، في الوقت نفسه، يسألني: ما الذي يختمر في عقلي.

الاقتباس عن سعيد

لقد حدث الكثير منذ وفاة سعيد. ولقد فكّرنا جميعنا - في مناسبات كثيرة - بما يمكن أن يقوله، لو كان معنا اليوم، وخاصة عندما بدأت الثورات

العربية. ماذا كان سيقول عن المذابح، في سورية، عن الانقلاب في مصر، عن قصف حلف شمال الأطلسي، لليبيا، عن الثورة في تونس، وقبل كل شيء، عن استمرار السطو المسلح السافر، على فلسطين؟

على الرغم من أن سعيد لم يعد معنا؛ لنتبادل الأفكار، ولكنه قد قام، بما يكفي، لتمكيننا من التفكير معه. أصبح بعض المثقّفين الشاهقين جزءاً، لا يُجتزأ، من الأبجدية ذاتها لخيالنا الأخلاقي والسياسي. لم يعد هؤلاء المفكّرون، بحاجة إلى أن يكونوا معنا جسدياً؛ ليعرف المرء ما قد يفكرون به، وما قد يقولونه، أو ما قد يكتبونه. إنهم يعيشون في أولئك الذين يقرؤونهم، ويفكّرون، من خلالهم، وبالتالي؛ يصبحون مرجعاً، وأمثولة، لتفكيرنا.

عاش سعيد - بشكلٍ كامل، بوعي تام، وبوعي نقدي تام، في السراء والضراء - في عصرنا؛ حيث بات فاصلاً لتفكيرنا النقدي، مثل ماركس، أو فرويد، أو فانون، أو دوبوا، أو مالكوم إكس. إنهم الصوت الذي نغني به، العيون التي نرى بها، ورائحة الأشياء التي نشمّها، منتهى حسّ التسامي لدينا.

في مناسبات عديدة، كنت ألتقي سعيد مصادفة، في الحرم الجامعي، بينما كنت أتحاور معه، في ذهني، فأبدأ - حينها - في متابعة المحادثة، ولكنْ؛ بصوتٍ عالٍ. ويبدو أن سعيد كان يقوم، بالشيء نفسه: يقول - فجأة - شيئاً، كما لو أننا قد بدأنا المحادثة قبل فترة طويلة، من رؤيتنا لبعضنا البعض، في الحرم الجامعي. لا يزال هذا الشعور بالمحادثات المعلقة والمستمرة حياً. ربما كانت حالة من الإنكار، وربما كان ذلك يرجع إلى حقيقة أن المفكّرين مثل سعيد معرّفون، بالنسبة لتفكيرنا، مثل عمليات الفاصل الزمني التي تعيد إنتاج نفسها.

لا أعتقد أنه بمقدوري أن أقيم الحداد، على روح إدوارد سعيد، ما دمتُ أنا حي، فالحداد أحد طقوس قبول الخسارة؛ لأني لا أعتقد أن ذلك النوع من المحادثات معه سينتهي أبداً. لا أزال أعيش، في نفس الحيّ الذي عاش

فيه مع عائلته لعقود. لا أزال أقابل أرملته مريم مصادفة بين فترة وأخرى، في الأماكن نفسها تقريباً التي كنت أصادفه بها.

ما أزال أقرأ كتباً ومقالات إدوارد، وصوته يرنّ، في أذني، ولا أزال يحرّكني فرح مبادئه وغضبها، في صلب سياستي الخاصة. لقد وصلت إلى مرحلة بعيدة جداً عن حيث كان إدوارد سعيد، فيما يتعلق، بالنظريات الأدبية والتاريخية، لأننا بدأنا، من وجهات نظر مختلفة. ولكنني أفكر به، في أفكاري، وأشعر به، في مشاعري الخاصة، وأجد صداه، في سياستي الخاصة. أشعر معه، بالراحة، بالطريقة نفسها تقريباً التي كان يشعر فيها، بالراحة، في أي مكان، يكون فيه، أنه في غير مكانه، إلى حد ما، بعد أن وصلت إلى استنتاجات مماثلة (ولكنْ؛ غير مطابقة) لاستنتاجاته، ولكنْ؛ من نقاط بداية مختلفة، شاخصين أبصارنا نحو شواطئ متجاورة. لقد كان سعيد مساهماً فعّالاً، وليس معلّماً، وحسب. لم يكرّر نفسه. بل أصبح أصدقاؤه أقرب إلى أنفسهم، بفضله.

يمكّن المثقّفون العظماء مثل سعيد، أو فانون، أو سيزير المرءَ، من إيجاد صوته الخاص، في الوقت الذي يتأكدون فيه من ألا يقلّدهم، أو يكرّرهم أحد، بل أن يكون امتداداً لهم، ويجادل منطقهم، ويستأنس، بسياساتهم وخطابهم، ويتنقل في الأراضي المجهولة، ببوصلتهم، ولكنْ؛ دون أن يتبع خطاهم، في الرحلة نفسها. من المستحيل - بالنسبة لي - أن أكون من أتباع إدوارد سعيد، أو من أتباع فانون؛ لأنهما كانا استثنائيين، في كونيتيهما؛ بحيث لا يستطيع المرء إلا أن يحفز خصوصياته الذاتية، بانتظار حدسهم الخاص، من التسامي.

أساس فكري جديد

توقّفنا - نحن المثقّفين المهاجرين، مع وفاة إدوارد - عن كوننا مهاجرين، وأصبحنا من السكان الأصليين لأساس فكري جديد. إننا نتاج اكتمال معاركه. لقد جعل نفسه، في غير موضعه، بطريقة، بلغت، من الدقة، ما جعلنا نتوقّف عن أن نكون في غير موضعنا، من بعده، ولكننا نشعر، براحة بيوتنا، في أي مكان، فنعلّق قبعاتنا، بهدوء، ونقول: لا للسلطة.

بعد سعيد، لا يوجد مواطن، ولا وطني، ولا دولي، ولا مثقّفو العالم الأول، أو الثاني، أو الثالث. إن ساحات المعارك الفكرية محددة، وعالمية. لا يستطيع المرء أن يشنّ أيّ معركة، على أيّ مستوى محلي دون أن يتمّ التعاطي معه، في الوقت نفسه، على الصعيد العالمي. إذا لم يكن المرء عالمياً، فلن يكون محلياً، وإذا لم يكن المرء محلياً، فلن يكون عالمياً. إن أكثر المفكّرين المملّين والمنفصلين عن الواقع أولئك الذين يعتقدون أن الولايات المتحدة الأمريكية، أو إيران، أو الهند، أو القطب الشمالي، مركز الكون. الكون، لا مركز له، لا حدود، إننا جميعاً نطوف، بحرية. وكان سعيد محدداً، للغاية، حول فلسطين، وبالتالي؛ جعل من المأزق الفلسطيني رمزاً ميتافيزيقياً، وضرب جذوره، في العذاب الجسدي، لشعبه وبطولته.

لا معنى - بعد سعيد - للحديث عن «المثقّفين المنفيين»؛ لأنه وضع نظريات هذه الفئة من المثقّفين، في عصره، بكل دقة. ليس هناك وطن؛ لنكون منفيين خارجه. فرأس المال والإمبراطورية التي ترغب في إدارة ذلك المال، لكنها تفشل، في ذلك، أصبحا في كل مكان. ليس هناك مخرج من هذا العالم، والوطن والمنفى مجرد أوهام، فككتها الإمبراطورية ورأس المال هذا.

الأساس الفكري الجديد الذي أفسح له سعيد المجال، تطلب أن يشمّر المرء، عن ذراعيه، وأن ينكبّ، على الأمر، حتى يتمكن من العثور، على العزاء وسط الفوضى، والضوء وسط الظلام والأمل وسط اليأس.

افتقاد سعيد

هناك أوقات، لا أفتقد فيها سعيد؛ لأنه - بالمعنى الدائم - لم يغادرنا قطّ. يظن المرء أن الهاتف سيرنّ، لأجده يرغب، في الحديث، عن شيء، أو آخر، أو أن ألتقيه صدفةً، في الجامعة، أو أن يظهر اسمه، في صندوق بريدي الإلكتروني. أنا لا أفتقده؛ لأنني أعتقد أنني لم أنته - تماماً - من الحديث معه، ومجادلته، والاتفاق، والاختلاف معه، والبوح له. إنه موجود

دائماً، هناك في خضم ضباب السعادة واليأس الذي يحرّك كل كتاباته، ويجعلها محبّبة.

وثمة أوقات أخرى، وخاصة في قلب الظلام، في بدايات الصباح الباكر؛ حيث أستيقظ عادة؛ لأبدأ القراءة والكتابة، على بعد عدة مبانٍ قليلة، من المكان الذي كان يعيش فيه، ويفعل الشيء نفسه، فأشعر - فجأة - بثقل غيابه، والفراغ الهائل الذي خلّفه، وهالته وصوته، ونظرته الفضولية العابثة، وحديثه الدائم عنك مباشرة، بوضوح، وعلى وجه التحديد، ولكن منطلق القناعات الثابتة للشواطئ المطمئنة البعيدة التي رآها. كانت مصادفة تلك اللقاءات، عندما كنت ألتفّ من شارع ١١٦ نحو برودواي، فأراه قادماً - فجأة - ليعابثني قائلاً «أنتَ، وما بعد حداثتك»، وعندما أوشكُ على الاحتجاج، يقول: «لا تقلق، أنا الذي اخترعتُ هذه المفردة!».

أحبَّ إدوارد إضافةَ الشدّة الزائدة إلى منتصف كنيتي، وينطق حرف «الدال» ليس مشدّداً فقط، ولكنْ؛ مضاعفاً خمس، أو ست مرات إضافية. ويقول مازحاً عندما يمدحني أمام أحد، من الأصدقاء، أو من أفراد العائلة «إنه ليس عربياً حتى». كم لا يُعدّ، ولا يُحصى، من الذكريات، ورسائل البريد الصوتي، والبريد الإلكتروني، واللقاءات القصيرة، والتعاون المخطّط له، والمناسبات الأكاديمية الرسمية، جميع هذه الأمور تربط حياتي في كولومبيا، بإدوارد سعيد، وأنا أعيش كلاً منها، في ذهني، وأعبث مع هذه الذكريات، بسعادة، مع نفسي، في كل يوم، من أيام حياتي، وسوف أقوم بهذا، ما دمتُ بقيت، على قيد الحياة، وما دمتُ بقيت قادراً على التفكير، والتذكّر، واستعادة اللحظات، ومعاودة التفكير به، في ذهني.

لديّ صورة ذهنية، عن إدوارد سعيد، ولكنها تتلاشى - بشكل متزايد - في ذهني، وكلما تلاشت، تذكّرتُها، عن قصد. كان هذا في ٢٨ أبريل ٢٠٠٣، وكنا جميعاً، في كلية سوارثمور، في بنسلفانيا؛ لنحتفي، بشِعر محمود درويش، الذي كان قد تلقّى لتوّه جائزة لانان، للحرية الثقافية. في

نهاية الحفل، ذهبت مع درويش وسعيد ومسعد لزيارة صديقتنا وزميلتنا ماجدة النويهي، التي كانت على فراش الموت، والتي توفّت بعدها، بقليل، بمرض السرطان. كانت ماجدة مستلقية على سريرها، مجرد ظلّ، من ماجدة القديمة، ولكن ابتسامتها الفردوسية لا تزال تزيّن وجهها الجميل. لا أذكر كلمة ممّا قاله أيّ شخص حول هذا السرير، أتذكر - فقط - الصورة الذهنية، الثابتة والعالقة، كاللوحة الجدارية المنحوتة، على أعمق حائط، في ذكرياتي، وعليها وجوه كل، من الراحلين الثلاثة ماجدة، وإدوارد، ومحمود، تلمع - اليوم - بصورة أكثر إشراقاً.

كتب ليفيناس مرة: «ربما، يمكن لأسماء الأشخاص التي يدلّ النطق بها - على وجه، بعينه، أسماء عَلَم، في وسط كل هذه الأسماء والأماكن العادية - أن تقاوم انحلال المعنى، وتساعدنا، على الكلام». وبالطريقة نفسها، يصبح الاسم والشخصية والذكرى التي نسمّيها «إدوارد سعيد» محدِّدة، لمعنى وغرض اللحظة، عندما أوقّع اسمي أعلى، أو أسفل هذا التكريم، وأسمّي نفسي، باسمٍ عَلَم.

نُشرت، لأول مرة، على موقع الجزيرة، في سبتمبر ٢٠١٣

الفصل الثالث
الشرق الأوسط تغيّر إلى الأبد

انهض لتحمل عبء الرجل الأبيض
أرسل صفوة ذريتك
واربط أبناءك بحبال المنفى
لتلبية حاجات أسراك،
للحياة تحت قيدٍ ثقيل،
بالشعوب المرتجفة والبرية
شعوبك الجديدة المشتعلة بالتجهم،
نصفها شيطان ونصفها طفل.

روديارد كبلنغ، "عبء الرجل الأبيض". (١٨٩٩)

التفكير فيما وراء الغزو الأمريكي لإيران

تُقرع طبول الحرب مجدداً، في العاصمة واشنطن. وتُسمع مجدداً علامات وإشارات الاستعداد، لهجوم أمريكي/ إسرائيلي، على دولة أخرى، إيران هذه المرة، وبصوت أعلى، من أي وقت، مضى.

لقد بدأت التراكمات، حتى وصل ذلك التصعيد المثير للقلق - بالفعل - إلى اكتساب المزيد، من الزخم. تهديدات مباشرة، وإشارات غير مباشرة، وتصريحات متأهّبة، وخدع استفزازية - لا أحد يعرف - على وجه الدقّة - ما الذي تفكّر به إدارة بوش - وهذا هو الموضوع، على ما يبدو، بدقّة: توليد حالة عامة، من عدم اليقين المثير، وجوّ، من الخوف والترهيب عديم الشكل، وحالة دائمة، من الحرب.

وكانت تشكّل - حتى اليوم - ممارسة النشاط المناهض للحرب، في جميع أنحاء العالم تعبئة دورية ومتفرقة ضد حرب، أو أخرى، أطلقتها الولايات المتحدة/إسرائيل لمتابعة أشباح الأفكار العسكرية المتطورة، للمحافظين الجدد، في الولايات المتحدة، والحركة الصهيونية النشطة، في إسرائيل، والرد على أعمالهم الاستباقية المتمثّلة في الإرهاب العالمي. وفي الوقت الذي ننتظر فيه قيام الحرب الإيرانية (أو عدم قيامها)، ربما يكون الوقت مناسباً، للعودة إلى الوراء، وتقييم ماهية هذا المحور، من الإرهاب العالمي العابر للقارات؛ الولايات المتحدة الأمريكية، ودولة إسرائيل اليهودية، وبالتالي؛ إعادة النظر في الطرق المدنية لمعارضة ومقاومة ذلك.

عندما صبّت الولايات المتحدة جامَ غضبها، على أفغانستان في أكتوبر ٢٠٠١، ظنّ حتى أولئك المراقبون الأميركيون التقدميون نافذو البصيرة مثل ريتشارد فولك (وأيّدته هيئة التحرير في مجلة «ذا نيشن») أنها كانت «حرباً عادلة». لم تكن وجهة النظر هذه مجرد عمل من أعمال الحمق التاريخية. لقد كانت علامة متفرّدة، على السذاجة السياسية.

إننا - اليوم - في طريقنا لتجاوز ذلك الالتباس البريء، وربما الغاضب، لما نزل على رؤوسنا، بسرعة. بعد الفوضى في العراق، بدلاً من انتظار الخطوة التالية، والتساؤل فيما إذا كانت الولايات المتحدة/إسرائيل ستهاجمان إيران؟ أم لا؟ هل ستقصفان سورية؟ أم لا؟ هل ستستوليان - تماماً - على الصومال؟ وهل ستتدخّلان عسكرياً ضد كوريا الشمالية؟ وهل ستحاولان دعم انقلاب آخر في فنزويلا؟ فإننا بحاجة إلى التفكير، فيما وراء مثل هذه الاحتمالات، والوصول إلى قلب حالة الحرب التي تفرضها لعبة الانتظار هذه. وكما تدلّ كل المؤشرات، فإن الكونغرس الأميركي الديمقراطي، لا يمكن أن يُحدث أيّ فارق كبير، في حالة الحرب هذه.

يعني النظر في الأنماط الناشئة لحالة الحرب هذه، أنه من السلامة اقتراح - على سبيل المثال - أن ما تخطّط له الولايات المتحدة (ومثل هذه العبارات

التخمينية تُعدّ أعراضاً واضحة لحالة الحرب هذه) للقيام به في إيران، قد يكون على غرار ما فعلته إسرائيل، في لبنان، في يوليو ٢٠٠٦، وبالتالي؛ ضرورة عدم التعاطي مع تلاقي الإمبريالية والاستعمارية لإثارة الحروب، في العالم، كموقفَين سياسيَّين منفصلَين وكيانَين وطنيَّين منفصلَين، ولكنْ؛ تقليصهما، إلى محور واحد، من إرهاب الدولة الذي يهدف إلى الهيمنة العالمية، بلا منازع. وليكون هذا الاندفاع نحو الهيمنة العالمية ذا تأثير طويل المفعول سياسياً ونفسياً، تصبح حالة الحرب أكثر أهمية، بكثير من الفعل الحقيقي للحرب، ويصبح التهديد بالعنف أكثر زعزعة للاستقرار سياسياً، من أي عمل، من أعمال العنف.

لأن حالة الحرب والتهديد بالعنف تُغيِّر الثقافة السياسية التي نستقبل، أو نفسر - من خلالها - أيَّ فعل، من أفعال الحرب، أو أياً، من أحداث العنف، لدرجة، تجعل من ضخامة التكلفة البشرية والأضرار في البنية التحتية، والكوارث البيئية، على سبيل المثال، الناتجة من أيّ عمل من أعمال الحرب، تبدأ في التضاؤل والذوبان وسط حالة الحرب الوبائية المنتشرة، في كل مكان.

استمرت الولايات المتحدة/إسرائيل وحلفاؤها الأوروبيون، في فرض تلك الحالة، بشكل منهجي، لأكثر من خمس سنوات الآن، فعملت على تأجيج أعمال «الصدمة والترويع»، كما كان يُطلِق عليها وزير الدفاع الأميركي السابق دونالد رامسفيلد، في مكانٍ، أو آخر.

والآن بعد أن بدأ قانون الإنتاجية المتناقصة، في فرض نفسه، وبدأت أعمال العنف الشرسة، في العراق، في ظل الاحتلال الذي قادته الولايات المتحدة، والوحشية السافرة لإسرائيل، في فلسطين ولبنان، في التوقّف لتكشف عن ثقلها الهائل وعواقبها غير المفهومة. وبعبارة أخرى، فإن حالة الحرب تخدّر الوعي البشري، فتجعلنا لا نستجيب (لافتقارنا إلى أيّ لغة ذات مغزى) إلى الأفعال المبدئية للفساد الأخلاقي الذي نشهده - يومياً - في فلسطين والعراق، بأي شيء، يقارب مستوى تلك الأفعال.

وبالنتيجة، بينما كانت الوكالات العسكرية والاستخبارية الأمريكية والإسرائيلية ومراكز الأبحاث - وقبل كل شيء - وسائل الإعلام (حيث تشكّل كلها جزءاً، لا يُجتزأ، من التفكير عسكريّ النزعة) منهمكة، في المناقشات حول كيفية التعامل مع «الإرهاب»، يحتاج العالم - أيضاً - إلى قلب الأمر، وعكس الاتجاه، والبدء بالتساؤل حول كيفية التعامل مع هاتين الدولتين الإرهابيتين، وإنقاذ البشرية، من أفعالهما المشتركة المتكاملة، والأفعال المدمجة استراتيجياً التي تهدف إلى إرهاب العالم.

هاتان الآليتان العسكريتان المجلفنتان المتنكرتان في شكل دولتين قوميتين، هما - اليوم - المصدر الأكثر عنفاً لجنون العسكرة، على كوكبنا (وما وراءه). تتنافس الحرب في العراق - على وجه الخصوص - مع الفظائع الإسرائيلية، في فلسطين، ولم تعد - منذ فترة طويلة - جريمة فردية ضد الإنسانية. يحتاج العالم لابتكار مصطلحات جديدة، لتسمية وفهم الاحتلال الاستعماري لدولة ذات سيادة، والذي قادته الولايات المتحدة، وتستمر في دعمه.

ولجعل هذه الآلية العسكرية تعمل، بصورة أفضل، يُعدّ التهديد، بالعنف، أو حالة الحرب أداة أكثر فعالية لنشر الخوف، والحفاظ على الهيمنة، من العنف الحقيقي، أو الأعمال الحربية، التي تُعدّ قناة تصريف لتلك الحالة، ومن ثم؛ إنهاؤها. يبدو أن مشعلي الحروب، في العاصمة واشنطن، قد تعلّموا أن مفتاح استمرار حالة الحرب هو الإبقاء على وجود شبح دائم، للعدو، كما أيقن المنظّر النازي للسلطة السياسية كارل شميت، وظلّه الفلسفي ليو شتراوس.

يعتقد كلّ من كارل شميت (من الناحية اللاهوتية) وليو شتراوس (من الناحية الفلسفية) أن غياب هذا العدو، وتأثير تحييد الديمقراطيات الليبرالية، سيكون، بمثابة موت الدولة، باعتبارها طريق الفضائل الأخلاقية. إن الحرب المعلّقة، المبنية على الطيف الشبحي للجني المسلم الوحشي الذي يوشك على القفز، من الظلام، وابتلاع الأرض، لا تزال - حتى اليوم

- أكثر فاعلية، من الحرب نفسها. وسط تلك الدراسة النفسية للسلطة، تعلّم المحافظون الجدد الأمريكيون، من دعوة النازي الألماني كارل شميت، كما من المعلّم الأمريكي، للمحافظين الجدد الأمريكيين ليو شتراوس؛ حيث يستكملون نظريتهم، من خلال الممارسة، على نطاق واسع الانتشار.

صياغة تسلسل زمني

بينما كان العالم بانتظار معرفة ما إذا كانت الولايات المتحدة/إسرائيل ستهاجم إيران، أم لا، يمكننا البدء في التفكير، من خلال حالة الحرب التي ولّدتها لعبة الانتظار المستمرة، وحافظت على بقائها. قائمة ادعاءات الولايات المتحدة/إسرائيل ضد الجمهورية الإسلامية طويلة ومرهقة: إنها ترعى الإرهاب، وإنها لا تدعم عملية السلام العربية الإسرائيلية (دون الانتباه إلى أن الإسرائيليين يقتلون الفلسطينيين، في غزة، على مدار الساعة)، وتؤجّج الاضطرابات، في العراق ولبنان وفلسطين، بل وتنوي - أيضاً - تطوير أسلحة نووية. ولكن الكيفية التي ينوون - من خلالها - تجديد هذه القائمة القديمة والمبتذلة، ورفعها إلى الذروة، تمثل الطريقة التي تتقدم فيها حالة الحرب، بشكلٍ سريع، بينما تحترق كل من أفغانستان والعراق، كما تعمل الولايات المتحدة - بشكل كبير - في الصومال، على قدم وساق.

استضافت إيران في ديسمبر٢٠٠٦ مؤتمراً استفزازياً حول المحرقة اليهودية، وتعرّضت - عن استحقاق - للكثير، من الإدانة العالمية. وتزامن المؤتمر مع تصريحات غريبة للرئيس أحمدي نجاد، كان من المفترض - بكل وضوح - أن تغطّي على الهزيمة المذلّة التي تعرّض لها فصيل الرئيس الإيراني خلال انتخابات المجالس المحلية، وانتخابات مجلس خبراء القيادة، في الشهر نفسه. وصوّت مجلس الأمن الدولي - في الوقت نفسه - على فرض عقوبات على إيران، وتجارتها في التقنيات، والمواد النووية الحساسة. وكان رد فعل الولايات المتحدة/إسرائيل على مؤتمر المحرقة سريعاً وغاضباً، ومبالغاً فيه، للغاية: «الإيرانيون» مجموعة من متبلّدي الشعور أمام معاناة اليهود، وقال رئيسهم إنه يريد محو إسرائيل،

من على الخريطة. كما ينوون - الآن - تطوير ترسانة نووية. وهكذا فإن النتيجة الحتمية لتلك المعادلة هي: دعونا نقصف إيران، إلى حد الفزع. فشل قرار مجلس الأمن - في الوقت نفسه - في إسكات عدوانية أحمدي نجاد.

بدأ العام الميلادي الجديد، مع بعض الأحداث المشؤومة المشابهة. وفقاً للمقال المنشور في صحيفة الصنداي تايمز البريطانية في ٧ يناير، كان سربان، من سلاح الجو الإسرائيلي «يتدرّبان على تفجير منشأة [نووية] إيرانية، باستخدام القنابل النووية منخفضة الطاقة الخارقة للتحصينات». ونقلت الصنداي تايمز عن «عدة مصادر عسكرية إسرائيلية» أنه: «حالما يتم إعطاء الضوء الأخضر، مهمة واحدة، وضربة واحدة، وسيتم هدم المشروع النووي الإيراني». وعلاوة على ذلك» اجتمع مسؤولون إسرائيليون وأميركيون عدة مرات، للنظر، في العمل العسكري. وقال محلّلون عسكريون إن الكشف عن هذه الخطط - ربما - يهدف إلى ممارسة ضغط على طهران، لوقف تخصيب اليورانيوم، أو إلى دفع أمريكا إلى التحرك، أو تليين الرأي العام العالمي قبل أيّ هجوم إسرائيلي». ونفى الإسرائيليون أن هذا التقرير كان دقيقاً، بأي حال، من الأحوال. ظهر الأثر الصافي لكل هذا، في التنامي الواضح لحالة الحرب، الحرب التي قد تحدث، أو لا تحدث.

أعلن الرئيس بوش في خطاب ألقاه في ١١ يناير٢٠٠٧، بعد فترة وجيزة من تقرير صحيفة صنداي تايمز، عن استراتيجية جديدة، يتم - من خلالها - إرسال جنود أمريكيين إضافيين إلى العراق. قرأ العديد من المراقبين هذه الزيادة في القوات، على أنها دلالة واضحة، على الاستعداد لاشتباك عسكري، مع إيران، أكثر من كونها مجرد محاولة لتعزيز الأمن في العراق، المهمة التي تبدو مستحيلة أمام هذه الإدارة. اقتحمت القوات الأمريكية - وبعد يوم من خطاب الرئيس بوش، وبرفقة مروحيات عسكرية - القنصلية الإيرانية، في مدينة أربيل الكردية، واعتقلت خمسة موظفين. كانت الولايات المتحدة تحاول - كما هو واضح - تحريض إيران، على القيام، بعمل عسكري، من نوع ما، لتتمكن - في هذه الحالة - من استخدامه، بمثابة

ذريعة، لمهاجمة إيران. ولكن كل هذا كان يدور في عالم من التكهّنات، بالضبط، كما تقتضي، وتتطلّب حالة الحرب (وليس الحرب الفعلية).

ثم رفع نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني في ١٤ يناير، بعد العمل الاستفزازي، في أربيل، بوقت قريب، السقف معلناً أن إيران «تصطاد، في الماء العكر». واتهم مسؤول في وزارة الدفاع الأمريكية (متحدثاً إلى الصحافة مشترطاً عدم كشف هويته) في ٢٠ يناير بعد حوالي أسبوع من حادثة أربيل، إيران بخطف وقتل عدد من الجنود الأميركيين، في كربلاء. كان هذا الحادث الذي تدور حوله الكثير من التكهّنات والشكوك انتقاماً لاعتقال هؤلاء الإيرانيين الخمسة، من قِبل القوات الأمريكية، في أربيل. ولكن كل هذه الأحداث كانت مدعاة للشك، والريبة، والغمز، وإخفاء الهوية، وفوق كل هذا، الإنكار أيضاً. لا يتطرق الشك - بالطبع - إلى أن الجمهورية الإسلامية قد تفعل أي شيء، يمكن أن يؤثّر على تطور العراق المجاور لها، بطريقة، تتفق مع مصالحها. وليس هناك أي شك، في أن الجمهورية الإسلامية ينبغي ألا تتدخّل، في الشؤون الداخلية، للعراق. ولكنْ؛ هل تتمتّع كل من الولايات المتحدة/إسرائيل، بالموقف الأخلاقي الذي يؤهّلهما، للإشارة، بأصابع الاتهام إلى الجمهورية الإسلامية؟ كيف يمكن لأي شخص أن يلقي باللوم على الجمهورية الإسلامية، على تشغيلها خمسة عملاء في العراق، لو كان هذا صحيحاً، في الوقت الذي حشدت فيه الولايات المتحدة/إسرائيل وحلفاؤها الأوروبيون جيشاً عرمرماً، كجيش «أتيلا» الهوني، من جميع أنحاء العالم؛ ليحتلوا - رسمياً، وبشكل غير قانوني، وغير أخلاقي - العراق رغماً عن إرادة شعبه. إذا تم رصد خمسة إيرانيين تدخّلوا في الشأن العراقي، فكم عدد عشرات الآلاف من الأمريكيين (الإسرائيليين؟) والبريطانيين، في هذا الرصد المخزي؟

وذكرت صحيفة عرب تايمز من الكويت مردّدة ومؤكّدة تهديدات وتصريحات نائب الرئيس ديك تشيني ما يؤكد هذه الشكوك، أن الولايات المتحدة قد تشنّ ضربة عسكرية ضد إيران قبل أبريل ٢٠٠٧. نقل التقرير

عن «مصدر موثوق»، وتوقع أن الهجوم سيتم شنّه من البحر، بينما تقوم صواريخ باتريوت، بحراسة جميع الدول العربية في الخليج. وصلت هذه الأنباء موطن آية الله، في قم، وفي طهران، عن طريق جارهم القريب. ولكنْ؛ لماذا يتمكّن الكويتيّون، من معرفة شيء، لا يعرفه الآخرون؟ بقي السؤال، على حدود اليقين واللايقين؛ حيث تستعر عادة حالة الحرب.

وظلّت مثل هذه التكهّنات والتخمينات العشوائية متفشّية حتى خطاب حالة الاتحاد للرئيس بوش في ٢٣ يناير، الذي وصفه مراسل بي بي سي للشؤون العالمية بول رينولدز قائلاً بأن «إحدى أهم سماته البارزة ... الموقف العدائي تجاه إيران؛ حيث اتهم 'النظام' في إيران، بتسليح 'الإرهابيين مثل حزب الله'، وتوجيه 'المتطرّفين الشيعة' في العراق». مجدّداً، لم يكن هناك إعلان واضح للحرب. ولكن الإشارة إلى الحرب كانت طويلة وسميكة، كجدار الفصل العنصري الإسرائيلي، لا يمكنك إغفال ظلّها المخيف.

المعرفة العامة كحرب نفسية

كانت الإشارة الخاصة التالية للرئيس بوش - في خطاب حالة الاتحاد - جديرة، بالملاحظة:

إذا تراجعت القوات الأميركية قبل ضمان أمن بغداد، فسيجتاح المتطرّفون - من جميع الأطراف - الحكومة العراقية. يمكننا أن نتوقّع معركة ملحمية بين المتطرّفين الشيعة المدعومين من إيران والمتطرّفين السّنّة المدعومين من قِبل تنظيم القاعدة وأنصار النظام القديم. قد تمتد عدوى العنف، إلى جميع أنحاء البلاد، كما يمكن أن تجرّ المنطقة كلها - في الوقت نفسه - إلى الصراع.

كيف حدث ذلك؟ متى تعرّف الرئيس بوش على الفرق بين السّنّة والشيعة؟ يبدو أن هذا التصريح الرئاسي - على وجه الخصوص، عن العداء بين السّنّة والشيعة - كان من بنات أفكار السيد ولي رضا نصر، الذي يدرّس العاملين في الجيش الأميركي القضايا الإسلامية (والتي تُعدّ - بحكم

الواقع - خطيرة، وتضر، بالأمن الوطني الأمريكي)، في قسم شؤون الأمن القومي، في كلية الدراسات العليا البحرية. وتُعرّف هذه المؤسسة عن نفسها وفقاً لموقعها، على شبكة الإنترنت، على أنها «مؤسسة أكاديمية، تركّز على البرامج الدراسية والبحثية المتصلة، بشؤون البحرية الأمريكية، وكذلك الشؤون المتعلقة، بالأسلحة، في وزارة الدفاع. وقد صُمِّمت هذه البرامج لاستيعاب المتطلبات الفريدة، من نوعها للجيش».

أشار السيد ولي رضا نصر - في كتابه الذي نُشر مؤخراً - «صحوة الشيعة: كيف ستحدّد النزاعات داخل الإسلام ملامح المستقبل» (٢٠٠٦) لطلابه، في كلية الدراسات العليا البحرية، وأيّ شخص آخر يرغب في معرفة المزيد عن الإسلام والتشيّع أن على الأميركيين أن يحذروا من أن هناك مخلوقاً وهمياً جديداً، يسمّى «الهلال الشيعي». يبثّ هذا المخلوق سمومه، على طول الطريق، من باكستان، عبر إيران والعراق، ومن ثم؛ وصولاً إلى سورية ولبنان. إن هذا المخلوق على وشك أن يلتهم المنطقة، في عدائه «الشديد» مع المذهب السّنّي. يهدّد هذا الهلال - بهذا - مصالح الولايات المتحدة وحلفائها المعتدلين، والتي حصل البروفيسور ولي رضا نصر على منصبه الحالي في الكلية، بواسطة الجيش الأمريكي، للحفاظ عليها. هذا - بالضبط - ما يشير إليه التهديد المفترض الذي يظهر في خطاب حالة الاتحاد للرئيس بوش.

ومن المؤكد أن هناك مراقبين مثل مايكل هيرش، من مجلة نيوزويك، يعتقدون أن هذا الاهتمام الخاص من قِبل الرئيس بوش، بالفجوة، في العالم الإسلامي بين الشيعة والسّنّة يعود إلى عودة هنري كيسنجر، في شكل استراتيجية الرئيس الأمريكي، لما بعد الكارثة في العراق. كتب مايكل هيرش في مجلة نيوزويك في ١ فبراير ٢٠٠٧: «في سلسلة غير عادية من التحركات، قامت وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس ومسؤولون أمريكيون آخرون، بالسعي، لخلق جبهة موحّدة من الأنظمة العربية السّنّيّة وإسرائيل ضد إيران الشيعية، كجزء، من نهج عدواني جديد ضد طهران». ولكنْ؛

بينما تظهر «بصمات أصابع» هنري كيسنجر، إذا استخدمنا عبارة مايكل هيرش، والتي يمكن استخلاصها، في الخط الكلاسيكي، في التفاوض، من موقع القوة، تنعكس «بصمات» السيد ولي رضا نصر، في النص، بشكل أكثر قوة وعرضية. ولا تظهر بصماته الواضحة في الطريقة التي تستمر فيها حالة الحرب فقط، بل في وضعها، على وضع الطيار الآلي أيضاً. إذا كان دور أسامة بن لادن يكمن في إعطاء الإمبريالية الأمريكية العالمية (والتي تُعرف - أيضاً - باسم «الحرب على الإرهاب») النزعة الإسلامية العامة، فإن وظيفة كتاب السيد ولي رضا نصر (والذي - ربما - يتناسب - بشدة - مع استراتيجيات هنري كسينجر، كما يشير مايكل هيرش) تكمن في إعطاء تلك المعركة الكونية مع «الإرهاب الإسلامي» نزعة إسلامية فطرية. وبعبارة أخرى، إذا كانت أفغانستان، في حالة من الخراب التام، وطالبان على وشك استلام الحكم، أو إذا كان بعد مرور ما يقرب من أربع سنوات على بدء الغزو الذي قادته الولايات المتحدة على العراق، أصبحت البلاد - من أولها إلى آخرها - تعاني الدمار الكلي، ومئات الآلاف، من العراقيين المشوّهين، والقتلى، والمعذّبين، والمغتصبين، والمسجونين، واللاجئين في أوطانهم، فلا علاقة للولايات المتحدة، بكل هذا. إنها «المعركة الملحمية» حقاً، كما وصفها الرئيس بوش «بين المتطرّفين الشيعة المدعومين من إيران والمتطرفين السّنّة، بمساعدة تنظيم القاعدة» الذين يقع عليهم كل اللوم. الظهور العرضي لحجة السيد ولي رضا نصر، الرأي الاستراتيجي لهنري كيسنجر، واستراتيجية الرئيس بوش التي تعيد الهيمنة العدوانية، في العراق، والغزو المحتمل لإيران، كل هذا جزء، لا يُجتزأ، من الحفاظ، على حالة الحرب التي أصبحت - اليوم - تتحرك، بالدفع الذاتي الكامل تقريباً، وبخاصّيّة الطيار الآلي؛ لأن الولايات المتحدة يتمّ سحبها، في اتجاه معركة ملحمية (كونية، وأزلية). لا يعود هذا إلى إرادتها، أو مشيئتها، ولكنه يأتي - في الواقع - على الرغم منها تماماً، وضد نواياها الحسنة.

كتدخّل إيديولوجي كبير، في المساعدة والتحريض على «الحرب على

الإرهاب» التي تقوم بها الولايات المتحدة/إسرائيل، تم نشر كتاب السيد ولي رضا نصر «صحوة الشيعة» بينما كان يعمل لدى الجيش الأمريكي، ويفتح رضا نصر في الكتاب فصلاً جديداً تماماً، من إنتاج المعرفة، في السياسة والسلطة. لم يتصور أحد، في السلسلة الكاملة لعلم الاجتماع الخاص، بالمعرفة، وفي أعمق طبقات التنظير لدى ميشال فوكو، عن العلاقة بين المعرفة والسلطة، لم يدر في خلد أحدهم أن يشرع جهاز عسكري لإمبراطورية معولمة - كما أشارت ثلاثية تشالمرز جونسون الرائدة «الانفجار المرتد» - بنفسه، في توليد معارفه المحلية الخاصة عن العدو، بل وينشرها للجمهور العام. لهذا السبب، يُعدّ كتاب «صحوة الشيعة» أفضل ما يمكن قراءته، عن طرق الحرب النفسية العسكرية التي تهدف إلى إعداد الجمهور، لحالة حرب طويلة الأمد ضد «الإرهاب الإسلامي». بسبب «المعركة الملحمية» بين السّنّة والشيعة، يُعدّ الإرهاب الإسلامي - ظاهرياً - إرهاباً منعزلاً - تماماً - عن النوايا الحسنة للولايات المتحدة الأمريكية، لأنهم أرجعوه إلى العداء «الملحمي»، من العصور الوسطى بين فصيلين، من المسلمين. وكان الرئيس بوش يقدّم السلام والازدهار للمسلمين نيابة عن الأميركيين. ومع ذلك، فإن الهمجية القبلية الخاصة، بالمسلمين، تمنعهم من أن يكونوا جديرين، بمثل هذه الهدية الرائعة.

الحفاظ على مصدر الخطر

لا تقتصر الكارثة التي تواجه العالم بأسره - ومن ضمنه الأمريكيين - على هذا المستوى، من خدع الحرب النفسية، ولكن الأمر أكثر خطورة، بكثير. يدرك جورج دبليو بوش - كل سنة، أو سنتين - وجود مصدر جديد، للخطر، في العالم، ويشنّ حرباً جديدة واسعة النطاق ضد العرب والمسلمين، بينما يقول لهم إنه يطلق النار عليهم لإنقاذهم، من شرورهم. وصل الفراغ المعياري لهذه الشروط المتطابقة من الخوف وإثارة للحرب، إلى أبعاد غير مفهومة، لدرجة أنه، باستثناء حياة مئات الآلاف الأخرى التي تنتظر الإبادة، في المنطقة، فإنه إذا هاجمت الولايات المتحدة/إسرائيل إيران،

فلم يعد من المهم - حقاً - إذا ما قام هذا المحور، بذلك، أم لا. ما يهم حقاً، والذي مازال قوة طاحنة، تعتمل في نفوس أمة بأكملها، هو حالة الحرب التي يصمّم الإيديولوجيون الأمريكيون/الإسرائيليون، على وضع أنفسهم والعالم فيها، والتي تُعرِّض العالم، بأكمله، للخطر، بشكل منهجي.

البقاء في «حالة حرب» أفضل، بالنسبة لأمراء الحرب الأمريكيين/ الإسرائيليين، من دخول الحرب؛ لأن الخوف من الحرب هي الحالة الذي يريدون للعالم أن يعيش فيها. سواء في مارس، أو أبريل، أو مايو المقبل، أو في أيّ شهر كان، قد تغزو الولايات المتحدة/إسرائيل إيران، أو قد لا تفعل. إذا حدثت الحرب، بالفعل، لن يحصي أحد عدد القتلى الإيرانيين؛ لأن عدهم لن يصل إلى حدّ الغضب الأخلاقي الذي يماثل ما يحدث في العالم. ستحصي قناة سي إن إن عدد الجنود الأمريكيين الضحايا، ولكنْ؛ حتى هذا - أيضاً - سيتبدّد، في غطرسة فارغة، لا تهتم - أبداً - بالفقراء والمحرومين الأمريكيين الذين تنشب الفاقة أظافرها، في حناجرهم، والذين تمّ قذفهم حول العالم لتشويه وقتل وتعذيب واغتصاب إخوتهم وأخواتهم. مقابل كل قتيل أمريكي (حتى الواحد كثير للغاية) سيكون هناك - في أي مكان - بين واحد إلى مئتي قتيل إيراني، إذا أخذنا ما حدث في العراق، كمقياس. لن يحمّل أحدٌ المسؤوليةَ لآخر. سيشكّل المحافظون الجدد الإيرانيون حياتهم المهنية، وعقودهم المربحة، وسيتابعون الظهور على شاشات التلفزيون. سيقولون للأمريكيين - تماماً مثل فؤاد عجمي - إن هؤلاء الإيرانيين، مثل العراقيين تماماً، لا يستحقّون هدية الحرية والديمقراطية التي يقدّمها لهم الأميركيون (كما يشير في كتابه هدية الأجنبي: الأمريكيون، والعرب والعراقيون في العراق). ستكون بقية العالم قد اعتادت حالة الحرب التي تفرضها الولايات المتحدة/إسرائيل، على الكرة الأرضية. سيضيف غزو إيران جبهة أخرى؛ لتُظهر فيها الولايات المتحدة/إسرائيل براعتها العسكرية. وإذا لم تغز حكومة الولايات المتحدة والدولة اليهودية (الدولتان الأكثر عنفاً على كوكب الأرض) إيران، فلن يحدث هذا أيّ فرق،

يُذكَر. كل ما يتطلّبه الأمر تعليقاً - هنا - من قِبل الرئيس بوش، أو اقتراحاً هناك، من قِبل نائب الرئيس ديك تشيني، أو اعترافاً آخر، من قِبل إسرائيل بأنها تمتلك - بالفعل - قدرات نووية هائلة، أو زرع خبر بأن إسرائيل قد تهاجم إيران. السياق الفعلي لمثل هذه الأخبار - التي تقول بأن الولايات المتحدة/إسرائيل قد تهاجم إيران، وقد لا تهاجمها - منفصل - تماماً - عن واقع إطلاق هذه التهديدات. وهذا ما يُبقي العالم، في قمة التأهّب، مما يجعل الخوف وإثارة الحرب الحالة الأسمى في حياتنا.

بدأ الفيلسوف الإيطالي المعروف جورجيو أغامبين في كتابه «حالة الاستثناء»، مهمته الخارقة في التنظير، لما أصبح يُنسب - الآن - إلى عالم necessities legem non habet (الضرورات تبيح المحظورات). وفي تحدّ لهذا القول المأثور، اتخذ أغامبين التعبير الشهير الذي نطق به كارل شميت في لاهوته السياسي، والذي يقول فيه إن الحاكم هو «مَن يقرر حالة الاستثناء» على محمل الجد تماماً، وسعى إلى تنظير حالة الاستثناء تلك. يبقى الهدف الأسمى في مشروع أغامبين نفسه ما يسمّيه «المنطقة المحرّمة بين القانون العام والواقع السياسي، وبين النظام القضائي والحياة». ولكنْ؛ لا يزال يتاخم هذا المشروع القانوني الفعّال انتشار ثقافة الكارثة التي يجب أن تُولَد، بشكل منتظم، وتحافظ على تلك الحالة، من الاستثناء، والتي تصل - الآن، وهنا في الولايات المتحدة، والعالم الذي تحكمه، بلا رحمة - إلى حالة دائمة، من الحرب. ينبغي أن نتعلم كيف نتجاوب مع تلك الحالة الفعلية، وليس - فقط - مع دلائل وجودها المحتملة والفعلية.

نُشرت لأول مرة في صحيفة الأهرام ويكلي، ٨-١٤ فبراير ٢٠٠٧

انتفاضة إيران الديمقراطية

طائفة مسيحانية تسعى لنهاية العالم ...

رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو متحدثاً عن إيران والإيرانيين

سواء عن قصد، أو بالصدفة البحتة، فجأة، تكشّفت للعالم أجمع أضحوكة الادعاءات الإسرائيلية أنها «الديمقراطية الوحيدة، في الشرق الأوسط».

ستدخل انتخابات البرلمان اللبناني في يونيو عام ٢٠٠٩ التاريخ، باعتبارها تقدّماً كبيراً لقضية الديمقراطية، في هذا البلد الصغير والحيوي. ترك فوز تحالف ١٤ آذار بقيادة سعد الحريري، الذي يشغل - اليوم - ٧١ مقعداً، في البرلمان المؤلف من ١٢٨ عضواً، ٥٨ مقعداً المتبقّية إلى ائتلاف، بقيادة حزب الله. وسارعت إسرائيل وحلفاؤها الأميركيون، إلى اعتبار تلك النتيجة انتصاراً للعناصر «الموالية للغرب»، وبالتالي؛ هزيمة حزب الله. ولكن الواقع ليس كذلك. إن فوز تحالف ١٤ آذار انتصار للديمقراطية، في لبنان، انتصار، يتقاسمه معهم حزب الله.

لا يمكن لإسرائيل - انطلاقاً من كونها دولة الفصل العنصري العنصرية، أن ترى العالم إلا من خلال عدستها القبلية. إن فوز تحالف ١٤ آذار، في لبنان، انتصار للعملية الانتخابية، والتي تشمل - الآن، بقوة - حزب الله وحلفاءه البرلمانيين. لم يعد حزب الله - اليوم - مجرد جزء، من المجتمع المدني، في لبنان، ولكنه جزء - أيضاً - من جهازه السياسي، والعملية الديمقراطية المؤسسية، وقد حقّق حزب الله هذا، من دون التخلي عن مكانته، باعتباره جيش التحرير الوطني الذي من شأنه الدفاع عن وطنه ضد أعمال الهمجية الإسرائيلية التي قد تأتي مستقبلاً.

لا بد أن نرى - في الوقت الذي يحتفل فيه العالمان العربي والإسلامي، بهذا الانتصار الديمقراطي - بأنه لا علاقة له، برئاسة أوباما، أو بخطابه، في القاهرة، وإلقائه المحاضرات في الديمقراطية، على المسلمين في المنطقة، بينما يحتلّ جيشه العراق، بصورة غير مشروعة، ويقوم بذبح الأفغان.

في أعقاب الانتخابات اللبنانية، قفزت قضية ومسيرة الديمقراطية في إيران قفزة أكثر جرأة، ولم تكن تلك القفزة، بسبب ترويج الولايات المتحدة للديمقراطية، بل كانت على الرغم منها وضدها. وفي وقت كتابة هذا التقرير، فإن الملايين من الإيرانيين داخل وخارج وطنهم غاضبون وتعساء، بسبب النتائج الرسمية. ويذهب البعض أبعد من ذلك، للنظر في ما حدث، على أنه انقلاب. هناك أسباب مشروعة للتشكيك في صحة النتائج الرسمية التي أعلنت محمود أحمدي نجاد الفائز الأول. النقطة الوحيدة التي يمكن للإيرانيين أن يكونوا متأكدين منها، وفخورين بها، هي ذلك التجلي الرائع لإرادتهم الجماعية، للمشاركة، في صنع سياساتهم. لا تضفي هذه المشاركة غير المسبوقة الشرعية على النظام غير الشرعي، للجمهورية الإسلامية، وأجهزته غير الديمقراطية، بكل وضوح، كما لا ينبغي أن يُساء استخدامها، من قِبل قوات المعارضة المفلسة خارج إيران، لتشويه سمعة صفحة مجيدة، في التاريخ الإيراني الحديث، والتنديد بها.

كل أربع سنوات، خلال الانتخابات الرئاسية التي تليها الانتخابات البرلمانية، تبهر مفارقة الديمقراطية الثيوقراطية للجمهورية الإسلامية الإيرانية العالم، وتحيّره. انضم الإيرانيون خلال هذه الحملة الانتخابية الرئاسية - بصخب - إلى المسيرات، ثم وقفوا في طوابير طويلة للتصويت تحت الظل المتمدّد لأمراء الحرب الإسرائيليين الذين يهدّدون، بضربة عسكرية. وستعمد الوسائل الدعائية التي تخدم إسرائيل، إلى دفع العالم للاعتقاد بأن غوغائياً شعبوياً مثل أحمدي نجاد هو «ديكتاتور» إيران، مثلما قال أحد المتحدّثين، باسمها، في نيويورك، وهو لي بولينجر، رئيس جامعة كولومبيا. وبالتالي؛ ووفقاً لنموذج الطاغية الشرقي، فإنه يمثّل الشعب

المتخلّف الذي يستحقّ أن يحدّد الآخرون مصيرَه (الولايات المتحدة/ إسرائيل، بالطبع). كما عرض الباحث الإسرائيلي البارز في الشؤون الإيرانية، حجي رام، أحد المنشقّين الإسرائيليين القلائل الشجعان، والذي أثبت - بكل جدارة - في كتابه «إيرانفوبيا»، أن هوس إسرائيل، بإيران، قد وصل إلى حد المرض، بشكل جدير، بالدراسة، وإلى حالة من الهستيريا التي تخدع ذاتها، وتتغذى على نفسها.

تختلف حقيقة النظام السياسي الإيراني، كما شهدها العالم مجدداً، إلى حد كبير، عن الصورة الدعائية التي تغذّي بها الولايات المتحدة/ إسرائيل العالم. إنه مجتمع مثابر نابض بالحياة، يتحدى كل القيود المفروضة على إرادته، ويطالب بانتزاع حقوقه الديمقراطية. المؤسسات غير الديمقراطية للجمهورية الإسلامية - بدءاً من فكرة ولاية الفقيه، وحكم رجل الدين، وصولاً إلى الهيئة غير المنتخبة لمجلس صيانة الدستور - ليست عوائق أمام الديمقراطية، في إيران، بل إنها دعوات، للإساءة للديمقراطية. ويبدو أن ما يقوم به الناخبون الإيرانيون - صغاراً وكباراً، رجالاً ونساء - أكثر أهمية، بكثير، من مجرد التصادم المباشر وجهاً لوجه مع المؤسسات السرية والهرمة. إنهم يوسّعون، من حدود ممارساتهم الديمقراطية، في اتجاهات، لا يمكن إيقافها وسبر أغوارها. ولقد وصلت شبكة الإنترنت الشباب الإيراني، بالسياق العالمي؛ حيث أصبح هذا - بدوره - حافزاً للتغيّرات الخطابية والمؤسسية الخارجة عن سيطرة زمرة رجال الدين، في قم وطهران.

يشكّل هذا صراعاً بين الأجيال أكثر من أيّ شيء آخر. المجتمع الإيراني يتغيّر، وبسرعة. يرغب الولاة الطاعنون في السنّ للجمهورية الإسلامية، في تحديد ما يمكن أن يقال، أو ما يمكن توقّعه. ولكن الشباب المرتبط، بالعالم، والمتّجه نحوه، والذي يشكّل أكثر من ٦٠ ٪ من الناخبين، يغيّر - اليوم - معالمَ تلك الحدود تغييراً جذرياً؛ لأنهم لا يتحدّونها، فحسب، ولكنْ؛ يلغونها تماماً أيضاً. فالخطّ الأحمر، في إيران، يصغر، في كل ساعة؛ لأنه يقف أمام لاعبين سياسيين مهرة، يدرّبون عضلاتهم السياسية. وكان

واضحاً - تماماً - أثناء الانتخابات الرئاسية الأمريكية عام ٢٠٠٨ أن أوباما المتمكّن من لعبة الإنترنت، هزم عمليات ماكين الغامضة. وينطبق الشيء نفسه، على حملات مير حسين موسوي ومهدي كروبي، وهما المرشّحان الإصلاحيان، من جهة، وأحمدي نجاد، من جهة أخرى، وفيما بينهما محسن رضائي. الأساس الاجتماعي لمنصة موسوي هو الطبقة الوسطى الحضرية، والشباب، والنساء. الأساس الاقتصادي لديماغوجية أحمدي نجاد الفقراء، في الريف والمدن. وكلاهما ناشط ماهر، في التفاعل مع ناخبيه.

المدّ الديموغرافي يرتفع ضد الثوريين القدماء. الأطفال الإيرانيون الذين وُلدوا بعد الثورة، في أواخر السبعينيات، ليس لديهم ذاكرة فعّالة عن آمالها وأحقادها، ولا يمكنهم أن يهتمّوا بمَن يملك مثل هذه الذاكرة. يقوم الناخبون الإيرانيون - في كل أربع سنوات منذ نهاية الحرب بين إيران والعراق، في عام ١٩٨٨، ووفاة آية الله الخميني، في عام ١٩٨٩ - بزيادة الرهان. لقد صوّت الناخبون لصالح رفسنجاني، في عام ١٩٨٩، وعلى مدى ثماني سنوات، أعاد بناء البنية التحتية الاقتصادية للبلد بعد الحرب، وخلق فئة من طبقة محدثي النعمة. ثم في عام ١٩٩٧، صوّتوا لمحمّد خاتمي، الذي قدّم لهم قدراً من المجتمع المدني، وفتح أفقاً واسع النطاق للإصلاح الاجتماعي، ولكنه لم يفعل أي شيء - أو فعل القليل جداً - للتخفيف، من معاناة الجماهير الغفيرة من الفقراء التي تركها رفسنجاني وراءه. ثم في عام ٢٠٠٥، وضع هؤلاء المحرومون - بسبب مشروع رفسنجاني الاقتصادي، واللامبالون، بالأجندة الاجتماعية والثقافية لخاتمي - السلطة بين يدي أحمدي نجاد. والآن، في عام ٢٠٠٩، هناك جزء كبير، من الناخبين الساخطين، الذين يُعدّون، بالملايين، يضعون ثقتهم، في موسوي، رئيس الوزراء السابق الذي يتمتّع، بأوراق اعتماد ثورية، لا تشوبها شائبة، بطل الحرب، والاشتراكي؛ من حيث المشاريع الاقتصادية.

ويسود المشهد - مرة أخرى - مشاركة واسعة، من الشباب والطلاب، وقبلهم النساء، على ضفّتي الانقسام السياسي. هذا الجيل الجديد

متصل، بالإنترنت، وبارع في استخدام فيسبوك ويوتيوب وتويتر. جيل متصل، بالعالم. كما أن وجود زهراء رهنورد، زوجة موسوي المتميّزة، يعدّ قيمة مميزة إضافية لهذه الحملة.

رهنورد المثقّفة العمومية البارزة، ورئيسة الجامعة السابقة، والشاعرة، والرسّامة، والنحّاتة، وإحدى أشدّ المنادين، بحقوق المرأة، يشبّهها بعض الصحفيين الأجانب، بميشيل أوباما الإيرانية. ويردّ أحد المعجبين الإيرانيين برهنورد قائلاً: «لا، يمكن لميشيل أوباما أن تطمح؛ لتصبح زهراء رهنورد الأمريكية».

وكانت هذه الانتخابات غير عادية أيضاً، فيما يتعلق بالمناظرات الحية المتلفزة التي كشفت الهياكل العظمية التي تتراكم منذ ثلاثين عاماً، في خزّانات الشيوخ الجمهورية الهرمين. أحمدي نجاد، الابن غير الشرعي للثورة الإسلامية، افترس - بسرعة، بديماغوجيته الشعبوية - مثالية وتطلّعات تلك الثورة. معارضو أحمدي نجاد هم مهندسو الخيال الإبداعي الإيراني. لم ينشط الفنانون وصانعو الأفلام الإيرانيون يوماً أكثر مما نشطوا، في هذه الانتخابات. لقد نشروا رسائل مفتوحة، وأنتجوا مقاطع الفيديو، وانضموا إلى آخرين، في المسيرات. كتب محسن مخملباف من باريس رسالة مفتوحة، يدعم فيها موسوي، ويشجّع الجميع على التصويت لصالحه، بينما أرسل ابنته الصغرى، حنا، إلى إيران، لتنفيذ فيلم وثائقي عن الانتخابات. عندما تحدّى موسوي النتائج الرسمية، أصبح مخملباف حلقة وصل لحملته الانتخابية مع وكالات الأنباء الدولية، مستخدماً علاقاته مع الصحفيين الأجانب.

أخرج مجيد مجيدي - مخرج إيراني بارز آخر - الإعلانات التجارية لحملة موسوي. وقام مخرجون وممثلون ومنتجون إيرانيون آخرون، ببذل جهد مماثل أيضاً. اشتركت جميع المنظمات الطلابية والاتحادات العمالية والجمعيات المهنية ومنظمات حقوق المرأة، في النزول إلى الشوارع، وعلى مواقع الإنترنت، وفي كتابة المقالات النارية، وتصوير الأفلام، وإنتاج مقاطع الفيديو. اختارت رهنورد، الرسامة - الموهوبة في رمزية الألوان - اللون

الأخضر، لحملة زوجها (لم تختر اللونين الآخرين، في العلم الإيراني، الأحمر الذي يرمز، للعنف، أو الأبيض الذي يرمز للشهادة). وعندما ذهب خاتمي إلى أصفهان، لدعم حملة موسوي، تجمّع ما يزيد عن ١٠٠,٠٠٠ شخص، في ميدان نقش جهان التاريخي؛ ليهتفوا له، ويدعموه كمرشّح إصلاحي. ها هي الديموقراطية التي تبدأ من الأسفل، ليست ديمقراطية المؤسسات، بل وليدة الإصرار والتحدي الجماعي. ينبغي لأمراء الحرب الإسرائيليين أن يفكّروا كثيراً قبل أن يتصرّفوا، بعدوانية تجاه الإيرانيين.

لم يكن صهاينة إسرائيل وأمريكا - الذين أنفقوا الكثير من الوقت والمال في تصوير إيران، باعتبارها الدكتاتورية الشيطانية التي تستحقّ أن تُقصف - هم الوحيدين الذين خاب أملهم، بسبب هذه الديمقراطية الناشئة. فضحت هذه الانتخابات - أيضاً - المجموعة الملوّنة، من جهاديي أحمر الشفاه الساعين لمحاكاة حرسي علي الذين يكتبون قصصاً خيالية جنسية مثيرة واحدة بعد أخرى حول «النساء» الإيرانيات، لمنح السياسة الإيرانية بُعداً جنسياً مثيراً لاختيار «الحب والخطر» خلال «شهر العسل، في طهران».

بدأ تمثيل المرأة الإيرانية في بازار قطاع النشر، في الولايات المتحدة، في عهد الرئيس بوش مع كتاب آذر نفيسي «قراءة لوليتا في طهران» ووصل - الآن - إلى عمق جديد، من الفساد، في كتاب برديس مهدوي «الانتفاضات العاطفية: الثورة الجنسية في إيران». لقد عمد نفيسي ومهدوي، إلى وضع النساء الإيرانيات بين الحرملك المليء، بأشباه لوليتا والحمّامات المليئة، بالنساء الشهوانيات، وصوّروهنّ أنهن يتابعن حياتهن، بيأس، بانتظار تحريرهن، على أيدي مشاة البحرية الأمريكية والقاذفات الإسرائيلية. شتان بين كل هذا وبين العمل الحقيقي للمرأة، كما شهدناه في هذه الانتخابات، والآن؛ في الشارع دفاعاً عن الإرادة الجماعية للأمة.

تدمّرت البلدان المتاخمان لإيران، من الجانبين: العراق وأفغانستان، بفضل ديمقراطية جورج دبليو بوش، والآن باراك أوباما. أما في الوسط؛ نرى

ملايين الإيرانيين الذين كانوا سيُشوَّهون، أو يُقتلون، على يد «التحرير»، قد تدفّقوا، في الشوارع، بسلمية، وساروا فرحين، إلى مراكز الاقتراع، للتصويت، في مسيرة شعبية واعدة وجميلة نحو الديمقراطية، وإن كانت محدودة، وغير مكتملة. واليوم بعد أن آمنوا أن أصواتهم سُرقت منهم، أصبحوا أكثر قدرة على المطالبة بها مرة أخرى.

أياً كان الفائز النهائي في الانتخابات الإيرانية، فإن الصهاينة المتعصّبين، في إسرائيل والولايات المتحدة، والملالي المروّجين للسلطة، في طهران وقم، والمثقّفين الكمبرادوريين، ومقتنصي الفرص المحترفين، من واشنطن العاصمة، إلى ولاية كاليفورنيا هم أكبر الخاسرين. والفائز هو الشعب الإيراني الذي لا يُقهَر. لقد شهدنا - بغضّ النظر عن الجدل الحاصل - على انتصار التعددية الديموقراطية، من لبنان إلى إيران، مما يشكّل كابوساً للدولة اليهودية التي تريد للمنطقة، بأسرها، أن تغرق - مجدداً - في صورتها الوهمية، العنصرية، وسياسة الفصل العنصري؛ حيث الطوائف والفصائل تحارب بعضها البعض، للوصول إلى النهاية المحتمة. إن عبارة « طائفة مسيحانية تسعى لنهاية العالم « لا تصف سوى بلاد الرجل الذي نطق بها فقط.

سيدي رئيس الوزراء، إنك تؤذي قضيتك.

نُشرت لأول مرة في صحيفة الأهرام ويكلي ، ١٨-٢٤ يونيو، ٢٠٠٩

سلطة الشعب

Khonak an qomarbazi keh bebakht har cheh budash,
Benamand hichash ella havas e qomar e digar

(محظوظ ذلك المقامر الذي خسر كل ما لديه، والذي غادر خالي الوفاض إلا من رغبته في لعبة أخرى)

جلال الدين الرومي

ستدخل الانتخابات الرئاسية الإيرانية في يونيو ٢٠٠٩ التاريخ، باعتبارها إحدى أروع مظاهر الإرادة التي لا تُقهر، لشعب، يسعى إلى إنشاء مؤسسات ديمقراطية قوية. سارع ولاة الجمهورية الإسلامية المحاصرون الذين يدركون افتقارهم للشرعية إدراكاً تاماً إلى استغلال هذا الحدث، واستخدامه، بمثابة دفاع وتبرير لحكمهم غير الشرعي. إنهم مخطئون، فلم يكن هذا تصويتاً، على شرعيتهم. لقد كان تصويتاً ضدها؛ وإن كان داخل القلعة القانونية القروسطية التي تتمحور حول مفاهيم ومبادئ المواطنة، في جمهورية حرة وديمقراطية. هُرعت «المعارضة» الضعيفة لرجال الدين في الخارج - أيضاً - إلى توجيه اللوم للذين شاركوا في الانتخابات، مصرّة على تغيير النظام، في الوقت الذي شارك في هذه الانتخابات طوعاً أكثر من ٨٠٪ من المخوّلين، بالتصويت. جانب الصوابُ هاتين القراءتين اليائستين والمتسرّعتين والمبتذلتين، للانتخابات، المبنيَّتين، على وجهات نظر مفلسة.

لنبدأ، بالخاسرين، في هذه الحملة الرئاسية. يعدّ علي خامنئي، المرشد الأعلى والولي الفقيه، أحد أبرز وأهمّ الخاسرين، في حملة الانتخابات الرئاسية الإيرانية، في يونيو ٢٠٠٩. إذا أظهرت هذه الانتخابات - العملية

الانتخابية الحقيقية، وليس نتيجتها المزورة، أيّ شيء كان، فقد أظهرت أن الأمة ليست سفيهة، إلى الدرجة التي تحتاج فيها إلى الفقيه الأكبر (العالم بكل شيء) لرعايتها. لقد كشفت الانتخابات عن النضج السياسي لأمة، يمكنها - الآن - العودة إلى مؤسّساتها الخاصة، مع محو فكرة وجود الولي الفقيه البذيئة منها، كأمة. إن فكرة وجود مكتب المرشد الأعلى إهانة للذكاء الديمقراطي، والإرادة الجماعية لهذه الأمة. ولو كان لدى علي خامنئي ذرّة من الحياء، لغادره، على الفور، في خريف بطريركيته، ولقام بحل هذا المنصب البذيء إلى الأبد، ليشكّل برلماناً دستورياً، ويحلّ المؤسسات الثلاث غير الديموقراطية في الجمهورية: مجلس خبراء القيادة، ومجلس صيانة الدستور، ومجلس تشخيص مصلحة النظام. تمثل هذه المؤسسات الآثار الراسخة للإرث الديني الذي ليس له مكان، في جمهورية ديموقراطية. الغالبية العظمى من الإيرانيين مسلمون. ومع ذلك، هناك الملايين من الإيرانيين غير المسلمين، أو من المسلمين غير المؤمنين، أو غير الملتزمين، بالدين، الأمر الذي لا ينبغي أن يؤخذ، بعين الاعتبار، فيما يتعلّق، بامتيازاتهم، وواجباتهم، كمواطنين، في الجمهورية. وعندما يشهد تآكل كل ذرّة من الشرعية التي ادّعتها الثورة الإسلامية، على البلاد، يمكن لعلي الخامنئي الذي سيبلغ - قريباً - عامه السبعين أن يترك لنفسه إرثاً شرعياً، من خلال إدراك أن تفاهة القرون الوسطى هذه، قد انمحت من تطلّعات الإيرانيين الديموقراطية. ومن غير اللائق - ببساطة - رؤية الرجال البالغين، محمود أحمدي نجاد، أو مير حسين موسوي، يذعنون ويقدّمون فروض الطاعة، لرجل آخر. ما هو الفرق بين الشاه والمرشد الأعلى؟ لا شيء.

والخاسر، بنفس الدرجة، في هذه الحملة، على الرغم من إعلانه فائزاً فيها، ذلك المهرج الشعبوي والدجّال غير المسبوق، أحمدي نجاد، الابن غير الشرعي للثورة الإسلامية. يمثّل أحمدي نجاد - في ديماغوجيته وتعصّبه - الاتجاهات الأكثر فاشية، في الثورة الإسلامية والجمهورية الإسلامية. تحتوي كل ثورة على جرعة، أو أكثر، من الشعبوية والديماغوجية المختلطة

مع مثاليّتها وتطلعاتها العالية. وما حدث في الثورة الإسلامية هو أن الشعبوية الفطرية قد تجسّدت - اليوم - في ديماغوجي واحد، يسعى، للبقاء، في السلطة، عن طريق التلاعب، بعقول الشرائح الفقيرة والمحرومة، من ناخبيه، من خلال السياسات الاقتصادية الاحتيالية التي تعطي الناس السمك بدلاً من تعليمهم كيفية الصيد، وتقديم الدعم الحكومي والإعانات بدلاً من توليد الوظائف. وكانت السياسات الاقتصادية لأحمدي نجاد كارثية ومدمّرة، على الصعيد المؤسّسي، ما تسبّب في ارتفاع معدّل التضخّم (إلى رقمين)، والبطالة المزمنة، في اقتصاد قائم على النفط وواقع تحت رحمة تقلّبات السوق العالمية الخارجة عن سيطرة وفهم أحمدي نجاد. إن شعبويته الدينية وادعاءاته السخيفة للتدبير الإلهي مزحة قاسية، على حساب العلامات والرموز التي يقدّسها الناس.

وكان الخاسر التالي حملة موسوي الرئاسية الهزيلة - غير الحكيمة، وغير المستعدة، والعاطفية، والمليئة، بالألوان الرمزية اللازمة، ولكنها تفتقر، إلى الجوهر، والبرنامج الواضح، والتفاصيل الاقتصادية، والبرمجة السياسية، ومحاولة الوصول إلى مدى أوسع من دائرته الانتخابية. كانت حملته نخبوية جداً، ومقيّدة في الأدوات البصرية التي تتوافق مع حساسية طهران الشمالية، وتفتقر إلى الجاذبية في اقتصاد قائم على النفط. لقد عكس تأخّره في دخول السباق الانتخابي، وتأرجحه - جيئة وذهاباً مع محمد خاتمي - درجة سيئة، من الاستعداد، كما فعلت - أيضاً - مناظرته مع أحمدي نجاد. لم يمتلك موسوي شيئاً؛ ليقدمه سوى دماثته، في حين جاء أحمدي نجاد، بالجداول والرسوم البيانية والملفّات، متباهياً، بسلوكه السوقي، ظانّاً نفسه «رجل الشعب». في حين أن موسوي أخذ يثرثر، قارئاً من خطاب مكتوب، بصوت مسموع، بالكاد، وفرغ من الكلام قبل أن يخبروه، بانتهاء الوقت المخصص له. ليست مشكلة الحركة الديمقراطية الإيرانية عدم قدرتها على إنتاج أوباما، في حال كان أوباما هو النموذج. كان يمكن لموسوي أن يكون أوباما الإيراني. ولكنْ؛ كانت المشكلة عدم وجود أشخاص، كديفيد أكسلرود،

أو ديفيد بلوف، الذين كانت حملة موسوي، في مساس الحاجة إليهما، وتفتقر - بشدة - إلى أمثالهما. لقد أحاط به مجموعة من الشباب المسلمين المترفين والمنغمسين في ذواتهم، والذين لا يملكون أدنى فكرة، عن كيفية الوصول إلى ناخبيه المختلفين. وكان السبب - في وصول موسوي إلى هذه الدوائر - أنه قد في حافظ على شرف البلاد خلال الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨). ولكنه واجه إيران جديدة، جيلاً جديداً، ناخبين مختلفين تماماً، أحبوه، وأُعجبوا به، وبزوجته زهراء رهنورد، لشخصيهما.

ولكنْ؛ لا يمكن الفوز، بالانتخابات، اعتماداً على النوايا الحسنة، وحسب. لا يعني هذا أن الانتخابات لم تكن مزوّرة؛ قد تكون مزوّرة، وقد لا تكون. ولكنْ؛ هناك استراتيجيات بدائية، للوصول إلى الدوائر الانتخابية المختلفة التي تجاهلتها حملته.

وكان الخاسر الكبير التالي في هذه الانتخابات الإيرانية هو إرث جورج دبليو بوش، والذي يشكّل مذهب بوش وولفويتز. فلنلق نظرة على العراق وباكستان وأفغانستان، على جانبي الحدود الإيرانية، ومن ثم؛ لننظر إلى إيران في ١٢ يونيو ٢٠٠٩: تحرّك ملايين الإيرانيين في مسيرة سلمية ومنظّمة، سعداء ومتحمّسين إلى صناديق الاقتراع. ثم تدفّقوا إلى الشوارع - مرة أخرى - حين ظنوا أنه قد تمّت سرقة أصواتهم الانتخابية، وهذا ما كان ينبغي على الأمريكيين أن يفعلوه في عام ٢٠٠٠. إلى جانب مذهب بوش وولفويتز، تشمل قائمة الخاسرين الكونغرس الأمريكي، ومراكز قيادته، في لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية آيباك (AIPAC). لا يمكننا تخيّل الكونغرس الأمريكي يتصرف بنفاق أكثر وضوحاً. ضغطت منظمة آيباك الزر في الليلة التي سبقت الانتخابات الإيرانية في ١٢ يونيو، وأطلقت عملاءها في الكونغرس الأميركي؛ ليشرعوا باقتراح قرار بفرض عقوبات اقتصادية أشدّ على إيران، مدركين جيداً أن ظهور تلك الأنباء - في اليوم التالي - سيزيد من فرص أحمدي نجاد، مرشّح إسرائيل المفضّل، كما صرّح مسؤولوها دون أي تردّد.

تشمل قائمة الخاسرين - أيضاً - الملكيين الإيرانيين المغتربين، إلى جانب جميع التفاهات المفلسة سياسياً، ومخبريها المحليين، والمثقّفين الكمبرادوريين، من واشنطن العاصمة، إلى كاليفورنيا، الذين أنشؤوا مراكز جوفاء «للحوار»، أو لإنقاذ «الديمقراطية» في إيران. كم كان هؤلاء يبدون كعصبة من المهرجين أمام القاعدة الشعبية والتعبير الشعبي عن الحقوق الديمقراطية!!

كان الشعب الإيراني الفائز الوحيد، في الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٩، بغضّ النظر عمّن صوتوا له، لقد صوّت حوالي ٤٠ مليوناً منهم، من أصل عدد الناخبين المؤهّلين للتصويت الذي يبلغ ٤٨ مليون نسمة، بما يتجاوز نسبة ٨٠٪. أظهرت الانتخابات أن الإرادة الديمقراطية للإيرانيين، قد نضجت؛ لتتجاوز نقطة اللا عودة، ولم يعد يهمّ مدى العنف الذي قد يرغب المسؤولون غير المنتخبين في الجمهورية الإسلامية إظهاره، في مواجهة هذه الإرادة. لقد فات الأوان. وكما ظهر - بكل وضوح خلال الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٩ - فإن الإيرانيين قادرون - تماماً - على تنظيم أنفسهم حول وجهات النظر المتنافسة، وإطلاق الحملات لمرشّحيهم المفضّلين، والذهاب، بسلام، إلى مراكز الاقتراع، والإدلاء بأصواتهم. لقد آن الأوان؛ ليحزم رجال الدين الشيعة أمتعتهم، وأن يعودوا، إلى معاهدهم الدينية، ولدجّالي تغيير النظام أمثال بول وولفويتز أن يتقاعدوا مكلّلين، بعارهم، وأن يعود المثقّفون الكومبرادوريون الانتهازيون - في بعض مراكز الأبحاث، في واشنطن العاصمة، أو في جامعة ستانفورد - مجدداً، إلى مواقعهم التدريسية السابقة اللائقة بهم.

ينبغي أن أقول - أيضاً - قبل الختام أن أحد أكبر الخاسرين هو حسن نصر الله، في لبنان. ينبغي أن يعلم نصر الله أن الجذور العميقة والمتنوعة لارتباط الإيرانيين، بالقضية الفلسطينية، وبمصير الشيعة في لبنان، تحتل محيطاً شاسعاً، من قلوبهم وعقولهم، وقد رضعوها مع حليب أمهاتهم، وليس من البركة القذرة لجيب علي خامنئي. وينبغي أن يعرف العرب -

عموماً، والفلسطينيون على وجه الخصوص - أن الإيرانيين يراقبونهم، عن كثب، ويرغبون، بسماع أصواتهم. ها هي الانتفاضة الإيرانية. والشعار الرئيس المرفوع في شوارع طهران هو: Mardom chera neshestin, Iran shodeh Felestin *(لماذا تجلسون كسالى هكذا، إيران أصبحت فلسطين)*. وينبغي أن يخرج العرب والمسلمون، ومثقّفوهم العموميون، ويقفوا بجانب هذه القاعدة الشعبية الأصيلة، التي تنادي - بشكل سلمي - بديمقراطية سليمة وقوية.

يقف عملاء آيباك في الكونغرس الأمريكي - كان جميع جنرالات إسرائيل إلى جانب أحمدي نجاد - في الخندق نفسه مع حسن نصر الله.

ينبغي أن يعلم جميع الملوك والحكام العرب والمسلمين بأن الشباب يراقبون الأحداث في إيران، باهتمام كبير. فالإيرانيون ليسوا الوحيدين المتصلين، بمواقع فيسبوك وتويتر، بل - أيضاً - إخوتهم وأخواتهم، في جميع أنحاء العالم، في جميع أركان العالمَيْن العربي والإسلامي. الشباب العربي والمسلم حول العالم ليسوا، في مأمن، من مطالب الشباب الإيرانيين التي تكلّفهم الكثير، الفاتحين صدورهم العارية، بشجاعة، في مواجهة رصاص وهراوات الطغيان. إنه الجيل ما بعد الأيديولوجي. لا يكترث هؤلاء الشباب، بعُقد آبائهم السياسية. إنهم يطالبون، بالحقوق البشرية والمدنية والنسوية، من خلال القاعدة الشعبية والشرعية - تماماً - لانتفاضتهم، وسوف ينتزعونها، دون أن يتزحزحوا شبراً واحداً، عن مواقعهم، في مواجهة المكائد الإمبريالية للولايات المتحدة، أو البلطجة الاستعمارية لإسرائيل. ينتهك ولاة الجمهورية الإسلامية المادة ٢٧ من دستور الجمهورية الإسلامية. وهذه ليست ثورة لإسقاط الجمهورية الإسلامية، على حد علمي. إنها مطالبة شعبية، بالحقوق المدنية. الإيرانيون الذين تعرّضوا للضرب المبرح، بالهراوات، وإطلاق النار، في شوارع طهران ليسوا عملاء للولايات المتحدة، في حين أن الملوك العرب والمسلمين الذي ينتمون، للقرون الوسطى، ويخنقون التطلّعات الديمقراطية لشعوبهم هم - بالفعل - العملاء.

يكمن كل الخوف - اليوم - في أن يتعلم شباب العرب والمسلمين من إخوانهم وأخواتهم الإيرانيين، وأن يطالبوا، بحقوقهم الإنسانية غير القابلة للمصادرة، وحرية التجمّع السلمي، وحرية التعبير، والحقوق المتساوية، للرجال والنساء، والفرص الاقتصادية، واحترام الكرامة الإنسانية، والتطلع لسيادة القانون.

نُشرت لأول مرة في صحيفة الأهرام ويكلي ٢٥ يونيو-١ يوليو ٢٠٠٩

البحث في الأماكن الخاطئة

يضع عزمي بشارة - في لقطته الثاقبة حول الأزمة الانتخابية الحالية في إيران[1]، والتي تُعدّ أفضل ما كُتب عن الموضوع حتى الآن - لمحة موجزة جداً، لقراءتنا، عن الحدث الذي يتكشّف أمامنا. ولكنه يصل - للأسف - إلى استنتاج متسرّع، وخاطئ. أقدّم ما أكتبه أدناه، باحترام بالغ، تملؤه روح التضامن الكامل مع المفكّر الفلسطيني البارز، الذي أُعدّ من معجبيه، لكونه يمثّل منارة مرشدة لنا، في تقييمنا النقدي للمكان الذي نمثّله، في عالمنا المعاصر.

شرح بشارة - بعناية شديدة، وبإيجاز - السلوك الشمولي، للجمهورية الإسلامية، ثم سمّى نقطتين، تختلف فيهما إيران، عن الأنظمة الشمولية: الأولى، أن لديها المكوّن الديمقراطي الذي يسمح لمعسكرين متعارضين بأن يتنافسا، على منصب منتخب، بشكل لا يختلف كثيراً في التشكيلات السياسية، عن الحزبين الجمهوري والديمقراطي، في الولايات المتحدة. والثانية، أن الدين الذي يشكّل أيديولوجية الدولة، وليس أيديولوجية غريبة، أو مستوردة، تتشاركها النخبة السياسية، ولكنها تبقى غريبة، بالنسبة لبقية المجتمع.

يخلص بشارة - بحق - إلى أنه مقارنة بالصين والاتحاد السوفيتي «*بالنظر إلى إيران من منظور درجة المنافسة الديمقراطية والتسامح مع النقد والتداول السلمي للسلطة وفقاً لقواعد محددة، تعتبر إيران أقرب، بكثير، إلى الديمقراطيات التعددية، في الغرب، من كونها نظاماً ديكتاتورياً*». وعلى كل حال، فإنه يدرك - بالقدر نفسه - حقيقة أن الأيديولوجية الشمولية التي تتخلّل جميع مجالات الحياة الخاصة والعامة

في إيران، لا تختلف عن أيديولوجيات سلطة المستهلك التي تقوم، بالشيء نفسه، في مجتمعات أمريكا الشمالية، وأوروبا الغربية.

تظهر هذه الملاحظات الدقيقة والثاقبة - مع ذلك - أنها تقف على أساس أكثر هشاشة، عندما يرى بشارة أن الانتقادات الموجّهة للنظام، من جانب شريحة واسعة، من الشباب الذين انضمّوا إلى الإصلاحيين، وخاصة أولئك المتحدّرين، من خلفيات، تعود إلى الطبقة الوسطى الذين يُعدّون أكثر اتصالاً مع بقية العالم، تذكّرنا، بالمظالم التي بثها الشباب، في أوروبا الشرقية، والذين عدّوا أن أنظمتهم حرمتهم، من الحريات الفردية والشخصية، وحرية اختيار طريقة حياتهم، ونمط الحياة الاستهلاكية الغربية.

إن هذا الاستخدام الغافل لمصطلح أساسي، كمصطلح «الطبقة الوسطى» يتكثّف على الفور؛ ليصل إلى تأكيد أكثر صلابة، يحمل عيوباً أكثر جدية؛ حيث يقول بشارة: *«على الرغم من عدم رفض هذه الانتقادات، أو التقليل منها، من المهمّ أن نضع، في اعتبارنا، أن هؤلاء الناس ليسوا غالبية الشباب، بل غالبية، من الشباب، من طبقة معينة* [أي الطبقة الوسطى] ... *معظم الشباب، من القطاعات الفقيرة، من المجتمع، يدعمون أحمدي نجاد».*

ثم يتنقل بشارة، من هذه الفرضية الخاطئة؛ ليؤكد أن:

> *«المزاج العام السائد بين أولئك الذين يعتقدون أن أصواتهم تحمل وزناً نوعياً أكبر من أصوات الفقراء الأكثر عدداً، والذين قد يعتقدون - فعلاً - أنهم يمثلون الأغلبية؛ لأنهم يشكّلون الغالبية، في الأجزاء الخاصة بهم، في مدنهم، حتى لو كانوا أقلية، في البلاد، وهو موقف متعال، وطبقي».*

إن افتراض أن أنصار موسوي و/أو كروبي، أو تلك الجماهير التي تُعدّ، بالملايين، من الناس الذين تدفّقوا في شوارع طهران وغيرها من المدن،

يأتون من «الطبقة الوسطى» هو المغالطة المشتركة التي أسهم فيها بشارة مع عدد كبير من المراقبين الذين يتابعون المشهد الإيراني، من مسافة نظرية، والتي تخفي أكثر مما تكشف. حتى المؤرّخ المتمرّس في تاريخ إيران المعاصر يرواند آبراهاميان، أستاذ التأريخ البارز، في نيويورك، قد أفتى بتقييم مماثل، ولكنْ؛ بصياغة أكثر ملائمة. صرّح آبراهيميان لأميرة هاس، من صحيفة هآرتس، بالقول «*ينبع أساس دعم موسوي - في الواقع - من خرّيجي الجامعات والمتعلّمين، الذين يمكن وصفهم، بالطبقة الوسطى، والذين يعتبرون نتاجاً واضحاً لدولة الرفاه وسياسة توسيع قاعدة الخدمات الاجتماعية المعمول بها منذ إنشاء الجمهورية* [الإسلامية]. *وقاعدة داعمي أحمدي نجاد من الذين أسمّيهم ‹الإنجيليين› بدلا من ‹الأصوليين›. ولا يتشكّل هؤلاء، من الفقراء، بل من الفقراء المتديّنين - ما بين ٢٠ و ٢٥ في المائة*». تحتوي النقطة الأخيرة التي أشار إليها آبراهيميان حول الذين يسمّيهم «الفقراء الإنجيليين»، على العديد، من الثغرات الخطيرة، التي لن أتناولها الآن.

لا تكمن مشكلة هذا الانطباع الخاطئ عن هذه «الطبقة الوسطى» الغامضة، في أنه يشوّه الحقيقة التي نراها، في المدن الإيرانية، وحسب، بل ويغذّي - أيضاً - عن غير قصد النظريات التآمرية بين شرائح معينة، من اليسار، في أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية؛ حيث تنطلق، بهذه الملاحظة، إلى خطوة وهمية أخرى، تتمثل في اعتقادها أن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (نيابة عن الاقتصاد النيوليبرالي) تقف وراء هذه «الثورة المخملية». يحتاج هذا المرض الخاص إلى تشخيص منفصل، ولكن الفرضية الزائفة التي تتحدث عن دعم «الطبقة الوسطى» لموسوي، والمعتمدة خاصة من قِبل أناس، أكن لهم أشد مشاعر الإجلال، تحتاج إلى عناية أكثر إلحاحاً.

ما يزيد عن ٧٠٪ من مجموع سكان إيران البالغ عددهم ٧٢ مليون نسمة تحت سن الثلاثين. في حين أن المعدّل العام للبطالة، في ظل حكومة أحمدي نجاد - بناء على الأعداد الكبيرة، في ظل رئاسة خاتمي لولايتين - هو ٣٠ في المئة، ويصل هذا المعدّل إلى ٧٠٪ بالنسبة للشباب الذين

تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٢٩ (والذين يشكّلون نحو ٣٥ في المئة، من مجموع السكان)، وفقاً لجواد صالحي أصفهاني، الخبير الاقتصادي الإيراني الأكثر موثوقية. وهكذا نرى أن سبعة من بين كل عشرة أشخاص، في هذه الفئة العمرية يجدون صعوبة، في الحصول على وظيفة، ناهيك عن الزواج، ناهيك عن إنجاب الأطفال، وتكوين أسرة. ما هو - إذنْ؛ بالضبط - التعريف التخيّلي لهذه «الطبقة الوسطى» التي يأملون أن يكونوا من ضمنها؟

اسمحوا لي أن أذكر إحصاءات أخرى. لا بد أنكم قد لاحظتم الوجود الساحق للمرأة في المظاهرات، أليس كذلك؟ اليوم ٦٣٪ في المئة، من طلبة الجامعات، في إيران، من النساء، لكنهن يشكّلن ١٢,٣٪ فقط، من القوى العاملة. وبعبارة أخرى، فإن واحدة من كل اثنتين، من خرّيجات الجامعات، تحصل على شهادتها الجامعية، ثم تعود إلى الحياة مع ذويها، وتظل عبئاً، على ميزانيتهم المحدودة، ويمكنها أن تأمل - فقط - بمغادرة منزل والديها، بأن تعثر على زوج، من بين هؤلاء الثلاثة، من أصل عشرة شبان الذين قد يكونون محظوظين، بما فيه الكفاية، للعثور على وظيفة، قد تمكّنهم من الزواج. ما هو التعريف الماركسي، أو الكينزي، أو النيوليبرالي الذي يمكن أن تتناسب معه هذه «الطبقة الوسطى» المحظوظة؟

ولندرس حقيقة أخرى. إذا كان لنا أن نصدّق نتائج الفرز الرسمي للانتخابات الرئاسية - وليس لدي أي وسيلة لإثبات خلاف ذلك (على الرغم من أن كونها انتخابات مزوّرة أصبح - اليوم - «حقيقة اجتماعية») - فإن ضِعف عدد الناخبين الشباب الذين صوّتوا لمير حسين موسوي ومهدي كروبي ومحسن رضائي مجتمعين، قد صوّتوا لصالح أحمدي نجاد. وبعبارة أخرى، فإن النتائج الرسمية تدحض - تماماً - حجة أن مؤيدي موسوي، من «الطبقة الوسطى»، لأننا - في نهاية المطاف - إما أن نكون مع الاقتراح الغريب الذي يقول بأن الإيرانيين المؤيدين لموسوي صوّتوا لصالح أحمدي نجاد، إذا كانت النتائج دقيقة، أو اقتراح آخر قابل للتصديق - تماماً - يقول بأن العاطلين عن العمل - وبالتالي الفقراء من حيث التعريف - قد صوّتوا

لموسوي، إذا كانت النتائج مزوّرة. وفي الحالتين كلتيهما، فإن أنصار موسوي، ليسوا الطبقة البرجوازية، من الطبقة المتوسطة العليا الذين يعتقدون أن أصواتهم أكثر قيمة، من أصوات الآخرين.

ولكن كل هذه الإحصاءات وأخرى أمثالها تتضاءل، بالمقارنة مع آخر إحصائية، تُظهر الرعب الحقيقي، في قلب الجمهورية الإسلامية الذي لم يتسبّب فيه أحمدي نجاد فقط، بل جميع أصحاب النزعة المتشدّدة من النخبة الحاكمة. شارك نحو ٣ ملايين، من خرّيجي المدارس الثانوية، في عام ١٩٩٧، في امتحان القبول الجامعي القومي الإيراني؛ حيث تمكّن ٢٤٠,٠٠٠ منهم - فقط - من اجتياز مهام رستم السبعة، ودخلوا الجامعة. وهكذا نجد أن القدرة الكاملة للنظام الجامعي الإيراني، بأكمله، قادرة على استيعاب أقل من ١٠٪ من إجمالي المتقدّمين. ما الذي حدث لنسبة ٩٠٪ الزائدة؟ إلى أين يذهبون؟ إلى أيّ وظيفة؟ وما هي الفرص أمامهم؟ وما التعليم الذي سيحصلون عليه؟

الجواب مخيف حقاً. يتمّ استيعاب جزء كبير، من المتبقّين، من نسبة التسعين في المئة في طبقات مختلفة، من جهاز الأمن العسكري، بما فيها الباسيج والباسدران. إذنْ؛ في الواقع، فإن أيّ شخص مؤهّل للانضمام إلى هذه «الطبقة المتوسطة» البغيضة هو - بالضبط - هؤلاء الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٢٩ سنة، والذين لم ينجحوا، في الانضمام إلى النظام الجامعي، وانضموا بدلاً منه إلى الأجهزة الأمنية، للنظام؛ ليحصلوا على وظيفة ثابتة، وليتمكّنوا من الزواج، وتشكيل أسرة، وليصبح لديهم استثمار صلب، في الوضع الراهن، وليحملوا لقب «الطبقة الوسطى». وبعبارة أخرى: بدلاً من إنفاق الميزانية الوطنية على توسيع النظام الجامعي، ومن ثم؛ توليد فرص العمل، فإن ولاة الجمهورية الإسلامية - وليس فقط أحمدي نجاد - سيفضّلون الإنفاق على تحصين أجهزة الأمن التي تحافظ على تفاهتهم الهرمة، في السلطة، على قدر عدم ثقتهم، في شرعيتهم.

بالطبع أحمدي نجاد ليس مسؤولاً، بالكامل، عن هذا الوضع المحزن. يعتمد الاقتصاد الإيراني بنسبة ٨٥ في المئة، على النفط، والاقتصاد القائم على النفط لا يضم عمالة كثيفة، في حين أن «الطبقة الوسطى» الإيرانية لطالما كانت - ومنذ القرن التاسع عشر - ضعيفة وهشّة. ولكن افتراض بشارة أن «أحمدي نجاد ليس ممثلاً لتيار المحافظين، بقدر ما هو متمرّد عليهم، من داخل مؤسستهم»، أو أنه «ينتقد سلوك المحافظين - بمن فيهم رجال الدين الذين فسدوا - متسلّحاً، بمبادئ الثورة الإسلامية»، افتراض معيب، للغاية. بالطبع كان هناك فساد في الإدارتين اللتين سبقتاه، إدارتي خاتمي ورفسنجاني، اللتين أطلقتا العنان للخصخصة النيوليبرالية، ونتائجها الكارثية. ولكنْ؛ ما هي الطريقة الخاصة التي صحّح فيها أحمدي نجاد هذا المسار؟ الجواب: لم يقم، بذلك، بأي حال من الأحوال. المعركة بين أحمدي نجاد ورفسنجاني ليست معركة بين النقاء الثوري والفساد الهرم، بل هي معركة بين النخبة المتقاعدة وقيادة صاعدة، كانت - سابقاً - بين الصفوف الأدنى رتبة، تريد أن تؤكد على سلطتها. إنه من الرومانسية الخطيرة تخيُّل أحمدي نجاد، كرجل «يريد أن يعيد للثورة شبابها وبريقها». إنه واضح، إلى درجة الشفافية، لدرجة أن كل ما علينا فعله هو الجلوس لمشاهدة عشر دقائق، من دجله خلال المناظرات الرئاسية المتلفزة، لنتابع الغوغائية المتفشّية التي يتصرف بها. الطريقة الوحيدة التي تجعله «يقوم بتوزيع عائدات النفط بين الفقراء» هي عن طريق تجنيد هؤلاء الصغار في أجهزة الأمن الوحشي متعدد الطبقات المسمّاة الباسيج والباسدران. ومرة أخرى، هذا كله ليس من اختراعه. إنه يضيف - ببساطة - إلى انعدام الثقة المتأصلة، في النظام، عن طريق الاستثمار، بشكل مبالغ فيه، في قوات الأمن.

وينتهج بشارة مساراً أكثر دقة، عندما يلاحظ - بحق - أن «شعبوية *خطاب نجاد تساند نهج السياسات الغربية العنصرية تجاه العرب والمسلمين والشرقيين، بشكل عام، فشهادة البراءة التي يمنحها*

لأوروبا، من جريمة المحرقة كارثية، بكل المعاني». ومرة أخرى، يتجاوز بصيرته الخاصة، من خلال الإشارة إلى أن «*نجاد يصدم الغرب - أيضاً - بمجموعة مبادئ صحيحة، تتحدى الإرث الاستعماري، لم يعد أحد يتفوّه بها بعد أن رُوِّض الجميع داخل مسلمات التعجرف والعنصرية الغربيين*». كيف ذلك؟ كيف يمكن لتكرار عادي وضيق لبعض البديهيات حول الاستعمار والإمبريالية أن يؤهّل أحمدي نجاد؛ لأن يُعدّ أنه يتصرف وفقاً «للمبادئ الصحيحة»؟ فقط؛ لأن العالمَيْن العربي والإسلامي يزخران، بهؤلاء الجبناء أنصار التعاون مع العدوّ، في مواقع السلطة، لا يعني أن غوغائياً غير مسؤول، يمثّل الشجاعة، أو يعمل وفق «المبادئ الصحيحة». بل على العكس تماماً، كان الخطاب المعتوه لأحمدي نجاد، في جنيف، في سياق مؤتمر ديربان الثاني في أبريل ٢٠٠٩ مسؤولاً - بشكل رئيس - عن تبييض صفحة إسرائيل، من مجازرها ضد الفلسطينيين، في قطاع غزة، في ديسمبر ٢٠٠٨ ويناير ٢٠٠٩.

ينبغي إنقاذ قضية التحرر الوطني الفلسطيني من براثن مثل هذه الديماغوجية، وإعادة كتابتها وفقاً لتطلّعاتنا الديمقراطية، في هذه الجغرافيا السياسية التي ينشأ منها هؤلاء الشباب الإيرانيون، والرجال والنساء، والطبقة الدنيا والمتوسطة، الذين يشكّلون طليعة المتظاهرين، في شوارع مدنهم. ينبغي إنقاذ المؤسسات الديمقراطية والحريات المدنية، من براثن التفاهة المجتمعة للمغالطة السياسية والاقتصادية النيوليبرالية والإقليمية الجديدة. لا تعشق إسرائيل شيئاً أكثر من انعكاس صورتها، في مرآتها الخاصة، في المنطقة - مجموعة الأنظمة المتعصّبة التي تجعلها تشعر، بالراحة، بين هؤلاء الجيران. وتفضّل التعامل مع عملائها الفاسدين، من جهة، أو أخرى، في العالمَين العربي والإسلامي، الذين يتناثر بينهم بين حينٍ وآخر الديماغوجيون الشعبويون. إنها لحظة من تاريخنا تتطلب قيادة حكيمة. ولننظر إلى حسن نصر الله، فبعد موقفه الحكيم والرشيد في البداية، رافضاً دعم أحد الطرفين، هُرع لتهنئة أحمدي نجاد، «بانتصاره». وكان هذا خطأً استراتيجياً رهيباً.

لا بد له أن يعرف الحقيقة القائلة إن تضامن الإيرانيين مع القضايا النبيلة لفلسطين ولبنان لا يتوقّف على فوز أحمدي نجاد، أو هزيمته. كان بيانه اللاحق الذي قال فيه إن: «*إيران ستجتاز هذه الأزمة بقيادة سلطة ولاية الفقيه*» أكثر فطنة، ولكنه كان أقل من المطلوب، وبعد فوات الأوان؛ حيث أتى بعد تصريح علي خامنئي، بإطلاق حملة دموية، على الانتفاضة. لماذا لم يتمكّن نصر الله، من إظهار الحكمة والاتزان نفسه عندما خسر حزب الله الانتخابات البرلمانية اللبنانية الأخيرة أمام تحالف ١٤ آذار، بقيادة سعد الحريري؟ ما هو الفرق بين قضية الديمقراطية، في لبنان وإيران؟ ولكنْ؛ لئلا يُساء انتقادي لنصر الله، من قِبل أشخاص، في تل أبيب وواشنطن، اسمحوا لي أن أتأكد من معرفتهم أننا أكثر من قادرين على تحمّل مبدأ المعارضة الديمقراطية، حتى في أحلك الظروف، دون إغفال أن الاستيطانية الاستعمارية العنصرية أحد أخطر التهديدات، للديمقراطية، في منطقتنا.

إننا نشهد تحوّلاً معرفياً، في ثقافتنا السياسية الواردة. ينبغي علينا أن نتعلّم من أولئك الذين يخاطرون، بحياتهم، في شوارع إيران، ونستجمع شجاعتنا وخيالنا لمواجهة وقراءة الأمر، بشكل استباقي، بدلا من التقهقر مجدداً إلى التحليل البنيوي الوظيفي، للوضع الراهن الذي نحن فيه؛ حيث نقول لأنفسنا في الواقع: «اسمعوا أيها الناس، إننا شرقيون. والاستبداد الشرقي منقوش، في حمضنا النووي، وإن المشعوذين مثل أحمدي نجاد هم أفضل ما يمكن أن ننتجه»؛ حيث تخطئ عقدتنا الكاذبة بالذنب، وتعتقد في غوغائيتهم أصولهم ومشاريعهم البروليتارية، من ثم؛ نسمح لتحفظاتنا الفكرية بتنظير انتصارهم، كأمر بديهي. إننا بحاجة للتفكير، بأنفسنا، بشكل أفضل، من أجل الأجيال القادمة.

نُشرت لأول مرة في صحيفة الأهرام ويكلي ، ٢-٨ يوليو، ٢٠٠٩

اليسار مخطئ بشأن إيران

عندما يحدث زلزال سياسي مثل الانتخابات الرئاسية الإيرانية في يونيو ٢٠٠٩ وتداعياتها، لا تكشف إثارة اللحظة ودراميتها تطلعاتنا الكبيرة وآمالنا، وحسب، بل أعمق صدوع تفكيرنا، وعيوبنا الأخلاقية الأكثر إثارة للقلق، والهاوية السياسية الخطيرة التي نواجهها.

تعلّمتُ - على مدى العقود الماضية - ألا أتوقع الكثير مما يسمّى «اليسار» في أمريكا الشمالية و/أو أوروبا الغربية، عندما يتعلق الأمر بسياسة المنطقة التي أسماها أسلافهم الاستعماريون «بالشرق الأوسط». ولكنني أتوقع الكثير عندما يتعلق الأمر، بمثقّفينا التقدميين - العرب والمسلمين والجنوب آسيوين، والأفارقة والأميركيين اللاتينيين. ليس هذا تقسيماً عنصرياً، ولكنه تصنيف إقليمي متوافق مع الفجوة الاستعمارية.

وعلى العموم، فإن هذا التوقّع مناسب، ويتحقق، في أغلب الأحيان. أفضل مثال على ذلك هو المقارنة بين ما عرضه عزمي بشارة عن الانتفاضة الأخيرة في إيران، وما شعر سلافوي جيجك بأنه مُلزَم، بكتابته. ففي الوقت الذي كان فيه مقال بشارة (الذي يحتوي جوانب، لديّ الكثير من الأسباب للاختلاف معها) معتمداً على الوعي الدقيق، بالمشهد الإيراني، والمتراكم على مدى السنوات الثلاثين الماضية، من عمر الجمهورية الإسلامية، ومن قبلها حتى، فإن مقال جيجك (الذي وصل إلى نتيجة، أختلف معها تماماً) مقال عفوي وانطباعي تماماً، مبني على قدر من المعرفة حول إيران مشابه لمعرفتي حول التركيب المعدني لكوكب المشتري.

ويمكن ضرب أمثلة كثيرة على هذا، عندما نضيف إلى المقالات التي

كتبها عزمي بشارة ما كتبه مصطفى اللباد وجلال نصار، على سبيل المثال، ونقارنها بالعمى المرتبك لكل من بول كريغ روبرتس، أنتوني ديماجيو، مايكل فيلوفا، جايمس بتراس، وجيرمي هاموند، وإريك مارغوليس، وغيرهم الكثير. وبينما يكتب الأشخاص الأقرب إلى المشهد الإيراني، من منطلق الانتقاد النابع، من الألفة، ومع جرعة صحية، من الخلاف، يكتب الأشخاص الأبعد عنها، بإجماع، على كشف جهلهم المركّب، دون أن يكون لديهم أدنى فكرة، عما حدث في ذلك البلد، على السنوات الثلاثين الماضية، ناهيك عن المائتي سنة الماضية، ثم يتفاخرون - بمنتهى الوقاحة - بهذا الجانب، أو ذاك، أو القيام، بما هو أسوأ، اعتبار أكثر من ٧٠ مليون إنسان عملاء لوكالة المخابرات المركزية ودُمى في أيدي السعوديين.

اسمحوا لي أن أبدأ بالقول - بشكل قاطع - إنني - من حيث المبدأ - أتشارك مع اليسار، في فرضيته الأساسية، وضجرهم من المكائد الإمبريالية للولايات المتحدة، ومن وسائل الإعلام الكبرى، في أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية (ولكنْ؛ ليس جميعهم، بأي حال من الأحوال) التي لا تدرك ما يحدث، في جميع أنحاء العالم، على العموم، بل وأسوأ من ذلك، ترى الأشياء، من وجهة نظر التلقين الحكومي، والذي نادراً ما يقومون، بمساءلته. لم يمرّ سوى بضعة أشهر، على خروجنا من كابوس رئاسة بوش، والمكائد المشتركة لديك تشيني، ودونالد رامسفيلد، وبول وولفويتز، وجون أشكروفت، والمصائب المستمرة «للحرب على الإرهاب». لا تزال إيران تحت تهديد ضربة عسكرية، من جانب إسرائيل، أو على الأقل، فرض عقوبات اقتصادية أكثر شدة، مماثلة لتلك العقوبات التي فُرضت في عهد إدارة كلينتون، والتي كانت مسؤولة عن وفاة مئات الآلاف، من العراقيين. العراق وأفغانستان تحترقان، وغزة تخربت تماماً، وتعاني منطقة شمال باكستان، من أزمة إنسانية عميقة، وإسرائيل تسرق المزيد من الأراضي الفلسطينية، في كل يوم. مع كل ما قدّمه من وعود وبهرجة وتشريفات، لم يُظهر الرئيس أوباما - بعد - أيّ تغيّر واضح وملموس، في تعامل إدارته مع المنطقة، عن الإدارة السابقة.

الكونغرس الأمريكي - مدفوعاً من آيباك (لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية)، وأعضاؤه المؤيدون للحرب، والمتربّصون في كواليس السلطة، في العاصمة واشنطن، وأمراء الحرب الإسرائيليون، وماكينتهم الدعائية، في الولايات المتحدة - متحمسون، للأحداث في إيران، ويفعلون ما بوسعهم لتحويلها لمصلحتهم. ولكنْ: لليسار الحق في الشعور بالقلق.

ولكنْ؛ أن يكون لك مواقف نابعة من مبدأ، فيما يتعلق، بالجغرافيا السياسية شيء، والتعامي وصمّ الأذنين، عن حركة اجتماعية واسعة شيء مختلف تماماً، كما هو عدم الاكتراث للدجل الغوغائي الصارخ لشخص ديماغوجي مثل أحمدي نجاد. إن علامة ومهمة الفكر التقدمي الذكي هي التمسك، بالمبادئ الأساسية، والسعي لدمج انتفاضة اجتماعية جماهيرية، في طريقة عملها. لا يهمني - هنا - الجزء الرجعي، من اليسار، في أمريكا الشمالية، أو أوروبا الغربية الذي يقف إلى جانب أحمدي نجاد، وضد الملايين، من الجماهير الإيرانية التي تجرّأت على مواجهة الأجهزة الأمنية القاسية للجمهورية الإسلامية. إنهم قضية خاسرة. ولا أحد يهتم - حقاً - بآرائهم فيما يحدث في العالم. ما يهمني - حقاً - أنه عندما يختار مثقّف عربي مثل أسعد أبو خليل أن يعلن للناس تقييمه لهذه الحركة التي تحمل أكواماً من التعصب الجامح، فإنه يصرّ - بثبات - على الجهل المطبق.

ذكر أسعد أبو خليل - أخيراً، بشكل قاطع، على موقعه الإلكتروني «العربي الغاضب»، - أنه *«الآن أكثر اقتناعاً - من أيّ وقت مضى - أن حكومة الولايات المتحدة والحكومات الغربية كانت أكثر انخراطاً، في الشؤون الإيرانية خلال المظاهرات، مما يفترضه الكثيرون»*. ثم يحاول توخّي الحذر، وتغطية ظهره عبر محاولة جعل ادعائه أكثر دقّة:

> *«دعونا نوضح الأمر: التدخل الأمريكي والغربي والسعودي في الشؤون الإيرانية، لا يجعل المتظاهرين الإيرانيين أنفسهم متورّطين، بالضرورة. وحتى لو كان البعض منهم متورطاً، في تلك المؤامرات، ولكنني*

أعتقد أن غالبية المتظاهرين الإيرانيين قد خرجوا بدافع من القضايا الداخلية والمظالم المشروعة ضد الحكومة القمعية».

إن محاولة توخي الدقة هذه - في الواقع - أسوأ من التصريح القاطع الذي يقول بأن مكيدة تآمرية، تكمن وراء الحركة؛ لأنه يسعى إلى تطبيق جهد تخميني غير موجود، للتستّر على الإفلاس الأخلاقي المتمثل بعدم اتخاذ هذا الموقف، بطريقة، أو بأخرى. ثم يطلق أبو خليل بياناً نهائياً قائلاً: «*لقد كنت أبحث - فقط - في تغطية وسائل الإعلام الأمريكية والغربية لهندوراس؛ حيث تتشابه الأزمة التي نشأت هناك مع هذا الموضوع، إلى حد ما؛ حيث لا يمكنك إلا أن تستنتج أن وسائل الإعلام الأميركية شاركت مع حكومة الولايات المتحدة، في مؤامرة، سيتم الكشف عن تفاصيلها بعد سنوات من الآن*». وبعبارة أخرى، بما أن وسائل الإعلام الأمريكية لا تغطي التطورات في هندوراس، بدقة، كما تقوم بتغطية الحدث الإيراني (كما يخيّل لأبو خليل)، فإن وسائل الإعلام الأمريكية متواطئة مع حكومة الولايات المتحدة، في إثارة الاضطرابات، في إيران، وبالتالي؛ فإن هذه الحركة تم تصنيعها وفقاً للمخططات الإمبريالية الأمريكية، بمساعدة سعودية. وعلى الرغم من أننا قد لا نمتلك الدليل على ذلك بعد، فإننا سنتعرف على تفاصيلها بعد ثلاثين عاماً من الآن، عندما يأتي شخص مثل ستيفن كينزر، ويكتب وصفاً للمؤامرة، كما كتب هو حول الانقلاب عام ١٩٥٣، برعاية وكالة المخابرات المركزية.

لا بد وأن كل مَن لم يرَ ويسمع ويشعر بملايين البشر الذين يخاطرون بأرواحهم الشجاعة، وحرياتهم الثمينة، ويتدفّقون في شوارع المدن، مطالبين بحقهم الدستوري في الاحتجاج السلمي، كان محنّطاً، في العمق والظلام، منسياً، في تجويف كوكب آخر. تم اعتقال الآلاف منهم، وسجنهم، تاركين أحبّاءهم قلقين، لا يعرفون أين ذهبوا، مئات من كبار المثقّفين العموميين والصحفيين ونشطاء المجتمع المدني وحقوق المرأة، اعتُقلوا،

وسُجنوا، وتعرّضوا للمضايقات، وحتى التعذيب، وتمّ إجبار البعض منهم، على الظهور على شاشة التلفزيون الوطني؛ ليعترفوا بأنهم جواسيس «للعدو». تمّ اعتقال نساء حوامل، من قادة الإصلاحيين، إلى جانب هؤلاء المثقّفين الكبار، أمثال سعيد حجاريان، الذي أُصيب، بالشلل بعد أن نجا، بالكاد، من محاولة اغتيال من قِبل هؤلاء أصحاب المناصب العليا، في الجمهورية الإسلامية، الذين وضعوه - مجدداً مع كرسيه المتحرك - في السجن. يقود المعارضة ثلاثة من الإصلاحيين البارزين، وجميعهم من أبطال الثورة الإسلامية - خاتمي، موسوي، وكروبي: رئيس سابق، ورئيس وزراء سابق، ورئيس برلمان سابق، لتلك الجمهورية الإسلامية ذاتها - متّهمين الحكومة، بتزوير الانتخابات، معلنين عدم شرعية أحمدي نجاد. أعلن آية الله العظمى منتظري الذي يبلغ الثمانينات من عمره صراحة أن خامنئي لا يمتلك الشرعية. البرلمان الإيراني مضطرب، ومنقسم انقساماً عميقاً. لقد عاث جهاز الأمن العسكري فساداً ضد المواطنين المدنيين، على نطاق واسع: لقد تعرّضوا للضرب والاعتداء بالهراوات، والغاز المسيل للدموع، وتم إطلاق النار عليهم. وتمّت مداهمة السكن الجامعي، بوحشية، من قِبل حرّاس، يرتدون ملابس مدنية، وتعرّض الطلاب، للضرب، بالهراوات، والعصي، والركل، والضرب المبرح، باللكمات، على يد هؤلاء البلطجية ضخام الأجسام. نزل ملايين الإيرانيين، في جميع أنحاء العالم، إلى الشوارع، وخرجت الشخصيات العامة الشهيرة - فلاسفة مثل عبد الكريم سروش، ورجال دين مثل محسن كديور، ومفكّرون عموميون مثل عطا مهاجراني، وصانعو أفلام مثل محسن مخملباف، ومغنّو بوب مثل شاهين نجفي، ولاعبو كرة القدم في المنتخب الإيراني الوطني، وعدد لا يُحصى من الشعراء والروائيين والباحثين والعلماء والناشطين في مجال حقوق المرأة - خرجوا للتعبير عن تحديهم لهذه الوحشية التي تُرتكب ضد إخوانهم وأخواتهم.

لم آت بأيّ جملة مما قلته، أو بأي كلمة، حتى من قناة سي إن إن، أو من صحيفة نيويورك تايمز، أو من قناة العربية، أو أي مصدر آخر، يستمتع

أسعد أبو خليل، بكراهيته. لا يعني أيٌّ من هؤلاء الناس أيَّ شيء، للسيد أبو خليل. هل - حقاً - يستطيع أن يواجه هؤلاء الملايين من الناس، الذين يُعدّون من أفضل وألمع الأشخاص، في إيران، وأمهات أولئك الذين تم قتلهم وتعذيبهم وضربهم، بشكل وحشي، وبدم بارد، والذين تعرّضوا لشلل دائم؛ ليقول لهم إنهم عملاء لوكالة الاستخبارات المركزية، وللسعوديين، وإن قناة سي إن إن وقناة العربية قد عبّأتهم؛ ليقوموا بذلك؟! لأبو خليل كل الحقّ في الشك في صحة ما يراه، في وسائل الإعلام الأمريكية. ولكنْ؛ إلى أي مدى يتحوّل الانتقاد المشروع لوسائل الإعلام إلى تجاهل غير مشروع، للواقع نفسه؛ وإلى أي مدىً قد تغيِّر القراءة غير الناضجة لما بعد الحداثة المعايير الأخلاقية لدينا تماماً؛ لنقول بأنه لم يعد هناك وجود لأيّ حقيقة بعد اليوم، بل مجرد تمثيلات لهذه الحقيقة؟!

يرفض أسعد أبو خليل انتفاضة اجتماعية جماهيرية، تتكشف أمام عينيه، ويراها مصنّعة من قِبل الأميركيين والسعوديين. ما الذي يعرفه أبو خليل عن إيران أيضاً؟ هل يعلم أي شيء؟ ثلاثون عاماً (مبنية أصلاً على ٢٠٠ سنة)، من التفكير والكتابة والتعبئة، والثورات السياسية والفنية، والمناقشات اللاهوتية والفلسفية - هل يقرع أيّ من هذا ناقوس الخطر لدى البروفيسور أبو خليل؟ هل تعني له أسماء كل من محمود شبستري، عبد الكريم سروش، محسن كديور، من بين العشرات من المفكّرين الآخرين، أيّ شيء؟ هل استمع - يوماً - إلى الشباب الإيرانيين يتحدثون، أو اهتمّ، بالتعرف على كلمات الموسيقى التي يكتبونها؟ هل شاهد الأفلام التي يصنعونها؟ هل زار أيّ معرض للصور الفوتوغرافية التي يصوّرونها؟ هل رأي أيّ عمل فني، من أعمالهم؟ هل ألقى، ولو نظرة، على صحفهم، أو دورياتهم، أو مجلاتهم، أو مدوّناتهم، أو مواقعهم الإلكترونية؟ هل هؤلاء جميعاً عملاء لأمريكا، تم التلاعب، بعقولهم، من قبل عملاء المخابرات المركزية الأمريكية، وتم شراؤهم، بأموال السعوديين؟ إلى أيّ عمق يصل هذا الانحراف الفكري؟

ليس لدى أبو خليل في أحدث منشوراته سوى هذا؛ ليقوله عن إيران:

> *«أوصي - بشدة - بالاعتماد، على صحيفة نيويورك تايمز، للحصول على التغطية الصحفية الأكثر موثوقية، عما يحصل في إيران. أعني، أن هذه الصحيفة لديها مايكل سلاكمان، في القاهرة، ونظيلة فتحي، في تورونتو، وكان لديهم «مراقبون مستقلون»، في طهران. ما الذي تريده أكثر من ذلك؟ وإذا أردت المزيد، فإن المحطة الفضائية المملوكة لصهر الملك فهد (قناة العربية) لديها مراسل في دبي، لتغطية الأحداث، في إيران. ووفقاً لتقرير تمّ بثه، للتو، فإن موسوي حصل على ٩١ ٪ من الأصوات في «أحد الأحياء الراقية». أنا لا أمزح. لقد قالوا ذلك حقاً».*

ألا يمتلك الإيرانيون صحفيين ومراسلين ومحلّلين سياسيين، أو خبراء استطلاعات رأي، أو خبراء اقتصاديين، أو علماء اجتماع، أو مختصين بالعلوم السياسية، أو صحفاً دورية، أو مجلات، أو مدوّنات، أو مواقع إلكترونية؟ إذا كان لدى أبو خليل هوس غريب، بوسائل الإعلام الأمريكية، أو السعودية التي يكنّ لها الكراهية، ألا يحرم هذا الولع المرضي النفسي - بحكم الواقع - أمة، بأكملها، من تحدّيهم للطغيان، وحقّهم في تغيير مصيرهم؟!

ما هذه الحالة الذهنية الرهيبة؟! لقد فقد أبو خليل أمله بنا - تماماً - كعرب وإيرانيين ومسلمين وجنوب آسيويين وأفارقة، وأمريكيين لاتينيين، إلى درجة أنه لم يخطر في باله - أبداً - أنه - ربما، وفقط ربما - لن يكون بوسع الولايات المتحدة وإسرائيل أن يفعلوا أيّ شيء حيال الأمر، إذا ما أخذنا أصواتنا، بجدية. إنه يتوهم أنه معارض للولايات المتحدة وإسرائيل. ولكن عقله قد تم استعماره، إلى درجة لا تسمح له بأن يرى فينا أيّ شيء يُرتجى، وفي إرادتنا لمكافحة التدخّل الإمبريالي والاحتلال الاستعماري لأوطاننا، والاستبداد الداخلي، في آن واحد. إنه يعتقد أننا إذا كنا قمنا، بذلك، فلا بد أن تكون أمريكا والسعودية مَن دفعنا إلى ذلك، بكل تأكيد. إنه ضائع -

تماماً - في خرابه الأخلاقي، ويأسه الفكري، حدّ اعتقاده بأن الأمريكيين - فقط - هم القادرون على تحريض ثورة جماهيرية، من هذا النوع الذي قد تكشّف أمام عينيه. يا لها من حالة مخيفة يعيشها مثقّف؛ حيث لا يملك أيّ ثقة، أو شجاعة، أو خيال، أو أمل. فكوننا كشعب وكأمة وكإرادة جمعية، خضنا كفاحاً لأكثر من ٢٠٠ عام للحصول على حقوقنا الدستورية، فذلك شيء لم يخطر على بال أبو خليل قط. ما الذي يعطي أي إنسان تلك السلطة، للتحدث، بتلك العجرفة والتعالي، عن أمة أخرى، لا يعرف عنها شيئاً؟!

لقد قضيت عشر سنوات أشاهد كل فيلم فلسطيني، أتمكن من الحصول عليه قبل أن أفتح فمي، وأتلفظ بكلمة واحدة، عن السينما الفلسطينية. وزرتُ كل أرشيف، يمكن أن تتخيّله في أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية، وسافرت من المغرب، إلى سورية، وقدتُ سيارتي، من بداية فلسطين، إلى نهايتها، وتشرّفت بالكرامة التي ينعم بها الفلسطينيون الذين يقاومون الاحتلال الإجرامي لوطنهم، ومشيتُ وعرضتُ أشرطة فيديو مهرّبة، على معدّات غير مناسبة، وكهرباء مسروقة، من مخيم للاجئين الفلسطينيين، في لبنان، إلى آخر. ثم ذهبت إلى سورية، وتعرفتُ على أمين أرشيف فلسطيني، يمتلك معرفة لا محدودة أكثر من معرفتي للسينما الفلسطينية. لقد جلستُ عند قدميه، وتعلّمتُ التواضع. ولا زلت لا أجرؤ، على تحريك قلمي، أو أنبس، بكلمة، عن أي شيء، يخص الفلسطينيين دون استشارة باحث فلسطيني - من إدوارد سعيد، إلى رشيد الخالدي، إلى جوزيف مسعد - ليقرأ ما كتبتُ قبل أن أجرؤ، على نشره. ولم أفعل كل هذا، من من منطلق أي اعتقاد باطل، في المعرفة، بل من منطلق الاحترام الثابت لكرامة الفلسطينيين الذين يقاتلون، من أجل حرياتهم ووطنهم السليب، والخوف من عبء المسؤولية التي تتطلّبها الكتابة، عن نضال أمة وكفاحها، والملقاة على كاهلنا نحن الذين نمتلك صوتاً وجمهوراً.

إن الاضطرابات الاجتماعية في ما يطلقون عليه اسم العالم الثالث مسألة، من وسائل الترفيه النظري لأشخاص مثل سلافوي جيجك. إنه تقليد قديم،

يعود - أصلاً - إلى سارتر وكتاباته عن الجزائر وكوبا، في الخمسينيات، وصولاً إلى فوكو وكتاباته، عن إيران في السبعينيات. وهذا لا يزعجني إطلاقاً. بل أجده - في حقيقة الأمر - مسلياً للغاية - مشاهدة أشخاص بالغين، يجعلون من أنفسهم أضحوكة، بحديثهم، عن شيء، ليس لديهم أدنى فكرة عنه. ولكنْ؛ عندما يقوم شخص ما مثل أسعد أبو خليل، بالتمادي في استخدام مجموعة متنوعة، من الكليشيهات اليسارية التافهة، فإن هذا يدلّ على ثقافة الكسل الفكري، والإفلاس الأخلاقي الشنيع الذي يتعارض - بشكلٍ صارخ - مع نضالات الشعوب التي أتينا منها. إن شعبنا لا يتوافق مع نظرياتنا القديمة المتهالكة المليئة، بالكليشيهات. إننا بحاجة إلى تجاوز الفكر الكسول، واللحاق، بركب شعبنا. اندفعت الملايين، من الناس، صغاراً وكباراً، من الطبقة المسحوقة، والطبقة الوسطى، رجالاً ونساءً، إلى الشوارع، وأطلقوا انتفاضتهم، مطالبين بحقوقهم الدستورية والحريات المدنية. مَن هم هؤلاء الناس؟ ما هي اللغة التي يتحدثونها؟ ما هي الأغاني التي يغنونها؟ ما هي الشعارات التي يهتفون بها؟ ما هي الموسيقى التي يغنّون، ويرقصون عليها؟ ما هي التضحيات التي بذلوها؟ ما هي الزنازين التي تمّ زجهم فيها؟ ما هو الشعر الملحمي الذي يستشهدون به؟ مَن هم الفلاسفة واللاهوتيون والقضاة والشعراء والروائيون والمطربون وكتاب الأغاني والموسيقيون وأصحاب المدوّنات على الإنترنت الذين حلّقوا عالياً، بنفوسهم، وإلى أيٍّ من المثل العليا، تاقت قلوبهم وعقولهم، على مر الأجيال والقرون؟

العقل المستعمَر هو العقل الخاضع للاستعمار، والمحتَل سواء من قِبل اليمين الأوروبي، أو من قِبل اليسار المليء، بالكليشيهات: إنه أرض محتلّة، خالية من التفاصيل، وخالية من المضمون، وخالية من الحب، وخالية من الفكر، تفتقر إلى فكر عامر، بالاهتمام والرعاية. رائحة عقل كهذا، كرائحة العفن المزمن المثير للغثيان.

نُشرت لأول مرة في صحيفة الأهرام ويكلي، ١٦-٢٢ يوليو، ٢٠٠٩

الشرق الأوسط تغيّر إلى الأبد

مهما كانت النتيجة النهائية للأزمة الانتخابية الحالية، في إيران، فإن النهوض الكبير في السياسة الوطنية، قد ألقى بظلاله طويلة الأجل والثابتة، على الجغرافيا السياسية للمنطقة. لا يمكن لأي بلد العودة إلى الحياة المعتادة. لقد تغيّر المناخ - فعلاً - إلى الأبد.

قبل الانتخابات الرئاسية في يونيو ٢٠٠٩ وضعت الواقعية السياسية في المنطقة كلاً من إيران وسورية وحركة حماس الفلسطينية، وحزب الله اللبناني وجيش المهدي العراقي، على جانب واحد، من الانقسام الجغرافي السياسي، والولايات المتحدة وحلفاءها في المنطقة، على الجانب . ولقد تمكّنت إيران مع نفوذها المتزايد، في فنزويلا، أن تكوّن لها تأثيراً، في الفناء الخلفي للولايات المتحدة.

وفي هذه الحالة غير المستقرة، لم تظهر الجمهورية الإسلامية، بفضل قدراتها الخاصة، بل بحكم الحماقات الخطيرة التي ارتكبها الرئيس جورج دبليو بوش، في المنطقة المجاورة لإيران، كدولة إقليمية «عظمى». وجعلت الانتخابات الرئاسية في يونيو ٢٠٠٩ من هذه الجغرافيا السياسية - وعلى نحو مفاجئ - ما يشبه البقايا الأثرية.

تتغيّر الخارطة الأخلاقية، في الشرق الأوسط - اليوم - أمام أعيننا، مع انطلاق حركة الحقوق المدنية، في إيران في يونيو ٢٠٠٩؛ حيث هدمت الإرادة الديمقراطية لأمة الجغرافيا السياسية، للمنطقة. غيّرت الصور الحية - للإيرانيين الذين تدفّقوا، بكل الألوان، إلى الشوارع - المفردات البصرية، للتصور العالمي «للشرق الأوسط»، إلى الأبد.

أعتقد أن طهران هي قاعدة الانطلاق لحركة الحقوق المدنية التي من شأنها ألا تترك أيّ بلد مسلم، أو عربي، أو حتى إسرائيل، دون أن تمسّه.

قال الصحفي وكاتب العمود البارز في صحيفة هآرتس جدعون ليفي مؤخراً «إن الاضطرابات في إيران، تجعلني أقطر حسداً».

ومع ذلك، فإن الأمور قد تتغيّر، ويعود محمود أحمدي نجاد إلى الساحة العالمية، بفترة رئاسة أخيرة، قد لا تستمر - بأي شكل - أكثر من بضعة أشهر، إذا نجحت المعارضة المتزايدة، في المطالبة، بانتخابات جديدة، أو قد تمتد إلى ولاية رئاسية كاملة، إذا فشلت المعارضة، في تحقيق ذلك.

في الحالتين كلتيهما، فهناك نوع من تأثير الدومينو ناتج عن ضعف رئاسة أحمدي نجاد، لفترة ثانية، في المنطقة.

أصبح موقف سورية - في سياقه الإقليمي الحالي - مكشوفاً للغاية. وحد الانحياز المتسرّع والطائش حسن نصر الله المنتمي لحزب الله إلى أحمدي نجاد مصير تلك المجموعة اللبنانية، مع مصير الرئيس الإيراني سيىء السمعة.

ستكون حماس - اليوم - أكثر ميلاً، للتوصل إلى اتفاق مع حركة فتح، والانضمام إلى عملية السلام الجديدة مع الرئيس الأمريكي باراك أوباما. وينبغي على جيش المهدي اليوم أن يدافع عن نفسه، بطريقة عراقية (بل وقومية حتى) أكثر وضوحاً، مما يسهّل مغادرة الجيش الأمريكي.

ومع ذلك، لا يقتصر تأثير الدومينو، على حلفاء الجمهورية الإسلامية، بل يمتد - أيضاً - إلى مجالات أعدائها، حالياً. أصبحت الخيارات المتاحة للولايات المتحدة وحلفائها الإقليميين، بشأن طموحات إيران النووية - في الوقت الراهن - مكشوفة جداً أيضاً.

وأصبحت إمكانية تطبيق حصار اقتصادي، أو توجيه ضربة عسكرية خيارين، تزداد صعوبة إقناع المجتمع الدولي، بتنفيذهما، أكثر، فأكثر.

ولقد غدا المصير البطولي لشباب وشابات إيران مصدر قلق عالمي. كيف يمكن تجويع رفقاء ندا آغا سلطان، بل، والقيام بأسوأ، من ذلك: قصفهم؟

علينا أن نبدأ التفكير، في مصطلح جديد بديل «للشرق الأوسط». إنه مركزي، ليس غرباً، من أحد، أو شرقاً، من آخر. لقد أصبحت الحركة الخضراء مركز العالم.

مع استمرار أوباما، بحكمةٍ، في الإبقاء على أحمدي نجاد، في متناول يده، ومع ازدياد سهولة مهمة تأمين سلام عادل ودائم بين الفلسطينيين والإسرائيليين، يجب أن يكون معلوماً لديه أن هذه هي الهدية التي قدّمها له آلاف الصغار والكبار، من الرجال والنساء الإيرانيين.

ولقد قلّصت حملة القمع الشديدة من حماسة حركة الحقوق المدنية، في إيران. العشرات من المتظاهرين السلميين بين قتيل وجريح، واعتقال المئات، من قادة المجتمع المدني والمفكّرين العموميين.

ويجري اتهام قادة الحركة الخضراء، بالخيانة، وتهديدهم بالإعدام. منظمات حقوق الإنسان مستاءة، بشدة. حتى الأخبار الأسوأ قد تكون لا تزال، في بداياتها.

ولكن الصباح تجلّى، وقد يكون لبعض المظاهرات التي ينظّمها الشباب في الولايات المتحدة، وحول العالم، على الأخص، في العالمين العربي والإسلامي، بشكل خاص، مرتدين عصابة الرأس الخضراء، في سبيل إخوانهم وأخواتهم الذين يعانون - الآن - كتم أصواتهم في إيران.

لقد غنّوا أغاني وطنهم. وهم - الآن - بانتظار الجوقة العالمية؛ لتغني معهم.

نُشرت لأول مرة على موقع سي إن إن، ٢١ يوليو ٢٠٠٩

تحوّل معرفي في إيران

كتبت قبل حوالي عقد من الزمن - وبعد وقت قصير من الانتخابات البرلمانية لعام ٢٠٠٠ في إيران - مقالاً، عنونته: «نهاية الإيديولوجية الإسلامية»، وقد أدليت فيه، بحجّة تنقسم إلى شقّين: (١) هناك مفارقة داخلية، في قلب المذهب الشيعي، تجعله مشروعاً فقط، عندما يكون في موقف المعارضة، وبالتالي؛ يفقد المذهب هذه الشرعية عندما يكون في السلطة؛ و(٢) لقد انتهى عصر القناعات الأيديولوجية، في إيران، ودخلنا معضلة ما بعد الأيديولوجية، ولذا؛ أصبح حسم الأمر، في متناول يد مَن يريد. كنت قد استعرتُ الفكرة من كتاب دانيال بيل الكلاسيكي «نهاية الإيديولوجية» ١٩٦٠، ولكنني غيّرت فرضيته الوضعية والوظيفية تغييراً جذرياً، مع الانتقال الجدلي للنقاش، إلى داخل سياق مقاوم للاستعمار.

وكانت هذه الحجة مستندة على كتابي السابق «لاهوت السخط» (١٩٩٣)؛ حيث عرضت - بتفصيل موسّع - كيفية تشكيل أيديولوجية إسلامية متشددة، من منطلق قوة الجدلية التي كانت مبنية على التعارض الكاذب، ولكنْ؛ المتمكّن بين «الإسلام والغرب». وكانت حجتي في هذا الكتاب أن الانقسام الزائف كان أحد المحفّزات الأكثر إبداعاً في توليد أيديولوجية إسلامية، ومن ثم؛ الحفاظ على قوتها السياسية. وذكرت أن «الأيديولوجية الإسلامية» كانت - في الواقع - العلامة الأوضح لتوطيد العلاقة مع «الغرب»، ذلك السراب الوهمي الذي يفقد أصالته، بشكل مطلق، كلما اقتربت منه.

لقد حوّلت الأسلمة الراديكالية للثورة الإيرانية في عام ١٩٧٩ - وبشكل

يدعو للمفارقة - كتابي «لاهوت السخط» إلى تأكيد أثري للأسلمة الحصرية لهذا الحدث، في حين كنت قد كتبته - في الحقيقة - بسبب أولئك المتشددين الإسلاميين الذين كانوا غريبين جداً، بالنسبة لجيلي، من الناشطين في الستينيات والسبعينيات؛ حيث تشكّل وعينا وأفكارنا من مزيج من القومية المناهضة للاستعمار (نهرو، ومصدق، وعبد الناصر الذين قرأنا عنهم، من خلال فرانتز فانون وإيمي سيزير) واشتراكية العالم الثالث (قراءة ماركس، من خلال الثورة الكوبية).

أردت في كتابي «لاهوت السخط» استكشاف الطبقات الخفية والبعيدة من الإسلام السياسي الذي كان - في الحقيقة - غريباً جداً، بالنسبة لجيلي، من النشطاء اليساريين، ولا يعني هذا أننا كنا معادين له، ولكننا كنا نظن (في حماقتنا) أنه قد عفا عليه الزمن. ثم في عملي اللاحق، وضعت الأيديولوجية الإسلامية ضمن ثقافة سياسية عالمية أكبر، شملت - بكل وضوح - الإسلام السياسي، ولكنها لم تكن تقتصر على أي أطر تاريخية أوسع، أو تجعل منها حدوداً لها؛ حيث كنت أعتقد - دائماً - أن الإسلام جزء، لا يُجتزأ منها، ولكنه لا يهدّد هويتها.

بعد أن خلصت إلى أن عصر الأيديولوجية، بشكل عام، والإيديولوجية الإسلامية، على وجه الخصوص، قد انتهى، أخذت إجازة نوعاً ما خلال التسعينيات، مبتعداً عن السياسة الإيرانية، التي وجدتها مملّة، ولا تُطاق، وأخذت نظرة موسّعة على الفنون الإيرانية الأدبية والشعرية، والبصرية، والفنون الأدائية - الأفلام، والخيال، والشعر، والدراما، وأعمال الفيديو الفنية، وموسيقى الأندرجراوند، والتصوير الفوتوغرافي، وغيرها. وهنا لاحظت أن المعجم الإبداعي للجيل الجديد، كان قد بلغ ذروته. كانوا يحلمون أحلاماً غير مألوفة (بالنسبة لي). عندما كتبتُ كتابي «روّاد وروائع السينما الإيرانية» (٢٠٠٧)، اخترتُ الكتابة، بطريقة الرسائل، مخاطباً جيل الشباب الذي لم أعد أعرفه، بشكل بديهي. كنت قد أصبحت - دون أن أدري - أباً لأحلامهم المختلفة. كنت أتقدم، بحذرٍ شديد.

كان عمل شيرين نشأت طريق التحرّر، بالنسبة إلي؛، حيث وجدتُ في تأملاتها البصرية نفقاً متعرّجاً، في متاهة تحت الأرض، من الخيال الخلاق الذي لمستُ تأثيره، في ما كان يحدث، في جيل ما بعد الثورة. أخذت زمام المبادرة من نشأت، وقصدت الفنانين الإيرانيين، والعرب، والمسلمين المعاصرين، في جميع أنحاء العالم. تابعت السينما الإيرانية عن كثب، وقرأت، وشاهدت الكثير، وعلى نطاق واسع، وكتبت كثيراً، عن تاريخها، وسياستها وجمالياتها. بدأت - في خضم عملي حول السينما الإيرانية، وعنها - بمتابعة الفن المعاصر الإيراني؛ صوره البصرية والأدائية والجمالية، مما فتح ذهني، على نسيج متنوع من البانوراما التي تتكشّف أمامي.

أصبحت مقتنعاً بأن أطفال الثورة الإسلامية قد هجروا العقد السياسية لجيل آبائهم، وبدؤوا يُبحرون في أراضٍ، لم يسبقهم إليها أحد. لقد ظلّوا واعين ومدركين للشعراء والفنانين والمخرجين والروائيين الذين حرّكوا أرواحنا قبل جيل من الزمن، ولكنْ؛ كانت لديهم بصمتهم الخاصة، بطُرق أحدث وأكثر إثارة. لقد كانت فروغ فرخزاد - بالنسبة - لنا الشاعرة النبيّة التي أجبرتنا على السعي دون كلال، للوصول إليها. ولقد كانت - بالنسبة إليهم - الجدة اللطيفة والمحبوبة التي كانت تدلّل أحفادها. كنا نفكر، في أنفسنا «يا لجرأة هؤلاء الأطفال...»، بينما كانوا يقهقهون على رمزنا المبجّل معلّقين حبّتين جميلتين، من الكرز، على شحمتي أذنيها المجعّدتين.

أثناء كتابة هذا المقال - حيث جميعنا مصدومون ومفتونون، بالانتخابات الرئاسية في يونيو ٢٠٠٩ وتداعياتها - يقام - في الوقت نفسه تقريباً - معرضان، للفن الإيراني المعاصر، واحد في نيويورك، وآخر في لندن، ما يلخّص - إلى حد كبير - آخر الأحداث، في هذا المجال؛ حيث تُعرض جوانب من الفن الإيراني المعاصر؛ ليراها العالم أجمع - على الرغم من أن البانوراما الأوبرالية التي كنا نشاهدها في الشوارع الإيرانية، قد ألقت بظلالها على الكثير من هذه الأعمال - لأن هذه المظاهرات هي الكرمة التي يأتي منها النبيذ الذي نتجرّعه، في تلك المعارض.

وبما أن ألوان الدراما - في مرحلة ما بعد الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٩ - تم الكشف عنها، في آفاق أكثر دراماتيكية، من أي وقت مضى، في إيران، فقد لاحظت وسائل الإعلام العالمية - بشكل طفيف للغاية - هذا الوجود المذهل للفنانين الإيرانيين الشباب، في نيويورك ولندن. كان معرض «إيران من الداخل والخارج» الاستثنائي والطموح المقام في متحف تشيلسي للفنون، في نيويورك، برعاية سام بردويل وتيل فيلرات واحداً - فقط - من بين العديد من المواقع التي تُعرَض فيها بعض النماذج الأكثر قوة، في الفن الإيراني المعاصر.

جمع معرض آخر، باسم «حلقات وطبقات» في صالة توماس إيربين للفنون، أعمال اثني عشر فناناً إيرانياً آخرين مع بعضها البعض، وفي شمال المدينة، تم عرض بعض الأعمال لأكثر من أربعين فناناً آخرين، في معرض سلسلة/ زلزلة: صانعو الأحداث في الفن الإيراني المعاصر، في صالة ليلى تاغنيا وميلاني هيلر. كما تم - أيضاً - إدراج خمسة إيرانيين آخرين بين ثمانية وعشرين فناناً، في معرض «ترجمة»، في متحف كوينز للفنون.

وهكذا - وبالصدفة البحتة - أصبح أمام الأمريكيين كل ما يحتاجون إلى معرفته، عن حركة الحقوق المدنية، في إيران، هنا في هذه المعارض، ولكنْ؛ مازالت وسائل الإعلام تطارد «الخبراء» الذين نادراً ما كان لديهم أدنى فكرة عن وجود مثل هذه الأعمال الفنية، ناهيك عن معرفة ما تعنيه.

وأقيم - في الوقت نفسه تقريباً - في لندن معرض «صُنع في إيران»، الذي جاء في الوقت المناسب، على الرغم من احتجابه، إلى حد بعيد، برعاية أريان ليفين واغلانتين دي غاناي، والذي وجّه المزيد من الانتباه العالمي إلى أعمال العديد من الفنانين الإيرانيين.

كانت المشكلة في الاهتمام الإعلامي الروتيني الذي تلقّته هذه المعارض هو أنه أبقى على التقسيم الخاطئ الذي يقوم به النقّاد بين الفن والسياسة؛ غاضّين النظر، عن حقيقة أهم بكثير، تقول بأن التبادل بين

هاتين الكينونتين المختلفتين هو ما يخلق من الأمر طريقة مختلفة تماماً لرؤية الأشياء. كانت الدراما الأوبرالية للحركة الخضراء في إيران معروضة، بالكامل، مطلقة كل النوازع المتكاملة/المتناقضة لقتل الأب ووأد الطفل كل واحدة ضد الأخرى، وكان لا يزال النقد الفني الصحفي مشغولاً، في الحركة النشطة، للفن مقابل السياسة.

وكان من ضمن اهتماماتي - بالطبع - التعرف - عن قرب - على عالم فنون الأداء والفنون البصرية الإيرانية المعاصرة، التي جاءت الانتخابات الرئاسية لعام ١٩٩٧، ومن ثم؛ الانتفاضة التي قادها الطلبة، في صيف عام ١٩٩٧، لاستكمال ما كنتُ أستشعره، في ذلك العالم، والذي أقنعني بأننا نشهد تغييراً زلزالياً، في ثقافة الشباب الإيراني - أننا أمام تشكّل جيل جديد، من الوعي.

الانتخابات الرئاسية لعام ١٩٩٧ والانتفاضة التي قادها الطلبة عام ١٩٩٩ هما السابقتان الأقرب للانتفاضة الحالية، في إيران. عندما دُعيت سميرة مخملباف إلى مهرجان كان في مايو ٢٠٠٠ للمشاركة في مؤتمر حول السينما، في القرن الحادي والعشرين، قضيتُ مع والدها عدة أسابيع، في باريس، نحاول التعرف - بدقة - على هذا التغيّر العميق، في جيل سميرة. وعندما ذهبتُ - بعد عدة سنوات في عام ٢٠٠٣ - إلى مهرجان كان، لمشاهدة فيلم سميرة مخملباف «الساعة الخامسة بعد الظهر» (٢٠٠٣)، شاهدت - أيضاً - فيلم «نفس عميق» (٢٠٠٣) للمخرج برويز شهبازي. لقد أرعبني فيلم شهبازي، وحرمني من النوم ليالي كثيرة. كان الفيلم يحتوي على نوع من القسوة الناعمة جديدة - تماماً - بالنسبة إلي، ومصادفة انتحارية، أقنعتني أننا دخلنا في مصفوفة جديدة كاملة، من القلق الوجودي في هذا الجيل - التي تحمل الكثير من الإمكانيات، وفي الوقت نفسه، تُجهض ذاتها، بقسوة شديدة. جعل فيلم شهبازي رواية «الغريب» لكامو، أو «مذكرات من العالم السفلي» لدوستويفسكي، تبدو كما لو كانت قصص تان تان الكوميدية المصوّرة.

ونمضي سريعاً إلى شهر يونيو، والجريمة الدموية التي أدّت إلى مقتل ندا آغا سلطان، ستطارد تلك البطريركية الإسلامية الإيرانية في كوابيسها لبقية التاريخ. لقد أعطت ندا - في النهاية - وجهاً نسائياً معاصراً لهيكل الشهداء الذكوري المنتمي للمذهب الشيعي. وظهرت الشابة الإيرانية الأمريكية البليغة للغاية ميلودي معزي، في مقابلة، على قناة سي إن إن بعد قتل ندا آغا سلطان. وأثناء اللقاء قالت: «عندما قُتلت ندا ... أصبحت شهيدة ... عندما [نقوم] بأي مجهود بدني، يقول الإيرانيون: يا علي ... إننا نقول - الآن - يا ندا». هناك لاهوت كامل من السخط، ولاهوت غير مسبوق، للتحرر من السلطة، في تلك اللفتة الرائعة، من ميلودي معزي.

عدت - مرة أخرى - إلى اللغة السياسية لهذا الجيل ما بعد الأيديولوجي، في عام ٢٠٠٨، عندما كنت مفتوناً بمتلازمة ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ووسّعت من نطاق الألفَي مقالة التي كتبتها عن «نهاية الإيديولوجية الإسلامية»، ووضعتها في كتاب «لاهوت التحرير الإسلامي: مقاومة الإمبراطورية» (٢٠٠٨). كنت مستعداً للدفاع عن وجود ثقافة سياسية، تكون فيها أي دعوة لأي لاهوت تحريري، توجب عليها أن تتنامى في اتجاه الثيوديسيا - بمعنى أن يكون مسؤولاً عن ظلاله وأشباحه وخصومه السياسيين وأعدائه الشعوريين، وأن يقوم، باستيعابهم أيضاً. ثم انتهى العمل، بفصل عن مالكولم إكس، كنموذج للشخصية التي كانت أصالتها الثورية قائمة على الزيف الثقافي؛ حيث استمر، في التحول، في الهوية، من قبل التحوّل للإسلام، إلى مسلم، إلى ما بعد الإسلام، في سبيل الحفاظ، على نهجه الثوري. وكان ما يقدم برهاناً على حجّتي طيلة صفحات هذا الكتاب الفكرة الثورية لجياني فاتيمو «الفكر الضعيف»، وبشكلٍ أكبر أيضاً، دستور إيمانويل ليفيناس المعقّد عن وجه الآخر، كأساس أخلاقي لأيّ ميتافيزيقيا مستقبلية.

كنت قد توصلت إلى الاستنتاج حول «نهاية الأيديولوجية الإسلامية»

والاستنفاد المعرفي للأيديولوجية الإسلامية بناءً على الحجّة القائلة بأن المعارضة الثنائية بين «الإسلام والغرب» قد استنفدت - في الواقع - طاقاتها الإبداعية، وتبددت موضوعياً. وكان «الغرب» قد تفجّر في نهاية عهد ثاتشر/ريغان وانهيار الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية، في أواخر الثمانينيات، والذي قام - بدوره - بدفع فرنسيس فوكوياما إلى نشر كتابه «نهاية التاريخ؟» (١٩٨٩)، فالأزمة الإبداعية للشرق والغرب قد استنزفت نفسها. ولكنْ؛ في غضون بضع سنوات، نشر صموئيل هنتنغتون أطروحته حول «صراع الحضارات» (١٩٩٢) لإحياء العدو الإسلامي للغرب. وكانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر هبة من السماء لرؤية هنتنغتون المروّعة التي لا تعبّر عن مجرد صراع، بل تعبّر - في الواقع - عن انتهاء حضارات. في الوقت الذي كان العالم ملتهياً ومشتّتاً بذلك الإحياء للفكرة النمطية القديمة، رأيت أننا بحاجة إلى إبقاء أعيننا على الكرة داخل العالم الانفعالي، لجيل الشباب، الذين أسقطت الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي، من أمامهم كل أنواع الحواجز الواقعية والوهمية.

ما نشهده - اليوم - في إيران مبني على نفس هذا التفكير الأيديولوجي، ظهور عالم شعوري كامل جديد، وانطلاق «حركة الحقوق المدنية» التي ينبثق منها - في اعتقادي - تحول معرفي كبير، في الثقافة السياسية الإيرانية. أرى أن هذا لا يصل إلى حد تكرار آخر لانتفاضة ثورية، بقدر ما يوضح - أولاً، وقبل كل شيء - انهيار الفرضية الثنائية الإسلام - الغرب، واستنزاف كلّ من الإسلام والغرب، ككيانين قويين مطلقين، يمكنهما توليد الأفكار، وتعزيز القناعات، وإطلاق الحركات، بمحاذاة بعضهما البعض. كان كلّ من بوش وبن لادن - باختصار - يحتجّان كثيراً، ويخلقان ستاراً من الدخان الكثيف من «الحرب على الإرهاب» و«الجهاد»؛ لكي يعميا بصيرتنا. المؤسسة الدينية الحاكمة وجيل الشباب الذين يحاولون تقييده، يتكلمون لغتين مختلفتين تماماً - لغة تعاني من الكليشيهات عن الانقلاب العسكري، والتدخل الأجنبي، و«العدو» المصطنع، وأخرى من المعاجم البصرية والأدائية والشعرية والدرامية التي تنتمي لتحرير أكثر جوهرية، بكثير.

كتب سلافوي جيجك - في ردّ فعل فوري، على ما يحدث في إيران - ملخصاً مفيداً لقراءات عديمة الفائدة، لا علاقة لها مطلقاً، بالأزمة الحالية، ثم قدّم قراءته الشخصية. يرى جيجك أن اللون الأخضر الذي اعتمده أنصار موسوي، وصيحات «الله أكبر!» التي تردّد صداها من أسطح طهران، في ظلام الليل، تشير - بوضوح - إلى أنهم يرون - فيما يفعلونه الآن - تكراراً لثورة الخميني في عام ١٩٧٩، وعودة إلى جذورها، والتراجع عن الفساد الذي أصاب الثورة لاحقاً... إننا نتعامل مع انتفاضة شعبية حقيقية، من الأنصار المخدوعين، بثورة الخميني.

وبعبارة أخرى، فإن الإيرانيين لن يعودوا إلى زمن النبي قبل ١٤٠٠ سنة، بل لثلاثين سنة مضت، وحسب، ولقد بدؤوا مسيرتهم، من جديد. عرض ويليام بيمن - عالم الأنثروبولوجيا الإيرانية البارز - قراءة مماثلة. إنه يعتقد أنه:

يمكن للناس أن يتخيّلوا - فقط - ما يمكنهم تخيّله. تمتلك إيران - الآن، بشعبها ومؤسساتها - نموذجاً واحداً - فقط - للتغيير الاجتماعي والحكومي، وهو الثورة الإسلامية الأصلية التي تعود إلى ١٩٧٨-١٩٧٩. ولأن الجانبين كليهما يعملان وفق المفردات الرمزية نفسها، فإنهما يتلمّسان طريقهما، للإمساك، بالصور القوية التي من شأنها حشد تأييد الرأي العام لصالحهما.

وعلى الرغم من أن رؤيته ضبابية، هيأتها له عدساته الإثنولوجية، فإن بيمن يقدم - على الأقل - قراءة نموذجية، وليست رجعية: *«إن المفردات الرئيسة للثورة في إيران هي الاستشهاد التاريخي للإمام الحسين، حفيد النبي محمد، الذي قُتل في سهول كربلاء، في العراق الحالية في ٦٨٠ م».*

كلّ من هذين السيدين بعيد عن الواقع. «فليس كل مدوَّر جوزة»، كما نقول، باللغة الفارسية. إنه مجتمع ما بعد أيديولوجي: لا يحاول نشطاء

اليوم إعادة اختراع الثورة الإسلامية التي حدثت قبل أن يولدوا، أو تكرار شهادة نموذجية، لها أكثر من طريقة، للوصول إلى النتيجة نفسها. لقد حدث الكثير في إيران بين عامي ١٩٧٩ و٢٠٠٩، ولا يمكن اعتبار الحنين الثوري، ولا عسر القراءة الأنثروبولوجية سبباً فيه. ولكن بيمن محقّ - بطبيعة الحال - عندما يقول «*يمكن للناس أن يتخيّلوا - فقط - ما يمكنهم تخيله*» (بديهية)، ولكنْ؛ ليس لديه أدنى فكرة عما يتخيله هذا الجيل الشاب، وما يتصوره خيالهم، بدوره، لما هو أبعد من الصور المشوّهة للإثنولوجيا الأنثروبولوجية. إننا بحاجة إلى قراءة أكثر صبراً للفنون البصرية والأدائية لهذا الجيل قبل أن نعرف ماذا يفعلون، بينما يتدفق الملايين، في شوارع مدنهم، ملوّحين، بقصائدهم، ومتباهين، بعصائبهم الخضراء. لقد تفتّت العالم الموروث لهذا الجيل، وتمت إعادة صياغته، من جديد، بشكل جذري. لقد أعادوا اكتشاف أنفسهم اعتباراً من قاعدة شعورية أساسية. لم يكن آباؤهم ورجال الدين الهرمون، في خريف وشتاء نظامهم البطريركي الذين كانوا غارقين في سبات عميق وحدهم، عندما كانوا هم يلعبون، ويعملون، على بناء مستقبلهم.

لا يوجد في الروح التي انبعثت من هذا الجيل أيّ سرديات ذاتية خلاصية أسمى من الكل، ولا افتراضات سامية، عن الحقيقة، قد تثبت صحتها. لقد كانوا يلاحقون الحقائق الأساسية لحياة أكثر معنى، ويمكنني - من هذا الاستنتاج - القول إن ما يحدث اليوم - من الناحية السياسية، على وجه التحديد - يمثل حركة للحقوق المدنية أكثر مما يمثل الثورة. يعني هذا المطالبة، بالحريات المدنية الأساسية، المستندة على عقود من النضال من قِبل شباب وشابات إيران لتأمين أبسط حقوقهم الأساسية غير القابلة للمصادرة. قد أكون مخطئاً، في افتراضي، وربما تكون هناك ثورة أخرى قادمة، في المستقبل القريب، يُرَدّ عليها، بانقلاب عسكري، يُقابَل بأشد العقوبات الاقتصادية، وحتى الحصار، وربما توجيه ضربة عسكرية من قِبل الولايات المتحدة/إسرائيل. لا أحد يعرف على وجه التحديد. ولكنني أجرؤ

على القول إن تلك القضية الوحيدة للحقوق المدنية لسبعين مليون وأكثر، من البشر، ستبقى القضية التي تحدد هوية هذا الجيل. لقد تعلم هذا الجيل - في سياق هذه السنوات الثلاثين - من أخطاء آبائهم، ويمكننا أن نقول إنهم يتحركون إلى الأمام، من خلال التحوّل المعرفي الكبير، في الثقافة السياسية الإيرانية؛ ساعين للحصول على الحريات المدنية الأساسية، في ظل القانون الدستوري الذي وضعتهم قسوة القدر تحت سطوته.

نُشرت لأول مرة في صحيفة بروكلين ريل، يوليو/أغسطس ٢٠٠٩

أزمة الجمهورية الإسلامية

تلك هي الأزمة التي تمتحن نفوس الرجال .... الطغيان مثل الجحيم، ليس من اليسير التغلب عليه. ولكن لا يزال ما يعزينا، أنه كلما ازداد الصراع صعوبة كان الانتصار عظيماً. ما نحصله رخيصاً جداً، نجده طفيفاً جداً، إنه ارتفاع الثمن فقط الذي يعطي لكل شيء قيمته. الله يعلم كيفية يضع السعر المناسب على بضائعه. وسيكون من الغريب حقاً ألا يتم تقدير قيمة سماوية مثل قيمة الحرية حقّ قدرها.

توماس باين، الأزمة الأمريكية (١٧٧٦)

بدأت الثورة الإسلامية (١٩٧٧-١٩٧٩) مع تعبئة متضافرة، من القوى السياسية ضد سلالة بهلوي، ونجحت في إقامة جمهورية إسلامية بعد تشويه عنيف لنظام الحكم الإيراني. تم القضاء على الجوانب المتنوعة، من الثقافة السياسية الإيرانية غير المتوافقة مع المفاهيم الإسلامية المتشددة لآية الله الخميني، بطريقة وحشية ومنهجية. وكان هذا النظام السياسي العلماني - ومايزال - عالمياً، لدرجة، تجعله أكثر من مجرد نظام «مدني». يشوّه العلمانيون المتشددون الثقافة السياسية الإيرانية متعددة الأوجه، بنفس الطرق العنيفة - بالضبط - التي يمارسها الإسلاميون المتشدّدون. برز جيل جديد من المثقّفين العموميين، والقادة السياسيين والاجتماعيين، ونشطاء حقوق الإنسان والحقوق المدنية، من داخل حضن الجمهورية الإسلامية، بعد ثلاثين عاماً، من تلقينهم القسري المفرط لأسلمة الثقافة العالمية الإيرانية، مطالبين، بالحريات المدنية، وراغبين في تصحيح مسار

الجمهورية الإسلامية التي رأوا أنها ذهبت في مسار خاطئ للغاية. لقد أدركوا - أخيراً - أن تلك الحريات لم تكن مجرد أساسيات لتحقيق أيّ درجة من درجات الجمهورية التي تدّعيها الجمهورية الإسلامية، بل تتزامن - أيضاً - مع الثقافة السياسية الإيرانية متعددة الجوانب التي تم انتهاكها منهجياً، في سبيل جعل فكرة هذه الجمهورية الإسلامية ممكنة. أزمة الشرعية التي لحقت - أخيراً - بالجمهورية الإسلامية ليست واضحة - فقط - في سلوكها الخسيس والعنيف تجاه مواطنيها، بل تتزامن - أيضاً - مع وجودها. بعد نحو ثلاثين عاماً من القمع العنيف لكل البدائل، فإن هذه الأزمة ليست سياسية اليوم، وحسب، ولكنها أخلاقية، بشكل أكثر صراحة - حدّ قلب فكرة وجود جمهورية «إسلامية»، بحد ذاتها.

كان التحويل القسري للثقافة السياسية الإيرانية إلى موقع إسلامي متفرد عملاً من أعمال العنف المعرفي الذي يمكن أن يتم تعزيزه - فقط - من قبل جهاز الأمن العسكري؛ ليجبر المعارضة الفكرية والسياسية على التشرد، في المنافي، أو ليتخلص منهم، بوحشية. ولكنْ؛ لم تتمكّن الجمهورية الإسلامية، من اقتلاع المجتمع الإيراني، من جذوره، وتغييره، بالكامل، فقد أزهرت، وانتشرت - من الجذور القديمة للثقافة السياسية ذاتها - فروع جديدة أكثر حكمة، وأكثر وضوحاً وقوة، وأكثر ذكاء، من جيل الآباء. لا يتقدم المجتمع المدني الإيراني والثقافة السياسية، بمراحل، عن قيادات البلد المتخلفة والرجعية، وحسب، ولكنه متقدم - أيضاً، وبالقدر نفسه - على مفكّري البلاد المنمّقين - المحصورين ضمن عدد من المعارضات الثنائية: داخل، أو خارج إيران، اليمين، أو اليسار، أو الديني وغير الديني. حركة الحقوق المدنية التي انطلقت - أخيراً، في أعقاب الانتخابات الرئاسية في ١٢ يونيو - لا يمكن اختزالها، إلى جانبَي أيّ ثنائية كاذبة، من هذا القبيل؛ لأنها تمتد - وبحكم الواقع - إلى استرداد الثقافة العالمية الإيرانية، التي يُعدّ الإسلام جزءاً أساسياً منها دون أن يكون العنصر المحدِّد لها. ما لم نتصالح مع التوجّه الدنيوي لتلك الثقافة العالمية، فلن يكون لطبيعة الأزمة التي تواجهها الجمهورية الإسلامية وحركة الحقوق المدنية التي نشأت عنها أيّ معنى، أو أيّ أهمية كبيرة.

بعد كشف مهدي كروبي، أحد الأعضاء المؤسّسين للجمهورية الإسلامية، والثوري المتقدم في العمر، وغيره، عن تعرّض الشباب الإيرانيين إلى الاغتصاب والقتل، في زنازين الجمهورية الإسلامية، ومن ثم؛ دفنهم - على عجل - في مقابر جماعية، برز - اليوم - شيء أكثر أهمية، من الزعم «الجمهوري» للجمهورية الإسلامية، إلى دائرة الخطر؛ كان ادعاؤها الإسلام، وبالتالي؛ الإسلام نفسه، مطالبتها بالإسلام، وبالتالي؛ الإسلام نفسه، في مأزق كبير. وضعت الجمهورية الإسلامية كل بيض شرعيتها، في سلة إسلامية واحدة، بعد أن قامت - بعنف - بإنكار وتشويه سمعة وتدمير، ونفي، أو السعي لتكذيب الأبعاد غير الإسلامية للثقافة العالمية الإيرانية التي تتراوح - في تاريخها السياسي - بين القومية المناهضة للاستعمار واشتراكية العالم الثالث. وبمجرد إسقاط تلك السلة على صخرة المقابر الجماعية، في مقبرة بهشت الزهراء (جنة الزهراء) التي تحوي رفات أعداد هائلة من الشباب الإيرانيين الذين قُتلوا، بدم بارد، بسبب مواقفهم السياسية، أو ببساطة بعد أن صوّتوا لمرشح رئاسي بدلاً من آخر، أصبحت الجمهورية الإسلامية تجرّ الإسلام إلى قبره أيضاً. يتوجّب - اليوم - على الإسلام، الدين الذي يؤمن به الملايين من الإيرانيين، وغيرهم من البشر، أن يصارع، للبقاء على قيد الحياة، وأن يعاني تبعات هذا الشر الأثيم.

لاسترداد الثقافة العالمية لإيران، مع المكان الصحيح والديمقراطي للإسلام فيها، فليس لدينا أيّ خيار على الإطلاق سوى التفكير، في طُرق، للحد من حجم العنف الذي يُمارَس علينا، وعلى العالم، باسمنا، أولاً، و قبل كل شيء من خلال عدم الوقوع في فخ هذا العنف، ومقابلته بالمثل. العنف هو العنف، ويجب أن يُدان - الإبادة الجماعية، جرائم القتل، أو الانتحار. إن عنف الإبادة الجماعية الإسرائيلية ضد الفلسطينيين لا يبرّر العنف الانتحاري الفلسطيني ضد الإسرائيليين؛ بل يفاقمه فقط. عنف القتل الأمريكي في أفغانستان والعراق لا يبرّر العنف الانتحاري الأفغاني، أو العراقي أيضاً؛ بل يمدّ في جنونه فقط. المسلمون واليهود والمسيحيون والهندوس يقاتلون بعضهم البعض اليوم. لقد ورثنا سياسة اليأس التي قلّصت خياراتنا؛ لنضطر

للقيام، بأفعال يائسة. انتقاماً لما فعله العالم، في أفغانستان، بدا كما لو كان العالم، بأكمله، تقلّص في أفغانستان فقط، شعب يائس - بشدة - يبحث، بيأس، عن السلام الذي يهرب منه، شعب سُرقت كرامته، وثقافته الأساسية، وأُصيب في مدنيّته وأخلاقه المستقرّة، ووقع تحت رحمة تجّار المخدرات وقطّاع الطرق، وقاذفات القنابل الأسرع من الصوت، على حد سواء.

إيران - اليوم - محكومة من قِبل عصابة إجرامية مسلّحة شبيهة، بحركة طالبان - تضرب، بوحشية، وتغتصب، وتعذّب، وتقتل - بدم بارد - الشعب الذي يُفترض أن تحميه. إنهم - وكما قال مرة مهدي كروبي، في عبارة شهيرة - أسوأ من الصهاينة، فالصهاينة يمارسون ما يمارسونه، على الفلسطينيين، وليس على الإسرائيليين. ولا يمكن أن يكون العنف هو الجواب على هذا النوع من العنف العشوائي؛ لأنه سيغرق الجميع، في طبقات أعمق من الجحيم الذي نُطلق عليه اليوم اسم «الجمهورية الإسلامية».

إنها نكبة، لا تقل نتائجها الكارثية، عن نكبة الفلسطينيين، على الرغم من أنها تُرتكب - اليوم - ضد أكثر من ٧٢ مليون شخص، تُلقي بظلالها القاتلة الواهنة، على أمة، بأكملها. تم تقليص ثقافة عالمية دنيوية، بأكملها، إلى الأحكام الفقهية الشيعية الصارمة، والمصطلحات القانونية المتلعثمة لنادي أخوية، يصر على التحدث، بلغة فارسية دينية، مع غموض لاتيني مكتوب، في قلب قاموسها. كلمات رائعة عربية الأصل، مثل «تنفيذ»، و«تحليف»، أُلقي بها، بحماقة، في النحو وعلم الصياغة الفارسي، وصيغت؛ لتبدو غريبة ومنفّرة، في اللغة الفارسية، عندما تنطقها عصابة من رجال دين، يتعمّدون الغموض ديني الطابع، والذين يعتقدون أن إيران ميراث، تركه لهم آباؤهم، ونحن - الناس العاديين - مجرد مصدر إزعاج لهم، وينبغي علينا أن ننتظم في حرفية قانونهم المقدّسة. في هذا الصدد، لا فرق فيما إذا كان الفقيه تقدمياً، أو رجعياً؛ لأنهم متطابقون، في «التفقيه» المفرط للثقافة السياسية الإيرانية. نتيجة لذلك، فإن السبب الوحيد الذي يجعل من شخصيات دينية بارزة مثل آية الله منتظري، وآية الله صانعي، أو حجة الإسلام كديور

أحبّ إلينا من غيرهم؛ لأنهم يُعلنون عن أنفسهم، ويبذلون أقصى جهودهم (وأحياناً ينجحون)، في أن يتكلموا، بلا تردد، بلغة مدنية، لغتنا المشتركة، كمواطنين. وكما قال أحد المدوّنين، بصراحة، في إشارة، إلى قصة مشهورة عن أن الإمام علي، الإمام الأول للشيعة، لم يتمكّن من النوم؛ لأن واحداً من جنوده سرق خلخالاً، من قدمَي فتاة يهودية، «إنهم - الآن - يمزّقون سراويل أخوتنا وأخواتنا الصغيرات، ويغتصبونهم، بعنف، وتريدون منا أن نجلّ عدم قدرة الإمام علي، على النوم، بسبب خلخال؟».

إنها أوقات مرعبة - في الحقيقة - تختبرها أرواحنا. وقت فيه المبادئ المقدّسة التي تجعل من ما نحن عليه هي أول ضحايا الحلقة المبتذلة التي لا تمتلك أيّ اعتبار لبديهيات اللياقة الإنسانية. تكمن الأزمة الأخلاقية والسياسية للجمهورية الإسلامية في تحرّر كل من الإسلام والنظام الجمهوري، من سوء التوافق التطابق المعيب والقاتل. يمثل التشدد الإسلامي - مثل الصهيونية السياسية، (والأصولية المسيحية والهندوسية أيضاً) - زلة تاريخية مروّعة. بمجرّد تحرّر المسلمين، من تورّط دينهم متعدد الأوجه، في أيديولوجية عالية التشدّد، أو دولة دينية مستبدة، سيتمّ تحريرهم مجدداً لاحتضان إيمانهم وعبادتهم، في الدنيوية العالمية لتجاربه وخبراته التاريخية. وعندما يتم تحرّر الإيرانيين من تلقيم أحلامهم الديموقراطية، في الحلق الضيق «للجمهورية الإسلامية» سينضمّون - لا محالة، بحكم الواقع - إلى فضاء عام؛ حيث ستلد حداثتهم المجتمعية مؤسسات ديمقراطية متينة. لا يعني أيّ من هذا الدعوة، إلى تفكيك الجمهورية الإسلامية، أو الابتعاد عنها؛ لأنها احتمالية تاريخية، تتخطى رغبة، أو إرادة أيّ شخص، كان. بل ندعو لمجرد البدء، في التفكير، بالأزمة الحالية للجمهورية الإسلامية والهلع الفاجر الذي استقر على الأمة لأكثر من ثلاثين عاماً، وللتأمل في حال الحريات المدنية التي لابد من وجودها لتكوين مؤسسات ديمقراطية متينة - أثناء هذه الجمهورية الإسلامية، أو فيما بعدها.

تكمن المهمة الصعبة القادمة في العنف الوحشي للقائمين على

الجمهورية الإسلامية العازمين - بكل وضوح - ليس على فرض شروط الطاعة، وحسب، بل - وبشكل أكثر خطورة - فرض طريقة المعارضة. لا تطلب القيادة المحاربة لدولة دينية الطاعة، وتنتزعها، من خلال العنف، وحسب، بل تقوم - عن طريق العنف ذاته - بتقرير شروط المعارضة لحكمهم غير الشرعي. ينبغي أن تكون الحركة الخضراء - نتيجة لذلك - حذرة للغاية، لعدم الوقوع في هذا الفخ السهل. لا أستطيع - أثناء كتابة هذا النص - التفكير في فعل أكثر نبلاً لمقاومة همجيتهم، من التجمّع السلمي، والورع، والكريم لعائلات النشطاء المسجونين ظلماً، في سجن إيفين، للإفطار، في اليوم الأول، من رمضان ١٤٣٠هـ، ٢٢ أغسطس ٢٠٠٩ - مادّين موائد طعامهم، وملوّحين، بصحونهم البلاستيكية الخضراء.

المركز التنظيمي للحركة الخضراء واع للغاية؛ لأنه يجب عدم السماح للسلوك العنيف لجهاز الأمن العسكري للجمهورية الإسلامية، بتحديد المسار الذي تتّخذه إجراءاتهم وأفكارهم واستراتيجياتهم. تصرّ الحركة الخضراء على تخطّي الحاجز النفسي وقبول مستقبل خالٍ، من العنف. ليس هناك أيّ طريقة أفضل - في الواقع - لمحاربة هذا النظام، من الاحتفال بالحياة، واحتضان الفرح - ba del-e khonin lab khandan biyavar hamcho jam، كما يعلّمنا الشاعر الفارسي المعاصر هوشانغ ابتهاج:

بقلب مفعم، بالدم
أظهر شفتيك المبتسمتين
مثل كأس النبيذ.

إن هذا التقدير ليس رغبة، وحسب. إنه مكتوب، على جسد الحركة. كتبت فاطمة شمس، المدوّنة البارزة التي تمّ اعتقال زوجها محمد رضا جلاليبور، واتهامه، بالتآمر لإسقاط النظام: «أنا مقتنعة - تماماً - أن حبس الأشخاص مثل سمية توحيدلو، وحمزة جلبي، ومحمد رضا جلاليبور، وسعيد شريعتي، وشهاب الدين طباطبائي، الهدف منه استهداف جيل الشباب الذي يجمع بين الرغبة في التحلّي بالإيمان، والالتزام بالإصلاح، بين الانشغال

[بتحسين أحوال] وطننا، والالتزام بالأطر القانونية والمبادئ المجتمعية أيضاً. استهدف الأصوليون - هذه المرة - جيل الشباب الذي قرّر اتّباع مسار ثالث، مسار يقول إنك بإمكانك أن تكون متديّناً دون أن تكون رجعياً، وأن تكون إصلاحياً، ولكنْ؛ في الوقت نفسه، معارضاً لإسقاط النظام والعنف».

إن تقييم فاطمة شمس للحركة، على أساس أنها وُلدت، ونشأت في الجمهورية الإسلامية، مهمّ للغاية؛ لأن هناك - دائماً - خطر أن الدمار الأخلاقي للنظام والعنف المنهجي الذي يرتكبه ضد مواطنيه قد ينجح في فرض شروط المعارضة، لحكمه الغارق، في ظلام دامس. وإن تحوّل المقاومة المشروعة للاستبداد إلى مستبدّة، في الاتجاه المعاكس واضح للغاية - بالفعل - في أوساط «المعارضة» الخارجية الدونكيشوتية التي تتحدث، وتكتب، وتتصرف - بالضبط - بنفس الأخلاق المبتذلة التي يتصرّف وفقها نظراؤهم، في الجمهورية الإسلامية. خارج نطاق الجمهورية الإسلامية و«المعارضة» الخارجية العنيفة التي نتجت عنها، تحتاج الحركة الخضراء، إلى الابتعاد عن كل منهما، والتحوّل إلى إنسانيتنا الأدبية، للحفاظ، على استقامتها الأخلاقية. أمام كل هذا الإرهاب الذي ارتكبته الجمهورية الإسلامية في حقّ الإسلام والمسلمين، يدقّ قلب الإسلام، بسعادة، وبصوت مدوٍّ وقوي وآمن؛ حيث كان دائماً، في درر شعرنا وأدبنا، في وحدانية إيماننا، أو عدم إيماننا: يمكننا إعادة بناء إنسانيتنا، ببيت واحد، من أبيات سعدي، ومع بيت شعر غزلي واحد لحافظ، يمكننا تعلّم كيف نحبّ، من جديد، وسنبحث عن الله مجدداً، في الصفحات العطرة للرومي - قبل أن ننتقل إلى حكيمنا الخيام، ولعب الغميضة معه.

نُشرت لأول مرة في صحيفة الأهرام ويكلي، ١٢-١٨ نوفمبر، ٢٠٠٩

«متابعة» أوباما الضرورية لإيران

لو سألني شخص ما قبل ستة أشهر، عما يمكن أن يتغيّر على الساحة الوطنية، أو الإقليمية، أو العالمية بعد الانتخابات الرئاسية الإيرانية، في يونيو، لقلت إنه لن يتغيّر شيء. ومن المفترض بي أن أعرف أكثر من غيري.

قبل أن تتكشّف الأحداث في إيران خلال النصف الثاني من عام ٢٠٠٩، كانت السياسة الوطنية ذات ترابط وثيق، في تلك المنطقة المضطربة.

من باكستان وأفغانستان، إلى إسرائيل/فلسطين، من آسيا الوسطى، إلى اليمن، وُضعت الجغرافيا السياسية، في توازن مخيف، للسلطة، من خلال سياسة اليأس الخانقة.

لقد أُقيمت الكثير من الانتخابات الرئاسية والبرلمانية، وانتخابات المجالس المدنية، في إيران خلال السنوات الثلاثين الماضية، ربما أكثر مما أُقيم من انتخابات، في العالمَين العربي والإسلامي، بأسرهما. ولكنْ؛ لم تكن تلك الانتخابات علامة على الديمقراطية السليمة. بل كانت محاولات، قامت بها الجمهورية الإسلامية لإضفاء الشرعية، على حكمها الديني الثيوقراطي المضطرب، باستخدام مؤسسات ديمقراطية زائفة.

كل ذلك تم كشفه، من خلال بيان بسيط واحد، في الخريف الماضي. أعلن آية الله العظمى منتظري - الفقيه الموقّر الذي توفي في عام ٢٠٠٩، والذي أُطلق عليه بعد وفاته اسم الصوت الأخلاقي للحركة الخضراء المناهضة للحكومة - أن الجمهورية الإسلامية لم تكن جمهورية، ولم تكن إسلامية.

خارج إيران، الانتخابات الوطنية هي إما نكتة ذات مراسم خاصة (من

المغرب وتونس، إلى الأردن وسورية، مروراً بليبيا والجزائر ومصر والسودان)، أو إما قليلة التأثير، أو تبعية، أو مخرّبة إقليمياً (من تركيا، إلى إسرائيل). ولكنْ؛ ليس في إيران هذا العام. ليس منذ يونيو عندما ظهرت الجمهورية الإسلامية، باعتبارها نقطة الانطلاق لحركة حقوق مدنية، لن تترك حجراً، إلا وقلبته، في الأرضية الأخلاقية، للشرق الأوسط الحديث.

وسّعت الحركة الخضراء - بمساعدة تويتر وفيسبوك - من مجال نشاطها. لن يرغب الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد، بشيء أفضل، من صرف الانتباه العالمي بعيداً عن مشاكله الداخلية. ومن المفارقات أن الرجل الذي يمكنه أن يساعد أحمدي نجاد في تصميمه لتحويل انتباه الجميع بعيداً عنها، هو الرئيس أوباما.

من شأن صورة واحدة لأوباما مع أحمدي نجاد، أن تكون خنجراً، في قلب الحركة الخضراء. سوف تنطبع هذه الصورة، في الأذهان، لوقت طويل أكثر من الانقلاب الذي دبّرته وكالة المخابرات المركزية في عام ١٩٥٣. كما ستتسبّب في الإضرار، بالعلاقات بين الولايات المتحدة وإيران، لمدة نصف قرن آخر.

حركة الحقوق المدنية الإبداعية التي أطلقتها انتخابات يونيو الرئاسية في إيران، تعني كتابة صفحة جديدة، في التاريخ الحديث للبلاد والمنطقة المضطربة، برمتها.

أبناء الثورة الإسلامية، أولئك الذين حاولت الثورات الثقافية المتعاقبة غسل أدمغتهم، يقلبون خطاب الجمهورية الإسلامية رأساً على عقب. وقد اعتاد هؤلاء الإيرانيون - في كل مناسبة منذ انتخابات يونيو - على تحدي كل حالة من حالات الكذب التي كانوا يتعرّضون لها. إنها انتفاضة عالمية، تتشكّل في المدن الإيرانية الكبرى. عاصفة تتجمّع في العاصمة طهران، وتتوسّع؛ لتصبح تمرداً واسعاً، على الفضاء الإلكتروني.

عندما كنتُ في سيارة أجرة، في نيويورك، في طريقي، إلى مقابلة،

في السي إن إن، تلقّيت رسالة الكترونية، من شوارع طهران، وقرأتها على هاتفي الآي فون. واستخدمتُ الرسالة بعد عشر دقائق، في التحليل الذي قدّمته لجمهور عالمي. ثم كتب لي طالب سابق في طهران قائلاً إنه أحبّ تحليلي - ولون ربطة عنقي الرائع.

وفي الوقت الذي كانت فيه الحركة الخضراء تحقّق المكاسب، كان النظام يردّ بكل ما لديه؛ اختطاف الناس، من الشارع، والقتل، والتعذيب، والاغتصاب، والمحاكم الهزلية. فشلت المواقع الإلكترونية الرسمية ووكالات الأنباء، في نقل الحقيقة، أو قاموا، بتشويهها، أو السخرية منها، أو نسبها، إلى أجانب وهميين. لقد فشلوا جميعهم حقاً.

الجمهورية الإسلامية، في مأزق، لقد تمّ تجهيز الفضاء العام. تجمّع الإيرانيون داخل وخارج بلادهم، صغاراً وكباراً، رجالاً ونساء، أغنياء وفقراء، متديّنين وغير متديّنين مع بعضهم البعض.

وقد تمّ قياس ردّ فعل أوباما على حملة القمع العنيفة على المتظاهرين خلال اليومين المقدّسين تاسوعاء وعاشوراء. فقد أدان «القبضة الحديدية الوحشية»، ولكنه تابع - بإصرار - أن «*ما يجري في إيران، لا يتعلق، بالولايات المتحدة، أو أي بلد آخر. بل يتعلق، بالشعب الإيراني*»، وهو محقّ، في ذلك.

ويتعهّد أوباما - في الوقت نفسه - قائلاً: «*سنواصل متابعتنا للأحداث الاستثنائية التي تجري*» في إيران. يمكن أن تعني كلمة «المتابعة» وتهم أكثر مما يحلم به منتقدو الرئيس. فإن الضغط على أوباما «ليفعل المزيد، بشأن إيران»، وخصوصاً عندما يأتي الأمر من عقلية «اقصف، اقصف إيران»، لهو ضغطٌ ريائي.

للشعب الإيراني كلّ الحق، في الحصول على التقنية النووية السلمية ضمن لوائح معاهدة منع انتشار السلاح النووي. ولكنْ؛ لا يزال للمجتمع الدولي كلّ الحق، في الشك، بمصداقية حكومة أحمدي نجاد.

إن أسوأ شيء يمكن لأوباما أن يفعله الآن، وليس فيما يتعلق بمصلحة الإيرانيين، وحسب، بل فيما يتعلق، بتعزيز مُثُله المعلنة التي تتمثّل، في نزع السلاح النووي إقليمياً وعالمياً، هو التفاوض مع أحمدي نجاد. سيؤدي هذا إلى إضفاء الشرعية، على حكومة غير شرعية، ولن يُنتج اتفاقاً مُلزِماً، أو جديراً، بالثقة. البديل عن تعليق العلاقات الدبلوماسية المباشرة مع أحمدي نجاد ليس فرض عقوبات اقتصادية أكثر شدّة، ولا توجيه ضربة عسكرية؛ لأن هذه الإجراءات ستؤدي إلى نتائج عكسية، وستؤذي الأشخاص الخطأ.

البديل الوحيد للرئيس الأمريكي أن يؤمن بما قاله: المتابعة.

ولكنْ؛ يمكن لهذا الخطاب أن يقوم بما هو أبعد من ذلك: ينبغي على الأميركيين إرسال الوفود إلى إيران، من رموز الحقوق المدنية والسينمائيين والشخصيات الرياضية، وقادة المسلمين، ومنظمات حقوق الإنسان، والناشطين في مجال حقوق المرأة، وممثلي النقابات العمالية والجمعيات الطلابية. يجب السماح لهم، بالتواصل مع نظرائهم هناك، وفضح الحكومة غير الشرعية التي خنقت التطلّعات الديمقراطية، للأمة، لفترة طويلة جداً.

«المتابعة» تعني استثماراً في مستقبل الديموقراطية في البلاد المقدّر لها أن تتّجه نحو تغيير الخارطة الأخلاقية، للمنطقة المضطربة، والتي تتمتّع، بالحيوية، في هذا الكوكب الهشّ للغاية.

نُشرت لأول مرة على موقع سي إن إن، ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٩

هوامش الفصل الثالث:

١) "قراءة بديلة" الأهرام ويكلي، ٢٥ يونيو -١ يوليو، ٢٠٠٩.

الفصل الرابع

الحرب بين الإنسان المتحضر والهمجي

تخيّل الربيع العربي: بعد انقضاء عام

ونحن نقترب من الذكرى الأولى للربيع العربي في ١٧ ديسمبر ٢٠١١، عندما أحرق البائع التونسي الشاب محمد البوعزيزي (١٩٨٤-٢٠١١) نفسه، وأشعل العالم العربي، قد نتساءل حول ما نشير إليه - بالضبط - عندما نتحدث عن «الربيع العربي». أو - ربما - يكون السؤال الأفضل، كيف يمكننا توصيف هذه الظاهرة الفريدة التي تمتد إلى عدة بلدان، في جميع أنحاء شمال أفريقيا والشرق الأوسط، والتي نصر على تصنيفها تحت عبارة واحدة؟!

انهارت - وفي أقل من عام - ثلاثة أنظمة استبدادية، في تونس ومصر وليبيا: سقط أول نظامين، مع القليل من الضحايا، وأقصى درجة من المشاركة الشعبية السلمية، وسقط النظام الثالث، مع حملة قمع عنيفة، قام بها النظام الحاكم، والتدخّل الأجنبي رداً على ذلك. تشير الأحداث في اليمن - الآن - إلى قرب سقوط الطاغية الرابع أيضاً، بينما لاتزال النضالات البطولية، في سورية، في سبيل الحرية، تصطدم بدكتاتور وحشي، وبطغمته العسكرية الحاكمة. وقد تجلّت - في الوقت نفسه - من المغرب، إلى الأردن، ومن البحرين، إلى المملكة العربية السعودية علامات الاضطراب والسخط الشعبي، بشكل، أو بآخر، وقد يأتي العام المقبل بأحداث أكثر دراماتيكية، في البلدان العربية، والتي قد تمتد إلى العالم الإسلامي، بأكمله.

وكانت الانتفاضات العابرة للحدود الوطنية سلمية ومعتدلة، في تونس، عنيفة ووحشية، في ليبيا، ومكبوتة، في المغرب، وثقيلة الوطأة، في البحرين، وغير مسموعة، في الكويت، ومباشرة في وجه السلطة، في سورية. كيف يمكننا - نحن الذين نؤمن بصحة وصلابة الظاهرة التي نسمّيها «الربيع العربي»

- أن نفكّر في هذه الأحداث، ونتصوّرها، ككلّ موحّد، ومتماسك؟ ألا تجتمع هذه اللقطات المتفرقة لهذه الانتفاضات، في البلدان والمناخات المختلفة، عن بعضها البعض معاً - فقط - إذا ربطناها، ببداية ووسط ونهاية متوقعة؛ في سياق ذي معنى؟

التقليد المصطنع للثورات

هناك مشهد في فيلم المخرج الفلسطيني البارز إيليا سليمان «يد إلهية» (٢٠٠٢)؛ حيث نرى نظيره إيليا سليمان يقود السيارة، على طريق سريع في إسرائيل/فلسطين. في لقطة متوسطة إيليا سليمان يقود سيارته، ويأكل المشمش. يأخذ أربعة قضمات، من حبة المشمش، يمضغها، ويراقب الطريق، وفي نهاية المطاف، ينتهي مع النواة في يده. يلقي نظرة سريعة، على النواة، ويتساءل ما الذي سيفعله بها؟! ومن ثم؛ يلقي بها على الطريق السريع. تضرب النواة دبابة الإسرائيلية متوقّفة، بتراخٍ، على جانب الطريق السريع. ثم تظهر لقطة بعيدة لانفجار الدبابة، إلى قطع صغيرة، من المعدن، تنتشر، على أوسع نطاق، على الطريق السريع، وتضطرم فيها النيران. وتعود اللقطة الثالثة من هذه السلسلة إلى داخل سيارة إيليا سليمان: اللقطة المتوسطة نفسها التي بدأنا بها، فيما يواصل القيادة، غافلاً - تماماً - عن الانفجار المروّع وراءه. نرى - عن قرب، في اللقطة الرابعة والأخيرة من السلسلة - دبابة مدمَّرة، تتناثر أجزاؤها، في أنحاء الطريق السريع، في الوقت الذي تتابع فيها سيارة إيليا سليمان طريقها مبتعدة عن المكان.

طرح المحاور في ندوة عن الربيع العربي، في معهد الفنون المعاصرة، في لندن، في أواخر سبتمبر ٢٠١١ السؤال الرئيس البسيط التالي، على لجنة المناقشة: «ما الذي حدث الآن؟ ولماذا؟» وكان يشير إلى الربيع العربي، وبإمكانه طرح السؤال نفسه حول هذا المشهد، في فيلم إيليا سليمان. ما الذي حدث الآن؟ من أين أتى؟ ما هي النتيجة المنطقية؟

إذا قمت برمي نواة، في منتصف الطريق السريع، وفجّرت دبابة، عن غير قصد، كيف نصنّف هذا الحدث؟ هل يُعدّ هذا انفصالاً؟ أم لا؟

يتحدّى التقليد المصطنع لسينما إيليا سليمان - في هذا المشهد، وغيره - العقل والمنطق، من خلال تحدّي الحدث الأصلي. إنه يشكّل - بدلاً من ذلك - لحظة، من العبث البلاغي الذي يتوافق مع حسّه الفكاهي المعهود. قد تكون الفكرة الأقرب للذهن - في هذا المشهد - هي فرضية أن أفعال إيليا سليمان تمثّل رغبة خفية، يفتقر إلى القدرة، على تنفيذها: ربما قد تخيّل الانفجار. ولكنْ؛ لماذا رمى النواة؟ النواة حقيقية - كان يأكل المشمش، للتو، بالفعل - ويمكنك سماع دويها، عندما ضُربت الدبابة (الموسيقى التصويرية مثالية). هناك في المشهد، عودة إلى الواقع، ولفتات حقيقية، كما لو كان يرمي - بالفعل - قنبلة يدوية، وليس نواة، على الدبابة. نراه يأكل المشمش، ويرمي النواة خارجاً، وفيما بين هذين الفعلين، اللحظة التي يرمي فيها النواة، عن طريق الخطأ - اذا كان باستطاعتنا اعتبار الموضع قد حصل عن طريق الخطأ - واللحظة التي تصيب فيها الدبابة؛ حيث حدث شيء ما، كما لو أن النواة تحوّلت إلى قنبلة يدوية، النقلة العرضية تتحوّل إلى نقلة مقصودة، وتنفجر الدبابة.

نقلة إيمانية

ذلك التحوّل، ذلك الشيء الذي يؤدي إلى انطلاق سلسلة من الأحداث هو النقلة الإيمانية، عمل عنيف، لاعنفي، النسخة البصرية، لما يطلق عليه الفيلسوف الإيطالي المعاصر الكبير جياني فاتيمو اسم Il pensiero debole (الفكر الضعيف)، أو إعادة النظر، في الأحداث ذات الصلة. ولكنْ؛ ربما لا يحدث هذا «الشيء»، في مخيلة إيليا سليمان، بل يوجد - بالفعل فقط - في يقين الجمهور، بكل تأكيد. إنه الشيء الوحيد الذي يمكننا أن نكون متأكدين منه، لاسيما وأننا لا نملك أيّ وسيلة لمعرفة ما يدور في عقل إيليا سليمان، فهو لم ينطق أبداً (ولا يعاني من إعاقة كلامية)، وإن كان أوشك على الكلام، في بعض المرات، ولكنه لا يفعل.

لا يظهر التأثّر على إيليا سليمان، لا قبل انفجار الدبابة الإسرائيلية، ولا بعده، ولا تبدو عليه المفاجأة، أو حتى الإعجاب، بما حدث، للتوّ، ما يضيف طبقة أخرى من الغموض: فهو يشير إلى أن الحادث - في الواقع - من نسج خيال الجمهور. ويُعدّ إيليا سليمان - في هذه الحالة - بريئاً، وغير مدرك لهذا الحدث الوهمي. لا يوجد سوانا، كجمهور مَن يشعر، بالذهول، أما هو؛ فلا. إنه لا مبال تماماً، وغير مهتمّ، بل قد يكون على استعداد لتناول مشمشة أخرى.

الآلة البلاغية - في قلب محاكاة إيليا سليمان - هي التسلسل. عكس الترتيب الذي حدثت فيه الأشياء؛ حيث يولد فعل العنف الأصلي قواعد اللغة والمنطق التي تموّه - فيما بعد - العنف البلاغي، مثل الخطيئة الأصلية لبلد؛ حيث قواعد اللغة والمنطق لأسطورة أمة، تحجب العنف الكامن، في سرقة فلسطين، وبناء «دولة ديمقراطية»، على أنقاضها.

يفضح عكس التسلسل للقطات إيليا سليمان التحدي المؤجّل، للفلسطينيين، من خلال فعل التعنّت المحاكي. هذه المحاكاة المستقلة، لا تتحرك، من لقطة إلى أخرى، في سبيل صياغة سردية غائية؛ لأنها تتجاوز مطلب إدوارد سعيد البلاغي، في «تصريح، بالرواية Permisson to Narrate». التسلسل السينمائي هو عكس قوة التاريخ، الفكر البصري الضعيف الذي يعرض أعمال العنف المنتشرة، في صميم أزمة المحاكاة التي تحرم الفلسطينيين، من أيّ سرد. بدلاً من اتباع خطى إدوارد سعيد، يستخدم إيليا سليمان المفردات البصرية لبناء السرد الذي يضيف إلى الصهيونية شيفرة، لا يمكن لأي عميل للموساد، أن يفكّها. وليس من قبيل الصدفة أن فيلم إيليا سليمان «الزمن المتبقي» (The Time That Remains - ٢٠٠٩) هو أول وآخر فيلم، يمكن لفلسطيني أن يصنعه عن النكبة، بمثل هذه المحاكاة اليقينية.

لقد كتبتُ منذ سنوات: «عندما تتحرّر فلسطين، سيكون إيليا سليمان

هناك، بانتظارها». تلك اللحظة هي الآن؛ والتي تُدعى - اليوم - باسم الربيع العربي.

كما هو الحال مع عبث إيليا سليمان الرائع، فيما يتعلق، بالواقع، يرفض الفن متابعة ما يُعرف، باسم محاكاة السلطة - التي يُفترض أن تكون معقولة ومنطقية - التي أخفت بيان خطيئتها الأصلية، وجريمتها التأسيسية، وجريمتها البدائية، والعنف المنقوش، في مورثات أيّ دولة، سواء كانت دولة عسكرية مثل إسرائيل، أو دولة ديمقراطية مثل الولايات المتحدة الأمريكية. يعكس إيليا سليمان هذا النظام، عن طريق تعريته. يبني تطوراً منطقياً، لا يؤدي إلى الخاتمة البلاغية، مما يترك المجال للاستنتاج البلاغي؛ ليقف وحده، غير قادر، على شرح نفسه. يفجّر إيليا سليمان الأشياء، ولكنه غير موجود، في الأحداث. بدلاً من ذلك، تتواطأ المشاهد، في ذهن الجمهور، الذين يحملون الذنب نفسه، من خلال الربط التاريخي، كما لو كانوا موجودين أثناء تلك الجريمة البدائية والسطو المسلح، على فلسطين. ويكمن الدليل في المواجهة المؤجّلة، للعرب، مع الاستبداد والاستعمار، والإمبريالية، عندما يستعيدون قوتهم التاريخية.

وسواء أكان تسلسل الأحداث يتمّ في ذهن إيليا سليمان، أو في أذهاننا، فإن هذه اللقطات تشكّل مثالاً ساطعاً، على الخطاب السينمائي. إنه عبارة عن بلاغة بصرية. تشكّل الفنون الثلاثة، في الفلسفة المدرسية التي تعود، إلى القرون الوسطى، يخضع الطلبة لكل من صفوف قواعد اللغة والمنطق، ثم يصلون إلى الذروة، في صفوف البلاغة. تضع لقطات إيليا سليمان الخطاب البلاغي البصري مبنياً على قواعد اللغة والمنطق وثيقة الصلة بالسينما التي يقدمها. ولكن المشهد بلاغي أيضاً؛ لأنه يعرض صدمة مشابهة، تشكّل أزمة إبداعية مبنية، على العبث المطلق للصدمة، مثل سرقة وطن شعب ما، في فعل، يمثّل أعلى درجات الإرهاب، ومن ثم؛ تسمية أفراد هذا الشعب، بالإرهابيين. إن أزمة المحاكاة (المستحيلة التمثيل جمالياً) تكمن في صميم الفن الفلسطيني، وفي السينما الفلسطينية،

على وجه الخصوص. وقد انفجرت أزمة المحاكاة تلك اليوم، وتفتحت، في شكل الربيع العربي؛ حيث صرخت شعوب، من قارات متعددة: «الشعب يريد إسقاط النظام».

إن ما يواجهه الفلسطينيون ليس مجرد مأزق سياسي، بل أزمة أساسية أيضاً، وتحدّ جمالي: كيف يمكن المبالغة، في محاكاة شيء مبالغ فيه، في الحقيقة؟ الصرخة عالية جداً داخل فنان (أو مقاتل ثوري)، إلى درجة، لم يعد بمقدور المرء سماعها، وهذا ما يفسر التقارب بين أزمة المحاكاة، في السينما الفلسطينية، وتقديم الذات، على سبيل التضحية، في نوبات ثورية.

يَقلب إيليا سليمان تلك الصرخة المُرّة والمؤلمة؛ ليصورها في شكل سخرية سينمائية. سينما إيليا سليمان هي التصوير البصري للسخرية التي تهزم أزمة المحاكاة التي تحوَّل إليها الفلسطينيون، في فنهم. ويتضح هذا في شعر محمود درويش، وأدب غسان كنفاني، وحنظلة ناجي العلي، والأعمال الفنية لمنى حاطوم، وإميلي جاسر، والتصوير الفوتوغرافي، لطارق الغصين، والأفلام الوثائقية، لمي المصري، وكذلك سينما إيليا سليمان، وغيرهم الكثير.

ما نشهده - اليوم - في عبث إيليا سليمان المعروف، هو الإرادة السينمائية لمقاومة السلطة، والتي تنبع من أزمة المحاكاة الدائمة التي عرّفت السينما الفلسطينية منذ بدايتها. ثم يتم ترجمة أزمة المحاكاة تلك، إلى فن، فأحلامها، بربيع عربي، خاص، بالفلسطينيين، انتشرت - اليوم - في جميع أنحاء العالم العربي.

قد نرى - اليوم - الربيع العربي، ونتصوّره، كما لو كنا نشاهد سينما إيليا سليمان. ما نراه يحدث في فيلم «يد إلهية» ليس شيئاً سوى مونتاج سينمائي، يتحايل على أذهاننا. اللقطات الفردية مستقلة، ولكن إيليا سليمان مثل سيرغي آيزنشتاين، يرتّب هذه الشرائح مع بعضها البعض فقط، ويترك الباقي، للمشاهد. إيليا سليمان بريء تماماً، فلا علاقة، للنواة، بالانفجار أبداً. لقد كانت مجرد نواة، وليست قنبلة يدوية. تبقى لقطة الانفجار

مستقلة، وتتخلّلها اللقطة الثالثة التي يقود فيها سيارته مبتعداً، غافلاً - تماماً - عما حدث. واللقطة الرابعة تؤكد اللقطة الثانية فقط، وتعرض الدبابة المتفجرة مجدداً. اللقطات الأربع المقحمة عبارة عن مشهدَين متوازيَين، اثنَين اثنَين، لا صلة لهما، ببعضهما البعض، على الإطلاق. وفي الوقت الذي يحبك فيه سليمان اللقطات مع بعضها البعض، نحن الذين نحرّرها، ونفسّرها، بأنفسنا.

ما نظنّه قد حدث - كجمهور - ما هو إلا أمنياتنا، ورغباتنا الخفية، ومضاعفة اللقطتَين، ومساواتهما، بإيليا سليمان، يرمي قنبلة يدوية على دبابة إسرائيلية. يا لك، من مسكين، يا إيليا سليمان: فهو لم يقم، بأي شيء من هذا، على الإطلاق. يا لك، من مسكين حقاً، أيها المخرج الفلسطيني: ألا يمكنه أن يأكل حبّة مشمش، ويرمي نواتها، في سلام. يمكن للمرء أن يتّهمه، برمي القمامة، على الطريق السريع، ولكنْ؛ ليس برمي قنبلة يدوية على دبابة إسرائيلية، وتفتيتها، إلى قطع صغيرة.

الربيع العربي كمونتاج مثالي

لقد اقترحت - بالفعل - أن الربيع العربي هو الانتفاضة الفلسطينية الثالثة، بصورة أقوى. وأود - هنا - أن أقترح أن المشاهد الرئيسة، في سينما إيليا سليمان، كمحاكاة بصرية، تشبه الطريقة التي نقرأ بها الربيع العربي: وضع المونتاج السردي الذي - من خلاله - نرتّب، ونحرّر أحداثاً تاريخية محددة، في العالم العربي، ونمنحها الاتساق البلاغي الذي يعتمد، على أحلامنا، ويتغذّى، على آمالنا. هذا الفعل من المونتاج الإبداعي والنقدي هو ما يجعل الربيع العربي معقولاً، وذا مغزى.

الانتفاضات الفردية، وكذلك كل من نتائجها الفورية والبعيدة، ما هي إلا أحداث متفرقة مع سجلات محلية ووطنية مميّزة. ولكن التسرب الانفعالي يزحف، من مكان لآخر؛ حيث يمزج بين الألوان والأشكال والأصوات والسياسة، من أماكن مختلفة، في تونس، ومصر، وسورية. ثم يقوم هذا التسرّب، بإلقاء

ظلال حدث، على آخر، في مكان مجاور، تماماً مثل المونتاج الذي يخلق وَهْم الحركة، من الضوء.

نقوم بالمونتاج في هذا التحول - بشكل خلاق ونقدي، ومفعم بالأمل - مع الأشياء التي زرعها إيليا سليمان وسيرغي آيزنشتاين، في مخيلتنا. ما نسمّيه الربيع العربي هو المونتاج الذهني لمجموعة متتالية، من اللقطات التي تتطلب، وتقتضي القراءة، وإعادة الإنتاج، لجعل الأمور ذات مغزى. اللقطات الفردية تنتج التسلسل الذي يحمل دلالة، والتسلسل الذي يعطي المعنى الغائي للقطات التي قد تظل متباينة دونه. من بين جميع الحوادث الأخيرة والحالية في العالم العربي، فقد تحولت الحوادث المتميزة من التاريخ الخاص بكل دولة، إلى السرد الإقليمي الذي قمنا، بدعوته، باسم الربيع العربي.

هناك مشهد في فيلم المخرج جون جي. أفيلدسن «ذا كاراتيه كيد» (١٩٨٤) يقوم فيه السيد مياجي (بات موريتا) بتعليم تلميذه الشاب دانيال لاروسو (رالف ماكيو) كيفية تقليم نبتة البونزاي. وحالما يتم منحه مقصّات تقليم النباتات، يبدأ الشاب المتسرّع، بقطع الفروع الرقيقة. عندها يقول السيد مياجي: *«توقف، أغمض عينيك أولاً، وتخيل البونزاي التي تريدها. والآن، افتح عينيك، وابدأ، في التقليم»*.

هذا هو - بالضبط - ما يتعين علينا القيام به مع الربيع العربي.

نُشرت، لأول مرة، على موقع الجزيرة، في ٦ ديسمبر ٢٠١١

عن سورية:
حيث اليسار على حق واليمين على باطل

عندما بدأت الحركة الخضراء في إيران في يونيو ٢٠٠٩، كان هناك جزء متمرد، من اليسار (الذي يمكن أخذه بالمعنى العام) من الذين هاجوا غضباً ضدها، ونددوا بتلك الانتفاضة للحقوق المدنية، باعتبارها مؤامرة سعودية أميركية لتفكيك الجمهورية الإسلامية، إرضاء لإسرائيل، ولتمهيد الطريق للإمبريالية الليبرالية الجديدة. اشتهرت تلك المقولة لأحد المستهينين الأغرار عن الحركة الخضراء، في ذلك الوقت: *«أنا لا أساند سوى الثورات التي تُغضب إسرائيل فقط، إذا كانت إسرائيل سعيدة، بهذه الانتفاضة، فأنا لست سعيداً بها»*.

بعد مرور أكثر من عامين، على الحركة الخضراء، وسنة على الربيع العربي، يواجه ذلك الجزء ذاته من اليسار معضلة أكثر تعجيزاً محاولاً صياغة موقف معقول إزاء الدراما الدموية، في سورية.

تعود جذور المعضلة التي يواجهها هذا الجزء البارز من اليسار مع سورية، إلى فشل جوهري في قراءة الربيع العربي، بصفة عامة؛ لأنهم إذا كانوا قد نددوا، بالحركة الخضراء؛ لأن الولايات المتحدة قد خصّصت ملايين الدولارات لـ «تغيير النظام» في إيران، فإن هذا المبلغ يُعدّ مبلغاً زهيداً، بالمقارنة مع الأموال التي استثمرتها، في الجيش المصري، ومع ما وضعه السعوديون لضمان حصول الإسلاميين على الأغلبية، في الانتخابات المصرية، في مرحلة ما بعد مبارك. إذنْ؛ ما الذي ينبغي فعله مع الثورة المصرية؟ رُفض الموضوع، بأكمله، لمجرد أن الولايات المتحدة والسعوديين كانوا يحاولون السيطرة على نتائجها!

ولكي نكون منصفين في فهم مأزق اليسار، في مسألة الربيع العربي، بشكل عام، والانتفاضة السورية، على وجه الخصوص، ينبغي علينا - أولاً - أن يكون لدينا تصوّر واضح عن اليمين (الذي يمكن فهمه - أيضاً - بشكلٍ عام) الذي يأخذ اليسار ردّة فعل جزئية منه.

لا انعطاف نحو اليسار

أصبح موقف اليمين واضحاً اليوم: النظام السوري طغيان سفّاح، يذبح مواطنيه، و«المجتمع الدولي» (المقصود به الولايات المتحدة وحلفاوها الأوروبيون والإقليميون، من خلال آلياتهم في الأمم المتحدة، ومجلس التعاون الخليجي، وجامعة الدول العربية) ينبغي أن يتدخّل لوقف حمام الدم، وأي شخص لديه أدنى شك، في هذه السردية، متواطئ في أعمال القتل التي يقوم بها بشار الأسد. وحقيقة أن الولايات المتحدة وإسرائيل والمملكة العربية السعودية تشارك - بفعّالية - في إسقاط النظام السوري لمصالحهم الخاصة، لم تدخل قطّ هذا في حسابات اليمين، وإذا دخلت، فإنهم يعدّونها ميزة إضافية.

اليمين يتّهم أيّ شخص ينتقد تصميم الولايات المتحدة والسعودية، للمنطقة، بشكل عام، أو بالنسبة لسورية، على وجه الخصوص، أنه على تعاون وثيق مع النظام الحاكم، في سورية و/ أو إيران. الناس يخاطرون بحياتهم ضد الاستبداد، ينطلقون كفرسان للأخلاق، واليسار ليس مخولاً لاتخاذ «موقف متزمّت»، وإصدار الحكم على ما هو صواب، أو خطأ في هذه الانتفاضات. ينبغي تشجيع الأمم المتحدة، وقاذفات حلف شمال الأطلسي، والولايات المتحدة، للقيام بهذه المهمة، والتخلص من هؤلاء الطغاة. بالنسبة لهم، فإن تدخّلات حلف شمال الاطلسي والولايات المتحدة هي قوى الخير، والطغاة المحليون قوى الشر. على الولايات المتحدة تحرير الشعب، وإطلاق سراحه.

كان لدى الناشطة النسوية ما بعد الاستعمارية المتميزة غاياتري

تشاركرافورتي سبيفاك عبارة، تليق بهؤلاء الناس وسياستهم: «*الرجـــال البيــض ينقــذون المــرأة الملوّنـــة، مـــن الرجـــال الملوّنـــين*».

وللتأكد من ذلك، فإن المغالطة المصلحية لهذا الموقف الذي يتخذه اليمين الذي إما أن يكون أعمى أخلاقياً، أو قاصراً فكرياً غير قادر على رؤية نفاق موقف الولايات المتحدة/ حلف الناتو؛ حيث يختارون - بعناية - أماكن «التدخّل الإنساني» - الأمر الذي يثير غضب الناس - وبالتالي؛ يشجّع على الاندفاع إلى الموقف الذي يفترضه اليسار اليوم.

ولكن موقف (واحدة بواحدة) ذلك ما هو إلا لغو، لا طائل منه، ولن يساعد على توضيح الخطوط المتصدّعة، في جبهة اليسار، فيما وراء هذه المعضلة الحالية.

لا يمكن للوسط أن يستمر

قد يكون هناك بعض الشك - فقط - في أن الأموال والقوات الخاصة الأمريكية والأوروبية والإسرائيلية والسعودية، وتلك المنتمية لبعض الدول الخليجية الأخرى، تعمل في الخفاء، في سورية، ويسحبون الانتفاضة، ويدفعونها وفقاً لتوجّهاتهم الخاصة، ولمصالحهم. أصبح القتال أكثر جدية الآن، وقد أوضح السعوديون - بكل صراحة - أنهم ينوون تسليح المتمرّدين السوريين (بمعنى أنهم قد قاموا، بذلك، بالفعل).

«لا يوجد أي شيء مجاني»، كما يقول المثل الأمريكي العامي، في عالم الاقتصاد، وبالمثل، في عالم السياسة، ليس هناك رشّاشات عوزي مجانية. اليد التي تعطيك العوزي - اليوم - ستستعيده غداً، كحصة في السياسة، في مرحلة ما بعد الأسد.

على الرغم من أن اليمين صامت، عن مثل هذه التلاعبات، في الانتفاضات الثورية، لكنه - في الواقع - يوافق عليها، ويؤيّدها: بالنسبة لهم، كانت الوقائع الليبية فاتحة للشهية، غافلين تماماً، أو حتى رافضين

للفظائع التي حدثت ما بعد القذافي التي دفعت إلى تدخّل حاسم من فيجاي براشاد، البروفيسور في كلية ترينيتي، ضمن آخرين أيضاً، الذي علّق مؤخراً:

> *هنــاك حاجــة ماســة لتقييم مــا حــدث في ليبيــا، ليس نتيجــة للفظائــع التــي قــام بهــا القــذافي، أو لصعــود التمــرد، وحســب، ولكــنْ؛ أيضــاً، وبشــكل كبــير، لطبيعة تدخّــل حلــف شــمال الأطلــسي. وهــذا التقييــم لــم يحدث ... أخــشى أن يدعــو - حقــاً - إلى التشــكيك، في اســتخدام حقــوق الإنســان، لمــبرّر، للتدخّــل. إذا لــم نتمكّــن مــن العــودة وتقييــم مــا حــدث، فأعتقــد أن الكثير مــن الناس في جميــع أنحــاء العالــم يخافــون مــن المــضي قدمــاً، إلى تدخّــل آخــر؛ حيــث لــم يتــم بعــد هضــم الــدروس المســتفادة، مــن ليبيــا.*

اليمين يرفض كل هذا، على أنه هراء يساري. ورداً على هذا النفاق الصريح، أو الإمبريالية الصارخة لليمين، فإن موقف اليسار يصبح أكثر ترسّخاً، وبالتالي؛ متردداً أخلاقياً، وقاصراً فكرياً: نعم، النظام السوري قد يكون فاسداً وقاتلاً مجرماً، إنهم يوافقون على ذلك، ولكن الخطر الحقيقي على الثورة السورية يأتي من الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة العربية السعودية، ولذلك ظلوا - في أفضل حالاتهم - متردّدين، وفي أسوأ الأحوال، صامتين على النظام السوري الإجرامي. إذا تجرّأ أي شخص على الإشارة إلى مشهد الأسد القاتل، يتّهمونه بالتواطؤ مع المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة، أو بكونه مجرد مغفل، تم التلاعب به من قِبل «وسائل الإعلام الغربية».

اليسار يدّعي أن ما بدأ كاحتجاجات حقيقية، تم خطفها - اليوم - من قِبل «الجماعات السّنّيّة المتطرّفة» في سورية، وقوى خارجية أيضاً، من الولايات المتحدة، إلى إسرائيل، والمملكة العربية السعودية، وبالتالي؛

دول الخليج كلهم يصطفّون ضد إيران وحزب الله اللذين يمثّلان - بالنسبة إليهم - طليعة المقاومة ضد الإمبريالية. يوحي بعض اليسار الذين يؤيّدون الربيع العربي حتى بأن الثوار العرب ينبغي أن يشكّلوا تحالفاً استراتيجياً مع النظام الحاكم، في الجمهورية الإسلامية. نعم، كما يقولون، النظام في إيران قد يكون مجرماً تجاه مواطنيه، ولكنه يقف في وجه الإمبريالية. يظهر مجدداً الفساد الأخلاقي لهذا الموقف، في أمّيّته السياسية.

دخل إلى الساحة - اليوم - حتى تنظيم القاعدة (مهما كان ما يعنيه هذا)، ويريد أن يحصل على حصة، من الإثارة. أصدر أيمن الظواهري مؤخّراً شريط فيديو، يندد فيه، بالأسد، ويحثّ المسلمين على الثورة ضده؛ مما أعطى اليسار أكثر من سبب، للتنديد، بالانتفاضة السورية، بأكملها. واليوم حتى حماس نأت، بنفسها، عن نظام الأسد القاتل، ووقفت مع الثوّار السوريين، واليسار يقف وحده خارجاً، يتساءل عما يمكن أن يفعله، أو يقوله في عالم، يتغيّر، بسرعة، لا يتمكن معها، من فعل أي شيء ذي فائدة.

ما وراء الكليشيهات (الأفكار النمطية)

إن مشكلة الموقفين كليهما - اليسار واليمين - أنهما يتحدثان، من موقع قوة، أو قوة مضادة؛ أي من موقف دولاني statist، مندفعين - بقوة - لانتزاع السيطرة، على جهاز الدولة، واستبداله عند سقوطه. اليمين يتكلم من وراء البنادق الأمريكية - الإسرائيلية، ومن وراء حسابات البنوك السعودية، واليسار يتحدث من موقف مقاومة تلك السلطة، والرغبة في دعم أجهزة الدولة الحالية، المتطورة أو الناشئة التي يمكنها أن تضمن تلك المقاومة. نظام الأسد آخذ، في الانهيار، ولدينا - اليوم - اندفاع كبير، للسيطرة على أجهزة الدولة، والجيش، بشكل خاص. ما يتشاركه اليسار واليمين - إذن - وجهة نظر متطابقة حول أهمية الدولة؛ لأنه، بالنسبة لكليهما، فإن الهدف من الثورات العربية هو السيطرة على أجهزة الدولة، وسلطة الدولة، وتوجيه (أو بدقة أكثر محاولة توجيه) أنظمة السلطة المتهاوية وفقاً لمصالحهم.

الطرف الغائب - بشكل قاطع - من حسابات كلّ من اليسار واليمين هو الشعب، الشعب الحقيقي، الناس العاديون، وأولئك الذين يشغلون الحيّز العام، يملؤونه، ويمتلكونه. إن هؤلاء الناس - بالنسبة لليسار واليمين - مجرد دمى، يتم استخدامهم، أو استغلالهم، في تسهيل نجاح المكائد الأمريكية السعودية، أو تمّ خداعهم لدعم انتفاضة ثورية، تم اختطافها، من أيديهم. لا يملك اليسار ولا اليمين أدنى ثقة، أو أمل، أو حتى تصوّر سياسي للفضاء العام الذي يحتله الناس العاديون جسدياً ومعيارياً.

لنفترض أن بشار الأسد سقط غداً، وأن السعوديين والأمريكيين نجحوا، في إقامة نظام عميل، واستأنفوا عملهم المعتاد: فهل هذه نهاية انتفاضة السوريين؟ هل هذا هو الهدف الوحيد للربيع العربي وميدان التحرير؟ الآن، لنفترض أن روسيا والصين والجمهورية الإسلامية استطاعوا الإبقاء على الأسد في السلطة، فهل ستنتهي انتفاضة السوريين؟

لا: لقد بدأت الثورات، للتو.

الخلل الأساسي في كل من اليسار واليمين هو أن كليهما يفتقد الفهم المبدئي لماهية ما يتكشّف أمام أعينهم، والذي ندعوه، بالربيع العربي؛ أحدهما، بسبب محدوديته الفكرية، وبسبب فساده الأخلاقي. كلاهما مؤيّدان للدولة: متعطّشان للسلطة، ويسعيان، للسيطرة على أجهزة الدولة، أو ما يسمّيه ماكس فيبر «الوسائل الخارجية»، في أي دولة، وسائلها العنيفة، في الهيمنة، غافلين عمّا أسماه - في الجملة نفسها - بضرورة «المبرر الداخلي» من جانب الشعب الخاضع لتلك الوسائل الخارجية. فقد السوريون، مثل كل العرب الآخرين، من المغرب، إلى البحرين، وصولاً إلى اليمن، وكما كان الإيرانيون، من قبل، ومعهم بقية العالم الإسلامي، «التبرير الداخلي». ولن تستطيع أي «وسائل خارجية» - تقدّمها الولايات المتحدة /السعودية، أو روسيا/الجمهورية الإسلامية - إجبارهم، على الخنوع والطاعة.

ما نشهده في العالم العربي هو ثورات مفتوحة. ما تعنيه الثورات المفتوحة أن الناس لهم أهمية، أن المصريين لا يزالون في ميدان التحرير، وأن هذه الدول، مهما تحوّلت، ومهما شكّلتها المؤامرات الخارجية، فهي بحاجة إلى جماهير؛ لتحكمها، وأن الجماهير لن تكون خاضعة، لنوع، أو لآخر، من أنواع الاستبداد، أو العمالة. السعوديون والجمهورية الإسلامية، جنباً إلى جنب مع الولايات المتحدة والروس/الصينيين، يمكن أن يقوموا، بكل المؤامرات التي يريدونها، ولكن الشعب السوري سيبقى مقاوماً ومتحدياً، وستظل ثورته مفتوحة، وهو جزء، لا يُجتزأ، من الربيع العربي.

يقولون: يمكنك أن تغزو أرضاً، على ظهور الخيل، ولكنْ؛ ينبغي عليك أن تترجّل عن فرسك؛ لتحكمها. ويمكن أن يقال الشيء نفسه، عن سورية: من الولايات المتحدة وإسرائيل، إلى المملكة العربية السعودية ودول الخليج، ومن وروسيا والصين، إلى الجمهورية الإسلامية وحزب الله، هناك - بالتأكيد - العديد من المؤامرات التي تعمل على غزو سورية. ولكنْ؛ عندما يهدأ غبار الحرب، وينتهي صراع الجبابرة هذا، ينبغي على الفاتحين الجدد الترجّل، لحكم البلاد. وعندما يقومون بذلك، سيجدون أنفسهم، في مواجهة روح الشعب التي لا تُقهر، الذين غادروا زنازين الخوف الداخلي، والذين لن يخضعوا - مجدداً أبداً - سواء للاستبداد الداخلي، أو للعمالة الخارجية. وقد ربح السوريين ثورتهم، بالفعل. فالطغاة القادمون الذين يرغبون، بغزو سورية، سوف يُضطرون، للنزول عن خيولهم، لمواجهة الأمة التي ترفض أن تعيش في الخوف، أو يتم استدراجها، للخضوع والطاعة.

قد أطلق الربيع العربي العنان لقوة الناس العاديين، ونظّم الفضاء العام الذي يحتلّونه، والجمعيات المدنية التي سيشكّلونها - حتماً - في هذا الفضاء. وقد وُلد الربيع العربي - بالفعل - المجتمع الثوري القوي (Gemeinschaft) الذي سيبقى مع هذه المجتمعات، بغضّ النظر عمّن في السلطة، أو ماهيته. قام الشعب السوري، دون علمه بالمؤامرات

السياسية التي قسمت اليسار واليمين - كما هي الشعوب، في الواقع، في جميع أنحاء العالمَيْن العربي والإسلامي - بنزع رهاب الميادين، وإدراك قوة تجمّعاته الشعبية.

نُشرت، لأول مرة، على موقع الجزيرة، في فبراير ٢٠١٢

مسرحية الديمقراطية
في الولايات المتحدة الأمريكية

«إنها آخر انتخابات لي، وبعد انتخابي، سأتمتع بليونة أكبر». التصريح غير الحذر، من الرئيس الأمريكي باراك أوباما، للرئيس الروسي ديمتري ميدفيديف، والذي التقطته كاميرات التلفزيون، جذب الانتباه - مرة أخرى - إلى المخاطر المتزايدة، والوعود غير المنفّذة للانتخابات الرئاسية، في الولايات المتحدة الأمريكية. قال أوباما لنظيره الروسي، وفقاً لنسخة تحريرية، من تلك التصريحات المسجّلة: *«في جميع هذه القضايا، ولكنْ؛ بشكل خاص، في قضية الدفاع الصاروخي، هذه يمكن حلها، ولكنْ؛ من المهم أن يعطيني مساحة، للمناورة»*. أجاب ميدفيديف: *«نعم، أفهمك. وأفهم رسالتك حول المساحة. مساحة أكبر لك»*.

ماذا تعني هذه الانتخابات؟ هل تصنع أيّ فرق؟ لماذا يحتاج الرئيس أوباما إلى «مساحة» في انتخابات فترته الرئاسية الثانية؟ ماذا فعله «بالمساحة «، بل بالتفويض الذي حصل عليه، بعد انتخابه لأول مرة؟ لماذا ينبغي على أيّ كان أن يعتقد أن اهتمامه بمستقبله المهني الذي أفسد فترته الرئاسية الأولى، لن يستمر في الفترة الثانية، ومع «المساحة» الجديدة التي سيتمّ إعطاؤها له حال فوزه، في الانتخابات القادمة؟

من الواضح أن الآثار المترتّبة على طلب الرئيس أوباما «مساحة» من الرئيس الروسي، إلى أن تبدأ فترة ولايته الثانية، لا تقتصر على الدرع الصاروخي، وحسب، بل يمكن أن تمتد إلى أيّ قضية داخلية وخارجية أخرى، يواجهها؛ مما يعطي أملاً زائفاً أنه في ولايته الرئاسية الثانية قد يجد الشجاعة - حقاً - للقيام، بما بدا بأنه قناعاته.

لذا؛ هل سيكون - على سبيل المثال - أكثر وضوحاً مع رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو حول ما يسمّى بـ «عملية السلام الفلسطينية»، أو تفكيك المستوطنات اليهودية غير الشرعية، في الأراضي التي تمّ احتلالها حديثاً، أو دفع الحدود الإسرائيلية إلى حدود ما قبل عام ١٩٦٧ .

هل سيتّخذ رئيس الولايات المتحدة - أخيراً - إجراء حاسماً، بشأن دعوات الحرب الإسرائيلية ضد إيران؟ وهل سينتبه إلى التصاعد المستمر للربيع العربي، ويستسلم لتطلّعاته، للحرية والديموقراطية، بدلاً من الانضمام إلى المملكة العربية السعودية، في محاولة لإدارة جميع عناصره لتحقيق مصلحة محددة وقصيرة النظر، للتحالف الأميركي - الإسرائيلي - السعودي؟ وهل سيدفع - حقاً - باتجاه برنامج موثوق، لنزع السلاح النووي؟

يمكن أن تمتدّ هذه الأسئلة إلى مجموعة كاملة، من القضايا الأخرى الأكثر محلية، في الولايات المتحدة، وجميعها تُنشئ أملاً وهمياً، في أن يكون أوباما أكثر شجاعة، في فترة ولايته الثانية، مما كان عليه، في ولايته الأولى.

العرض الكبير

لن يتم - بالطبع - الإجابة عن أيّ من هذه الأسئلة، في هذه المرحلة، بأي درجة من اليقين. ولكن الحقيقة هي توسّل الرئيس أوباما للرئيس الروسي للنظر، في مأزقه، في إعادة انتخابه. يثير هذا السؤال قضية أكثر إلحاحاً، وهي المشهد العام للانتخابات الرئاسية الأمريكية؛ ربما أروع استعراض سياسي، في عصرنا، يتكرّر - بشكل مثير للغثيان - كل أربع سنوات.

كان الأميركيون - جنباً إلى جنب مع الآخرين، في جميع أنحاء العالم - يعدّون الثواني قرب انتهاء رئاسة بوش أخيراً، وبداية الفترة الرئاسية لأوباما؛ ولكنْ؛ ما الجدوى من هذا؟ ما الذي فعله أوباما - بشكل مختلف - عن بوش؟ ما عليك سوى مشاهدة خطاباته أمام آيباك، ثم الانطلاق من هنا.

فما هو غرض ووظيفة واستخدام هذه الانتخابات الرئاسية الأمريكية؟ هنا يبدأ كل شيء - مع الانتخابات الرئاسية الأميركية. إنها حفل جوائز الأوسكار السياسية، استعراض عيد الشكر لمحلات ميسي الذي ينطلق بعده موسم التسوّق والنوافذ المزيّنة في شارع ٣٤، والتي تجذب السياح أكثر من السكان المحلّيين. انزع هذا العرض الخيالي، وهذا الضرب من العبث المطلق، بعيداً عن الولايات المتحدة، ولن يتبقّى لها شيء، تستعرضه على وسائل الإعلام، عندما تغزو البلدان الأخرى، وتحتلّها، وتقتل، وتشوّه الناس، بحجّة محاربة الإرهاب، ونشر الديمقراطية.

تم تصميم المهارة المعولمة للانتخابات الرئاسية الأمريكية، لبيع سلعة واحدة، وواحدة فقط: «الديمقراطية». والولايات المتحدة دولة ديمقراطية: وبحكم هذه السلعة المقدّسة، فإنها تتمتّع بامتياز إرسال حاملات طائرات والطائرة الحربية المقاتلة، في جميع أنحاء الكوكب، لإسقاط القنابل، على الناس، وعلى أوطانهم، وتطلق على هذا الفعل اسم «التدخّل الإنساني».

كمثال الأبرز على منتج مجتمع استعراضي (غاي ديبور)، لصناعة الثقافة (تيودور أدورنو وماكس هوركهايمر)، والإعلان عن «زجاجة من النبيذ» لبيع الصحة والسعادة (رولان بارت)، فإن الانتخابات الرئاسية الأمريكية - اليوم - تمثل أسطورة البرجوازية العليا التي تبيع «الديمقراطية»، وتفرّق بين الغزو العسكري و«التدخّل الإنساني»، وتبرّر هجمات الطائرات، بدون طيار، ب»مكافحة الإرهاب» و«حماية السلام»، الشكل الأحدث من أشكال القتل الجماعي، والتي يمتد تاريخها، من ماي لاي في فيتنام عام ١٩٦٨، إلى مدينة حديثة، في العراق، في عام ٢٠٠٥، إلى قندهار، في أفغانستان، في عام ٢٠١٢.

إنها مسرحية الديمقراطية، انتبه، وانظر هنا: المشهد الذي يجدّد الاتفاق مع الإمبريالية الأمريكية كل أربع سنوات، ويمنحها الجرأة الأخلاقية، على فرض إرادتها، على العالم، وشنّ غزوات «التدخّل الإنساني». قانون مكافحة

الإرهاب (باتيريوت أكت)، قانون الأمن القومي، خليج غوانتانامو، قاعدة باغرام الجوية، قانون إقرار الدفاع الوطني (NDAA)، والقائمة تطول، وصولاً إلى التنصّت غير الشرعي، والانتقال إلى مراقبة الإنترنت، والرقابة عليها، والتنميط العنصري لشرطة نيويورك، والتجسّس على الجاليات الإسلامية والجامعات. هذه هي حقائق الحياة، في الولايات المتحدة التي يتم إخفاؤها وراء مشهد الانتخابات الرئاسية التي تبيع «الحرية والديمقراطية» (مثل زجاجة رولان بارت، من النبيذ التي تبيع الصحة والسعادة).

تسليع الديمقراطية

تبدو الانتخابات الرئاسية الأمريكية، باعتبارها المشهد الأروع، من مشاهد السياسة الأميركية، وكأنها إعلان تجاري تليفزيوني ضخم، يمتد على أكثر من سنة، والذي يتمّ بثّه، على الشبكات الرئيسة والثانوية، ومحطات الكابل، والفضاء الإلكتروني، لبيع سلعة واحدة، سلعة واحدة فقط، بصيغة «جديدة ومحسّنة» دائماً مثل أيّ علامة تجارية أخرى، من المنظفات.

وبعد أن وصلت إلى هذه النقطة من إنكار الذات، عندما يتم تكييف إرادة الشعوب الديموقراطية جذرياً، من قِبل عملاء أجانب أقوياء، إلى حدّ التشوّه، ومثيرون للحروب مثل آيباك AIPAC، ليس لدى هذه الثقافة السياسية ما تقدّمه للتطلّعات الديمقراطية، في العالم، باستثناء القنابل والرصاص، التي يتمّ تسهيلها، من خلال اللغة المخادعة الأوروبلية، من «حقوق الإنسان»، و«التدخل الإنساني».

كل ما يمتلكه جميع المحافظين الجدد، والمحافظون، والمنظمات غير الحكومية الديمقراطية حتى لتقدّمه للعالم هو أن تدمجه في هذه الحلقة المفرغة؛ بحيث تغدو مصر - بعد خمسين عاماً من الآن - مثل الولايات المتحدة اليوم، وتقدّم للعالم النسخة العربية من نيوت غينغريش وباراك أوباما. وتستخدم تلك الأكذوبة كتيبة من المخبرين المحلّيين، والمثقّفين الكمبرادوريين، وعملاء الطابور الخامس، للتأكد، من الوصول، إلى هذه النتيجة.

ويصل تسليع الديمقراطية - بدوره - إلى درجة تقديسها، في دلالة عالمية، إلى المدى الذي ترغب فيه الولايات المتحدة وحلفاؤها الأوروبيون والإقليميون، باحتكارها، لأنفسهم - احتكار يبرّر - بدوره - أيّ وسيلة، من وسائل العنف الواقعة تحت تصرّفهم، وبأية طريقة، يرونها ضرورية لضمان حماية قيمهم ومصالحهم، كما قال أوباما عندما برّر تورّط الولايات المتحدة، في قصف حلف شمال الأطلسي لليبيا، بحماية وتعزيز الديمقراطية.

وليس من قبيل الصدفة أن يقول فانون في كتابه «المعذّبون في الأرض» (١٩٦١) أنه *«يعاني السكان المحليون، مع كل ذكر للقيم الغربية، نوعاً من التشنج، أو تصلّب عضلات الفكّ ... ويصادف أن يسحب كل شخص من السكان المحليين سكينه، كلما سمع خطاباً عن الثقافة الغربية - أو على الأقل، يتأكد أنها في متناول يده»*.

ولكنْ؛ يظهر كذب الإمبراطور، في جميع الحالات - يساراً، أو يميناً، في الشرق، أو الغرب. هذه السلعة تدمّر ذاتها - على ما يبدو - مع مزيج من القوى والحقائق التي تتكشّف، والمسار الحالي لحركة، احتلوا وول ستريت، والانديغنادوس الأوروبية، والربيع العربي. إنه التدمير الرسمي لهذه الثقافة السياسية، في شكل حركة، احتلوا وول ستريت، المستوحاة، من الربيع العربي، التي لديها الكثير؛ لتتعلّمه، والكثير؛ لتقدّمه - في المقابل - أيضاً.

إذنْ؛ وفي هذا التحوّل الغريب للأحداث الذي يميّز لحظتنا التاريخية، يواجه الأميركيون الخيار نفسه، في أن يختاروا عدم التصويت في الانتخابات الرئاسية الزائفة؛ حيث تتحدد خياراتهم بين غينغريتش، ورومني، وسانتوروم، وأوباما - الشخصيات المتشابهة، في السياسة الأمريكية التي لا تختلف سوى في الاسم - وعندما قررت - في العام ذاته - مجموعة واسعة، من الإيرانيين رفض كونها جزءاً، من الأضحوكة الهائلة التي أتت في شكل الانتخابات البرلمانية، في مارس ٢٠١٢.

ليس ملوك وحكام العرب، وحسب، هم مَن انتهت صلاحيتهم، واندثرت

قوة مصيرهم التاريخي، بل الديمقراطيات الأوروبية أيضاً، التي تواجه انتفاضة منهجية، من قِبل شعوبها الثائرة ضد تدابير التقشّف التي لم تعد تُحتمل. وهكذا، من باب أولى، أن تنتهي صلاحية نظام سياسيّ مُلتوٍ، عفا عليه الزمن مثل النظام السياسي في الولايات المتحدة، الفاسد حتى النخاع، بأموال الشركات ومصالح اللوبيات الخاصة (حيث تمثل آيباك أعراض مرض أعمق، من ذلك، بكثير).

لم تعد تمثيلية الديمقراطية الأمريكية قادرة على خداع العالم (في حال، كانت تنطلي على أحد سابقاً): فالنظام الذي يولّد أشخاصاً مثل غينغريتش أوسانتوروم، على قمته، اللذين يجعلان رون بول الذي يبدو - فجأة - حكيماً وعاقلاً، فقط لفضح نفاق وتفاهة باراك أوباما، لا يشكّل نموذجاً، للديمقراطية، يصلح لشنّ حروب «التدخّل الإنساني» في أي مكان في العالم.

وتشكّل «الديموقراطية» - بالنسبة للعالم، بأسره، اليوم - أساس البدء من جديد: لا يوجد أيّ نموذج، أو قالب، أو مخطّط. لقد دخلنا - للتوّ - فترة، من الثورات المفتوحة بحثاً عن المثالية السياسية.

المركز لا يستطيع التحمّل

أفسد المال، كما نوقش الموضوع في برنامج «ذا ستريم The Stream» على قناة الجزيرة، السياسة الأمريكية حتى النخاع، حتى أصبحت عصية، على الإصلاح. وحسب ما ذكر البرنامج: «إن الدعوى المرفوعة أمام المحكمة العليا من قِبل مؤسسة سيتيزينز يونايتد Citizens United ضد لجنة الانتخابات الفيدراليةFederal Election Commission، تقرّر فيها أن الأفراد الذين يعملون - من خلال شركات ونقابات، أو لجان عمل سياسية مستقلة، والمعروفة باسم لجان العمل السياسية SuperPACs - يمكنهم تقديم تبرّعات غير محدودة، في الحملات الانتخابية»، وقد أدى هذا إلى أنه أصبح «بإمكان المرشحين الاعتماد على حفنة من الأثرياء، في أمريكا

لتمويل حملاتهم الانتخابية حتى عندما يفتقرون للدعم الشعبي القوي». أيّ نوع من سلطة (kratos) الشعب (demos) تلك؟

منذ زمن طويل، لم تعد الثقافة السياسية الأمريكية كما هي اليوم، من ألفها، إلى يائها، فيصل الحقيقة، ولم تعد مقياساً لموضع الإنسانية، أو اتجاهها. بل على العكس تماماً: إنها القوة المتفرّدة التي تضرّ قضية الحرية، في أي مكان، في العالم، ومن ضمنه الولايات المتحدة، كما يتضح - بالفعل - من خلال وحشية قمع الشرطة لحركة «احتلوا وول ستريت».

بدلاً من وَهْم أن الديمقراطية الأمريكية تساعد قضية الديمقراطية، في أي مكان، في العالم، فإن المصدر الوحيد لأيّ أمل في المستقبل، يكمن في مساعدة الانتفاضة الديمقراطية العالمية للأميركيين العاديين، للقيام بثورة ضد نظامهم المتهالك.

ليس هناك أيّ نموذج بديل موجود، في الواقع، يتمتع بالكثير؛ ليقدمه لنا، ولا يتوقف الأمر على الديمقراطية الأمريكية، أو الأوروبية فقط. لقد تناهت المثل العليا والتطلعات لوجود بديل إلى العبث المبتذل لأمثال شافيز وأحمدي نجاد، في برنامج المسافر الدائم بين عاصمتيهما بحثاً عن الأعمال والشرعية. حتى كاسترو لا يعاني من أيّ تأنيب ضمير جراء منحه شهادة الدكتوراه الفخرية «للدكتور أحمدي نجاد».

وقد تحلّلت المثل العليا وتطلّعات الإسلام السياسي، في شكل الجمهورية الإسلامية، وأُسيء استخدام أهوال المحرقة من قِبل دولة استيطانية عسكرية استعمارية عنصرية، تُدعى «إسرائيل». ونحن البشرية جمعاء، على أعتاب حل جديد، لحظة من الانهيار الأخلاقي؛ حيث يسير كل شيء، بشكل خاطئ، ولا بد من تغييره، ولهذا - بالتحديد - تتدفق الجماهير، بالملايين، في جميع أنحاء العالم، إلى الشوارع، وتنام في الخيام، وتتحمّل وحشية الشرطة العسكرية، مطالبين، بفضائهم العام، مشرّعة أيديها، في الظلام الكوني، تبحث عن شيء، قد لا تعرف ما هو.

انضم الأمريكيون إلى العالم، في حركة، احتلوا وول ستريت، وشاركوا في النضال لتأسيس نقطة الانطلاق لسياسة التحرر. بدأ الناشط السياسي الإيراني الشاب، وطالب الدراسات العليا، في جامعة ييل، علي عبدي، في أواخر العام الماضي، في حملة تضامن، يطلب فيها من المشاركين في حركة احتلوا وول ستريت، في الولايات المتحدة وحول العالم أن يتحدثوا عن قصصهم، وأن يستمعوا - في المقابل - إلى قصة سجين سياسي، في إيران، ومن ثم؛ رسم ملصق يدوي الصنع، يحمل رسالة، إلى هذا السجين.

يخطّط علي عبدي - تقديراً منه لحركة ٩٩ في المائة - لإعداد معرض لـ٩٩ ملصقاً، من هذه الملصقات. لا أعرف أيّ علامة لإعادة تخيّل سياسات العالم، بشكل، يتجاوز عبث الانتخابات الرئاسية، في الولايات المتحدة، والقسوة الفاسدة للجمهورية الإسلامية أفضل من هذه العلامات الناشئة، من الأمل الذي يتجاوز الحدود السياسية والعلب الأيديولوجية. وكان علي عبدي جزءاً، من حركة مقاطعة الانتخابات البرلمانية الصورية، في إيران، في مارس ٢٠١٢. ينبغي على الأمريكيين، في نوفمبر القادم ٢٠١٢ الانضمام إليه، في مقاطعة ممارسة أخرى، لا طائل منها لتحقيق «المساحة» التي يبحث عنها أوباما، ولا يمكنه رؤيتها، في «زكوتي بارك».

نُشرت، لأول مرة، على موقع الجزيرة، في أبريل ٢٠١٢

«مذبحة الأبرياء» السورية

تشير «مذبحة الأبرياء» - في بدايات تاريخ المسيحية - إلى مذبحة الأطفال التي ارتُكبت، على يد هيرودس الكبير، الوالي الروماني ضد يهوذا. أمر هيرودس - وفقاً لإنجيل متّى (٢: ١٣-٢٣) - بإعدام جميع الأطفال الذكور الصغار، في قرية بيت لحم؛ ليتجنب فقدان عرشه لصالح الملك الجديد.

وُلد هذا الطفل، ووُلدت معه المسيحية، الديانة العالمية.

الأطفال المقتولون والمعروفون، باسم الأبرياء المقدّسين، تم اعتبارهم - لاحقاً، من قِبل المسيحيين الأوائل - «شهداء المسيحية». وعلى الرغم من أن بعض علماء الكتاب المقدّس يشككون، في تاريخية هذا الحدث، فقد اكتسب هذا الحدث أهمية بارزة، في التاريخ المسيحي المبكّر واللاحق. لقد أصبحت هذه القصة - اليوم - قصة رمزية، ومثلاً عن الغرائز القاتلة، والخوف على السلطة، من الأطفال وحكام الجيل القادم الذي يصل إلى حدّ القتل - ولادة الحقيقة: المستقبل الذي قد يكون قد تحرّر - بالفعل - من مخاوفنا الموروثة.

في الأعمال الفنية التي تصوّر «مذبحة الأبرياء»، رسم العديد من الفنانين الأوروبيين - من جوتو دي بوندوني، إلى ماتيو دي جيوفاني، وكورنيليس فان هارلم، وبيتر بول روبنز، وغيرهم الكثير - هذا الحدث، بسبب التحدي الرسمي والتركيبي الذي يشكّله، وكذلك لإسقاطه - بشكل رمزي - على الأحداث السياسية، لزمنهم المعاصر. وقد أصبح المثل - من خلال هذه اللوحات - سجلاً بصرياً قوياً، للسياسة المعاصرة، لهؤلاء الرسّامين، ممّا زاد كثيراً، من قوته الرمزية.

إذنْ؛ المثال المجازي لقتل الأطفال في «مذبحة الأبرياء» يحمل رمزية، بالنسبة للديانة المسيحية، وأيضاً لأي سياق آخر، يتم فيه قتل الأطفال الأبرياء لذرائع سياسية. هناك مثال آخر، حملة الأطفال الصليبية (١٢١٢) سيئة السمعة، التي أُرسلت لطرد المسلمين، من الأرض المقدّسة، أو ربما لتحويلهم إلى المسيحية، على الرغم من أنها قد انتهت، ببيع معظمهم، في سوق النخاسة. قد تشمل الحالات الحديثة، نشر الجنود الأطفال، في أثناء الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨)، وقصف حلف شمال الأطلسي، لتلاميذ المدارس الأفغانية، واستهداف إسرائيل، للأطفال الفلسطينيين، أو حتى الحالة الأكثر غرابة، لتعذيب أجهزة الاستخبارات الأمريكية المحتجزين في خليج غوانتانامو وأبو غريب، بموسيقى برنامج الأطفال «شارع سمسم». يمكن مضاعفة الأمثلة عبر الحضارات وتاريخها، في سياقات متنوعة، وعلى القدر نفسه، من البشاعة. شخّص جوزيف مسعد - ببراعة - تجاهل الرئيس أوباما القاطع لمحنة الأطفال الفلسطينيين، كحالة من حالات «رهاب الأطفال العرب Arabopaedophobia».

مجزرة الحولة

من الممكن أن تدخل المجزرة التي حدثت في منطقة الحولة في سورية، في ٢٥ مايو ٢٠١٢ التاريخ، كما عبّرت عنها كلمات كوفي عنان الحكيمة لمبعوث الجامعة العربية والأمم المتحدة؛ حيث أسماها «نقطة التحوّل»، في النضال المستمر للشعب السوري ضد الاستبداد المتوحّش الذي يسيطر عليه. ريتشارد فولك محقّ، في أن هذه العبارة قد تثير أملا كاذباً، لحل وشيك (والذي لا وجود له حالياً). ولكنْ؛ هذا - فقط - في حال كان علينا أن نضع السياسة، في هذه المسألة، في مركز الصدارة، في تفكيرنا، وليس عمق الفساد الأخلاقي الذي يمكن حتى لنظام الأسد أن يغرق فيه.

أولئك الذين تمكّنوا من البقاء على قيد الحياة بعد المجزرة، من خلال الاختباء، أو تصنّع الموت، خرجوا - الآن - ليرووا المقادير المروّعة التي

هبطت على الأطفال العزّل، وأهاليهم. يروون عن مذبحة، ارتكبها الجيش السوري وميليشيا الشبيحة سيئة السمعة التي تعمل في خدمة النظام الحاكم.

أفادت بي بي سي أن: *«الناجين الذين تحدّثوا لهيئة الإذاعة البريطانية، والقائد المحلّي للجيش السوري الحر قالوا إن الأشخاص الذين نفّذوا عمليات القتل، من رجال الميليشيات - الشبيحة - من القرى العلوية المجاورة، ولا يمكننا تأكيد أقوالهم، ولكنها تتفق مع بعضها البعض، كما تتفق - أيضاً - مع التقارير التي قدّمتها الجماعات الناشطة، على الأرض، في أعقاب المجازر»*. وأكّد التقرير - أيضاً - أن عدداً من الضحايا البالغ عددهم ١٠٨ شخص - أكثرهم من الأطفال - تم قتلهم، بالسكين، أو بإطلاق النار عليهم، من مسافة قريبة. وقال معظم الشهود الذين تحدّثوا للبي بي سي، إنهم يعتقدون أن الجيش وميليشيات الشبيحة مسؤولون، عن المجزرة. قالت إحدى الناجيات رشا عبد الرزاق: *«كنا في المنزل، ودخل الشبيحة ورجال الأمن، دخلوا، ببنادق الكلاشينكوف والبنادق الآلية، أخذونا إلى غرفة، وضربوا والدي على رأسه، بأخمص البندقية، وأطلقوا عليه النار - مباشرة - في ذقنه»*.

بينما السلطات السورية - في الوقت نفسه - «تصرّ على أن ما يعترفون بأنه مجزرة كان من عمل مئات من المتمرّدين المسلحين الذين احتشدوا في المنطقة، ونفّذوا عمليات القتل، من أجل إفشال عملية السلام، والتحريض على تدخّل حلف شمال الأطلسي». وادّعى السفير الدائم لسورية، في الأمم المتحدة بشار الجعفري - أيضاً - أن حكومته مستهدَفة «بتسونامي من الأكاذيب» بشأن هذه المجزرة. كما نفى الرئيس بشار الأسد - أيضاً - أي دور لقواته، في مذبحة الحولة: «وألقى باللوم - مرة أخرى - على 'الإرهابيين' المدعومين، من القوى الأجنبية لإثارة الفتنة وخلق (مشروع ... المعارضة)».

وبالتالي؛ جرت لعبة تبادل اللوم على قَدَم وساق، لفترة من الوقت، المعارضة السورية تلقي اللوم، على النظام، والنظام يلقي اللوم، على المعارضة، في حين أن الحلفاء الروس للنظام الحاكم في سورية وزّعوا اللوم على الطرفَين، بالتساوي. وفقاً لصحيفة الغارديان «*يقول سيرجي لافروف إن نظام بشار الأسد والمعارضة المسلّحة مسؤولون - على حد سواء - عن أكثر من ١٠٠ حالة قتل، في الحولة*».

إذنْ؛ مَن قتل هؤلاء الأطفال الأبرياء وذويهم: النظام الحاكم، من أجل غرس الخوف، ووضع حدّ، للانتفاضة الثورية. أو «المعارضة»، من أجل إثارة التدخل العسكري للناتو نيابة عنهم؟ أو ربما مزيج من الاثنين معاً؟ على الأقل، لا يوجد أي سجلّ تاريخي، يسجّل إنكار هيرودس لمسؤوليته، عن مذبحة أطفال بيت لحم.

راشومون

نغدو - في إحدى روائع أكيرا كوروساوا، فيلم «راشومون» (١٩٥٠) - شهوداً، على جريمة قتل واغتصاب، من وجهات نظر متعددة. محارب الساموراي الشاب وعروسه يعبران الغابة عندما يتعرّضان للهجوم، من قِبل قاطع طريق، الذي يقتل الساموراي، ويغتصب عروسه، ثم يهرب.

نصل إلى معرفة ما حدث - بالفعل - من خلال عدة روايات: قصة قاطع الطريق، وأقوال الزوجة الشابة، وأقوال محارب الساموراي المقتول (الذي يتمّ استدعاؤه من قِبل «وسيط روحاني»)، وأيضاً من خلال أقوال أحد الحطّابين الذين كان في مكان الحادث، بالصدفة.

وقع العديد من نقّاد السينما والدارسين تحت إغراء قراءة «راشومون» كمؤشر على نسبية الحقيقة، اعتماداً على وجهة نظر الشخص، وربما مصالحه. ولكن الحقيقة الواضحة - أيضاً - في «راشومون» أنه مهما كانت الطريقة التي ننظر فيها إلى الأمر، وأياً كان مَن يروي القصة، وبغضّ النظر عن مدى تحوّل موضع المسؤولية عن القتل والاغتصاب، فإننا - في نهاية

المطاف - أمام رجل قُتل، واغتُصبت عروسه. تحدّق هذه الحقيقة الفريدة - مراراً وتكراراً - في أعيننا، بغضّ النظر عمّن يحكي قصة. تكمن قوة الفيلم - في واقع الأمر تحديداً - في الكشف عن القوة الساحقة للروايات، والتمويه على الحقيقة التي تبقى ظاهرة، من خلال هذه الروايات.

وبعبارة أخرى، تستند جميع الأقوال والقصص وعروض الأداء والتحوّلات المتعاقبة من اللوم، والروايات التي من المفترض أن تقول لنا ما الذي حدث فعلاً، على أدلة واقعية، نشاهدها، باستمرار، وتغطي - بدقة، وبشكل يدعو للمفارقة - ما نظلّ محدقين فيه. من السهل رؤية الأدلة البصرية، بينما تتابع الروايات المتعددة والمتضاربة، بإخفاء هذه الأدلة، من خلال تشتيتنا؛ لدرجة أننا إذا سددنا آذاننا، واكتفينا، بمشاهدة ما تتابع كاميرا كوروساوا، بعرضه علينا، فلن نعاني أي مشكلة، في معرفة ما حدث: هناك رجل، تمّ قتله، وامرأة، تمّ الاعتداء عليها.

تضعنا رغبتنا، في معرفة الحقيقة، وتحقيق العدالة والانتقام مركّزين - باستمرار - على الروايات المتعددة، والمتنوعة، بينما المأساة ذاتها - الحقيقة العليا والظلم الذي لا يُردّ - تحدّق، في وجهنا مباشرة. وتظل رغبتنا، في العثور على الحقيقة، وتحقيق العدالة، تعمي أعيننا، عن الحدث نفسه، المأساة المروّعة والمخيفة، والحقيقة غير القابلة، للتغيير، والظلم الذي لا يمكن التعويض عنه.

ولكنْ؛ لا تعدّ هذه المفارقة حتى أهم ما يشكل تلك النقلة النوعية في هذه التحفة السينمائية: فقبل أن نعرف الحقيقة، نتورّط - كمشاهدين روائياً - في الرغبة، في خداع ذواتنا، والتغافل، وعدم رؤية ما يريد كوروساوا أن يرينا، بالضبط.

الأبرياء المقدّسون ·

وينطبق الشيء نفسه، على مجزرة الحولة: كل طرف، في هذه الجريمة، يمتلك السبب الذي يجعله يضيف لمسة مختلفة، لهذه الجريمة المرعبة.

ولكنْ؛ أي طريقة يتلوّن بها القصة بها، لا تغيّر حقيقة تلك الأرواح الشابة الهالكة، والتي تحدّق، في وجوهنا مباشرة، وتطالبنا، بالاهتمام المطلق. كشهود، لا ينبغي علينا أن ننخدع، بتصديق أيّ، من تلك الروايات، رواية النظام، أو رواية معارضيه، أو رواية المسؤولين الأوروبيين والأميركيين الذين يرون أنهم أسمى خلقاً، من الجميع، أو العبث السافر الذي يحكم سورية، ولكنْ؛ لا يمثّلها؛ خشية أن يتمّ تشتيتنا، من خلال هذه الروايات التي تخدم مصالحه الذاتية، والتي يتم - من خلالها - استغفالنا، وتورطينا، بالتعامي عن المجزرة.

ينتهي فيلم «راشومون» بتبنّي الحطّاب طفلاً متروكاً. ولكن نهاية أمر مجزرة الحولة له نطاق تاريخي أوسع، بكثير.

كَتبَ التاريخ أن هيرودس قد قتل جميع الأطفال خوفاً من أن تُكتب نهايته، على يد أحدهم. ولكن إنهاء نظام الأسد والطغيان الذي تضمّنه لفترة طويلة جداً لا يتوقف على طفل، من هؤلاء الأطفال. إنه مستقبل جميع السوريين. وكأن جميع هؤلاء الأطفال الذين قُتلوا، ولا يزالون، وسيبقون - إلى الأبد - النهاية الحقيقية لهذا الطغيان المروع.

ينبغي على أيّ حكومة - أولاً، وقبل كل شيء - تمثيل مواطنيها، وحمايتهم. فهذا هو سبب وجودها. النظام الحاكم، في سورية، لا يقوم، بهذا، ولا بذاك. لقد دُفن نظام الأسد - جنباً إلى جنب - مع أولئك الأبرياء المقدّسين.

نعم، هناك الكثير من العناصر الأجنبية التي تستغلّ الانتفاضة السورية، لصالحها: الأمريكيون ودول الناتو وإسرائيل والمملكة العربية السعودية وروسيا وإيران، وحتى تنظيم القاعدة المفلس أخلاقياً وسياسياً، كما يُقال. ولكن النصر النهائي، للشعب السوري سيكون في هزيمة كلّ قوى الغدر هذه.

شروط الانخراط في مستقبل الديمقراطية، في عالمنا، لم تعد سياسية، وحسب، بل أصبحت - في الواقع - أخلاقية، بالكامل. يتحوّل الخطاب

جذرياً، من سياسات السلطة، إلى أخلاقيات المواجهة - سواء في معارضة التدخّل العسكري، للناتو، بدءاً، من أفغانستان، إلى ليبيا، مع ما يسبّبه هذا من الضحايا المدنيين (بمَن فيهم الأطفال)، أو رفض الأنظمة الفاسدة والمنحطّة التي تتحكّم بحياة وحرية ومصير شعبنا.

لقد وقعنا أمام خيار زائف بين النظام الدموي الحاكم في سورية، أو حركة طالبان الفظيعة في أفغانستان، والتدخّل الأكثر دموية منهما لحلف شمال الأطلسي، هنا، أوهناك. ينبغي أن يبدأ الاختيار، من خلال الحقائق على الأرض، وعند أولئك المدفونين في المقابر الآن - الحقائق التي تحدق - مباشرة - في وجه الإنسانية. وينبغي علينا ألا نسمح لأي قصة، أو رواية، أو حكاية ملفّقة، أو نسخة، من الأقوال، سواء من قِبل النظام الحاكم القاتل في سورية، أو العسكرة الغادرة أكثر منه لحلف شمال الأطلسي، أو للانتهازية المروّعة لروسيا، أو الجمهورية الإسلامية الإيرانية، أن يعتّموا على تلك الأجساد البريئة. وما يدعو للغثيان، هو أنه ليس النظام السوري، أو «معارضته»، أو حلف شمال الأطلسي هم - فقط - المسؤولين، عن هذا المشهد الدموي، بل البشرية جمعاء.

نُشرت، لأول مرة، على موقع الجزيرة، في يونيو ٢٠١٢

الثورة: السعي وراء السعادة العامة

يصادف منتصف يونيو ٢٠١٢ الذكرى الثالثة للحركة الخضراء، في إيران، ومرور أكثر من سنة ونصف، عن الأحداث المثيرة التي تكشّفت عنها الثورات العربية. يبدو العالمان العربي والإسلامي - على مدى السنوات الثلاث الماضية، من المغرب، إلى إيران، ومن سورية، إلى اليمن - وقد شهدا مظاهرات جماهيرية حاشدة أكثر ممّا مرّ، من تظاهرات عبر تاريخ جميع الدول القومية ما بعد الاستعمار مجتمعة.

أين يقف الإيرانيون والعرب - وبالتبعية، بقية العالم الإسلامي - اليوم بعد كسرهم لحاجز الخوف من الوحشية، ومخاطرتهم، بكل شيء، للحصول على مستقبل أفضل، ولو كان غير مؤكد، لأنفسهم ولأطفالهم؟

سقط أربعة حكام مستبدّين في تونس ومصر واليمن وليبيا، ولكن شعوبها المحررة، لا تزال تواجه مستقبلاً بعيداً وغامضاً. قُمعت الحركة الخضراء الإيرانية، بوحشية، ووُضع قادتها تحت الإقامة الجبرية، وقُتل مؤيدوها والمتعاطفون معها، بشكل جماعي، وبدم بارد، واعتُقلوا، وسُجنوا، وعُذّبوا، وتم اغتصابهم حتى، أو أُجبروا على مغادرة وطنهم، لمعاناة إهانات المنفى. أظهر السوريون والبحرينيون مقاومة شديدة متصاعدة للاستبداد الراسخ الذي يسيطر عليهم، وتعرّضوا، للمجازر المستمرة، والاعتقالات الجماعية والتعذيب - في الوقت الذي ينتظر فيه الحكام العرب الآخرون، من المغرب، إلى المملكة العربية السعودية، وغيرهم، دورهم في هذا المنعطف التاريخي - بطريقة، أو بأخرى.

ولكنْ؛ هل يؤثّر الكثير من الاهتمام قصير النظر، ببلد واحد، أو بآخر،

أو بحدث واحد، أو آخر - الانتخابات الرئاسية، أو حل البرلمان في مصر، وحشية النظام الحاكم، في سورية، أو القوى المعادية للثورة المتمركزة، في المملكة العربية السعودية، في محاولة الاصطياد في الماء العكر، وبالتالي؛ تأخير سقوطهم - على أذهاننا، ويمنعنا من رؤية الصورة الأكبر، والتي تشمل سؤال: إلى أين نحن متجهون؟

ثورة لاستعادة الفضاء العام

نشرت الفيلسوفة السياسية البارزة حنة أرندت في عام ١٩٦٣ كتابها عظيم الأثر «في الثورة»؛ حيث قارنت فيه بين الثورتين العالميتين التاريخيتين الأمريكية (١٧٧٦) والفرنسية (١٧٨٩)، والذي وضعت فيه نظريتها المثيرة للجدل - التي درست فيها - بدقة - كلاً من المفاهيم الليبرالية والمفاهيم الماركسية للثورة. كان الشغل الشاغل لها أن الثورة الفرنسية قد حظيت، بالتنظير، على نطاق واسع، لدرجة أنها شكّلت - في الواقع - مفهومنا عن «الثورة»، في حين لم يتم تنظير الثورة الأمريكية أبداً. وضعت أرندت أمامها في هذا الكتاب مهمة شاقة، للتعويض عن تلك الحقيقة، وسعت - بشدة - للتنظير للثورة الأمريكية، في وقتها. هل تستطيع أفكار حنة أرندت عن الثورات أن تعلّمنا شيئاً - اليوم - فيما يتعلق، بالثورات العربية والإسلامية؟

فضّلت أرندت - في كتابها «في الثورة» - الثورة الأمريكية، على الثورة الفرنسية؛ لأنها تعدّ أن القضايا الاقتصادية الدائمة والمستوطنة للأخيرة (أو ما وصفته بـ «المسألة الاجتماعية») قد خفّفت حدّة الاهتمام الرئيس للثورات، وشوّشته، والذي كان - وفقاً لتقديرها - دستور الجمهورية، في مجاله العام المتين والدائم، وعلى أساس المؤسسات القانونية.

وتعتقد أرندت أن الثوّار الفرنسيين تشتّتوا عن مسؤوليتهم الأساسية، في إقامة جمهورية حرة وديمقراطية، بدعم من الجماهير، مما أجبرهم - بالتالي - على معالجة القضايا الاقتصادية التي لا تتوقف عن التمدد - والتي لا يمكن التغلّب عليها في رأيها - والتي حوّلت الثورة، باتجاه

الفوضى. كان تفضيلها للثورة الأمريكية متجذّراً - على وجه التحديد - في هذا التصميم الثوري، لتشكيل وتحقيق الاستقرار، في المجال العام، من الديمقراطية؛ على الرغم من انتقادها - بالقدر نفسه - للأميركيين؛ لأنهم قصروا مشاركتهم، في مؤسساتها الديمقراطية على التصويت الدوري، وتخلّوا عن الأهداف الرئيسة للديمقراطية التشاركية.

وهكذا تعتقد أرندت - آخذة الثورتين الفرنسية والأمريكية كنموذج - أن هذه الثورات - في البداية - كانت تحمل قوة مجدّدة، ولكن هذا في مسار الأحداث حصل شيء من التحول المعرفي في الانتفاضة الثورية. رأت أرندت أنه - على الأخص - في أعقاب الثورة الفرنسية، اتخذت فكرة «الثورة» شكلها الراديكالي (الماركسي)، باستهداف القضاء على الظلم الاقتصادي والاجتماعي، في المجتمع. وفي هذه النقطة بالذات، في نظر *«الطبقات الرائدة، في أوروبا ... توقّفت أمريكا، عن كونها أرض الأحرار، وأصبحت - على وجه الحصر - تقريباً - أرض الموعد للفقراء»*. ورأت أرندت أن هذه كانت قراءة خاطئة، للولايات المتحدة. ولكنْ؛ لم يكن الغرض الأساسي، للثورة، ولن يكون، للقضاء على الفقر، بل للتحرّر من الطغيان، وتمكين الناس، من الحصول، على حرية المشاركة السياسية.

وهكذا تستند قراءة أرندت للثورات، على مفهومها عن السياسة، وليس كتقنين للعنف المشروع، كما قد يقول ماكس فيبر، على سبيل المثال، بل كملاذ وحماية، من العنف، في خطوة نظرية أقرب إلى جان جاك روسو، أو حتى توماس هوبز، واللذين كان سيكون مصير الإنسانية - بالنسبة لهما - دون ذلك من «العزلة، والفقر، والقبح، والوحشية، وقصر العمر». وكان الجانب الأكثر إثارة لإعجاب أرندت في الثورة الأميركية هو حقيقة أن السلطة لم تتجه نحو إضفاء الطابع المؤسسي على العنف الشرعي، كما استوعبه ماكس فيبر، بل كانت عقداً اجتماعياً، ميثاقاً، يقضي بأن الجمهور يمنح الدولة وجودها، ويمكنه - بالتالي - أن يسحب هذه المنحة عندما يريد.

كانت أرندت تنتقد النظرة التي ترى أن العوامل الاقتصادية يمكن أن يكون لها نتائج سياسية. كان الفقر مرادفاً وجود الإنسان، وفي العصر الحديث فقط، تم افتراض أنه يمكن معالجة ذلك سياسياً. لقد أربك هذا العامل المشروع السياسي، للثورات، والذي لم يعد ملتزماً، بتحرير الناس، من الظلم، بل أخذ يركّز - بدلاً من ذلك - على معالجة مشكلة الفقر. التطور السياسي للمشروع الثوري - بالنسبة لأرندت - خطير وعقيم. وكان الجانب الغريب من الثورة الأمريكية - على وجه التحديد - أنها ظلت، بمعزل، عن المسألة الاجتماعية (الاقتصادية)، وأنها سعت، للتحرير، من الطغيان، وحماية الحرية.

إن طبيعة ووظيفة الثورات - بالنسبة لأرندت - تكمن، في ترجمة لحظة الحماسة الثورية، إلى نظام تعددي، للمشاركة السياسية والحوكمة، يستند إلى العلنية. وقد ميّزت أرندت - في سبيل تحقيق هذه الغاية، بشكل حاسم - بين التحرر (liberation) والحرية (freedom). التحرّر هو عمل انعتاقي، ويعني التحرّر من الاستبداد، في حين أن الحرية القدرة غير المقيّدة على المشاركة، في الحياة العامة، وفي المجال العام، من خلال حرية التعبير وحرية التجمّع السلمي. ويغدو تعريف التحررية (liberty) - بالتالي - بأنها التحرر من القيود غير المبررة، والحرية (freedom) التي تعني القدرة على المشاركة، في الشؤون العامة هي امتداد الفضاء العام، بالقوة؛ ليشمل المشاركة السياسية.

يُعدّ التشكيل الفعّال لهذا المجال العام الفكرة المركزية، بالنسبة للفكر السياسي لأرندت؛ حيث يبني عليه المواطنون حياتهم السياسية. تأخذ حنة أرندت مثل «السعي وراء السعادة»، من إعلان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية؛ حيث السعي وراء «السعادة» يعتبر «حقاً غير قابل للمصادرة» - وتقدم قراءة عامة لهذا الموضوع، وهي القراءة التي توسّع تلك السعادة؛ لتشمل حرية المشاركة، في الحياة العامة. ينبغي أن تُترجم الروح الثورية، إلى أشكال مؤسسية، من تلك السعادة العامة. السعادة العامة مكوِّن أساسي، يحدّد مفهوم أرندت الحقيقي، للسياسة.

تقول أرندت - محاولة الإضافة على أمثولة توماس جيفرسون -:

إذا كان الهدف النهائي من الثورة هو الحرية وصياغة دستور فضاء عام، يسمح للحرية، بالظهور، حتى ... لا يمكن لأحد أن يُدعى سعيداً دون أن ينال نصيبه، من السعادة العامة، ولا يمكن لأحد أن يسمّى حراً دون تجربة الحرية العامة، وأنه لا أحد يمكن أن يُدعى سعيداً، أو حراً، دون المشاركة، والحصول على نصيب، في السلطة العامة.

ميدان التحرير

يصف مرتضى حسين - في مقالة رائعة، على موقع الجزيرة الإلكتروني، بإيجاز - أهمية ميدان التحرير، في مسار الثورة المصرية:

> *في ميدان التحرير، في القاهرة، قاعدة انطلاق الانتفاضة الديموقراطية التي أطاحت، بالديكتاتورية المتوحّشة لحسني مبارك، والبالغة من العمر ٤٢ عاماً، ستجد تاريخ الثورة في ٢٠١١ مرسوماً حرفياً، على الجدران. على طول شارع محمد محمود، وعلى جانبي مجمع الجامعة الأمريكية، في القاهرة (AUC)، وفي جميع أنحاء الميدان، هناك شواهد مذهلة، كثيراً ما تكون عاطفية، على الأحداث التاريخية التي أدّت إلى سقوط نظام مبارك، والذي اجتذب انتباه العالم.*

ثم، بكثير من الاهتمام، يحذّر مرتضى حسين العالم، وهو - على حقّ في ذلك -:

> *في الصباح الباكر ليوم الاثنين، بدأ طاقم عمل مكلّف، من الحكومة المصرية، بتغطية الجداريات الثورية، في ميدان التحرير، بالطلاء الأبيض، في ما بدا للكثيرين، وكأنه هناك تحرّك محسوب ومتعمَّد، لمحو التاريخ الحي، لثورة عام ٢٠١١.*

لكنه يخلص إلى طمأنتنا وطمأنة نفسه، بأنه:

> *لا تبدو أيّ محاولة للتبييض من قِبل الحكومة قادرة على أن تمسح الذاكرة الجماعية للشعب المصري، الذاكرة التي لا تزال تعبّر عن نفسها - مراراً وتكراراً - في فن الشوارع؛ حيث حارب الثوار في معارك الثورة، وانتصروا بها.*

هل يمكن الاعتماد على «الذاكرة الجماعية للشعب المصري» - تماماً - كما هي، بصفتها الطريقة الوحيدة لضمان ألا تذهب التضحيات البطولية، في تلك الساحة التاريخية طيّ النسيان؟ إذا لم نقم بتبجيل المساحة الفعلية لميدان التحرير، في القاهرة، وقراءته، بشكل أكثر مجازاً، على أنه الفضاء العام الذي حدثت فيه الثورة المصرية (التي ربما تُعدّ الحدث الأهم، في الربيع العربي حتى اليوم)، كيف نستطيع ضمان عدم حدوث « تحرّك محسوب ومتعمَّد لمحو التاريخ الحي، لثورة عام ٢٠١١»؟

يعتقد جزء من المصريين - ولسبب وجيه تماماً - أن قرار المحكمة العليا، في منتصف يونيو عام ٢٠١٢، بحلّ البرلمان المنتخب حديثاً، والسماح لأحمد شفيق، رئيس الوزراء الأسبق، من عهد مبارك، بالترشّح للمنصب «انقلاب قضائي» ضد ثورتهم. ولكنْ؛ هل ستسلب المحكمة العليا - أيضاً - الذاكرة، من ميدان التحرير؟ وهل ستكون قادرة على منع المصريين من التجمع، في مكان اجتماعهم إلى الأبد؟

كيف ستغدو ذكرى ميدان التحرير ذكرى، لا تُمحى؟ وما هي الطريقة التي تمكّننا من أن نعتقد أن هذا المجال العام الذي صُنع - بطريقة سحرية - من البطولة والتضحية، والتي - من خلالها - يمكن أن ننمّي «السعادة العامة» الخاصة بنا، كما كانت ستقول حنة أرندت: لن يتم تبييضه أبداً؟

لنفترض أن المحكمة الدستورية العليا المصرية نجحت، في حل

البرلمان، أو لنفترض أنه أياً من محمد مرسي، أو أحمد شفيق قد أصبح الرئيس المصري القادم: فهل فشلت الثورة المصرية؟

ما الذي سيحدث، وليس لذكرى الثورة، أو الفن الذي تم إنتاجه فيها، والذي قد يكون قد تمّ تبييضه، في ميدان التحرير، ولكنْ: للميدان نفسه، ليس - فقط - لمعناه المادي، أو المجازي، بالنسبة، للمصريين، بل بالطريقة التي أنشأ بها معنى جديد، للفضاء العام، في العالمَيْن العربي والإسلامي؟!

كانت الدوائر الانتخابية والمراكز والأحياء - بالنسبة لحنة أرندت - هي «الجمهوريات الابتدائية» التي تحدِّد المجال العام، وتحرس الحرية. ولكنْ؛ في مصر، ما الذي يمكن أن يكون المعادلِ الوظيفي لتلك الدوائر الانتخابية اليوم؟ المنظمات المجتمعية والجمعيات التطوعية، أو صفحات فيسبوك وحسابات تويتر، أو في مكان ما، فيما بينهم، أو مزيج من الاثنين معاً؟

تلك هي المسائل الحاسمة التي لا يواجهها المصريون، وحسب، بل العرب جميعهم والإيرانيون والمسلمون، في كل يوم، وفي كل ذكرى، لانتفاضاتهم.

نُشرت، لأول مرة، على موقع الجزيرة، في يونيو ٢٠١٢

لحماية الثورة، والتغلب على التقسيم الكاذب العلمانيين- الإسلاميين

من المستحيل أن نبالغ في أهمية الأحداث الجسيمة التي وجَّهت الانتباه العالمي، إلى مصر؛ حيث يستمر شعبها، في مقاومة الدراما التي تتكشّف، من ثورتهم.

ويأتي حدثان انتهازيان واضحان معاً، للإشارة إلى المحاولة المروّعة، من قِبل جماعة الإخوان المسلمين، في الاستيلاء، على الثورة المصرية، بأكملها، لأنفسهم، بما يشابه - إلى حد كبير - نفس نموذج رجال الدين الشيعة الذين خطفوا الثورة الإيرانية عام ١٩٧٧-١٩٧٩ - مع فارق حاسم أن المصريين تدفّقوا، بعشرات الآلاف، إلى الشوارع، وفي حالة أكثر تأهّباً ويقظة، لحماية ثورتهم، بأكملها، مما كان عليه الإيرانيون قبل أكثر من ثلاثين عاماً.

يدور الحدث الأول حول استيلاء الرئيس مرسي (ومن ثم؛ إبطال) المزيد من السلطات التي مُنحت له، من خلال الانتخابات الحرة والنزيهة - وإن كانت، بهامش ضئيل - التي أرسلته، إلى القصر الرئاسي. و هو الإعلان الدستوري الذي وضعته جمعية تأسيسية، يسيطر عليها الإخوان المسلمون - حلفاء الرئيس السياسيون - والذي تم إعداده، على عجل، وطرحه، للاستفتاء.

ولكن الشيطان يكمن، في التفاصيل. ما الذي نشهده، بالضبط؟ رئيس تمّ انتخابه - بحرية - يسعى - فجأة - للاستيلاء على السلطة، ووضع نفسه فوق سيادة القانون. نزل المصريون الحريصون على مستقبل الديموقراطية،

في وطنهم، إلى الشوارع، وعارضوا هذه الخطوة. سرعان ما انضمّ إليهم مصريون آخرون، معربين عن تضامنهم مع رئيسهم، ومع قراره، وأصروا أنه قرار مؤقت - فقط - يهدف إلى التغلّب على العقبات التي يضعها في طريقه عناصر النظام القديم؛ لتنفيذ إرادة الشعب، التي تمثل بيت القصيد، من الثورة. مما أدى إلى اشتباكات، وقُتل بعض المصريين، في الاحتجاجات، وجُرح المزيد منهم. تقع مسؤولية دماء هؤلاء المصريين كلياً، على محمد مرسي، الذي بدأ هذه الحلقة المفرغة، من سوء المعاملة، وعدم الثقة. ولكن المصير التاريخي للثورة المصرية - اليوم - أكثر إلحاحاً، من الدخول، في لعبة اللوم المتبادَل.

إن إلغاء الرئيس مرسي - اليوم - لما قد منحه، لنفسه - بصورة غير قانونية - علامة جيدة، وانتصار للثورة. ومع ذلك، فإن متابعته للاستفتاء، على مسودة الدستور المعيبة هذه - نظراً لفساد العملية نفسها، وبالتالي ما نتج عنها - تُعدّ مدعاة للقلق المستمر، لكتلة المعارضة الرئيسة المتخوّفة من هذا الإجراء المنقوص. وبالتالي؛ فإن المصريين يواجهون المصريين - اليوم - في لحظة مصيرية، في تاريخهم. ما هو السبب الكامن وراء هذه المواجهة المؤسفة، والتي، إذا استمرت دون حل، قد تخلخل مسار الثورة المصرية، بأكمله؟

المصريون ضد المصريين

الفصيلان هما من المصريين الذين تجمّعوا مع بعضهم البعض لإسقاط النظام القديم. ومن الخطأ الأثيم تشويه صورة واحدة، أو أخرى، من هاتين المجموعتين. ترسم معظم التغطية الإخبارية الأمريكية والأوروبية للأحداث في مصر صورة شيطانية للمصريين الذين يؤيدون مرسي، وصورة بطولية لأولئك الذين يعارضونه. تكمن وراء هذه الثنائية إسلاموفوبيا، من الطراز القديم. لا ينبغي أن تتحوّل الانتقادات المشروعة، للرئيس مرسي والإخوان المسلمين وتسلّطهم الحزبي، على السلطة، إلى ظاهرة الإسلاموفوبيا. إنه انقسام سيئ،

ومنهِك، ولا ينبغي أن يسقط فيه المصريون. ينبغي التفكير فيما وراء هذه الثنائية اللحظية والزائفة بين الإسلاميين والعلمانيين، ولكنْ؛ كيف؟

موقف القضاء هو المفتاح هنا. ولكنْ؛ كذلك طبيعة الجمعية التأسيسية لصياغة الدستور، والتي استقال منها - بالفعل - جزء كبير، من ممثلي المصريين. ربما كان لدى القضاة - في الواقع - دوافع خفية، مما لاشك فيه أن بعضاً منهم لا يزال يشعر، بالحنين، إلى النظام القديم. ومهما كان الأمر، فلم تكن الجمعية التي صاغت الدستور تمثل كل القوى الثورية، وبالتالي؛ لم تكن ديمقراطية، بل - في الحقيقة - غير شرعية، وبالتالي؛ يكون الدستور الذي طرحته للاستفتاء غير شرعي أيضاً.

لا يمكن لجماعة الإخوان المسلمين - التي لها كل الحقّ، في لعب دور مهمّ، في تشكيل رؤية مشتركة، لمستقبل مصر - أن تجبر شعباً، بأكمله، على التصويت، على دستور، لم يلعب جزء كبير سياسياً من السكان أيّ دور، في صياغته.

يجري التنافس - بحماس شديد - حول انتزاع السلطة ومسودة الدستور، ولا يتم النقاش، بشأنهما، في شوارع مصر وساحاتها، وحسب، بل من قِبل الصحفيين، وكتّاب المقالات، والباحثين القانونيين، والفقهاء الدستوريين، وأساتذة الجامعات، والمفكّرين العموميين، جميعهم من المصريين داخل وخارج الوطن. يعتقد البعض من المصريين أن مسودة الدستور عادلة ومتوازنة ومناسبة جداً لدولة وطنية ديموقراطية، بينما يعترفون بخطأ العملية السياسية التي تم - من خلالها - صياغته، ويختلف البعض مع نفس المسودة، لأسباب جوهرية. أودع محمد البرادعي - أحد المصريين البارزين، والحائز على جائزة نوبل، للسلام - هذه المسودة الدستورية، في «مزبلة التاريخ»، بالفعل. وحقيقة أن البرادعي ليبرالي، وأن الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي يبدو أنهم يفضّلانه، على الآخرين، لا تحرمه وأنصاره، من نصيبهم العادل، في هذه الثورة.

يقول مرسي ومؤيدوه إن انتزاعه المزيد من السلطة أكثر مما منحه إياه الشعب، كان إجراء مؤقتاً، ولبضعة أشهر فقط. ولكنْ: لا يمكنك إلغاء الديمقراطية لحماية الديمقراطية، ولو لبضع ثوان، بغضّ النظر، عن أن القضاء قد يكون فاسداً، أو مأهولاً، بعناصر من النظام القديم. هذا هو جسم الديمقراطية، وهيكلها الرسمي، وفقرات هيكلها العظمي، والتي ينبغي حمايتها، بجميع الوسائل، في مرحلة مثل هذه، تمثل نقطة انطلاق التاريخ المصري الديمقراطي. ولكنْ: لماذا لا يرى أحد هذه الحقيقة البسيطة؟ وما هو السبب الكامن وراء عدم الثقة، بمرسي، وبمؤيديه، من الإخوان المسلمين التي تسبّبت في هذا التطور الدموي، في الثورة المصرية؟

مَن هو المسلم؟

تستند المعركة بين بعض المصريين وبعضهم، على الخوف الوهمي عند كل مجموعة من الآخرين، خوف «الإسلاميين» من «العلمانيين»، و«العلمانيين» من «الإسلاميين». ينبغي إسقاط هذه الثنائية الوهمية المزيّفة، على الفور.

جماعة الإخوان المسلمين فصيل سياسي، يقوم على أيديولوجية سياسية، تشكّلت عند الصدمة العربية والإسلامية مع الاستعمار الأوروبي، وامتداداته المحلية، والتي صادف حصلت على الاسم الذي تدّعي فيه الإسلام، لنفسها. «المعارضة» التي تطلق على نفسها اسم «العلمانية»، تمنح الإخوان حقاً حصرياً، في الإسلام، في الواقع، وهو ما يفتقرون إليه قطعاً. الإسلام، القرآن، الشريعة، الأزهر، وغيرها، كل هذه رايات زائفة، يحملها الإخوان، لحماية مصالحهم الطبقية والإيديولوجية، وبالتالي: التلاعب في المقدّس الداخلي، للملايين، من المسلمين المصريين، لأغراضهم السياسية، وهذا - بالضبط (بشكل مطابق تقريباً) - ما فعله رجال الدين المسلمين، بقيادة آية الله الخميني، للاستيلاء على الثورة الإيرانية عام ١٩٧٧-١٩٧٩ تماماً لأنفسهم، متجاوزين - بذلك - نصيبهم العادل.

ينبغي علينا - هنا، في هذا المنعطف التاريخي - إعادة التفكير، في التاريخ الفقهي الإسلامي، وإعادة تشكيل المعنى الحقيقي، لكون المرء مسلماً، والذي استولى عليه فقهاء المسلمين والشريعة الإسلامية، بدون وجه حق. ليس لفقهاء المسلمين، ولا الشريعة الإسلامية (مع مدارسها المختلفة، ومجازاتها القياسية)، وبالتأكيد؛ ليس للأيديولوجية الإسلامية القومية - التي تشكّلت نتيجة صدمة المسلمين، بالاستعمار الأوروبي - أي صلاحيات، باتخاذ قرار، أو تحديد ما يعنيه أن يكون المرء مسلماً. الفيلسوف المسلم مسلم أيضاً. الصوفي المسلم مسلم أيضاً. ولكنْ؛ قد ناصب فقهاء المسلمين العداء تاريخياً لهذه الطرق المشروعة - أيضاً - للإسلام، ورفضوا التصالح مع هذا الواقع، وخاصة على مدى السنوات المئتين الماضية، وتحت الإكراه الاستعماري عندما افترضوا باطلاً امتلاكهم للسلطة التي تؤهّلهم تحديد ماهية المسلم، وماهية الإسلام. تمثّل جماعة الإخوان المسلمين في مصر - اليوم - المنتج النهائي لذلك التطور الاستعماري، كما كان رجال الدين الشيعة المستفيدون من التطور عينه، في إيران. وقد حصل المصريون - اليوم - على الفرصة التاريخية، للتغلب عليهم، إلى الأبد. يساهم المعارضون لجماعة الإخوان المسلمين، بتسمية أنفسهم، «بالعلمانيين» - مما يجعلهم مشاركين - أيضاً - في الإسلاموفوبيا، دون علمهم - على الأغلب - بقطع الطريق، على تلك الفرصة.

يقرر المسلمون - الذين يبلغون ١,٢ مليار نسمة، والمنتشرون، في جميع أنحاء العالم، والذين كما يُعرَفون من خلال طبقتهم وجنسهم وهويتهم العرقية، فإنهم يعرفون عن أنفسهم - أيضاً - بواسطة المفاهيم الشرعية، والروحية، والفلسفية، لإيمانهم الجماعي - ما هو «إسلامي»، وما مسلم، ليس الشريعة الإسلامية (ناهيك عن أي نظام، من رجال الدين في إيران، أو الإخوان المسلمين في مصر، أو أشقائهم الروحيين من بين أساتذة الدراسات الإسلامية، في جامعات أمريكا الشمالية، أو غرب أوروبا). نلاحظ في الأزمة التي نشهدها في مصر - في هذه الأيام المصيرية - إسقاط الفكرة الخاطئة

التي جعلت الإخوان المسلمين يمتلكون تلك الفرضية الوهمية الزائفة، بأنهم المسلمون الوحيدون، في هذا البلد. وهم ليسوا كذلك، بالتأكيد. يخفي الانقسام والفجوة الكاذبة والمزوّرة بين «العلمانيين» و«الإسلاميين» - في المعارك الدامية الجارية والمشتعلة في شوارع مصر - القضية التي تتجاوز هذا، إلى حدّ كبير، فكرة المواطنة. ما ينبغي مناقشته - فعلاً - حقوق المواطنة للمصريين، وليس ما إذا كان هؤلاء المواطنون من المسلمين، أو من العلمانيين، أو لم يكونوا. مصر - تماماً - مثل تونس، على أعتاب التغلّب على هذا الانقسام المنهك والمعيب بين «العلمانيين» و«المتديّنين» - الهوة التي صنعها الاستعمار، في مجمل التاريخ الاستعماري، وما بعد الاستعمار لتقسيم المسلمين، وحكمهم، على نحو أفضل.

لا ينبغي لنا - عند الشروع في التفكير، في حقوق المواطن النموذجي - أن نبدأ بذلك التمييز الخادع بين «العلمانيين» و«المسلمين»، ولكنْ؛ مع المصريين غير المسلمين، والأقباط، واليهود، ومع أي مجموعة يمكن أن يُطلق عليها اسم «الأقلية الدينية». ينبغي إسقاط فكرة «الأقلية الدينية» تماماً، وينبغي في صياغة دستور حقوق المواطنة، بصرف النظر عن الانتماء الديني، بلغة واضحة، لا تميّز بين قبطي، أو يهودي، أو مسلم، ناهيك عن ما يسمّى بـ «العلماني»، الذي يُعدّ مسلماً أيضاً، بغطاء استعماري.

تغطّي المعركة الزائفة بين «العلمانيين» و«المتديّنين»، على مهمة أكثر أهمية، بكثير، تتمثل في بناء جمهورية حرة وديموقراطية، على أساس الحقوق غير القابلة للمصادرة للمصريين غير المسلمين، أتباع الديانات الأخرى، يجب أن تكون تلك هي اللحظة الفارقة، واللبنة الأساسية، وأهم حقوق المواطنة، في الدستور الجديد. وهذا يعني أن حقوق ما يسمّى «الأقليات الدينية» لا ينبغي «الاعتراف بها»، من خلال شهامة الأغلبية، ولكنْ؛ يجب تفكيك فكرة الأغلبية/الأقلية الدينية، بأكملها، قطعاً، والتغلب عليها.

إذا كان المواطن الأضعف محمياً - بشكل قاطع - بالدستور، فإن هذا

- بالتالي - يؤدي إلى حماية حقوق المواطنين جميعاً. هذه هي القضية الحقيقية التي تخفيها المعركة الزائفة بين «العلمانيين» و«الإسلاميين». ينبغي أن تبدأ صياغة الدستور، من أضعف الضعفاء، وليس من الأقوى - على العكس تماماً، مما حدث بعد أن وجد الإخوان المسلمون أنفسهم - فجأة - في موقع السلطة، بينما يعلّق ممثّلهم في موقع الرئاسة الرقابة القضائية قافزاً - بذلك - إلى الدكتاتورية، يسعى نوّابهم - في البرلمان - إلى تهريب دستور، لمصلحتهم الخاصة، وليس لصالح المصريين الأكثر ضعفاً.

المسلمون جميعهم مسلمون

عندما ننتقل إلى المسلمين، كمواطنين، يمكننا القول إن جميع المسلمين مسلمون، ولكنْ؛ ليس كل المسلمين ينتمون إلى جماعة الإخوان المسلمين، التي تساوي بين الاثنين كذباً، بينما تنسى - في الوقت نفسه - بأن هذا التوصيف لا يضم حتى «الأخوات المسلمات».

ينبغي على المصريين الذين يعدّون أنفسهم «علمانيين» أن يذهبوا، باسم الثورة المصرية، وأن يطالبوا بأن تصبح المساجد مجالاً عاماً، لا أن يتحول المجال العام إلى امتداد للمساجد، كما فعل الإخوان. تنتمي هذه المساجد، إلى جميع المسلمين المصريين - الليبراليين، والعلمانيين، والاشتراكيين، والنسويات، وهلم جراً. ينبغي التحرك، وإعادة تعريف ذلك الموقع، وإعادة التأكيد على حقهم، فيما يمتلكون، والتغلب - بالتالي - على الفجوة السيئة والمهلكة بين خيالات «الإسلاميين والعلمانيين»، والتي ورثناها، من بقايا تاريخنا الاستعماري.

يتساوى الجانبان على ضفّتي هذا الانقسام الوهمي والمقدّس، في تلقّي اللوم. لم يمت أحد، وترك للإخوان المسلمين موقع الولاية على الإسلام، والحق في تحديد معنى أن يكون المرء مسلماً. تتعدد طرق أن يكون المرء مسلماً، بعدد المسلمين. ينبغي على مَن يصفون أنفسهم «بالعلمانيين» التغلّب - أيضاً - على هذه التركيبة الاستعمارية المروّعة، وأن

يدركوا - بشكل نهائي - أنهم مسلمون أيضاً، ويمكنهم أن يكونوا اشتراكيين، أو نسويين، أو قوميين، وحتى من الملحدين، أو «اللاأدريين»، إذا اختاروا تعريف أنفسهم، على هذا النحو. فبالرغم من كل شيء، يتضمن تاريخ الإسلام العديد من المسلمين الملحدين و«اللاأدريين»، على سبيل المثال. يحتاج مصطلح «مسلم» لإنقاذه من الفقه المصنّع عقائدياً وسياسياً، والذي يعرف رجال الدين الشيعة والمتشدّدين من السّنّة، على حد سواء. يجب على «العلمانيين» المصريين - مثل جميع «العلمانيين المسلمين» الآخرين - أن يدركوا خط الإسلاموفوبيا، في أفكارهم، وأن يتغلّبوا عليه.

المسلمون في حرمة ضمائرهم - في خصوصية قلوبهم، في علانية تصرّفاتهم المعيارية والأخلاقية، سيقرّرون - بشكل جماعي - ما يعنيه أن يكون المرء مسلماً. تمرّ مصر - جنباً إلى جنب - مع بقية العالمَيْن العربي والإسلامي، بتغيّرات تاريخية عظيمة: ستقرر العقيدة الجمعية للمسلمين - في نهاية المطاف - مَن المسلم، وما الذي يعرفه. هذا الاحتمال التاريخي مضمون، ويحدث، بالفعل، ونحن نعيش هذه الأيام التاريخية. ولكن الاعتراف العلني الجماعي بهذه الحقيقة يمكن أن يوفّر الكثير من المشقّة والعنف الذي يُفسد - اليوم - مجد الثورة المصرية. المصريون مَدينون، لأنفسهم، ومَدينون، لبقية العالمَيْن العربي والإسلامي، أن يتقدّموا الطريق، في هذه اللحظة الحرجة.

التفكير المبدئي، وليس الحجارة

السبيل الوحيد للخروج من الأزمة، ومن إراقة الدماء هو الحوار - الفوري، وغير المشروط - وينبغي أن يبدأ هذا الحوار الآن. وكان قرار الرئيس مرسي، بإلغاء استيلائه على السلطات التي منحها لنفسه خطوة ضرورية، ولكنها غير كافية. لا بد له - أيضاً - من التأجيل الفوري، لموعد الاستفتاء، لأجل إعادة انعقاد الجمعية التأسيسية. وينبغي أن يشمل ذلك جميع الفصائل المصرية؛ لتعمل على حلّ كافة القضايا العالقة قبل إرسال

مسودة الدستور، إلى الشعب المصري، للتصويت عليها. ينبغي أن يتخلّى المصريون الذي يصفون أنفسهم بأنهم «علمانيون» في تلك الجمعية التي سيُعاد انعقادها، عن قلقهم الخاطئ، من تلك الدلالة الاستعمارية، والدخول في حوار مع إخوانهم وأخواتهم المسلمين.

إذا كان نتنياهو وأنصاره الصهاينة، في العاصمة واشنطن، في الوقت نفسه، يعتقدون أنهم - بقصف غزة، ودغدغة مرسي، ودفعه لهذا الاستيلاء على السلطة - قد أعاقوا مسار الثورة المصرية والربيع العربي، فإنهم مخطئون. سوف يتغلّب المصريون، على هذه العقبة، وسيخرجون منها أكثر قوة. والأيديولوجيات المفلسة - من الميليشيا الإسلاموية لأيمن الظواهري، إلى الصهيونية العنيفة لبنيامين نتنياهو - لن تستفيد - على الإطلاق - من هذا الانتصار.

نُشرت، لأول مرة، على موقع الجزيرة، في عام ٢٠١٢

انتزاع الإسلام من أيدي الإسلاميين

في مقاله الجديد الرائع «ثورة مصر: كما كان يجب أن تكون، وكما يمكن أن تكون» الذي نُشر بمناسبة الذكرى الثانية لثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، يفكر الصحفي المخضرم هاني شكر الله، بمسار هذه الثورة. يرسم شكر الله - في ستار بلاغي، من سلسلة «ماذا لو» - مسار الثورة التي لم تكتمل، في مصر. وفي ممر رئيس، لهذا المقال الطويل، ولكنْ؛ المهم جداً، يكتب شكر الله:

> *في ظل ظروف مختلفة، إلى حد ما، وفي مستوى أعلى نسبياً، من الخبرة السياسية والتنظيم، كان يمكن تحويل ائتلاف شباب الثورة، من القيادة الميدانية خلف الكواليس، التي كانت عليها - إلى حد كبير - إلى تشكيل أساسي، من القيادات الثورية الوطنية القادرة على التحدّث علناً، وبوضوح، وبقوة، نيابة عنها، أن تجعل من نفسها في الواقع - إذا استخدمنا العبارة الشائعة - الممثّل الشرعي والوحيد، للثورة. نظرياً، كان لدى الائتلاف كل ما يلزم للقيام، بذلك. كان ائتلاف شباب الثورة الذي يتكوّن من المنظمات الشعبية، وليس من الأحزاب السياسية التي تستند إلى الإيديولوجية، والمفلسة، إلى حد كبير، والموروثة من عهد مبارك انعكاساً لجبهة ثورية واسعة، تشمل مجموعة كاملة، من الانتماءات السياسية والأيديولوجية، تتجاوز - على وجه الخصوص - الانقسام «العلماني - الإسلامي» الذي أصاب الفضاء السياسي الذي ظل يصغر، في البلاد، على مدى عقود عديدة.*

ستسجّل الثورة المصرية التي تمكّنت من مد هذا «الفضاء السياسي الذي ظل يصغر في البلاد، على مدى عقود عديدة» بشكل جذري، في التاريخ، بكونها المناسبة الأهم عندما أصبح المجال العام الموقع التحويلي الذي بدأ فيه المسلمون، بانتزاع الإسلام، من أيدي الإسلاميين، وإعادة امتلاك زمام دينهم، بما يقضي على تلك الفجوة الكاذبة والانقسام المزوّر.

في مناسبة سابقة، عندما كان الرئيس مرسي يتحرك للاستيلاء على السلطة، بشكل يتجاوز ثقة الناخبين المصرين به، كتبتُ عن ضرورة التغلّب على الثنائية الكاذبة للانقسام «العلماني - الإسلامي» التي كتب هاني شكر الله عنها أنها وقعت في مخاض زخم العملية الثورية. ويؤكد هاني شكر الله نظريتي، ويقول: مصر - اليوم - تقف، في مركز استعادة المسلمين، لإيمانهم الجماعي، واسترجاعه، من الولاة الكاذبين.

عند ربط تقارير شكر الله، من قلب الثورة المصرية، مع التوجّه النظري الرئيسي من كتابي «الربيع العربي: نهاية ما بعد الاستعمار» (٢٠١٢)، يتضح إطار أكبر من المرجعية، التي يسمّيها عالم الاجتماع المميّز آصف بيات باقتدار «ما بعد الإسلاموية»، والتي عمدت إلى توسيع مفهومها، وتسميته ب»ما بعد الإيديولوجية» - بمعنى المصفوفة التاريخية لإنتاج المعرفة، في مرحلة ما بعد الاستعمار، في السنوات المئتين الماضية. إنه في سياق الاستنفاد المعرفي لمرحلة ما بعد الاستعمار، للمتشددين الإسلاميين، كما عرفناه (في المحادثة النضالية مع اشتراكية العالم الثالث، والقومية المناهضة للاستعمار)، يجب فهم الأحداث المأساوية الحالية، في مصر، وبقية العالمَيْن العربي والإسلامي.

الإسلام المتشدّد

الإخوان المسلمون هم - اليوم - النظام الحاكم، في مصر بعد عقود من التراكم الإيديولوجي، والمعارضة السياسية. على الرغم من أن محمد مرسي انتُخب ديمقراطياً؛ ليكون الرئيس المصري، وعلى الرغم من أن

الدستور الحالي تمّ التصديق عليه ديمقراطياً من قِبل الأغلبية، ولكن المصريين - بشكل عام، مع ذلك - غير متقبّلين - تماماً - لفكرة حكم الإخوان المسلمين غير المتمرّسين سياسياً، والذين عفا عليهم الزمن أيديولوجياً لوطنهم. هذه - بالضبط - المفارقة التي تكشف لحظة الانفراج المعرفي.

المجموعة المعارضة لحكم الإخوان المسلمين لا تتكوّن من مسيحيين، أو يهود، أو كائنات فضائية: ولكنْ؛ إلى حدّ كبير، من المسلمين أيضاً. ولكن هؤلاء المصريين، الذين وُلدوا، ونشؤوا، في عائلات إسلامية، يحرقون - اليوم - مكاتب جماعة الإخوان المسلمين، ويرفعون لافتات، كُتب عليها «الشعب يريد إسقاط الإخوان».

كان الإخوان المسلمون حتى قبيل الثورة، منذ عامين فقط، يعتقدون أنهم هبة الله، للبشرية. ولكنّ مسلمين آخرين اليوم - أياً كانت انتماءاتهم السياسية - يقارنون مرسي، بمبارك، ويعدّون جماعة الإخوان المسلمين عائقاً أمام ثورتهم.

إن هذه اللحظة من الأزمة الأيديولوجية والأخلاقية والسياسية للإسلام السياسي، من نوع واحد، أو آخر، ليست حصرية، أو مخصّصة، لمصر. الأزمة منتشرة، على نطاق واسع، وتنمّ عن شيء أكثر عمقاً. صادر رجال الدين الشيعة المستبدّين في إيران - قبل أكثر من ثلاثين عاماً - ثورة متعدّدة الوجوه، ومعها الثقافة السياسية العالمية التي أطلقتها، ويحكمون - الآن، بعنف - بلداً شاسعاً ومعقّداً منذ فترة طويلة، تجاوز الأيديولوجية التي عفا عليها الزمن «للجمهورية الإسلامية» منذ زمن طويل. الأشخاص الذين يعارضون حكمهم، ليسوا من المريخ، أو مخلوقات، من كوكب آخر.

لا يأتي أخطر تحدّ لحكم رجال الدين المستبدّين، في إيران، من دعاة الملكية المنفيّين، أو من الإسلاميين المتشدّدين، على حدّ سواء، من نوع حركة مجاهدي خلق، أو من أيّ نوع آخر، من المعارضة المغتربة الفاقدة، للمصداقية. ولكنه ينبع - في الواقع - من ثوريين مسلمين آخرين - أشخاص

مثل مير حسين موسوي، ومهدي كروبي، أبو الفضل قادياني، ومصطفى تاج زاده، وجميعهم كانوا من بين الشخصيات المؤسّسة للجمهورية الإسلامية، ويرون - الآن - مُثُلهم وطموحاتهم قد تعرّضت، للخيانة، من قِبل النظام الحاكم الحالي.

وفوق جميع هذه الشخصيات الرفيعة الراحل آية الله منتظري (١٩٢٢-٢٠٠٩)، المنظّر لولاية الفقيه، الذي ذهب للقاء خالقه بعد أن أعلن أن الجمهورية الإسلامية التي ساعد في تأسيسها، لم تكن «إسلامية، ولم تكن جمهورية».

المسلمون - في مصر وإيران - يعترضون على حكم الإخوان، واستبداد رجال الدين القيّمين على الشريعة الإسلامية. الفكرة الأمريكية الهزلية للمحافظين الجدد التي تدعو بتحريك المسلمين «المعتدلين» لمواجهة المسلمين «المتشدّدين» هي مجرّد تمويه سخيف؛ ليخفي انفراجة معرفية أكثر خطورة.

مصر وإيران ليسا سوى غيض، من فيض. هناك شيء جذري تحوّلي يحدث في العالم الإسلامي. الولايات المتحدة وحلفاؤها في المنطقة مشغولون، في سورية، بمحاولة التحكّم عن بعد، بمختلف فصائل المعارضة، فيسمحون لنظام الأسد بذبح الجماعات الإسلامية المتشدّدة؛ بحيث تكون النتيجة أكثر ملائمة لواشنطن وتل أبيب.

ومهما كان الأمر، فإن الإسلامويين المتشدّدين الذين يرغبون في خطف التطلّعات الديمقراطية للشعب السوري غريبون عنهم، بشكل قاطع، كما هو واضح - اليوم، بجلاء - في شوارع وميادين مصر. أيّ جماعة إسلامية متشدّدة تعتقد أنها ستحكم سورية عندما يرحل الأسد، ستلاقي نفس النوع، من المقاومة، في دمشق وحلب التي تواجهها جماعة الإخوان المسلمين، في القاهرة والإسكندرية. سيخسر الأسد عاجلاً، أم آجلاً، وكذلك مختلف

الإسلاميين المتشدّدين، والأوجب أن تخسر الإدارة الإمبراطورية للولايات المتحدة التي ترغب في التحكم - بدقّة - في دفّة الثورات العربية.

كان التشدّد الإسلامي نتاجاً مشتركاً، لرضوخ الاستعمارية الأوروبية للإمبريالية الأمريكية. المعركة بين المتشدّدين الإسلاميين وعدوّهم الإمبريالي اللدود، ليس له أي علاقة بتسونامي الثورات، في جميع أنحاء العالمَيْن العربي والإسلامي. إنهم مختلفون - تماماً - عن بعضهم البعض. الاستعماريون الفرنسيون الجدد يقاتلون ميليشيا الإسلاميين، في مالي؛ لتأمين حصولهم على الذهب واليورانيوم والفوسفات، وغيرها، من المعادن. ما علاقة ذلك بمعيشة ١٤ مليون إنسان، وأكثر، ٩٠ في المئة منهم، من المسلمين؟ لا شيء.

ظهر في مالي نوع جديد من المغامرين المسلّحين الذين عفا عليهم الزمن، ممّن يفتعلون الفوضى، ويسمحون للفرنسيين، بممارسة حيلة مثالية، للتأكيد على مطالبهم الاستعمارية، في منطقة هامة، من أفريقيا. وكما يتضح من عبثهم المماثل في حقوق الإنسان، أنصار الدين، النظام الحاكم في مالي، ومسانديهم الفرنسيين يستخدمون بعضهم البعض، كذريعة لإضفاء الشرعية، على العنف الخاص به. مجموع الماليين الصامتين الذين يبلغون ١٤ مليون نسمة، وأكثر، ينتزعون - بهدوء - ثقتهم الجماعية، في أنصار الدين والفرنسيين، على حدّ سواء.

جيل جديد من المقاومة

أدت الإسلاموفوبيا المنتشرة في أوروبا والولايات المتحدة إلى ظهور جيل جديد، من المقاومة، من قِبل المسلمين - المهاجرين، أو الذين وُلدوا، ونشؤوا، في أوطانهم الجديدة - الذين لن ترهبهم العنصرية الحقيرة، من أشخاص مثل ميشيل باكمان، باميلا غيلر، أو خيرت فيلدرز، والذين يردّون بواسطة العقل والتعقّل والإبداع الرائع - على سبيل المثال، الاسترجاع القاطع لمفهوم الجهاد لتأكيد هويتهم، في بيئة معادية ومفزعة دون هوادة.

من قلب العالمَيْن العربي والإسلامي إلى أوروبا والولايات المتحدة، دخل المسلمون لحظة تاريخية عالمية، عندما فشل الاستبداد الداخلي، والمتشدّدون الإسلاميون المبتذلون، والحلقة المفرغة، للإسلاموفوبيا، والغطرسة الإمبريالية العنصرية، مَن منعهم من إعادة النظر في إيمانهم الجماعي، وإعادة تأكيد هويتهم الجماعية، في عالم مختلف - تماماً - عن ذلك الذي تركه لهم آباؤهم.

لن يكون من قبيل المبالغة أن نشير إلى أن المسلمين - في جميع أنحاء العالم - يشاركون - بصورة جماعية - في مسعى عالمي واسع النطاق لاستعادة دينهم، لاسترجاعه، من الأنظمة الحاكمة، من المصابين، بالإسلاموفوبيا والإسلاميين، على حدّ سواء، ومن المرتزقة المسلّحين الذين سرقوا حرياتهم، وشوّهوا إيمانهم المقدّس، وعلى طول الطريق، من مالي، إلى أفغانستان.

المسلم العادي الذي يعيش في شمال أفريقيا، أو في غربي آسيا، أو في أوروبا، أو في الولايات المتحدة، لا يمتلك أيّ قواسم مشتركة - على الإطلاق - مع عصابات المغامرين المسلّحين الذين يشاركون في معركة حامية مع الإمبريالية الأوروبية، أو الأمريكية. كما أنهم لن يقفوا مكتوفي الأيدي، ويسمحوا للإسلاموفوبيين الأوروبيين والأمريكيين العنصريين، بتعريف إيمانهم، بالنيابة عنهم. الإسلاموفوبيون يتطابقون في تعصّبهم الأعمى مع هؤلاء المتشدّدين الذين يكرهونهم، ويُشبهونهم، في الوقت نفسه.

الإسلام الذي تُظهره الأنظمة الحاكمة في إيران ومصر هو الإسلام الذي أتى في سياق نضال المسلمين ضد الاستعمار، وهكذا إسلام السلفيين، والوهابيين، والإخوان المسلمين، وكذلك إسلام البلطجية المنتشر من مالي إلى أفغانستان، كما وضعته، وروته الولايات المتحدة وحلفاؤها. هذا الإسلام الذي عفا عليه الزمن أيديولوجياً، والمهزوم سياسياً، والبعيد عاطفياً - تماماً - عن الاتصال مع أدلة واقعية، من الملايين، من المسلمين الذين يعيشون، في جميع أنحاء العالم.

كل من النظام الحاكم في إيران والإخوان المسلمين في مصر وغيرهما بعيدون كل البعد، عن الواقع؛ حيث خلفهم تاريخ ما بعد الاستعمار الذي لم يعد لديه أيّ استخدام، أو أي مكان لهم. قد يستمرون، بإيهام أنفسهم، بأنهم الحاكمون لشعوبهم، ولكنهم ليسوا كذلك، كما اتضح في شوارع طهران قبل ثلاث سنوات، وفي القاهرة اليوم.

تعرض أحمدي نجاد - في زيارته الأخيرة لمصر - لضغوط من قِبل رجل دين سنّيّ، في الأزهر، بشأن النمو المفترض للطائفة الشيعية. ليس هناك أي شيء أكثر غرابة عن كل من المصريين والإيرانيين وتطلّعاتهم الديمقراطية، من هذه الطائفية السخيفة البائدة.

تسبّب مزيج من التدخّل الإمبريالي التقسيمي والمتشدّدين الإسلامويين الذين نتجوا عنه، بخلق دائرة فظيعة من العنف الطائفي، والعداء في العالم الإسلامي. يتعرّض الشيعة، للذبح، في باكستان. ويُحرم الناس، في البحرين وفي المملكة العربية السعودية، من حقوقهم المدنية، لمجرد أنهم شيعة.

هناك رجال دين رفيعو المستوى في مصر، يرفضون التطلعات الديموقراطية للبحرينيين، فقط؛ لأنهم شيعة. وفي الوقت نفسه، ولّدت السياسات الانقسامية للولايات المتحدة والتدخّل المتواطئ للجمهورية الإسلامية في العراق استياء واسع النطاق ضد الشيعة، لدى جزء من السّنّة، بينما في سورية، تُنسب فظائع النظام الحاكم إلى العلويين.

تُعدّ هذه الأعمال العدائية الطائفية - بشكل قاطع - منتجاً ثانوياً، للمواجهات العنيفة بين النزعة العسكرية الإمبريالية، من جهة، والمتشدّدين الإسلاميين، من جهة أخرى. مثل اثنين من الكائنات الطفيلية التي تتغذّى، على جسم سليم، إلا منهما، وتدعم، وتشجّع بعضها البعض.

يقول ياسين جابر حول الاضطرابات الحالية في مصر: «*وراء هذه التصريحات الإعلامية والدعوات إلى الحوار، تتضح الهوة الأيديولوجية، في كل سطر، من خطاب كل جانب. الجانبان كلاهما*

يتحدثان عن مصر مختلفة، عن مصر أخرى، ويعتقدان - بالتالي - أنهما يستجيبان، بفعالية، لمشاعر العامة».

إنه محقّ، بالطبع، إلا أنه لا يوجد أمّتان مختلفتان، بل مصر واحدة فقط، تسعى - بشدة - في منتصف هذا الجدل التاريخي، إلى ولادة نفسها، من جديد، متجاوزة تلك الفجوة بين «المتديّنين - العلمانيين» و«الإسلاميين - العلمانيين»؛ حيث ينتزع المسلمون إسلامهم، من الإسلاميين، ويسمحون له بتنفّس الهواء النقي، من العالم، بأسره.

بعد إنقاذه من الإسلاميين - وسياساتهم الانتصارية وفقههم الشمولي، على حد سواء - سوف يستأنف الإسلام - بالطبع - مساره المتنوّع المتمثّل في محادثته الإبداعية والنقدية مع العالم، وسيصبح - بالتالي - ما كان عليه - دائماً - بالنسبة للمسلمين: جزءاً، لا يُجتزأ، من الثقافات العالمية التوسعية، ولكنْ؛ ليس الجزء المعرّف لها.

نُشرت، لأول مرة، على موقع الجزيرة، في فبراير ٢٠١٣

العرب وأحذيتهم الطائرة

بدأ كل شيء مع رمي عراقي لحذائه، على جورج دبليو بوش. قال منتظر الزيدي عندما ألقى حذاءه على الرئيس الامريكي في ١٤ ديسمبر ٢٠٠٨، خلال مؤتمر صحفي في بغداد: «*هـذه قبلة الوداع، من الشـعب العراقي، يـا كلـب*». نجح بوش بتفادي الحذاءين كليهما.

هناك استعارات مختلطة مثيرة للاهتمام هنا: لماذا يريد شخص أن يتفادى قبلة الوداع، من الشعب العراقي الذي حرّره، للتوّ؟ وما هو الخطأ، بكونه كلباً؟ قد يتساءل البعض.

ثم تكرر الفعل في القاهرة في فبراير شباط ٢٠١٢ - ولكنْ؛ هذه المرة، مع سوري، رمى حذاءه، على محمود أحمدي نجاد. ونقلت صحيفة نيويورك تايمز: «زيارة محمود أحمدي نجاد، إلى القاهرة، والتي بدأت مع ترحيب ودود يوم الثلاثاء من الرئيس الإسلامي المصري الجديد، وتحوّلت إلى زيارة أقل متعة، في آخر اليوم. أولاً، أحمدي نجاد، الرئيس الإيراني، تلقّى خطبة، من رجل دين مسلم سنّيّ بارز، ثم أوشك على تلقّي ضربة، من حذاء رجل غاضب، من دعم إيران، للحكومة السورية».

في هاتين المناسبتين كلتيهما، كان يقوم عمل أجيال من الباحثين الأنثروبولوجيين حول العالمَيْن العربي والإسلامي - من جهة العقليات والطبائع - من أجل إطلاع الرأي العام الأمريكي والأوروبي. ما الذي كان عليهم أن يفعلوا؛ ليقوموا، بشرح تصرّف، في مثل غرابة رمي الأحذية على الناس؟

نقرأ في خبر في قناة إيه بي سي نيوز عن المصريين الذي يحتجّون

ضد الرئيس أحمدي نجاد، في مصر، ما يلي: *«إنـــه تقليد مهين، في الشرق الأوســـط أن يقـــوم أحدهـــم بـــضرب شـــخص، بنعـــل حذائـــه، والـــذي يعدّ قـــذراً»*. يفسّر علماء الأنثروبولوجيا للبشر «تقاليد» الشعوب الأخرى، وتحديد ماهيتها، وشرحها، لشعوبهم الحديثة، للغاية.

«في العالـــم العربـــي، إظهـــار نعـــل حذائـــك لشـــخص مـــا، علامـــة، عـــلى عـــدم الاحـــترام البالـــغ، أمـــا رميـــه بهـــذا الحـــذاء؛ فهـــو أســـوأ، مـــن ذلـــك». هذه المبالغة منقولة، من تقرير إخباري آخر، يأخذ على عاتقه مهمة تعريف غير العرب، وبشكل جيد، بالمعاني والفروق الدقيقة لمثل هذه الحوادث، من رشق الأحذية.

الأصل الأكثر حداثة لمثل هذه التفسيرات الأنثروبولوجية يعود إلى حادث بوش، عندما أبلغت بي بي سي قرّاء موقعها، على شبكة الإنترنت، في المملكة المتحدة، وحول العالم: *«يُعـــدّ مـــن الوقاحـــة – في الثقافـــة العربيـــة – حتـــى إظهـــار فـــردة الحـــذاء لأي شـــخص آخـــر»*، وعلى سبيل المزيد من التوضيح الإثنولوجي، تضيف بي بي سي: *«وترتبـــط الحساســـية، بحقيقـــة اعتبـــار الأحذيـــة نجســـة وفقـــاً للشـــعائر، في العقيـــدة الإســـلامية»*. الآن؛ أصبح الأمر مفهوماً أكثر، فإذا رغب قرّاء موقع بي بي سي، بتثبيت الأمر، في أذهانهم تحسّباً لزياراتهم المستقبلية للعالم الإسلامي، تنصحهم قائلة إنه: *«يجـــب تـــرك الأحذيـــة عنـــد باب المسـجد، أو يتـــمّ حملهـــا (ويفضّـــل، باليـــد اليـــسرى، مـــع ضـــمّ نعـــلي الحذاءيـــن، في مواجهـــة بعضهمـــا البعـــض)»*.

يعود مصدر هذه الأفكار الحسّاسة، في الثقافَتين العربية والإسلامية، لغير العرب، والذين من خارج منطقة الشرق الأوسط، والذين يحتاجون، إلى هذا النوع، من التلميحات لفهم الأحداث التاريخية في العالم «في ذلك الجزء من العالم»، إلى عمل أجيال، من علماء الأنثروبولوجيا المتخصّصين الشجعان والمتبصّرين، في أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية؛ بدءاً من برونيسلاف مالينوفسكي (١٨٨٤-١٩٤٢) وصولاً إلى أصغر جيل

من طلاب الدراسات العليا الذين يجري تدريبهم، في أرفع جامعات رابطة اللبلاب، وغيرها من مؤسسات الفنون الحرة. كيف كان الأوروبيون والأميركيون المعاصرون سيستطيعون أن يعرفوا ما الذي يمكن أن يفعلوه مع أفعالٍ، في مثل غرابة رمي الأحذية، لولا تلك الأفكار الأنثروبولوجية المتبصّرة؟

ليس من قبيل الصدفة أن الجيش الأمريكي كان يحرص على توظيف علماء الأنثروبولوجيا، لمساعدته، على حكم أفغانستان والعراق، بشكل أفضل. وتقول تقارير بي بي سي عن الجيش الأمريكي إنه «يرسل (المركبات المدرعة والمضادة للألغام)، إلى ساحة المعركة، كما يستخدم أحدث التقنيات البيومترية، لتحديد المتمردين. ولكنْ؛ ليس هذا كل شيء. فقد وضع الجيش الأمريكي برنامجاً جديداً، يُعرف باسم برنامج التضاريس البشرية (HTS) لدراسة الفئات الاجتماعية، في العراق وأفغانستان. ويعتمد نظام HTS - بشكل كبير - على تعاون علماء الأنثروبولوجيا، وخبراتهم، في دراسة البشر ومجتمعاتهم»، ويمكن أن يضيف المرء - هنا - عاداتهم في رمي الأحذية.

يتطلع برنامج التضاريس البشرية، بطبيعة الحال، لعالم الأنثروبولوجيا الثقافي والمميز - رجل يُدعى رافائيل باتاي، الذي درَّس - في الواقع - في جامعتي، في نيويورك، من بين العديد من المراكز الإسرائيلية والأميركية الأخرى للتعليم العالي، كما كتب كتاباً شهيراً، بعنوان «العقل العربي» (نُشر لأول مرة عام ١٩٧٣، وتم تنقيحه وتحديثه، في عام ١٩٨٣، ومرة أخرى في عام ٢٠٠٧)، والذي سرعان ما أصبح الدليل الأكثر ثقة، للجيش الأمريكي بعد الغزو الذي قادته الولايات المتحدة، للعراق، لمساعدة الجيش الأمريكي، على فهم العراق والعراقيين، لتحسين سلوكياتهم. كما اكتشف بريان ويتاكر من صحيفة الغارديان.

وفقاً لأحد الأساتذة في الكلية العسكرية الأمريكية، يُعدّ كتاب «العقل

العربي» - على الأرجح - *«الكتاب الأكثر شعبية وانتشاراً وقراءة، على نطاق واسع، عن العرب، في الجيش الأمريكي»*. بل يتم استخدامه حتى ككتاب تعليمي، للضباط، في كلية جون اف. كينيدي الحربية الخاصة، في فورت براغ.

لولا وجود هذه التحفة، من الأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكية، فلن يتمكّن الجيش الأمريكي، من معرفة أننا - في العالمَيْن العربي والإسلامي - كسولون، بالوراثة، ومهووسون، بالجنس، ولنا ما لا يقلّ عن أربع زوجات، بالإضافة إلى الكثير من المحظيات. استخدم الجيش الأمريكي هذا الاكتشاف الثقافي المتعمّق - لاحقاً - في سجن أبو غريب، لتعزيز أساليب الاستجواب المعزّزة، بالفعل. لن تكون «جائزة فرانز بواس للخدمة النموذجية للأنثروبولوجيا» كافية - بأي حال من الأحوال - لتقدير أهمية تلك الخدمات الأنثروبولوجية. استغرق الأمر عملاً فنياً عظيماً مثل فيلم كاثرين بيغلو «زيرو دارك ثيرتي»؛ ليعرض لشريحة كبيرة، من الجمهور الخدمات القيمة التي يمكن أن تقدّمها هذه التقنيات، لحماية أرواح الأمريكيين.

رفع أحذية العالم من خلال التدخلات الإنسانية

هذا النوع من الأفكار الأنثروبولوجية المتعمقة ضرورية، للغاية، بطبيعة الحال، ليس - فقط - لتسهيل التدخّلات الإنسانية العسكرية للولايات المتحدة الأمريكية، في جميع أنحاء العالم، والبلاد الغربية، في أغلب الأحيان، ولكنْ؛ أيضاً، للتفسير العملي الصحفي في الداخل: بالنسبة لأمريكي عادي، في نيويورك، أو شيكاغو، أو واشنطن العاصمة، أو سان فرانسيسكو، فإن جميع هذه الأفعال من رمي الأحذية لإهانة الناس غريب تماماً، لأنه، في نيويورك، على سبيل المثال، فإن رمي حذاءك، على شخص ما، علامة سامية، على الاحترام والإعجاب. ويعد إيقاف الأصدقاء أو الغرباء في منتصف الشارع، وإظهار نعل حذائك، أو الأفضل قذفهم، بالحذاء، على أن يتصدر النعل المشهد، قد يجعلهم يريدون تقبيلك

وعناقك، لإظهار سعادتهم، بلطفك، وتعبيرك القوي عن الألفة والصداقة الحميمة والتضامن.

الآن يمكننا أن نفهم لماذا كان الراحل إدوارد سعيد يصرّ على أن الناس في الشرق الأوسط ينبغي أن يشرعوا بتأسيس أقسام أكاديمية للدراسات أمريكية: حتى يتعرف العرب والمسلمون كيف يختلف تصوّرهم، للأحذية، بشكل كبير، عن تصور الأميركيين والكنديين والإسرائيليين، أو حتى البريطانيين. نعرف في إسرائيل - على وجه الخصوص - مصمّمي الأحذية الكبار مثل تمار شاليم، ونوا لوريا، وذلك لأن «*الحياة في إسرائيل مجهدة، فيجب أن تكون الملابس والأحذية مريحة وسهلة وعملية*».

هنا في نيويورك؛ حيث الحياة، لا تقل «إجهاداً» لا تقتصر الأهمية الرمزية لرمي الأحذية، على الاحترام والإعجاب. فكم من علاقات حب وعلاقات رومانسية سعيدة بدأت برمية بسيطة أنيقة، وفي الوقت المناسب، لحذاء رياضي كريه الرائحة، في وجه مَن تحبّه، وتفتتن به. ولهذا السبب، قام بعض رجال الأعمال المغامرين بصنع أحذية من الشوكولاتة اللذيذة - حتى إنه بمجرد أن تُلقى تجاهك، لا تستطيع مقاومة تذوّق تلك اللفتة الرومانسية، والاستمتاع بها.

أحد أصعب المهام التي تواجهنا نحن المتحدّرين من أصول شرقية عندما نعيش هنا في أمريكا الشمالية، هي هذه الحاجة الملحة؛ لنشرح لأصدقائنا وزملائنا سبب كره أهلنا في «أوطاننا» لأحذيتهم، حتى إنهم يقذفونها، على أعدائهم، بينما نلاحظ - على الفور، هنا، في أمريكا الشمالية - أن الحقيقة الأنثروبولوجية على العكس تماماً: حيث يعشق الناس أحذيتهم، فيصبح قذفها على أحدهم علامة على المودة، أو المغازلة حتى، اعتماداً على الموسم من العام، والمنطقة من الولايات المتحدة التي يجرّب فيها هذا الطقس، و/ أو سنّ وجنس راشق الحذاء.

في بعض الحالات القصوى، تتطور علاقة الحب بين الأمريكيين

وأحذيتهم، إلى حد الهوس، كما يمكننا أن نرى في إحدى الحلقات المؤثرة للغاية من مسلسل «الجنس والمدينة» - حلقة «الألم الجميلLa Douleur Exquise» - حيث تلتقي شارلوت بباستر بائع الأحذية الذي يستمر في تقديم التخفيضات خصيصاً لها، لسعادته، بمشاهدتها، ترتدي الأحذية.

تحتاج هذه الملاحظات المشوّقة إلى الدعم بالكثير من «العمل الميداني» الأكثر جدية، من النوع الذي يعرف الأنثروبولوجيون الثقافيون فقط كيفية إجرائه. قد توفر الجامعات في الأردن ومصر وتونس، أو حتى تركيا لبعض طلابها «منح للسفر» لزيارة صيفية قصيرة إلى نيويورك، لإجراء هذا العمل الميداني. قام علماء الأنثروبولوجيا المدرّبون في الولايات المتحدة، بأعمالٍ استثنائية، في دراسة المرأة الإيرانية، أو العراقية، وملابسها، و(قد اتبعوا هذا الأسلوب الخاص نقلاً عن عميدهم رافائيل باتاي) حتى عاداتها الجنسية. وقد نُشرت كتبهم - لاحقاً - في مطابع الجامعات الكبرى، وحصلوا على تأييد سخي، من أساتذتهم السابقين. كما حصلت بعض هذه المنشورات على ردود فعل إيجابية، للغاية، من المجلات الأنثروبولوجية.

أفكر - هنا، بشكل خاص - بتلك التحفة الرائعة لهذا النوع من الأنثروبولوجيا، كتاب بعنوان «الانتفاضات العاطفية: الثورة الجنسية الإيرانية» عن حفلات العربدة الجنسية التي كانت الإيرانيات تنخرطن فيها قبل ظهور الحركة الخضراء، كطريقة من طرق الاحتجاج السياسي الجماعي. أما بالنسبة لبرنارد لويس؛ فإنه، وإن لم يكن عالم أنثروبولوجيا مدرّباً، فإنه علّق من وجهة نظره كمؤرخ بارز على الإحباط الجنسي للعرب وصعود الربيع العربي.

ويشير برنارد لويس - بخصوص صعود الثورات العربية التي نُطلق عليها اسم الربيع العربي - قائلاً:

«وهناك جانب آخر، وهو الجانب الجنسي».

علينا أن نتذكر أن ممارسة الجنس العرضية، على

النمط الغربي، لا وجود لها، في العالم الإسلامي. وإذا كان الشابّ يريد ممارسة الجنس، فلا يوجد سوى خيارين - الزواج، أو بيوت الدعارة. لديك هذه الأعداد الهائلة من الشباب الذي نشأ، برغباتٍ جنسية مستعرة، ولكنْ؛ دون المال الكافي، للذهاب، إلى بيوت الدعارة، أو لدفع مهر العروس. قد يؤدي هذا - من جهة - إلى الانتحاري الذي تجذبه عذارى الجنة - وهنّ النساء الوحيدات المتاحات له. أو من جهة أخرى، إلى الإحباط البحت.

يقرأ المرء هذه الأفكار المذهلة، ويتساءل: لماذا ليس لدينا دراسات وأفكار رائدة حول الشبّان والشابّات والجنس، في حركة «احتلوا وول ستريت»، أو أزمة منطقة اليورو؟ الناس - في الشرق الأوسط والعالم العربي - لا يعرفون أي شيء، عن معنى رمي زوج من الأحذية الرياضية ذات الرائحة الكريهة هنا في نيويورك، ناهيك عن الفروق الدقيقة التي تُعدّ جزءاً، لا يُجتزأ، من كل حلقة، من حلقات مسلسل «الجنس والمدينة». ينبغي على علماء الأنثروبولوجيا الثقافية القيام بالعديد من الأبحاث المفصلة، في هذا الصدد. كما يجب نقل واحدة، من تلك الدراسات الأنثروبولوجية الرائعة، عن المسلسلات المصرية، على سبيل المثال، وتطبيقها، في مدينة نيويورك أيضاً.

وأنا مقتنع - أيضاً - أنه - كما يذهب بعض طلاب الدراسات العليا الأنثروبولوجيين الذين يعملون - اليوم - على نيل درجات الدكتوراه، لدينا هنا في الولايات المتحدة، ولكنهم قد وُلدوا، وترعرعوا، في المنطقة، إلى بلادهم مرة أخرى، في زيارة صيفية، لأبناء عمومتهم وعماتهم، ثم يعودون منها بفكرة أطروحة دكتوراه رائعة، فإننا بحاجة إلى طلاب جامعيين من العالمَيْن العربي والإسلامي، يأتون إلى هنا، لأمريكا الشمالية؛ ليدرسوا نمط الحياة الأمريكية، وكتابة رسائل الدكتوراه، عن الثقافة الأمريكية، فيما يختص، بالأحذية، وغيرها من الأشياء (الأحذية الطويلة، والجوارب،

والملابس الداخلية، والجينز، والقمصان، والعلكة، والقهوة المثلجة، وما إلى ذلك)، ثم العودة لكتابة أطروحاتهم، والدفاع عنها، ونشرها، في مطابع الجامعة، في القاهرة، أو طهران، والمضي قدماً؛ ليصبحوا أساتذة دائمين لمادة الدراسات الأمريكية. أراهن أن هذه الأطروحات المنشورة قد تقلّل - إلى حد كبير - تلك الدرجة الهائلة، من سوء الفهم الثقافي الذي يسبّب الكثير من الارتباك، وحتى الحروب بين الشعوب المختلفة.

يحمل هذا المجال من البحث - اليوم - أهمية خاصة، بالنسبة لعلماء الأنثروبولوجيا الشباب، من جميع البلدان غير الغربية؛ لأننا علمنا، للتو - وفقاً لتقرير بي بي سي - أن «المفوّض التجاري الأوروبي بيتر ماندلسون يقول إن الصين وفيتنام تُغرقان الاتحاد الأوروبي، بالأحذية»، نعم «تغرقان» - هل يمكنك تصوّر هذا؟ أيّ سلوك هذا؟ قد لا نبالغ إذا فكرنا بحجم احتمالات الدراسات الأنثروبولوجية المقارنة التي يمكن أن تدرس هذه العادات الصينية والفيتنامية والبرازيلية، كما هو واضح. ويمكن لهذا أن يحدث ثورة، بكل معنى الكلمة، في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية. ومن الواضح أن هناك الكثير من المنح الحكومية، وإمكانية التسويق المربح، في هذا المجال الناشئ.

أحياناً الحذاء هو مجرد حذاء - أليس كذلك، يا سيدي؟!

أعتقد أن هذه الإثنولوجيا التي تعمل على الثقافة الأمريكية أو الأوروبية، من رمي الأحذية والرومانسيات ذات صلة ضرورية جداً؛ لأنها عرضة لسوء التفسير، وخاصة من قِبل الناس الذين لديهم مفهوم مختلف جذرياً عن فكرة قذف الأحذية. قال فرويد مقولته الشهيرة بأن السيجار - أحياناً - هو مجرد سيجار - ولكن ذلك لا يصحّ، في الولايات المتحدة، وبالتأكيد، ليس - هنا - في نيويورك؛ حيث للحذاء أهمية رمزية محمّلة، تحمل أعمق علامات المودة والاحترام والتضامن. هنا في أمريكا الشمالية، ضَرْبُ

شخص ما، بحذائك القذر ذي الرائحة الكريهة، أو الإسراع، بإظهار نعل حذائك القذر علامة سامية، من الاحترام والإعجاب. هذا هو الحال هنا في نيويورك؛ حيث ينزّه الناس كلابهم، على أرصفة مغطّاة، بفضلات الحيوانات، التي تلتصق - لا محالة - في نعال أحذية الناس، فتمنحهم فرصة مثالية لإقناع الأصدقاء والأسر والشركاء الرومانسيين المحتملين كم يحبّونهم، ويعشقونهم.

لا يقف العرب وحدهم كمصدر ارتباك الغرب، بشأن أحذيتهم، بل الفُرس أيضاً. تهافت الأرستقراطيون الأوروبيون - لأول مرة - على الكعب العالي، بسبب تعلقهم بسحر الأشياء الفارسية. يبدو أن فرسان الدولة الصفوية، في القرن السادس عشر، كانوا يرتدون أحذية، بكعوب عالية، لامتطاء صهوة الحصان، بشكل أفضل. وبمجرد زيارتهم أوروبا، قلّدهم رجال الطبقة الأرستقراطية، في أوروبا، وبدؤوا، بلبس الكعب العالي. ولم تلبث النساء - في الموجة الثانية - أن هُرعن لتقليد الأرستقراطيين الأوروبيين، ولبس الكعب العالي. وتقول هيلين بيرسون، أمينة متحف فيكتوريا وألبرت في لندن، وفقاً لمقال للبي بي سي: *«تبدأ في رؤية تغيير في كعب الحذاء، في تلك المرحلة، بدأ الرجال، بارتداء أحذية، بكعوب، تميل إلى شكل المربع، أكثر قوة، أقل ارتفاعاً، وأكثر ثباتاً، في حين أصبحت كعوب الأحذية النسائية أكثر نحولاً، وأكثر انحناء»*.

ويُعدّ هذا أحد الأمثلة الممتازة لكيفية قيام العرب والفُرس (ناهيك عن البرازيليين والصينيين والفيتناميين)، بالإرباك، ونشر البلبلة، والتسبّب، بالإزعاج، من خلال خلاياهم النائمة، من مصمّمي الأحذية الذين يهدّدون أمن الوطن.

في كل مرة، لا بد أن أخلع حذائي، في المطار - هنا - في أمريكا الشمالية، أو أوروبا الغربية، ولقد لاحظت كيف ينظر الأمريكيون والأوروبيون - بمحبة - إلى أحذية بعضهم البعض، ويتبادلون النظرات الطويلة والمليئة بالشوق بناء على احتمال المشاركة العميقة لفردات أحذيتهم مع صديق، أو زميل. لست

أنثروبولوجياً خبيراً، للأسف، ولكنْ؛ بإمكاني أن أتصور ما الذي قد تفعله مجموعة من علماء الأنثروبولوجيا، من العرب والإيرانيين والهنود والصينيين والبرازيليين والفيتناميين، في مشهد من هذا القبيل؛ حيث سيصبحون مراقبين مشاركين، ويبدؤون، في قذف وتشارك ومناورة الأحذية، في مطار جون إف. كينيدي. وقد يقوم عالم مغامر، في الأنثروبولوجيا البصرية، بتصوير فيلم وثائقي، عن الحادث؛ ليكون عرضه الأول، في مهرجان تريبيكا، أو ساندانس، أو مهرجان برلين السينمائي.

ولكن أولئك لم يقوموا بذلك بعد، وأعدّ هذا - في حد ذاته - المسؤول الرئيس، عن ظهور «صاحب الحذاء المفخّخ»، ريتشارد ريد، الذي كان يخلط مجازاته عندما كان يعبّئ حذاءه؛ ليس، بالشوكولاتة، أو ببتلات الورد، بكل تأكيد، كما كان يجب أن يفعل وفقاً للأسلوب البريطاني والأمريكي، بل بالمتفجّرات، على غرار تنظيم القاعدة، راغباً في تفجير نفسه، وتفجير جميع مَن حوله، إلى قطع صغيرة. لحسن الحظ، لم يفعل ذلك، ولكنه لم يتمكّن من خلق تقليد غريب، لعربدة الأحذية التشاركية، في المطارات، في جميع أنحاء العالم. وكما وصفت البي بي سي ريتشارد ريد الذي أصبح يُطلق عليه اسم «صاحب الحذاء المفخّخ»: *«ابن لأمّ إنجليزية، وأب جامايكي، ... وُلد في عام ١٩٧٣ في ضاحية برومـلي اللندنية»*. ولو كان قد تلقّى تعليماً جيداً، في بروملي من قِبل علماء الأنثروبولوجيا البريطانيين حول الاختلافات الثقافية للمسلمين، عن الثقافة اليهودية المسيحية، لم يكن مثل هذا التشويش سيحدث، في عقل هذا الصبي البريطاني اللطيف.

مفجّر مغامر آخر، يستخدم - على ما يبدو - المنطقة المجاورة، لملابسه الداخلية، في محاولة لتهريب بعض المتفجّرات، ولكنْ؛ على حدّ علمي، لم يقدم أيّ عالم أنثروبولوجيا - حتى الآن - أيّ فكرة، أو أفكار متعمّقة، عن المعنى الإسلامي، للسراويل الداخلية. ولعل هذا الأمر حسّاس، للغاية.

كل ما يمكنني القيام به - في انتظار ثورة واعدة، في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية، وانطلاقاً من روح الزمالة - أن أعترف - هنا علناً - أنني قد راودتني نفسي - مراراً وتكراراً - لرمي حذائي، على رئيس جامعتي، لي بولينجر، ولكنْ؛ لم يكن لديّ ما يكفي من الشجاعة، للقيام بذلك. ليست لديّ أدنى فكرة، عن كيفية تفسيره لهذه اللفتة - التي تُعدّ في الثقافة العامة لسكان نيويورك كعلامة سامية، من الحب والاحترام والإعجاب، أو على اعتبار أصولي الشرقية، تقترب أكثر من روح منتظر الزيدي الذي ألقى حذائه على الرئيس بوش. المعضلة التي أعاني منها - في هذا الصدد - هي مثال رائع آخر، على الحاجة، إلى دراسة أنثروبولوجية واسعة النطاق، بهدف توضيح اللبس، وخلق ظروف أفضل، للحوار بين الحضارات، على الطريقة التي تصوّرها الرئيس الإيراني السابق محمد خاتمي.

لذا، وكما ترون، فإننا - نحن الشرقيين - قد ننتقل، إلى أمريكا الشمالية، ونعيش هنا، لعقود، ولكنْ؛ لا نزال منذ عقود، دون أن نتقن خصوصيات وعموميات ثقافة تشارك الأحذية، في وطننا الجديد. أحيل سمة العجز هذه - قطعاً - إلى فشل علماء الأنثروبولوجيا العرب والإيرانيين والأفريقيين والآسيويين والأمريكيين اللاتينيين، في دراسة أمريكا الشمالية، بالطريقة نفسها التي قد دَرَسَنَا بها علماءُ الأنثروبولوجيا الأمريكيون والأوروبيون، ونقلوا التقارير إلى جماهيرهم، بانتظام حول ثقافتنا الكسولة والبغيضة، في رمي الأحذية والأشياء المشابهة، لذلك، بينما نستعرض زوجاتنا الأربع والحرملك الخاص بنا الذي يغصّ، بالمحظيات.

نُشرت، لأول مرة، على موقع الجزيرة، في عام ٢٠١٣

هل بإمكان الثورات العربية أن تفلت من سورية ومصر؟

يبدو أن موجة الانتفاضات المفعمة بالأمل التي بدأت في تونس، قد فتحت الطريق، لليأس، والعنف.

وقد أدت المجزرة المستمرة في سورية، إلى ارتفاع عدد القتلى والمهجّرين، إلى أرقام مذهلة.

ونحن نحتفل ببدء العام الرابع من الثورات العربية، قد تجعلنا لمحة سريعة حول العالم العربي، ندرك فشل ما حدث في تلبية آمالنا الكبيرة، في بداية وقت تصاعد الأحداث التي برّرت مصطلح «الربيع العربي».

أثارت تضحية محمد البوعزيزي بنفسه في ١٧ ديسمبر ٢٠١٠، ثم وفاته في ٤ يناير ٢٠١١، والانتفاضة اللاحقة، في تونس التي أسفرت عن سقوط زين العابدين بن علي، في ١٤ كانون الثاني ٢٠١١، سلسلة من الانتفاضات، على طول الطريق، من عمان واليمن، إلى مصر وسورية والمغرب. اليوم، وبعد اضطرابات غير مسبوقة، دامت أكثر من ثلاث سنوات، فإن الأمور تبدو مختلفة: يبدو أن الربيع العربي قد أصبح شتاءً عربياً سابقاً لأوانه.

في مصر، أُطيح بالرئيس المنتخب ديمقراطياً، عن طريق انقلاب عسكري، وما يُعدّ أكثر إثارة للقلق هو أن نخبة المثقّفين المصريين الرئيسيين يهتفون مرحّبين بذلك من المقاعد الجانبية. وتستمر في تونس المظاهرات الحاشدة، للمطالبة، باستقالة الحكومة التي يقودها الإسلاميون. في ليبيا، دعا القطاعان العام والخاص، إلى إضراب عام، مطالبين الحكومة، بمواجهة الميليشيات المسلحة. وفي اليمن، يبدو أن الظل الغامض لتنظيم القاعدة يجهّز نفسه،

للعودة. في البحرين، يبدو أن جميع العلامات على مقاومة النظام الحاكم قد تم اقتلاعها، لدرجة أنه حتى معرضاً فنياً، يصور الانتفاضة، أصبح أمراً، لا يمكن تحمّله. ويتمّ قمع أيّ علامة، على الاحتجاج، في المملكة العربية السعودية، بوحشية، كما يبدو أن الإصلاح الدستوري المغربي أصبح وَهْماً، والعراق لا يزال يئنّ تحت ضربات العنف الطائفي، والكويت والأردن، في سبات عميق.

القضية السورية

وتتضاءل جميع هذه الأحداث، بالمقارنة مع المذبحة المستمرة، في سورية. الأرقام مذهلة، بالفعل. ووفقاً لمكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية، فإنه من بين عدد سكان سورية الذي يقدّر بـ ٢٢,٤ مليون نسمة، أكثر من ١٠٠,٠٠٠ شخص قد قُتلوا، ٩,٣ مليون شخص، في مساس الحاجة، للمساعدة داخل سورية، في حين أن ما يقارب ٦,٣ مليون شخص نزحوا داخلياً. بشكلٍ عام، فإن سورية - كدولة - قد تفكّكت، في حين لا يزال بشار الأسد يقف رابط الجأش تماماً، وبطريقة مثيرة، للاشمئزاز.

تبيّن نظرة سريعة على تكوين القوى الخارجية التي تحوِّل سورية - اليوم - إلى حرب، بالوكالة، بوضوح، أنها جميعاً لها الهدف المشترك نفسه: وضع حدّ لزخم الثورات العربية. لقد نجحوا في تحويل الخطاب بعيداً عن الإرادة الديمقراطية للشعب السوري، وتقزيمها، لمستوى الحرب الأهلية. إن تحويل رواية «الثورة» إلى «حرب أهلية» هو التهديد الأكثر خطورة الذي يواجه الثورات العربية اليوم.

الثورات تُزعزع الاستقرار. الولايات المتحدة - كمشروع إمبريالي، يمتلك موارد واسعة، وله مصالح استراتيجية، في العالم العربي - ليست سعيدة، بهذه الثورات التي تُزعزع استقرار المنطقة، وتهدّد حلفاءها، وقد تشجِّع خصومها. وقد تخسر إسرائيل ما هو أكثر بكثير، فلا بد لها من إفشال المدّ الثوري. اعتمدت إسرائيل - وعلى طول مدة مشروعها الاستعماري، وبشكل

كامل - على الحكام العرب الفاسدين مثل الذين أطاح بهم الثوّار العرب. تفضّل دولة الفصل العنصري طاغية مثل الأسد، على الحركات الديمقراطية الفوضوية التي تظهر اليوم مثل تلك الموجودة، في مصر وتونس.

المملكة العربية السعودية حليف قويّ للولايات المتحدة وإسرائيل، في هذه المعارضة، للانتفاضات. إنها كنظام ملكي رجعي لا يسمح بوجود أي مؤسسات ديمقراطية تزعج حكمها القبلي، تعارض - بطبيعة الحال - أيّ ثورة جماهيرية، تفضح ظلاميتها السياسية. إيران الرفيق الغريب، للمملكة العربية السعودية، في هذا المسعى. بعد ابتلاعهم ثقافة سياسية عالمية، إلى حد كبير، والقضاء على جميع منافسيهم الأيديولوجيين، في أعقاب الثورة الإيرانية عام ١٩٧٧-١٩٧٩، فإن ولاة الجمهورية الإسلامية ليسوا سعداء بتسونامي الثورات التي تعيد إلى الساحة العالمية ما يبذلون قصارى جهودهم لإخفائه، وقمعه. وصفوا هذه الثورات - في البداية - بأنها «الصحوة الإسلامية»، ولكنْ؛ عندما ثار المصريون ضد الإخوان المسلمين، تعلّموا الدرس، وسمحوا لمعتدل مثل حسن روحاني بأن يصبح رئيساً، وبدأ التفاوض على صفقة أفضل لمستقبلهم مع «الشيطان الأكبر».

هل تركيا التالية؟

نجحت «الدولة العميقة» بالتخفّي وراء الواجهة الديمقراطية، في تركيا، فلديها مهمة فريدة، في الحمض النووي السياسي: أن تكون لاعباً رئيساً، في المنطقة، وفقاً لمصالحها الخاصة. ولا تلتزم هذه المصالح، بأي مبادئ: تتعاون مع إسرائيل، وتنكر الإبادة الجماعية، للأرمن، وتقمع المطالب الكردية، في الحكم الذاتي، وتشارك - بشكل مباشر - في المشاريع العسكرية لحلف الناتو، في حوض البحر الأبيض المتوسط، وتسعى - في كل الإضرابات - للحصول، على منفعتها الآنية والبعيدة. يمكن أن يكون احتمال نجاح الثورات العربية نموذجاً، للثورة، يحتذيه الأتراك أيضاً، كما رأينا، في سياق انتفاضة «حديقة غيزي».

روسيا والصين، الحليفان الاستراتيجيان، في الانتهازية، بطرق مختلفة، ولكنها متكاملة؛ حيث تهتمّ إحداهما - في المقام الأول - بالحياة السياسية، وتهتمّ الأخرى، بالناحية الاقتصادية، بشكل واضح. إنهم ليسوا أنصار أيّ قضية ثورية. روسيا والصين مجرد مساومَين ومفاوضَين مع الولايات المتحدة، للحصول على حصة أكبر، من الكعكة التي يرونها، في كل صراع، وفي كل فوضى.

تونس في الذكرى الثالثة للانتفاضة

على الرغم من أن هؤلاء اللاعبين قد يبدون على خلاف مع بعضهم البعض، ولكنهم متّحدون - في الواقع - في فعل كل ما في وسعهم لتحويل مسار الثورات. حوّلت المصالح المشتركة لهذه القوى، وبنجاح الانتفاضة الديمقراطية الشعبية، في سورية، إلى حرب أهلية، أصبح فيها جانبان واضحان، يجب الفصل بينهما، والبتّ، في مصالح كل منهما.

وكما تساعد إيران وروسيا وحزب الله الأسدَ، فإن الولايات المتحدة وإسرائيل والمملكة العربية السعودية وغيرها من دول الخليج، تساعد، وتدعم جيشاً كاملاً من المقاتلين المرتزقة الذين يلوّحون بإحدى العلامات الإسلامية، أو بأخرى. إنهم جميعاً مرتزقة قطعاً. ولا ينبغي أن ينتقص من هذه الحقيقة نوع العلامات «الإسلامية» التي يلوّحون بها. يشكّل تمثيل المعركة بين السّنّة والشيعة ادعاء زائفاً تماماً. إنها معركة بين السعودية وإيران، إحداهما مدعومة من قِبل روسيا، وأخرى من قِبل الولايات المتحدة/ إسرائيل. معركة وهمية لتحويل الانتباه عن القضية الحقيقية: الثورات العربية.

من البداية، كان هناك نوعان من ردّ الفعل، على الثورات العربية: من جهة، كان هناك المعترضون غير الواثقين الذين كانوا يعتقدون أن الموضوع - برمته - حمّى عابرة، أو تمّ التلاعب به، و«خطفه» من قِبل الولايات المتحدة. و من جهة أخرى، هناك أولئك المتعلقون - بشدة

- بتلك الثورات، دون أن يغضّوا الطرف، عن الطريق العاصفة المقبلة، والذين يملكون الأمل، بكل حسم.

لم نرث عالم ما بعد الاستعمار لعام ٢٠١١ بين عشية وضحاها. استغرق الأمر كارثة مجتمعة، من الأنظمة الاستبدادية المحلية والإمبريالية الأوروبية، على مدة، تمتد نحو ٢٠٠ سنة، أو أكثر؛ لتضعنا؛ حيث كنا عندما أحرق البوعزيزي نفسه. لن يستغرق الأمر ٢٠٠ سنة أخرى لوضع الأمور، في نصابها الصحيح. ولن تُلملم القوى المعادية للثورة من واشنطن العاصمة، أو تل أبيب، أو الرياض، أو طهران، مصالحها، وتتبخّر في الهواء بين عشية وضحاها.

الاستثمار في الهياكل والمنظمات المدنية

وينبغي أن تكون المقاومة لهذه القوى الإقليمية والعالمية المعادية للثورة محلية - من صلب الشعب السوري نفسه، ومن رغبته السلمية، في الانتقال إلى الديمقراطية. وهذا - بالتالي - هو الوقت المناسب لتشكيل الجمعيات التطوّعية، والنقابات العمالية، ومنظمات حقوق المرأة، والاتحادات الطلابية.

في سورية، كما في أماكن أخرى، تجمّع المتوحّشون حول الأسد، والبلطجية المرتزقة من بين الذين يقاتلونه غير قادرين - قطعاً - على حكم مجتمع متحضّر. السوريون - جنباً إلى جنب - مع العرب والمسلمين الآخرين، ينبغي أن يكونوا مشغولين، بترجمة الإرادة الحضارية لانتفاضتهم الديمقراطية، إلى مؤسسات، تقاوم الطغيان - الآن؛ حيث أولئك الذين لا يعرفون أيّ لغة سوى لغة العنف مشغولون، بتدمير بعضهم البعض، وتشويه سمعة كل طرف لسمعة الطرف لآخر.

تُعدّ مسألة الأكراد - هنا - أمراً بالغ الأهمية أيضاً. يمتلك الأكراد السوريون - اليوم - فرصة تاريخية لتقديم نموذج للتغيير الديمقراطي، وإذا استطاعوا وضع حد لسوء معاملتهم من قِبل كل لاعب كبير وصغير، يحاول الاستفادة

من تطلعاتهم لكردستان موحّدة. واذا تخلّوا عن هذا الحلم، ووجّهوا تطلّعاتهم المشروعة إلى الإرادة الديمقراطية للشعب الكردي المنتشر - اليوم - في إيران وتركيا والعراق وسورية، فسيتمكّنون من أن يصبحوا الطرف الذي يغيّر موازين اللعبة.

لقد ثبطت الكارثة السورية من الثورات العربية، وما بعدها. يشير كل بلد - اليوم - من أفغانستان، إلى إيران والمغرب، إلى سورية، كمبرر، للرأي القائل بأن كل هذه الثورات كانت عبثاً، وأن الأنظمة الحاكمة وجميع أعمالها الوحشية أفضل من هذه المذبحة. هذه ثنائية وهمية. لم يكن الاختيار - أبداً - بين المذبحة التي نشهدها في سورية والنخبة الفاسدة والدول العميقة التي تحكم، من المغرب، إلى تركيا، ومن أفغانستان عبر إيران، إلى المملكة العربية السعودية. الخيار بين إرادة الشعب وانتفاضاته الثورية ومؤامرة قوى الثورة المضادة لوضع حدّ لهذه التطلّعات. ما تغيّر بين هاتين القوتين تغيّراً أبدياً هو حساب الإرادة الديمقراطية، للشعوب، بأكملها، ٤٢٢ مليون عربي و ١,٢ مليار مسلم. يمثل حساب التحرّر هذا زخماً كبيراً، من تاريخنا المعاصر - ولن يكون عكس ذلك.

الفصل الخامس
مواجهات ما بعد الاستعمار والآخر

التمرّد ينتشر ضد سياسة اليأس

يجتاح العالمان العربي والإسلامي التمرد ضد سياسة اليأس - تظهر علامات ذلك - بوضوح - من أفغانستان وإيران، إلى فلسطين، وبالشكل أكثر إثارة للإعجاب، في تونس. وكانت الاحتجاجات ضد زين العابدين بن علي، الدكتاتور التونسي، وأحد الحلفاء الرئيسيين للولايات المتحدة، في العالم العربي، قد حظيت، باهتمام قليل نسبياً، في الولايات المتحدة حتى انتهائها مع رحيله الدرامي المخزي.

يمكن للمرء أن يتصور فيما لو غادر محمود أحمدي نجاد، أو علي خامنئي الجمهورية الإسلامية، في رحلة ليلية، إلى بلد مجاور، كيف سيتم استقبال هذا الخبر، بفرحة عارمة، في عناوين وسائل الإعلام الرئيسة، في الولايات المتحدة. ولكنْ؛ في «عالم ما بعد أميركا» - كما وصف فريد زكريا الوضع الحالي في عالمنا - لم يعد يشكّل أي فرق إذا ما وجّه الأمريكيون اهتماماً كبيراً، للتغيّرات الجذرية، من حولهم.

هناك أكثر من سبب يدفع الذين يعيشون في الجوار المباشر لتونس في العالمَيْن العربي والإسلامي، لمتابعة كل علامة للثورة ضد الطغيان، عن كثب. بدأ المدوّنون الإيرانيون والمتابعون المتحمّسون على فيسبوك، وفي غضون ثوان من رحيل زين العابدين بن علي، من تونس، بوضع لعبة لفظية لاسم البلد: «تونس»، والتي تعني - في العامية الفارسية - «يمكنهم ذلك». لقد بدؤوا بالتساؤل لماذا استطاع التونسيون إسقاط البطش والطغيان الذي يحكمهم، بهذه السرعة، في حين لم يتمكّن الإيرانيون، من القيام، بذلك.

تمتلك البلدان المختلفة مستويات مختلفة، من الزخم الاجتماعي، حتى ضمن الظروف المماثلة.

في الوقت الذي تقمع فيه سلسلة من المظاهرات الحاشدة ضد الانتخابات الرئاسية الإيرانية المزوّرة و المطالبة، بالحريات المدنية، بوحشية، أصبحت الحركة الخضراء أكثر انتشاراً وأعمق تجذّراً، من أي وقت، مضى في الجمهورية الإسلامية. تواصل ثلاثة من الحركات الشعبية - العمال والنساء والطلاب - نضالهم، على الرغم من القمع العنيف.

إذا كانت الانتفاضة الإيرانية في صيف عام ٢٠٠٩ تشكّل إلهاماً للتمرّد التونسي، في شتاء عام ٢٠١١، فإن نجاح الثورة الديمقراطية التونسية، يلهم الإيرانيين أكثر من ذلك، بعشرات المرات.

قد تكون الثيوقراطية الحاكمة في الجمهورية الإسلامية قادرة على مناورة دولة مرهقة عسكرياً ومنقوصة أخلاقياً مثل الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنْ؛ ليس بإمكانها الوقوف في وجه إلهام الطلبة، واتحادات العمال، وحركة حقوق المرأة، في تونس، لنظرائهم الإيرانيين.

وإذا ظنّت الجمهورية الإسلامية أن كل ما كان عليها أن تتعامل معه هو المزيد من العقوبات الاقتصادية المشدّدة وفيروسات الكمبيوتر لتأخير مشاريعها النووية، لابد أن تكون الانتفاضة التونسية مدعاة لأن تنتبه أن مشكلتها الحقيقية مع الإرادة الديمقراطية لشعبها الذي ينظر - اليوم - إلى التونسيين، برهبة وإعجاب. ما ينشأ - اليوم - هو نفس الحاجة الملحّة إلى التغيير، في كثير من البلدان التي تسودها سياسة اليأس التي تجتاح المنطقة.

أعربت مجموعة مجهولة من الطلبة الفلسطينيين - في بيان، صدر مؤخراً علناً - عن إحباطهم، من سياسة حماس المتعصّبة، والاحتلال الإسرائيل المدمّر لوطنهم، والألعاب السياسية التي قامت بها حركة فتح والأمم المتحدة. يقول البيان:

إننـا - هنـا، في غـزة - خائفـون مـن السـجن والتحقيق والـضرب والتعذيـب والقصـف والقتـل. إننـا خائفـون، مـن الحيـاة، فـلا بـد مـن دراسـة كل خطـوة، نخطوهـا، بدقـة، والتخطيـط لهـا جيـداً. هنـاك قيـود، في كل مـكان، لا نسـتطيع أن نتحـرك، كمـا نريـد، ولا أن نقـول مـا نريد، ولا أن نفعـل مـا نريـد. ولا نتمكّـن - في بعـض الأحيـان - مـن التفكـير حتـى بمـا نريـد؛ لأن الاحتـلال احتـل عقولنـا وقلوبنـا، بشـكل رهيـب ومؤلـم، يجعل منـا نريـد أن نذرف دموعـاً، لا تنتهـي مـن الإحبـاط والغضـب!

حتى في أفغانستان التي مزّقتها الحرب، لا يمكن منع الناس من التعبير عن إرادتهم في أن يكونوا أحراراً.

بعد المظاهرة الأخيرة أمام السفارة الإيرانية، في أفغانستان، طالبت الجمهورية الإسلامية الحكومة الأفغانية باعتقال المسؤولين عن المشاركة، في التظاهرة، ومعاقبتهم. تم تنظيم المظاهرة، للتنديد، بالجمهورية الإسلامية لعدم سماحها لناقلات النفط، بعبور الحدود الإيرانية، في طريقها، إلى أفغانستان، وكذلك للتنديد، بالمعاملة السيئة التي يتلقّاها اللاجئون الأفغان، في إيران.

كان ردّ المسؤولين الأفغان، على نظرائهم الإيرانيين: «كابول ليست طهران. يمكن للناس التجمع والاحتجاج على أي شيء، يرغبون بالاحتجاج عليه». وخلال دقائق، من هذا الإعلان الأفغاني، نقلته مواقع المعارضة الإيرانية وصفحات فيسبوك، وردّدته، بإعجاب.

من بين هذه البلدان الأربعة، أحدها هي العدو الرئيس للولايات المتحدة وحلفائها، في المنطقة (إيران)، وأخرى كانت حليفة لها (تونس)؛ والاثنان الآخران، واحد مزّقته الحرب، والآخر تحت الاحتلال العسكري (أفغانستان وفلسطين).

قارن هذا الارتفاع الواسع النطاق في منسوب المطالبة، في الحرية، في دول متعددة مع الانتخابات المزوّرة والفاسدة الأخيرة في مصر، والمطابقة للكثير من الانتخابات في دول أخرى، من المغرب، إلى المملكة العربية السعودية. ولكنّ مدّ الحرية الآخذ بالارتفاع، في هذه البلدان، يبدو غير قابل للنقض.

الحكّام العرب، من سورية، إلى مصر، إلى اليمن متوتّرين - بالفعل - حول إمكانية قيام انتفاضات مماثلة، في بلدانهم، كما يتساءل العديد من المراقبين عما إذا كان «ربيع الديمقراطية العربية» قد حلّ علينا أخيراً. ولكن هذا المحور الممتد للحرية لا تقسمه الهويات الوطنية، أو العرقية، أو حتى الدينية. ستسقط إرادة الشعوب الشابة، والتي سئمت هذه الأنظمة، سواء أكانت الولايات المتحدة تعدّها، من أصدقائها، أو أعدائها.

القصور الاقتصادي والاضطرابات الاجتماعية واسعة النطاق والإخفاقات السياسية الجوهرية، والاغتراب الثقافي السائد من الوضع الراهن، تسير باتجاه زعزعة أسس هذه المجتمعات، وإعادة تشكيل الجغرافيا السياسية للمنطقة.

حرّك البائع الجوّال التونسي محمد البوعزيزي الذي ضحّى بحياته، بفعله اليائس احتجاجاً على مصادرة عربة البيع الخاصة به - دورة الاحتجاجات والمظاهرات التي أطاحت، بحكم بن علي، ويجري الاحتذاء بها - اليوم - في جميع أنحاء شمال أفريقيا. إنها علامة واضحة، على اليأس المستشري، في المنطقة.

قد تتّخذ الثيوقراطية المتوحّشة إجراءات صارمة ضد الإيرانيين اليوم، وقد تتجاهل السياسات الخارجية الأمريكية انتهاكات حقوق الإنسان، لحلفائها الفاسدين، في يوم آخر. لكن تيار التغيير يمتلك منطقه الخاص، وسينتصر.

وكان الرئيس باراك أوباما سريعاً، في تحية التغيير الديموقراطي، في تونس، ولكنني لو كنت مكانه، فلن أنتظر الديكتاتور العربي، أو المسلم القادم؛ ليهرب من شعبه قبل أن أدرك أن الانحياز إلى الحكّام المتوحّشين لا يتناسب مع روح المُثُل والطموحات الأمريكية.

نُشرت، لأول مرة، على سي إن إن في يناير ٢٠١١

الحركة الخضراء وثورة الياسمين
تنزفان معاً

ترخي رياح الديمقراطية العليلة المرتحلة إلى شرق الشمال الإفريقي، بنسائمها المنعشة، ورائحة الياسمين عبر نهر النيل، نحو الخليج الفارسي، إلى ما وراء بحر العرب، فوق المحيط الهندي، باتجاه أقاصي إيران وأفغانستان، ومن ثم؛ إلى آسيا الوسطى.

ويعدّ انتصار الإرادة الديمقراطية للتونسيين - والمصريين اليوم - انتصاراً لتطلعات الإيرانيين المتطابقة، في الوقت نفسه، والذين قاموا - بالضبط - بما نشهده، في تونس ومصر، من عام ونصف العام سابقاً، ثم فشلوا، في الوصول، إلى نفس النهاية الحالمة.

يفرح الإيرانيون داخل وطنهم وخارجه - بشكل غير مباشر - بالنجاح السريع للانتفاضة التونسية، وفي التصميم البطولي للمصريين. على الرغم من أن أمامهم الكثير لفعله - اليوم - لإزاحة دكتاتورية أكثر تأصّلاً ووحشية، والتي دمّرت أرضهم، وشوّهت ثقافتهم، على مدى ثلاثة عقود، إنهم يتابعون جميع التفاصيل، بحرص شديد ومفصّل، للأحداث المثيرة التي تتكشّف - اليوم - في تونس ومصر.

يتابع الإيرانيون - في جميع أنحاء العالم - ما يحدث على فيسبوك وتويتر، على المواقع، ومحطات البثّ، والمنتديات الإلكترونية، والبوابات الإخبارية العابرة للحدود، وقوائم تعميم البريد الإلكتروني، والرسائل النصية - باللغة الفارسية، والفرنسية، والإنجليزية، والعربية - فيكتبون منشورات، ويعيدون نشر أخرى، ويشاهدون - بشكل متكرر - مقاطع اليوتيوب، وبث

قنوات الجزيرة، ويتتبّعون الأحداث الجارية، ويقدمون المشورة، ويلتمّسون مزيداً، من التفاصيل، ويهنّئون أصدقاءهم وزملاءهم التونسيين والمصريين. ولقد توصلوا - بالفعل - إلى تصميم ملصقات رائعة، ورسومات، توحّد مصائرهم - يقول أحد هذه الملصقات، باللغة الفارسية والعربية والإنكليزية «المستقبل لنا».

الحماسة الثورية

لا ينبغي أن تكون هذه الفرحة، بالوكالة فقط. لدى الإيرانيين جميع الأسباب التي تدعوهم، إلى مشاركة إخوانهم وأخواتهم التونسيين والمصريين الفرح والبهجة، بانتشار ثورة الياسمين الذي يُعدّ انتصاراً صلباً، للحركة الخضراء، بطرق معينة، يمكن تقديرها، بدقة. لا تعرف رياح الحرية هذا التخطيط العرقي الاستعماري المنشأ. تتماثل هذه الثورات، في سببها الجذري - من أفغانستان وإيران، إلى العراق وفلسطين، وتونس، واليوم التفّاحة الأكبر، والتي سيؤدي سقوطها إلى وضع قانون نيوتن جديد، للحركة التامة من حولنا: مصر! وهو تحدي سياسة اليأس واقتصاديات الفساد والقسوة.

يجب ألا ترجع الأحداث في تونس ومصر إلى الظهور الجديد الأعمى، والاجترار المعتاد، للقومية العربية المغرية، مثل استخدام العبارة النمطية «الربيع العربي» هذه الأيام. لم يتحرّك التونسيون ضد الطغيان، لكونهم «عرباً»، وحسب. ولم يثر المصريون ضد الحكومة الفاسدة، لكونهم «عرباً»، وحسب.

لقد تحرك التونسيون والمصريون واليمنيون، وربما غيرهم، في المنطقة، كمواطنين لجمهورياتٍ مخدوعة، حُرمت منهم منذ نهاية الاستعمار الأوروبي. وثاروا ضد الطغاة الذين يحكمونهم - والمصالح الأمريكية والأوروبية التي تُبقي هؤلاء الطغاة، في السلطة ضد إرادة شعوبهم. بدء ذلك التراكم لبناء الدول فيما بعد الاستعمار هو الوعد المؤجل لجميع الواقعين تحت

الظلال الممتدة للاستعمار الأوروبي، وليس - فقط - في العالم العربي. إساءة استغلال ذكرى التاريخ الاستعماري، وصدمة الانقلاب الذي رعته الولايات المتحدة عام ١٩٥٣، هما سبب وجود الجمهورية الإسلامية، ولقد فقدت الدولة الثيوقراطية المتوحّشة تأثيرها منذ فترة طويلة.

تمثل إنجازات التونسيين والمصريين انتصارات للحركة الخضراء، في إيران. ليست الولايات المتحدة فقط، وحضورها ثقيل الوطأة، المنزعجة من احتمال فقدان حلفائها الأهم في المنطقة فقط؛ بل الجمهورية الإسلامية الانتهازية أيضاً، تفقد أعداءها الرئيسيين - وفقدان الأعداء - في هذه المنطقة - أسوأ من فقدان الأصدقاء. كانت الجمهورية الإسلامية - على طول فترة بقائها - المستفيد الوحيد، من سياسات اليأس التي حكمت المنطقة، وكانت بؤرة هذه الانتهازية تتركّز، في آلام الفلسطينيين.

ويبقى العبث الذي يحكم الجمهورية الإسلامية - كما كان دائماً - المستفيد المباشر، من كل كارثة، تصيب العالمَيْن العربي والإسلامي، بدءاً، من فلسطين، إلى لبنان، إلى العراق، إلى أفغانستان. هناك توازن، للرعب، في المنطقة بين الولايات المتحدة وحلفائها، في المنطقة، من جانب، والجمهورية الإسلامية وحلفائها داخل تلك الدول (حماس وحزب الله وجيش المهدي)، من جهة أخرى. ويُحتمل أن يضر أيّ تغيير في هذا التوازن، ليس للولايات المتحدة، وحسب، بل بشكل أكبر، للجمهورية الإسلامية - وهذا أمر جيد لقضية الحرية، في إيران والمنطقة. الإرادة الشعبية في تونس ومصر - وربما بقية العالم العربي - تحرم الجمهورية الإسلامية، من شهيتها التي لا تشبع، للأعداء.

هناك طريقة أخرى - على نفس القدر من الأهمية - كان من خلالها انتصار ثورة الياسمين مصدر فرح للحركة الخضراء في إيران. خلال العام ونصف الماضيين، ظل المحافظين الجدد، في الولايات المتحدة/إيران الذين حاولوا (عبثاً) خطف الحركة الخضراء، يكرّرون العبارات النمطية

المثيرة للغثيان والكاذبة، والتي تقول بأنه ليس هناك ديموقراطية دون النيوليبرالية - والتي تقول إن الديمقراطية والسوق الحرة وجهان، لعملة واحدة.

حتى الآن، قدّمت تلك القوى داخل الحركة الخضراء، والتي حاربت ضد هذا الهراء - ببساطة - حجج نظرية ثابتة. لكن الرحلة المذهلة لبن علي، من تونس، إلى المملكة العربية السعودية، بدّدت تلك الهالة، من الوهم. كانت تونس زين العابدين بن علي الحلم الجميل لوصفات الليبرالية الجديدة، للبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي. وكان الاتحاد الأوروبي (فرنسا ساركوزي، على وجه الخصوص) مسرورين، للغاية، بسياسات بن علي الليبرالية الجديدة - أكثر مما كان جورج بوش مسروراً - بدوره - في «الحرب ضد الإرهاب» - ولهذا كانت تونس - في الواقع - تُعدّ امتداداً، للاتحاد الأوروبي.

ورغم ذلك، ويا للمفاجأة، داخل هذا الملاذ النيوليبرالي، للغاية؛ حيث أشعل انتحار يائس لشاب عاطل عن العمل نيران الثورة، هناك ديكتاتور فاسد، لا يرحم، أدار الدولة وفقاً لمصالحه المربحة له، ولعائلته الفاسدة، دون علم المدافعين عن الزعم القائل، بأن «الديموقراطية المصدر الرئيس، للسوق الحرة».

تُعدّ ثورة الياسمين المتمدّدة انتصاراً حقيقياً، للحركة الخضراء، من خلال حرمان الجمهورية الإسلامية، من شهيتها النهمة، للأعداء، وفي فضح عبث وتفاهة الافتراض القائل إنه دون المساعدات الأمريكية والاقتصاد النيوليبرالي، لا وجود، للديمقراطية.

نُشرت، لأول مرة، على موقع الجزيرة، في فبراير ٢٠١١

المواجهة المؤجّلة

سيسجّل خطاب معمر القذافي المتحدي والرافض للتخلّي عن السلطة حتى بعد أن قام جيشه بذبح الليبيين، بالمئات، لقمع انتفاضة فبراير ٢٠١١ في التاريخ، على أنه مناجاة مشتّتة، لعقيد مجنون، سقط عميقاً، في، وحول أوهامه الذاتية التي تتطلّب أن يتضمّنها غابرييل غارسيا ماركيز، في نسخة معدّلة، من «خريف البطريرك».

كان من الممكن لذلك المونولوج المشتّت، الذي كان رنّاناً وخاملاً - في الوقت نفسه - أن يكون حزيناً جداً، إن لم يكن قاتلاً. وقف الطاغية البائس هناك مجسّداً، للملك لير، مغمغماً، في خوف وغضب، على عقله المعذّب، غافلاً عما أصاب أرضه، ومهدّداً ليبيا:

سأنتقم منكما كلتيكما انتقاماً
إذا ما بلغ مسمع الدنيا ... أجل، سأفعل أفعالاً،
لا أدري - الآن - كيف تكون،
ولكنها ستكون أحدوثة، تذعر الدنيا، برمتها،
أتزعمان أنني سأبكي؟
لا، لن أبكي. إن لدي للبكاء ألف سبب، ولكنْ؛ لا بد لهذا القلب
أن يتمزق شَذر مذر قبل أن تجهش لي عين،
ببكاء. أيها المجنون، لقد أدركني الجنون!

وكما قال الروائي الليبي هشام مطر مؤخّراً عن حملة القذافي الوحشية على شعبه: *إننا نشهد الضربات العنيفة، لوحش، يحتضر*». أصبحت الصرخات والهمسات - اليوم - مجموعة، من البذاءات المدوّية.

مواجهة ما بعد الاستعمار

وصلت الخطابات البليغة من المواجهة ضد الحالة المفسدة، من الاستعمار الأوروبي ذروتها الشعرية، في القرن الماضي مع ليوبولد سيدار سنغور، إيميه سيزير، وألبرت ميمي، ووصلت إلى خاتمتها، من الشغف النظري والدقة مع فرانتز فانون، وإدوارد سعيد، وغاياتري سبيفاك. بعد الرطانة الانفعالية لمعمر القذافي - الذي يمثل البقايا المنحلّة والمتحدية، للاستبداد الداخلي الذي تسلّم الراية من الهيمنة الاستعمارية الأوروبية - فقد تدهور الخطاب الاستعماري - في النهاية - إلى مجرد متلازمة توريت.

ذلك الهذيان المستمر حول أنه «مقاتل، ثوري من الخيام»، وأنه «سيموت شهيداً في النهاية،» ومن ثم؛ يهدد «لم أعط أوامري - بعد - باستخدام القوة ... وعندما أفعل، سيحترق كل شيء»، وقف القذافي - هناك - على أنقاض مبنى، قصفته الولايات المتحدة، مثل «بطريرك» ماركيز «النقي»، «العظيم»، «زكارياس»، مثل نموذجه الأدبي ما بين ١٠٧ و٢٣٢ من العمر: مصاب، بجنون الارتياب، قاس، مؤمن، بالخرافات، مكسور، ساقط، مثير، للشفقة. كان خروج زين العابدين بن علي ومبارك أميرياً، بالمقارنة. ينبغي على جميع الطغاة المجاورين الآخرين، من آية الله خامنئي، إلى علي عبد الله صالح، أن يشاهدوا هذا المشهد، ويتأملونه.

جلب خطاب القذافي في ٢٢ فبراير خطاب ما بعد الاستعمار - كما عرفناه على مدى السنوات الـ ٢٠٠ الماضية، إلى نهايته - دون إثارة ضجة، ومع القليل من التذمّر. وعقب ذلك الخطاب، فإننا بحاجة إلى لغة جديدة - لغة ما بعد الاستعمار قد بدأت للتو، بعد بشرى الفجر الكاذب، عندما تجمعت القوى الاستعمارية الأوروبية، وغادرت. بعد اثنين وأربعين عاماً، من العبث والقسوة غير المسبوقين، يُعدّ القذافي، من بين آخر بقايا الدمار الاستعماري الأوروبي، ليس لموارد العالم المادية، وحسب، بل شيء أكثر أهمية بكثير، الخيال الأخلاقي المحرر. وهناك عدد من هذه الآثار التي

لاتزال قائمة، في الجوار. تم خلع اثنين منها. ولكنْ؛ مازال هناك المزيد، من القسوة الإجرامية والرطانة المشابهة - من المغرب إلى إيران، من سورية إلى اليمن - والذين ينتظرون تعلّم درس الخروج الكريم، والصمت النبيل.

مثل تونس ومصر، نهضت ليبيا، في ظروف العمل الجماعي، من تحديات ما بعد الاستعمار المؤجّلة لاستحضار وتحديد مَن هم الليبيين: سيادتهم الوطنية، مبنية على المؤسسات الديمقراطية، وسيادة القانون، والسلوك الإنساني القويم لتوزيع عادل للموارد الوطنية والثروة التي تولدها - المتطلبات الأساسية للحياة الكريمة التي كان يجب أن يعيشوها، في أعقاب العصر الفاحش، والمثير للسخرية للاستعمار الإيطالي (١٩١١-١٩٥١). مثل جميع الأوروبيين الآخرين، لم يحمل الإيطاليون حقائبهم، ويغادروا ليبيا قبل نهب مواردها الطبيعية، وحسب، بل تركوها - أيضاً - مجردة من أي مؤسسة ديموقراطية متينة. وكان القذافي هو المذاق المتبقّي بعد رحيل الاستعمار الأوروبي - الابن غير الشرعي، للعسكرة، والدجل، والهمجية السافرة.

آخر بقايا الاستعمار الأوروبي التي نهبت الموارد الطبيعية للدول، استعبدت مواطنيها أيضاً، وأساءت استغلالهم، كعمالة، بهدف حماية الأسس المادية لما أصبح اليوم الرأسمالية المعولمة، كما أثارت النعرات القبلية والطائفية - العرب والفُرس، السّنّة والشيعة، المسلمون والهندوس، المسلمون والمسيحيون، ولم يتركوا أي إمكانية لقيام أي مؤسسة سياسية حديثة متينة. الديموقراطية الفاعلة هي ما كان من المفترض أن يحدث في أعقاب الهمجية الاستعمارية الأوروبية. ولكن الجنون الكاريزمي - من القذافي، وموغابي، وأحمدي نجاد، إلى صدام حسين، وآية الله الخميني، وعيدي أمين - هو كل ما تركه الاستعمار وراءه.

الكابوس انتهى

اليوم نصحو، من الكابوس. لقد حلمنا بهذا اليوم طوال حياتنا، كما

فعل أهلنا، وبالعزيمة نفسها، على ألا يعرف أطفالنا - أبداً - مهانة أن تحكمهم أفظع مخاوفنا. إن ما نشهده في جميع أنحاء العالمَيْن العربي والإسلامي يمثّل ولادة الدول الأولى ما بعد الاستعمار، بعيداً عن أمراض ما بعد الاستقلال، عن الاستعمار الأوروبي؛ حيث حل الطغاة المحليون محل نظرائهم الأوروبيين، وقد استغلوا - على مدى عقود - غضبنا النبيل، وراهنوا، على مخاوفنا، ونهبوا مواردنا، وضيّعوا آمالنا، وحرمونا، من كرامتنا الديمقراطية، وأجّلوا تشكيل أي معنى من معاني الدول القومية المحررة وذات السيادة. لذا؛ فقد انبلج الفجر، وتنتظرنا أيام طويلة وشاقة، وإننا مفعمون، بالأمل المتلهّف - وبشكل حقيقي، هذه المرة.

حكم القذافي ليبيا لاثنين وأربعين عاماً، مع السخافة الكاريزمية، والقسوة الكرنفالية. وقام جيشه الفاسد لإنقاذ عرشه (ما عدا الشجعان الذين تركوا الجيش، وانضموا إلى الشعب) بقصف الليبيين، بالآلات العسكرية التي باعته إياها مصانع الأسلحة الأمريكية والبريطانية. لفترة أقل قليلاً، من نصف قرن، كما قال مروان بشارة: «استخدم الابتزاز السياسي والرشاوى المالية، وتهديدات علنية، باستخدام القوة، للبقاء على رأس النظام. وقد أهدر في هذه العملية الكثير من ثروات البلاد. وهكذا ضاعت أي فرصة للتنمية؛ حيث كانت ديكتاتوريته تَقمع التعددية والإبداع وحرية التعبير».

ويعتقد بعض المؤرخين أنه عند مغادرة الإيطاليين لليبيا في عام ١٩٥١، كان ما يقارب من ٥٠ بالمئة من سكانها قد قُتلوا أثناء نضالهم ضد الاستعمار. يتذكّر أي ليبي - اليوم، بالكاد - كيف كانت الحياة، بدون القذافي - مما يجعل أحلامهم، في التحرير أكثر قوة، من أيّ وقت، مضى.

على الرغم من خلافاتهم، فإن مواقع الانتفاضات في العالمَيْن العربي والإسلامي، وما وراءها متصلة، بقاسم مشترك، من الصراع المستمر. لا يمكن فصل ما يحدث في ليبيا وتونس ومصر والبحرين واليمن عما حدث

في العالمَيْن العربي والإسلامي، على مدى نصف القرن الماضي، بدءاً من السطو المسلح، على فلسطين، إلى الأحلام والتطلعات المغدورة للثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، إلى الغزو العسكري والاحتلال الاستعماري لأفغانستان والعراق، كلها جزء، لا يُجتزأ، من التطلعات الديمقراطية التي تجتاح أوطاننا اليوم. إننا كشعب نتحدى سياسة اليأس التي فرضتها علينا الهيمنة الاستعمارية والإمبريالية، لأكثر من نصف قرن.

جغرافيا جديدة

ما نشهده نتيجة لذلك ليست مجرد زوال أوهام «نهاية التاريخ» و«صراع الحضارات» وفقاً للمتنبّئين وواضعي الاستراتيجيات للإمبريالية الأمريكية، ولكنْ؛ في الحقيقة، تظهر معالم أخلاقية لجغرافيا التحرير الأكثر إبداعاً، البعيدة عن الثنائية الكاذبة والمزوّرة ل«الإسلام والغرب»، أو «الغرب وبقية العالم».

قد تعتقد الولايات المتحدة وإسرائيل أنه من خلال وجود عمر سليمان، أو أصحاب المناصب العليا، في الجيش المصري، في السلطة المسؤولة عن التحول الديمقراطي، في مصر، فسيكون كل شيء تحت سيطرتهم. وهذا لن يحدث. ربما يفكرون في «النموذج التركي»، باعتباره مخططاً مثالياً مأمولاً ومتوقعاً، بالنسبة إليهم. ولكن هذه الانتفاضات التي نشهدها لن تهدأ.

حركات التمرد تطرح تأويلاً مفتوحاً، للاحتمالات السياسية التي من شأنها إعادة رسم خريطة العالم - بما يتجاوز فحش هوغو شافيز الذي يتجاهل وحشية الجمهورية الإسلامية، ويطير - مراراً وتكرار - إلى طهران، أو حتى المكالمة الأخيرة الأكثر تفاهة وسخفاً من رئيس نيكاراغوا دانيال أورتيجا، للقذافي، للتعبير عن تضامنه معه. لقد سقط اليوم هذا النوع الفاسد من «معاداة الإمبريالية» أمام الإرادة الديمقراطية المتنامية للشعوب التي ستطالب، بل وستنتزع حقها في التحرر، من الاستبداد الداخلي، والغطرسة الإمبريالية، على حد سواء.

ما نشهده - الآن - هو صحوة عالمية جديدة، بما يتجاوز القومية العربية، أو أي قومية عرقية أخرى. سيلد هذا العالم جغرافية جديدة. يجب أن نفتح الطريق، وأن نهيّئ أنفسنا، لوضع مختلف من التفكير ما بعد الاستعماري (الذي لم يحلم به - بعد - المثقّفون البنغاليون)، مما من شأنه أن يسمح بالتآزر بين هذه الانتفاضات الثورية، لتفعيل عملها الخاص، بدلاً من العودة، إلى فكرة الشوفينية الخانقة، من أي نوع.

ترسم الجغرافيا الخيالية لهذه الانتفاضة تضاريس جديدة كاملة للعالم، مما يضع أمامنا الكثير للتجول فيه، واكتشافه. وعلى الرغم من أنه لدى كل عربي، من المغرب، إلى اليمن، الحق في أن يفخر بما يشهده العالم، في مهابة وإعجاب، فلا العروبة، ولا أي فئة قسّمها الاستعمار عرقياً، تشكل الإطار التأويلي الكافي الذي يمكن - من خلاله - فهم وتفسير وضمان النجاح المستقبلي، لما يحدث - اليوم - في عالمنا المحرر. تتجاوز جغرافية هذه الانتفاضة العالم العربي، أو حتى العالم الإسلامي. هناك انتفاضات مماثلة، تختمر، من السنغال، إلى جيبوتي. كان لولادة الحركة الخضراء في إيران قبل عامين - تقريباً - من الانتفاضة في العالم العربي آثار عميقة وبعيدة المدى في أفغانستان وآسيا الوسطى. اليوم حتى في الصين البعيدة هناك مخاوف رسمية، من «ثورة الياسمين».

إننا محظوظون، للغاية، بولادة أنفسنا، بشكل، يتجاوز حالتنا الاستعمارية؛ لنشهد فجر اكتشاف جديد، عن أنفسنا، وعن ماهيتنا - من المغرب، إلى أفغانستان، من تركيا، إلى اليمن، من آسيا الوسطى، إلى المجالات الممتدة للمحيط الهندي. ينبغي علينا - ببساطة - أن نستيقظ، وأن نلتقط أنفاسنا، ونغسل أعيننا. نحن مكتشفي عالم جديد - عالم من حقنا رسم جغرافيته، خلافاً للخريطة الاستعمارية التي ورثناها، والتي نتركها وراءنا اليوم. لدينا تحدٍّ مؤجّل ضد الاستبداد الداخلي والإمبريالية المعولمة، والذي يؤدي - في الوقت نفسه - إلى أفق جديد كلياً لتاريخ العالم.

نُشرت، لأول مرة، على موقع الجزيرة، في فبراير ٢٠١١

تنقية الثورات من النزعات العنصرية

سرت شائعات كثيرة - بعد فترة وجيزة من القمع الوحشي للانتفاضة التي تلت الانتخابات الإيرانية في يونيو ٢٠٠٩، في الفضاء الإلكتروني، وفي أوساط المؤيدين المتحمّسين للحركة الخضراء - تقول بأن بعض قوات الأمن، في الجمهورية الإسلامية والذين تمّ تجنيدهم لمهاجمة المتظاهرين، بشراسة، لم يكونوا - في حقيقة الأمر - إيرانيين، على الإطلاق، بل كانوا «عرباً».

وبدأ تداول صور معلّمة، بدوائر حمراء حول أشخاص سمر، وذوي ملامح قاسية، من أفراد قوات الأمن، والذين قيل إنهم كانوا أعضاء، في حزب الله اللبناني، أو من حركة حماس الفلسطينية. الإيرانيون المتحدّرون مثلي من المناخات الجنوبية في وطننا، يبدون مثل أولئك الذين تم وضع دوائر حولهم، والذين لا ينسون - أبداً - تلك الفترة الطويلة التي تعرّضنا فيها للرفض والازدراء، على أننا «عرب» من قِبل إخواننا وأخواتنا الشماليين الأكثر بياضاً منا، لم يقتنعوا - أبداً - بهذه المزاعم.

كما نتذكر جيداً أنه، وفي أعقاب الغزو السوفيتي لأفغانستان، وتدفق أعداد كبيرة من اللاجئين الأفغان، إلى إيران، كانت جميع أنواع الجرائم والجنح تُنسب إلى «الأفغان -Afghanis»؛ حيث كانت إضافة الحرف«i» تحمل نبرة عنصرية مقرفة، في اللغة الفارسية.

ولاحقاً بعد عامين، عندما تمّ نشر «المرتزقة» من قِبل نظام القذافي لسحق الانتفاضة الثورية التي تجتاح ليبيا، انتشر الخبر - أيضاً - أنهم كانوا «أفارقة». وأفادت الجزيرة أنه «*في الوقت الذي كانت فيه الدول تُجلي مواطنيها خوفاً من أعمال العنف التي تجتاح ليبيا، تمّ استهداف*

العديد من العمّال المهاجرين الأفارقة، للاشتباه، بكونهم مرتزقة مستأجرين، من قِبل الزعيم الليبي معمّر القذافي». وأفادت الجزيرة - بشكل محدد أكثر هذه المرة - : *«يخشى عشرات من العمال الأفارقة من جنوب الصحراء الكبرى التعرض للقتل، ويتوارى المئات منهم عن الأنظار، في الوقت الذي تلاحق فيه الجماهير الغاضبة من المتظاهرين المناهضين للحكومة (الأفارقة السود المرتزقة)، وفقاً لشهود عيان»*.

الكشف عن «الآخر»

هذه الاستعارات المتجوّلة من أعمال العنف العنصرية - العنف الذي يرتكب دائماً من قِبل «الآخرين»، وليس من قبل «الذات» - والتي تتحول اليوم؛ لأنها تسم الانتفاضات الثورية العابرة للحدود الوطنية بالعنصرية، في هذا الجزء من العالم؛ حيث تُعدّ هذه الأعمال وصمة عار، وبقايا سيئة من النزعات العنصرية المحلية القديمة والقروسطية لثقافاتنا. وقد استفحلت هذه النزعات يوماً ما؛ ليتم استخدامها، وإساءة استخدامها، لتحقيرنا، وإخضاعنا، من قِبل الاستعمار الأوروبي لتعزيز مصالحه الخاصة، وتعود - اليوم - هذه النزعات لتطارد وتشوّه أنبل اللحظات، من انتفاضتنا الجماعية ضد الاستبداد الداخلي والهيمنة الأجنبية، على حد سواء.

تُعدّ مظاهر هذه العنصرية متعدّدة الجوانب، ولا تقتصر على الزخم الثوري للمظاهرات، في الشوارع، أو النشاط مجهول الهوية، على شبكة الإنترنت. بل يمتد - أيضاً، وللأسف - إلى تلك الزوايا الباردة، من التحليل المتأني والمداولات والنقاشات.

وتزامن التحديد العنصري لبعض «العرب» من بين أفراد جهاز الأمن للجمهورية الإسلامية، من قِبل بعض الناشطين الإيرانيين المؤيّدين للديمقراطية بدوره مع تحديد عنصري مشابه من قِبل بعض المفكّرين العموميين العرب الروّاد (وليس جميعهم)، الذين لا يزالون يرفضون تلك

الانتفاضة الهائلة للحقوق المدنية، في إيران، واصفين إياها بالمؤامرة من قِبل الولايات المتحدة وإسرائيل، بتمويل من المملكة العربية السعودية، ومساوين بينها - باستهانة كبيرة - وبين «ثورة الأرز» في لبنان.

وقوبلت هذه العلامة الصارخة على التفاهة المحضة، بردود فعل مساوية بالتفاهة (إن لم تكن تتجاوزها)، من جانب بعض النشطاء الإيرانيين الذين سخروا من الثورتين المصرية والتونسية، ورفضوها، واصفين إياها «بالانقلاب العسكري المجل»، أو قالوا - أيضاً - بأن «العرب» كانوا يقومون - اليوم - «بما قمنا به «نحن» منذ ثلاثين عاماً، وخلصوا إلى أن «العرب» متخلّفين عنا، على الأقل، بثلاثين عاماً. تتغذّى هذه الحلقة المفرغة من العنصرية، على نفسها، وينبغي استئصال هذه الخلايا السرطانية، من أفكارنا السياسية.

«الآخر» عند العرب

تُعّ جذور العنصرية العربية والإيرانية، سواء تجاه بعضهما البعض، أو تجاه «الأفارقة السود» جذوراً فظيعة، للغاية، ومثيرة للقلق لتبرير ظهورها الكامل، في هذه اللحظة الرائعة، من تاريخنا. لا بد من معالجة جوانب وأبعاد هذه الأمراض، إلى درجة، تؤدي فيها إلى التحرّر الجماعي، من الفخاخ العنصرية التي تؤدّي إلى دورات، من العنف المتّسم، بالنزعات العنصرية.

وكما برهن جوزف مسعد، على الجانب العربي، في كتابه «اشتهاء العرب» (٢٠٠٧)، فإنه في عزّ القومية العربية، كانت العبارة المجازية «فارسي» تفسّر عنصرياً مباشرة، من خلال ربطها، بكل أنواع «الانحراف الجنسيّ» الفاسد والمُفسد أخلاقياً، وغير المرغوب فيه، وبذلك تغدو «الرجولة» و«الاستقامة الجنسية» قد خُلقت للـ«عرب»، وحسب.

لقد تأكدت - في الواقع - رؤية مسعد، على عكس السخرية والانتقاد

الذي تعرّضت إليه الحركة الخضراء. فقد تمّ اعتبار الإيرانيين - وفقاً لهذا التقدير - أنثويين، للغاية، وجميلين وضعفاء وبرجوازيين (ينتمون إلى الطبقة الوسطى)، وأنيقين أكثر من اللازم؛ ليحظوا بانتفاضتهم الخاصّة (يمكنك الرجوع إلى أولئك النسوة الجميلات، وإلى تصفيفة شعورهنّ ونظّاراتهن الشمسية)، وأنهم - ومثل سائر النساء - قد احتاجوا - بالفعل - إلى مساعدة الدّول العظمى. وإن «الثورة الحقيقية» تتمثل - فقط - فيما قام به «الرجال الحقيقيون» في «العالم العربي»، والتي لم تستغن عن المساعدة الأمريكية، وحسب، بل قامت - في الواقع - ضدّ الإمبريالية الأميركية. بينما حظيت الحركة الخضراء الإيرانيّة، بطابع نسائي (على اعتبارها انتفاضة ضعيفة، تشوبها الكثير من العيوب، وانتفاضة، تم التلاعب بها من قبل «الغرب»)، ووفقاً لهذا؛ تتحول ثورتا كل من تونس ومصر - وبقوة - إلى ثورات قومية عربية ذكورية.

«الآخر» عند الإيرانيين

تعود الأمراض العنصرية الإيرانية إلى جذور مختلفة عن مثيلتها عند العرب. وهناك شريحة معيّنة من الإيرانيين؛ حيث يُعدّ معظمهم من الملكيين، في السلوك السياسي، يغرق أفرادها في تفاهة العنصريّة الآرية، وقد دُفعوا؛ ليعتقدوا أنّهم - في الحقيقة - جزيرة منعزلة، من الآريين الأصليين، المحاطة - للأسف - ببحر من الساميين الأشرار. ويعتقد أفراد هذه الشريحة أن حضارتهم قد تعرّضت للتشويه على يدي الغزو العربي والإسلامي، وأنهم بحاجة إلى إعادة التواصل مع جذورهم الأوروبية في «الغرب في سبيل استعادة أمجادهم الآرية. إن كلّ هذه الجدلية مبنية على الهزيمة التاريخية للإمبراطورية الساسانية (٢٢٤-٦٥١) على أيدي الجيوش العربية الغازية، في معركة القادسية (عام ٦٣٦). كانت هذه الصدمة القومية - تحديداً - الموضوع الذي يتمّ استغلاله دائماً لأسوأ أنواع التحريض، على كره الغرباء.

ولا تقتصر هذه النزعة العنصرية والكره لدى الإيرانيين على «العرب»، وحسب، بل تشمل - أيضاً - «الأتراك» و«المغول» - وذلك بسبب الغزوات العديدة التي تعرّضت لها إيران بين القرن السابع والقرن الثالث عشر للميلاد. كما تتمتع هذه العنصرية بتعبير باطني ضمني أيضاً، يظهر من خلال السلوك الازدرائي والفوقي لأولئك الذين يعدّون أنفسهم «فرساً» حيال الأقليات العرقية مثل الأكراد والأذريين والبلوش، وغيرهم.

تضافرت كل من العنصرية الخارجية والعنصرية الداخلية؛ لتصنعا معاً علامة «فارسية» خرافيّة، تشكّل صورة معكوسة لتلك الصورة التي رسمها العرب. تعود جذور ثنائية العرب/الفرس، إلى القرون الوسطى، ولكنها استفحلت مع الاستعمار، لتغدو مسألة مجازية ذاتية الحركة، تتغذّى من نفسها.

عنصرية الثورات

شكّلت المشاريع القومية القائمة على هذه الثنائية من التعصب العنصري السمة الرئيسة المميّزة والكارثية لتاريخنا، في فترة ما بعد الاستعمار خلال القرن الماضي.

وفي الوقت الذي كانت فيه القومية الإيرانية تتنافس مع القومية التركية، في آسيا الوسطى، ومع القومية العربية المستنفدة، في آسيا الغربية وشمال أفريقيا، اجتمعت مصيبة الجميع المشتركة، ومحاكاتهم السخيفة «للغرب»، والتي ساعدوا جميعاً - أيضاً - على إنشائها، لتشكيل نسختهم نفسها، من التعصّب الأعمى الموجّه ضدّ «الأفارقة السود».

تشكّل النزعة الحالية لتحويل الانتفاضات الثورية العابرة للحدود، إلى صراعات عنصرية جزءاً من هذا التاريخ الرهيب، وإذا فشلنا - بالفعل - في استئصالها، فستودي بنا، في دوامة، لا قرار لها، في الوقت الذي نظن فيه أننا نقوم، بتحرير أنفسنا.

وكما قال المخرج السينمائي والصحافي فرج سيفينزو من زيمبابوي:

بالنسبة إلى أعمال العنف خلال الأسبوعين الماضيين [منتصف شهر فبراير ٢٠١١ في ليبيا]، تبيّن أنّ علاقات العقيد القذافي في القارة الأفريقية ساهمت - فقط - في إحياء عنصرية، تعود إلى جذور عميقة بين العرب والأفارقة السّود. وبينما كان المرتزقة، الذين أشيع أنّهم من التشاد ومالي، يقاتلون، من أجله، كان هناك مليون لاجئ أفريقي، والمئات من العمال المهاجرين الأفارقة يتعرّضون لخطر التعرّض للقتل، بسبب الاشتباه، بكونهم مقاتلين، لصالح القذافي.

ويضيف سيفينزو:

قال أحد عمّال البناء الأتراك لقناة بي بي سي: «كان هناك سبعون أو ثمانون عاملاً من التشاد يعملون في شركتنا، وقد قُتل هؤلاء، بواسطة الفؤوس ومقصات تشذيب الأشجار، وكان مهاجموهم يقولون لهم: أنتم تقومون بتأمين الجنود، للقذافي. وتمّ ذبح السودانيين أيضاً، لقد رأينا ذلك، بأمّ أعيننا».

لا تشكّل مظاهر العنف العرقي تلك حلم الملايين من الناس، من السنغال، إلى جيبوتي، ومن المغرب، إلى أفغانستان، ومن إيران، إلى اليمن، الذي يحلمون به، لأنفسهم، ولأولادهم.

عنصرية العنف

يشكّل إعطاء طابع عنصري للعنف أحد آخر بقايا العنصرية الاستعمارية التي ظهرت - بوضوح - من خلال منطق الإمبراطورية الرومانية - والجمهورية الفرنسية القديمة كذلك، في وقت لاحق - من خلال منطق «فرّق تسد»، أو «فرّق لتحكم»، ذلك القول المأثور الذي وصل إلى ذروته مع ميكافيللي، في كتابه «فنّ الحرب» (١٥٢٠).

يغصّ السجل الإجرامي للاستعمار الأوروبي، في آسيا وأفريقيا، بهذه

الاستراتيجية الغادرة. فقد مارست كلّ من ألمانيا وبلجيكا - على حدّ سواء - هذه الاستراتيجية في رواندا، من خلال تعيين أعضاء من أقلية التوتسي، في مناصب في السلطة. وقد نتج عن ذلك إعادة إنتاج جماعتي التوتسي والهوتو عرقياً، مما كان له أعمق الأثر، على عمليات الإبادة الجماعية، في رواندا التي حصلت لاحقاً. وكان للبريطانيين تصرّف مماثل - أيضاً - في تطبيق عقيدتهم الاستعمارية حين حكموا السودان، وساهموا في الانقسام بين الشمال والجنوب، ما أدّى إلى حروب أهلية متتالية في البلاد.

التاريخ الاستعماري لبقية القارّة الافريقية مليء بالانقسامات المماثلة، كما في آسيا - وخاصّة في الهند؛ حيث كان للبريطانيين دور فعال، ليس - فقط - في إعادة العمل، بالنظام الطبقي لفوائده الاستعمارية، ولكنْ - أيضاً - في إثارة العداء بين المسلمين والهندوس، ما أدى - في نهاية المطاف - إلى ذلك التقسيم الكارثي بين الهند وباكستان، على أساس ديني.

وقد جدّدت الحكمة الاستعمارية القديمة الاستخدامات الإمبريالية. فبعد غزو العراق، الذي قادته الولايات المتّحدة، كتب السيّد ولي رضا نصر، المحلّل الاستراتيجي العسكري الأميركي، تحليلاً عن الفجوة السّنّيّة - الشيعية، دون أيّ بحث علمي مسبق، بعنوان «صحوة الشيعة: كيف ستعيد الانقسامات داخل الدين الإسلامي رسم المستقبل» (٢٠٠٦)، ألقى فيه اللوم - في ما يتعلّق بالمجازر في العراق - على الحروب بين السّنّة والشيعة، وربط بين تلك الأحداث وبين العداء الاستراتيجي بين الجمهورية الإسلامية والمملكة العربية السعودية - تدخّل استراتيجي مدروس للولايات المتحدة حوّل الولايات المتحدة الأمريكية، وسط التحالف الذي قادته لغزو العراق، إلى السامري الصالح والمتفرج البريء.

كانت هذه الاستراتيجية ناجحة، للغاية، حتى إنها جعلت الكتاب من أكثر الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة، فيما استُدعي كاتبه - لاحقاً - للعمل ضمن الفريق الدبلوماسي للولايات المتّحدة، بهدف التوصل، إلى حجة تخرج الولايات المتحدة، من فشلها المتواصل، في أفغانستان.

تضامن الجيل الجديد

لا تعدو كلّ تلك العبارات المبتذلة القديمة كونها استعارات ميّتة، تقع فيما وراء مسار العالم المتحرر والحرّ، في تشكيل نفسه وفق آفاق أخرى مختلفة أكثر سماحةً. وبما أننا لم نعد تحت تأثير هذه الخدع الإمبريالية الاستعمارية اليوم، أصبح لنا - كشعوب - موعد متجدّد مع التاريخ. وإذا سُمح لتلك الثورات بأن تتراجع؛ لتتبنّى عناصر عنصرية قديمة وكريهة، تبدو جلية في المرجعيات القومية العربية والإيرانية والتركية وغيرها من العناصر التي تدعو إلى الغثيان، فسنعود قرنين إلى الوراء، وستذهب كلّ هذه التضحيات البطولية سدى.

تُعدّ جميع القوّى الأساسية المسبّبة لهذه الثورات من آسيا إلى أفريقيا، ومن أميركا اللاتينية إلى أفريقيا وحتّى في أوروبا وأميركا الشمالية، قوى ديموغرافية واقتصادية. وستغيّر الأحداث التي شهدناها في إيران ومصر وتونس وليبيا، بالإضافة إلى الأصداء الواسعة المتعددة من المغرب إلى البحرين ومن أفغانستان إلى اليمن، كل ما نعرفه عن أنفسنا: ما هي هويتنا؟ وما هي ماهيتنا؟

لا يمكننا أن نسمح لهذه الآثار الاستعمارية السّيئة بأن تحجب عنا الأفق الذي نتجه نحوه. ولن نسمح، بذلك، بالفعل؛ حيث إن كل ما يجري في أوساطنا لا يعبّر عن أسوأ المخاوف التي نتخيّلها، بل على العكس تماماً، لأن جيل الشباب من العرب والإيرانيين والأفارقة يتحدث، بلغة مختلفة، ويبني سلوكه، على أساس مشاعر جديدة. كان التضامن العابر للقوميات المحرّك الأول لهذه الثورات، وهو ما سيُبقي على جمرتها مشتعلة لسنوات قادمة. والدليل على هذه الحقيقة بيّن وظاهر، في الشوارع وميدانيّ التحرير وآزادي، على حدّ سواء.

كتب ناشطون آخرون، كردّة فعل على المشاعر المعادية للعرب، في الحركة الخضراء، مقالات عدّة عن شخصية حنظلة للفنان الفلسطيني ناجي

العلي، وسرعان ما ظهر البطل الفلسطيني الرمزي بوشاح أخضر، يرافق المتظاهرين، في طهران. وفي اليوم الذي تنحّى فيه حسني مبارك، أبدى أوّل شاب مصري قابلته قناة «بي بي سي»، تضامناً كبيراً مع الثوار الإيرانيين، عاداً أنّ إيران ستكون التالية. وقال - أيضاً - وائل غنيم، الناشط الإلكتروني الشاب، مرتدياً عصبة خضراء، على معصمه عند مخاطبته، للمحتشدين، في ميدان التحرير، إنّه سعيد بأنّ الإيرانيين عدّوا ارتداءه للعصبة تضامناً مع قضيتهم. ترسم هذه الثورات الخطوط العريضة لإمكانات بشرية جديدة، سواء من ناحية ارتكازاتها الاقتصادية، أو من ناحية تطلّعاتها السياسية. وتبشّر بإمكانات، تتخطّى بشاعة العنف العنصري والتمييز الجنسي، وقبل كل شيء، ذلك الانقسام الطبقيّ الفاحش.

نُشرت، لأول مرة، على موقع الجزيرة مارس ٢٠١١

المسلمون كتعبير مجازي

بعد جريمة القتل الجماعية المروعة في النرويج في ٢٢ يوليو ٢٠١١ ورد الفعل المباشر اللحظي وغير المحسوب، من عدد من أبرز وكالات الأنباء الأوروبية والأمريكية - بما فيها هيئة الإذاعة البريطانية، صحيفة فاينشال تايمز، نيويورك تايمز، وول ستريت جورنال، وواشنطن بوست، ومجموعة كبيرة من محطات التلفزيون والإذاعة، والمواقع الإلكترونية، والمدوّنات - افترضوا - بوقاحة منقطعة النظير، بل ونشروا افتراضاتهم - في الواقع - على الصعيد العالمي - أن تلك الجريمة البشعة تمّت على أيدي إرهابيين مسلمين. كان هذا قبل أن تظهر أيّ حقيقة، أو دليل واحد رسمياً عن المتهمين، أو المشتبه بهم. أثار هذا الحدث الذكريات المكبوتة - إلى حد كبير - من تفجير أوكلاهوما عام ١٩٩٥، والتي فقد فيها إرهابي أبيض أشقر آخر صوابه، وقتل مئات الأشخاص، وأصاب عدداً أكبر، وأرهب البلاد، بطولها وعرضها. وجاء - هنا - التصرف العنصري نفسه والموقف الذي يلقي باللوم على المسلمين - حتى تبيّن لاحقاً أن الإرهابي كان مسيحياً أمريكياً أبيضاً أصولياً، يُدعى «تيموثي جيمس ماكفي». ما أزال أذكر - حتى اليوم - أن «زميلاً» من جامعة كولومبيا (ذكر، أبيض، أنغلوسكسوني) بادرني بالحديث في الحرم الجامعي في يوم الأربعاء المروع ذاك في ١٩ أبريل ١٩٩٥ قائلاً إن هجوماً إرهابياً واسع النطاق قد تمّ ارتكابه في أوكلاهوما، وتم إلقاء القبض على «ثلاثة من الإيرانيين المشتبه بهم» في المطار. ثم أخذ يحدّق في وجهي، بانتظار نظرتي الحائرة والمرتبكة؛ لتتحول إلى نظرة، ملؤها الإحراج والخجل. ولكنها لم تتحوّل.

انطوت أحداث الحادي عشر من سبتمبر على ردَّي فعل متطابقَين،

يسبق أحدهما الآخر، بفارق ستة عشر عاماً، واللذين أظهرا - مرة أخرى، وعلى نطاق واسع - العنصرية التي تتحرّك، بدوافع سياسية، وذلك ليس في وسائل الإعلام، وحسب، بل في قلب المجتمعات التي تمثّلها. واليوم بعد أن انجلى الغبار الكثيف الذي كان يلفّ مذبحة النرويج، في البداية، وتمّ اعتقال المشتبه به، والذي تبيّن أنه نرويجي أشقر وأزرق العينين يُدعى «أندرس بيرينغ بريفيك» الذي اعترف، بجريمته، وبعد أن علمنا أنه له باعاً طويلاً في كره اليسار والمسلمين، (اليسار لسماحه للمسلمين بالمجيء إلى أوروبا والولايات المتحدة، وهكذا يقومون - بالتالي - بتلويث عرقه الصافي، والمسلمون، لكونهم مسلمين، وحسب)، إننا بحاجة إلى فهم المرض المزمن، في جذور ردة الفعل اللحظية تلك. لماذا في كل مرة تُرتكب جريمة مروّعة بهذا الحجم في أوروبا الغربية، أو أمريكا الشمالية، فإن رد الفعل الغريزي لهذه المجتمعات - كما يتضح ويترسّخ في وسائل إعلامها - لا يكون سوى الشكّ والاشتباه، بمسلم ما؟!

السؤال ليس واضحاً تماماً، ولكنّ الجواب كذلك. لم نعد هذه المرة - ولحسن الحظ - تحت رحمة وكالات الأنباء المروّعة، التي تمارس - وبشكل مستمر - التعصب، والتي تحاول إثارة رعب مجتمعاتنا. حتى عندما يتمّ ضبطهم متلبّسين، بالجرم المشهود، يعبّرون عن عنصريتهم البشعة، فإن كل ما يفعلونه هو نشر «تصحيح» خاطف، واعتبار أن المسألة انتهت. واليوم - بفضل معجزة وسائل الإعلام الجديدة - من قناتيّ الجزيرة و«جدلية»، إلى عدد، لا يُحصى من المدوّنات والصفحات، على فيسبوك، ومقاطع اليوتيوب، والمغردين، وهلم جراً - أصبح من الممكن مواجهة عنصريتهم البيضاء المتفوقة وتفكيرهم المتعجرف والتأمل في سلوكهم القبيح. لقد ولّى وانتهى عصر العجرفة الاستعمارية الأوروبية والغطرسة الإمبريالية الأمريكية. إننا - اليوم - في موسم الربيع العربي. وجاء وقت الردّ. هذه العصابة من أنصاف المتعلّمين، والذين يعرفون لغة واحدة، وحسب، وضيّقي الأفق الحمقى، الذين يتنكّرون، بلباس الصحفيين المسؤولين،

والذين يسارعون لاتخاذ وضعية المؤسسات المرموقة، والذين يهنّئون أنفسهم لمكانتهم الصحفية المرموقة، ويمنحون أنفسهم جوائز البوليتزر، على الرغم من حقيقة أنهم قاموا - ولأجيال - بترهيب أهلنا وأطفالنا، لا يمكننا السماح لهم، بالإفلات هذه المرة. لقد أرهبوا، وأخافوا الجيل الماضي حتى لاذ، بالصمت. لن نسمح لأبنائنا - بعد اليوم - أن يذهبوا إلى المدرسة خائفين من أسمائهم وعقيدة آبائهم وهويتهم وكينونتهم. لقد أرهبونا لما فيه الكفاية. وحان الوقت للانتقام منهم، وتقديم النظريات الدقيقة، بشأنهم.

المسلمون واليسار

انتبه إلى العناوين التالية: «الحلف غير المقدّس: الإسلام الراديكالي واليسار الأمريكي» (ديفيد هورويتز، ٢٠٠٤)، «العدو في الداخل: اليسار الثقافي ومسؤوليته عن ١١/٩» (دينيش دسوزا، ٢٠٠٧)، «الجهاد الأكبر: كيف يخرّب الإسلام واليسار أمريكا؟ (أندرو سي. مكارثي، ٢٠١٠). والقائمة تطول للغاية - سد أنفك، وابحث على شبكة الإنترنت، سواء كان ذلك على موقع «أمازون» أو المواقع التي تنتشر مثل الفطر، أو يمكنك زيارة المكتبة المحلية، في أي مكان في أمريكا الشمالية، أو أوروبا الغربية. ستجد هذه الكتب - عادة - على رف الكتب «الأكثر مبيعاً». وسترى سيل العبارات المتفجّرة: «اليسار المعاصر والفاشية الإسلامية»، «الحلف غير المقدّس بين الإسلام واليساريين»، «فضح أكاذيب الليبرالية: الزواج الغريب بين الإسلام واليسار». الأمر يشبه صناعة قائمة، بحد ذاتها: كتب ومقالات، ومواقع إلكترونية ، مدوّنات، مغرّدين، ومراكز أبحاث، وعنصريين بيض، وواشين من البلدان الأصلية، ومثقّفين كومبرادوريين، وخبراء إرهاب، وصهاينة محصّنين، ومحافظين جدد، للإيجار.

الرسالة بسيطة: اليسار والإسلاميون تحالفا مع بعضهما البعض لتدمير الحضارة الغربية، بادئين بخط الدفاع الأول والأخير، دولة إسرائيل الطيبة.

نشر أحد أكبر هؤلاء المشعوذين كتاباً، بعنوان «الأساتذة: الأكاديميون الـ١٠١ الأكثر خطورة في أمريكا» (٢٠٠٦) - وأنا واحد منهم - والذي يعدّد فيه الأكاديميون الأمريكيون الروّاد، والذين يُصنَّفون بأنهم يساريون، أو مسلمون.

مصطلح «اليسار» هذا مصطلح عامّ، كلمة فضفاضة. تشمل النسويين والناشطين والعلماء المثليين، فضلاً عن الناشطين والأكاديميين، في مجالات الدراسات الأفريقية الأمريكية، والدراسات العرقية والإثنية، وكل ما يعني في الخيال الذكوري الأبيض «التعددية الثقافية» - وباختصار، كل العناصر غير المرغوب فيها التي تعيش في كوابيس هؤلاء المؤلّفين الذين يكتبون هذه الكتب، وناشريها، والأشخاص الذين يشترونها، ويقرؤونها. نجد في فيلم «٣٠٠» (٢٠٠٧) لزاك سنايدر أن كل المخلوقات التي تشكّل جيش أحشويروش هي الخلاصة البصرية «للمسلمين واليسار».

لننظر في كتابات واحد من هؤلاء المؤلّفين الأكثر مبيعاً - دينيش دسوزا. ولنفكّر في عناوين بعض كتبه: «ما هو أعظم ما في المسيحية؟»، «ما هو أعظم ما في أمريكا؟»، «رونالد ريغان: كيف أصبح رجل عادي زعيماً استثنائياً؟»، «الحياة بعد الموت: الإثبات». لدى الرجل فكرة واحدة بسيطة: أمريكا والمسيحية أعظم ما حدث في تاريخ البشرية، وكل شيء آخر - اليسار والإسلام على وجه الخصوص - يمثل الشر المطلق، والذي سيذهب إلى الجحيم، لا محالة، ما لم يرَ تابعوه النور، كما رآه هو، وينضمّوا إلى كنيسته، وينقذوا أنفسهم. اعتاد دسوزا أن يكون مع الناس الذي يشاركونه أفكاره، في معهد هوفر، في كاليفورنيا، المعهد المتخصّص كما هو واضح بمثل هذه التصرفات الغريبة. كما أصبح اليوم رئيس الكلية، بأكملها، ومسؤولاً عن تعليم جيل كامل، من الطلاب.

تأمل في هذه العناوين، واسأل نفسك، هل دينيش دسوزا جاد حقاً؟ هل يحاكي بائعي السيارات المستعملة؟ أم هل يؤمن - فعلاً - بما يكتب؟

هل هو شخص موهوم، يعاني من نقص في القدرات العقلية؟ أم هل ينبغي أن ننظر في إمكانية أن يكون من منتهزي الفرص لتحقيق التقدم المهني؟ ولذلك فإنه مدرك - تماماً - أن نوعية الهراء الذي يروّجه له شعبية كبيرة. إنه أصولي مسيحي، من دعاة الحرب، يكره المثليين، ويكره المسلمين، يكره النسويين، ويكره اليسار. إنه - في الواقع - يكره أي شيء، وكل شيء غير مسيحي - وفقاً لفهمه للمسيحية - ولكنه يحب ذلك المفهوم المجرد الذي يسميه «أمريكا»، والذي يعني - بالنسبة إليه - أمريكا البيضاء. ولكنه - ويا للسخرية - ليس أبيضاً. ما هذا النوع من المفارقة؟ الرجل هندي أسمر، ولكنه يرى نفسه محارباً أبيضاً من الأساطير اليونانية، في فيلم زاك سنايدر. المسلمون واليسار، المثليون والسود، النسويون ومناصرو التعددية الثقافية - هذه هي المخلوقات التي يراها أمامه، والتي تسكن كوابيسه. ولكنه ليس وحيداً، في ذلك. فكتابه على قائمة نيويورك تايمز لأكثر الكتب مبيعاً. الناس في أمريكا يشترون ما يبيعه - وهكذا يسعى إليه المحرّرون البارزون، ويقدّمون له عقوداً مربحة، وينشرون كتبه، في احتفالات فاخرة. ونتيجة لذلك، تُباع منها أعداد، لا تُحصى، وتتمّ قراءتها ومناقشتها واستعراضها، في المطبوعات، وفي وسائل الإعلام الإلكترونية، وعلى هذا الأساس، يتلقّى الدعوات لإلقاء المحاضرات العامة، وإجراء المقابلات، وهلم جراً. وكل هذا في دورة لا نهائية، تغذي نفسها، تتورّط فيها صناعة، بأكملها، وليس مجرد شخص ما، أو أفكاره الخاصة، سواء كانت هذه الأفكار تُعدّ غريبة، أو مقبولة، من قِبل القرّاء. لننظر في بعض أفكار دسوزا العظيمة:

يتحمّل اليسار الثقافي - في هذا البلد [الولايات المتحدة الأمريكية] *- المسؤولية عن التسبّب في أحداث الحادي عشر من سبتمبر ... اليسار الثقافي وحلفاؤه، في الكونغرس ووسائل الإعلام وهوليوود والمنظمات غير الربحية والجامعات هي السبب الرئيس، بذلك البركان، من الغضب المتفجّر، من العالم الإسلامي تجاه أمريكا.*

اليسار الثقافي والإسلام معاً، مع حلفائهم في الحكومة ووسائل الإعلام، هم المسؤولون عن حدث إرهابي ... هل يذكّركم ذلك، بالنرويج؟ قبل قبول ادعاء أندرس بيرينغ بريفيك، بالجنون، والذي يبدو أنه كان هدف محاميه السيد غير ليبيستاد، قد يرغب مكتب المدعي العام النرويجي في إلقاء نظرة على تلك الكتب ومؤلفيها وناشريها وجمهورها وقرّائها. صناعة كاملة موجودة لتلبية احتياجات ذلك النوع من «الجنون» الذي يعاني منه القاتل الجماعي النرويجي - صناعة تعتمد على أشخاص، يجمعون بين اليسار والمسلمين، ويرون أن النتيجة هي أفظع ما يهدّد الحياة المتحضّرة.

الصورة الأكبر

تاريخ اللغة العامية الأمريكية معبّأ بألفاظ السباب العرقي التي تعكس الازدراء المتعالي تجاه الأشخاص الذين كانوا على طرف المتلقّي للغزوات و/ أو الفتوحات العسكرية لأمريكا الشمالية: «Commie» (شيوعي)، «Brownie» (هندي)، «Buffie» (أسود)، «Camel Jockey» (شرق أوسطي)، «Chinaman» (صيني)،«Chinky» (شرق أسيوي)، «Coolie» كاريبي،«Darkie» (أسود)، «Gooky» (أسيوي) وهلم جراً - وبعد وقت قصير من الغزو الذي قادته الولايات المتحدة للعراق، ظهرت «Haji» في إشارة إلى أيّ عراقي، أو أي عربي أمام أنظار الجنود الأمريكيين، أو بعيداً عنهم. هذه المصطلحات المهينة تتضمن التعالي والازدراء، وتستخدم لإهانة وتشويه الشخص الذي كانوا يقاتلونه، ويخضعونه، ويهزمونه. هذه الكلمات المذلّة تحوّل «العدو» إلى «شيء» قبل أن يتمّ التخلص منه - بضمير مرتاح.

تمّ تقديم «اليسار» منذ الخمسينيات ومطاردة المشعوذين المكارثية، من قِبل «اليمين» على أنهم كابوس أمريكا. تمّ اعتبار «اليسار» طابوراً خامساً، والعدوّ من الداخل. فإذا كان الاتحاد السوفييتي هو العدوّ الخارجي، فإن اليسار هو العدوّ الداخلي، الكيان الذي يريد تخريب النظام لتعزيز قضية

العدوّ الخارجي: بنفس الطريقة التي اتهم فيها الكاثوليكيون الأوائل بأنهم أكثر ولاء للبابا في روما، من الدستور الأميركي، وبالطريقة نفسها التي يُعدّ فيه المسلمون - اليوم - العدوّ الداخلي، العدوّ الذي تسلّل إلى قلب الإمبراطورية، ليهدّدها نيابة عن المسلمين، في جميع أنحاء العالم. إنها عقلية الحصار. المعلّقون الذين يتراوحون بين برنارد لويس إلى نيال فيرغسون قد صرّحوا لأسواقهم المربحة، بأن «الغرب» مهدّد من قِبل هؤلاء المسلمين الذين غزوا قلب إمبراطوريتهم. يناسب البحث عن هذا العدو الداخلي - تماماً - تشبيهه بمطاردة الساحرات والمشعوذين. عاد آرثر ميلر في مسرحيته «البوتقة» (١٩٥٣) بالتاريخ إلى عام ١٦٩٢، إلى مطاردة الساحرات، في سالم، ماساشوستس، لتشخيص الخوف المرضي الذي اجتاح الأمريكيين خلال ما يسمّى بـ «الخطر الأحمر» من عام ١٩١٩-١٩٢٠ والفترة بين عامي ١٩٤٧-١٩٥٧. واليوم ظهر وضع اليساريين مع المسلمين - كما نراه مجسّداً بين المؤلفين الأمريكيين الأكثر مبيعاً إلى القاتل الجماعي النرويجي أندرس بيرينغ بريفيك - كطريقة مماثلة لذلك النوع من مطاردة الساحرات، من سالم في عام ١٦٩٢، إلى تفجير أوكلاهوما، في عام ١٩٩٥، إلى قائمة الكتب الأكثر مبيعاً، للمحافظين الجدد والصهاينة.

إن ما كان يفعله دينيش دسوزا - وتلك المجموعة من المحافظين القدامى والجدد الأقل موهبة، والأكثر خطراً الذي يمثّلهم، وما قاموا به، على مدى العقود القليلة الماضية، في الولايات المتحدة - هو المساعدة، في تحويل الخوف من اليسار، واحتقاره إلى الخوف من المسلمين واحتقارهم - وقد نجحوا في ذلك، بالفعل. هذا التحويل للمسلمين واليسار إلى بعضهم البعض يشكّل تطوّراً حديثاً جداً، يعود تاريخه إلى ذلك الزمن قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر المروّعة، والذي بدأ - بشكل جدي - بعد أزمة الرهائن في عام ١٩٧٩-١٩٨٠ بقليل. أحد العوامل الرئيسة التي ساهمت في كل هذا - بطبيعة الحال - هو آلة الدعاية الإسرائيلية التي نجحت في إقناع الأميركيين (ولتذهب الحقائق إلى الجحيم) بأن

جميع الفلسطينيين مسلمين، والمسلمون إرهابيون، وهكذا، فإن إسرائيل تقاتل - حقاً - نيابة عن الأمريكيين، بوصفها خط الدفاع الأمامي ضد الهمجية. تشكّل أطروحة صموئيل هنتنغتون «صراع الحضارات»، المنظّر الرائد للإمبريالية الأمريكية، والتي ترى الإسلام، من الناحية الحضارية، باعتباره العدوّ رقم واحد «للغرب»، ذروة عملية التحويل هذه. نبعت هذه الممارسات - مباشرةً - من أفكار الفيلسوف السياسي الألماني النازي كارل شميت (١٨٨٨-١٩٨٥): ليس هناك أيّ مفهوم سياسي دون وجود عدوّ. يقوم مبدأ «المفهوم السياسي» على وجود (أو صناعة) العدو.

تحتل الكراهية المشتركة للمسلمين واليسار (وأروع ما في الأمر أن يكون المرء مسلماً راديكالياً ومثلياً أسود) مساحة واسعة من التعليق العام في الولايات المتحدة، والذي يتجاوز دينيش دسوزا وصموئيل هنتنغتون، والذي يضم فوجاً كاملاً من المفكّرين الأقل موهبة، والأكثر ثرثرة. تشكّل هاتان الأيقونتان الكبيرتان من رموز المحافظين الجدد أعراضاً واضحة لمتلازمة أكثر انتشاراً، من تلك الحدود.

نُشرت، لأول مرة، على موقع الجزيرة، في يوليو ٢٠١١

شيطنة المسلمين

ما نشهده في هذا التحويل بين اليسار والمسلمين ما هو إلا أحد العناصر الحاسمة في تكريس المسلمين كرمز للتهديد. الآليات المنهجية وراء شيطنة المسلمين، وعدّهم خطراً على الإنسانية، لا تقتصر على أعمال المحافظين الجدد والصهاينة. عندما يتعلق الأمر بتصنيف المسلمين بأنهم التجسيد الحقيقي للشر، تتأرجح القائمة تأرجحاً كبيراً بين اليمين واليسار. القلق من تعريف المسلمين مع اليسار هو من نصيب العدو الداخلي. ولكنْ؛ عندما نضبط اليسار نفسه يستخدم المسلمين كرمز للتفاهة والإرهاب، فإننا - هنا - أمام شيء أعمق بكثير، في القلق الداخلي، من الكيان الذي يُطلق على نفسه لقب «الغرب».

لننظر إلى هذه العبارة: *«إنه خليفة، على ما أظن، من نوع يقارب ذلك الذي في الشرق الأوسط»*. هذا هو ما كتبه روبرت فيسك، الصحفي البريطاني البارز، وهو أبعد ما يكون سياسياً عن دينيش دسوزا وصموئيل هنتنغتون وأمثالهما. كانت هذه الجملة الافتتاحية، من مقال كتبه في ١١ يوليو عام ٢٠١١ في صحيفة الإندبندنت؛ حيث كان يدلي بدلوه حول السيد روبرت مردوخ، في ذروة فضيحة القرصنة الهاتفية، في المملكة المتحدة. لماذا هذه البداية الغريبة؟ - لماذا «الخليفة»، من بين كل التشبيهات؟ ولماذا من «نوع يقارب ذلك الذي في الشرق الأوسط»؟ ما هي الأنواع الأخرى من الخلفاء لدينا، على أي حال؟ الخلفاء الاسكندنافيون؟ أو الأستراليون، أو البريطانيون؟ هناك نوع واحد - فقط - من الخلفاء. إنها كلمة عربية، وتعني ممثّل، أو وكيل. وقد استُخدمت - للمرة الأولى، بمعناها التاريخي - في أعقاب وفاة الرسول عام ٦٣٢م، عندما خلفه أبو بكر أحد الصحابة.

اختار أبو بكر وأنصاره اللقب المتواضع «ممثّل رسول الله»؛ حيث لم يكونوا يرغبون بالتظاهر أنهم على قدر المساواة معه. الخلفاء الآخرون للنبي، تابعوا هذا التقليد، وحافظوا على إطلاق لقب «الخليفة» على أنفسهم، حتى تشكّلت - أخيراً - السلالات العربية الأولى والثانية من الأمويين (٦٦١-٧٥٠) والعباسيين (٧٥٠-١٢٥٨)، وأطلقوا على تلك المؤسسات اسم «الخلافة». واستخدمت سلالات أخرى مثل العثمانيين (١٢٩٩-١٩٢٣) - أيضاً - هذا اللقب، في بعض الأحيان.

الآن، هل بعض هؤلاء الخلفاء فاسدون، استبدادوين، وأثرياء (مثل أي ملك آخر، أو أي ملكة، أو قيصر، أو بابا)؟ بالطبع، كانوا كذلك. ولكنْ؛ لماذا، عندما أراد فيسك اختيار كناية عن الفساد والتفاهة والطغيان لم يفكر في أحد الامثلة المتوفرة في فنائه الخلفي: بابا، قيصر، أو أحد ملوك بريطاني (ربما «ماري الدموية»)، دوتشي، أو فوهرر؟ لماذا يتم استدعاء شخصية الخليفة الشرق أوسطي عند الإشارة إلى روبرت مردوخ (AC، KCSG)، وهو قطب من أقطاب الإعلام العالمي، يحمل الجنسيتين الأسترالية والأمريكية (وتدلّ علامة AC - بعد اسمه - على حصوله على وسام أستراليا «Order of Australia»، وهي رتبة للتكريم، أُنشئت، في عهد إليزابيث الثانية، ملكة أستراليا، وتدل KCSG على حصوله على وسام القديس غريغوريوس الكبير من رتبة قائد (Knight Commander of Saint Gregory)، الذي أنشأه البابا غريغوري السادس عشر، في عام ١٨٣١)؟ هناك الكثير من الاستعارات، يمكن الاستعانة بها. إذنْ؛ لماذا «خليفة ... من نوع يقارب ذلك الذي في الشرق الأوسط»؟ لماذا لا يمكن لروبرت فيسك أن «يظن» شيئاً آخر، وأن يصل إلى مجاز مختلف؛ ليكون «من نوع، يقارب» أي شيء آخر غير «ذلك الذي في الشرق الأوسط»؟

والموضوع لا يتعلق بروبرت فيسك، وحسب، فلقد أصبحت هذه المتلازمة وباء منتشراً. المسلم أصبح كناية عن الخطر، والتفاهة، والرعب، في كل مكان. لنلق نظرة على مثال بارز آخر. لويس اتش. لافام، المحرّر

السابق المتميز لمجلة هاربرز، والناقد الأمريكي التقدمي المنقطع النظير الذي يميل إلى اليسار، وينتقد الإمبريالية الأمريكية، ولكنه لن يتردد - أيضاً - في استدعاء الاستعارات الإسلامية عندما يريد تشويه سمعة خصومه المحافظين ونبذهم. في مراجعة نقدية لكتاب ديفيد فروم وريتشارد بيرل «نهاية الشر: كيف نكسب الحرب على الإرهاب؟» (٢٠٠٣)، يسخر لافام - دون خجل - من الكاتبين لاستخدام «آيات القرآن الكريم»، لإصدار «فتاوى» مثل أسامة بن لادن، ولاستدعاء «جميع الأمريكيين المخلصين الأوفياء للجهاد المجيد» - وبينما أطلق عليهم ألقاباً، أصبح يطلق عليه اسم «الملا فروم»، «والمفتي بيرل»، و«اثنين من آيات الله، من واشنطن»؛ ليختم قائلاً: «*فلتعطهما* [فروم وبيرل] *لحية، وعمامة، ونسخة من القرآن، وأتوقع أنهما لن يمانعا كثيراً في رجم امرأة حتى الموت، لاكتشافها في وضع زنا مع مصوّر من قناة سي بي اس نيوز*».

عندما احتاج لافام تشبيهاً لتوضيح ما يعدّه سرداً دعائياً، لا يمكن اقتباسه، لم يتمكّن من التفكير، في مصدر أفضل من القرآن الكريم، ولم يتوقف لحظة للتفكير، في تداعيات ما يقول:

> *كما هو الحال مع جميع أشكال الدعاية، أسلوب الكتابة* [كتاب فروم وبيرل] *لا يبرّر الاقتباس بشكل واسع النطاق، ولكني لا أسيء للمؤلفين إذا طلبت منهما تقليص رسالة كتابهما، إلى سلسلة من الوصايا الإلهية. مثلما جاء محمد، بكلمة الله إلى الأرملة خديجة، وكبئر زمزم، إنهما يطمحان، إلى نبرة مناسبة لسفر إلهي.*

وبالمثل، الإسلام واللغة القرآنية مفيدة لتقديم قصة رمزية مناسبة لتلقين الكراهية والإرهاب:

> *كانت نتيجة تعاونهما* [فروم وبيرل] *ذلك اللغو*

القبيح الذي إذا تمّت ترجمته للغة العربية، وإعادة صياغته مع تغيير بعض الكلمات ومواضع التركيز (مواضيع الخوف والبغض التي تتوجّه ضد أمريكا وإسرائيل بدلاً من المملكة العربية السعودية والأمم المتحدة)، فقد يكون بمثابة درس، يُلقَّن لفئة من الجهاديين المخلصين، في مدرسة دينية، في قندهار.

الأمثلة كثيرة، ولا تقتصر - حصراً - على مجلة هاربرز. صفحات مجلة «ذا نيشن»، دورية يسارية ليبرالية أمريكية أخرى مفعمة بالإشارات المهينة لخصومهم المحافظين، تستخدم - أيضاً - الاستعارات الإسلامية: الملالي، المدرسة الدينية، العمائم، آيات من القرآن، وهلم جراً. القس تيري جونز من فلوريدا الذي أحرق القرآن، هدف سهل: إنه مجرد رجل عنصري بسيط وصادق، يخرج ما في قلبه المتعصب للعالم. في حين أن الأشخاص الذين يملكون حججاً أعلى بكثير - من المثل العليا التقدمية والليبرالية، واليسارية، والمتسامحة - كانوا يكرّسون «المسلم»، على أنه رمز مستدام، للشر منذ فترة طويلة.

علماء المسلمين يساعدون في ترسيخ ثنائية الإسلام والغرب

ليست القضية - هنا - في الإمساك، بهؤلاء متلبّسين، بذات الفعل. بل في فهم كيفية تحوّل المسلمين، إلى تلك الكناية السائدة، عن الخطر والإرهاب والكذب. يتطلّب التفكير بهذا التحويل إطاراً مرجعياً أكبر؛ حيث لا يقتصر الموضوع، على الأوروبيين والأميركيين، ولا اليسار واليمين - فقط - في استخدام المصطلحات الإسلامية، وإساءة استعمالها، بحرية، ككناية عن النبذ والذم والانتقاص والاستخفاف.

يعتمد ذلك على المعارضة الثنائية الأساسية المترسّخة الأكبر بين «الإسلام والغرب» - الثنائية التي كان المسلمون أنفسهم تاريخياً من مستخدميها الأساسيين، وبالتالي قاموا بتعزيزها.

ولم يقم أيّ مستشرق - حياً، أو ميتاً - بتصنيع هذه الثنائية، أو تعزيزها، أو استخدامها بهذه الشدة والإصرار والكثافة مثل برنارد لويس. ولكن المسلمين أنفسهم ساهموا فيها. وحتى يومنا هذا، وفي كل مرة يستخدم فيها أحد الباحثين المسلمين، أو العرب، أو صحفي، أو ناشط، أو مثقّف عام، مصطلح «الغرب» دون تمحيص وتدقيق - كأن يقول «الغرب يقوم بكذا»، أو «الغرب سيقوم بكذا» - فإنه يؤيد ثنائية «الإسلام والغرب» - التسميات جوفاء، إلى حد كبير، تسلب الواقع مفارقاته وسخريته وتناقضاته، ونكرانه الذاتي. إذنْ؛ ليس هناك أيّ فرق فيما إذا كان أحد كدينيش دسوزا، أو نيال فيرغسون يقول إن «الغرب» الهبة الأعظم التي وهبها الله للبشرية، أو يعكس ذلك، بأن يرى «الغرب» كمصدر كل الأهوال في العالم - إنهما في الحالتين كلتيهما، يؤكدان يقيناً لا أخلاقياً، يخص مرجعاً، يفترض الإسلام، أو ينكره، بحكم الواقع، مما يحيل المسلمين، إلى استعارة راسخة للتهديد والخداع.

تقتضي معركة الاستعارات بين «الإسلام والغرب»، أن «الغرب» جيد، وأن «الإسلام» سيىء. «الغرب» يمثّل رعاة البقر، «الإسلام» يمثّل الهنود. وكعربي، أو كمسلم، يمكنك ادعاء العكس، ولكن كل هذا لن يؤدي سوى إلى تفاقم هذه المعارضة الثنائية، والوهم الذي يشوّش الواقع. العرب والمسلمون مخطئون - بالدرجة نفسها - في المصادقة، على فكرة «الغرب»، وافتراضها على أنها إطار أساسي، للمرجعية الأخلاقية؛ حيث يُعرض الإسلام والمسلمين، ككناية، عن الشر وتفاهة.

في الوقت الذي يتشارك اليسار واليمين معاً في تكريس صورة المسلم، بِعَدّه الآخر الحضاري، وغير الأنطولوجي، لتلك القلعة الرملية التي ينبغي أن تُطلق على نفسها اسم «الغرب»، أو التي تشك في نفسها؛ لتذوب - مرة أخرى - في ظل بطلانها الخاص.

في سبر غور التخلخل المعرفي للدلالات، ليس من الكافي، أو الضروري، أو حتى المستحسن، أن نعود إلى التاريخ الأوروبي للاستشراق، أو إلى

«الكوميديا الإلهية» لدانتي (١٣٠٨-١٣٢١)، أو إلى «اختطاف من حريم» لموتزارت (١٧٨٢) ، أو حتى إلى مسرحية «الفرس» لاسخيليوس (٤٧٢ قبل الميلاد) التي تتحدث عن محاولة عقيمة، للوصول إلى أصول «الشرقي»، ولاحقاً مفهومه «المسلم»، على أنه الآخر الأسمى «للغرب». «الغرب» لم يكن موجوداً في عهد إسخيليوس، أو حتى في عصر دانتي - والاستشراق يختلف، في كل عصر، عن الآخر.

يخفّف هذا النوع من التاريخانية من هذه القضية، ويخلط النقطة المحورية للتكرار الذي يعزّز وَهْمَ «الغرب»، في سبيل الاستمرار، في الإيمان، بذاته. إننا بحاجة إلى الدقة الجراحية، في تحديد كيف ومتى ولأي غرض تم افتراض أن الشخصية الإسلامية تمثل الكناية العليا للشر - لإنتاج رد فعل فوري. مَن المستفيد، من هذه العفوية؟ مَن الذي يحرِّض عليها؟ ولأي هدف؟

ويعتمد تكريس «المسلم» كرمز للكذب والتهديد للتحضر والمجتمع - في الحقيقة - على تشبيهات قديمة. ولكنه - الآن - من عمل الصحافة في أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية وإسرائيل (ثلاثة مواقع محددة، لثلاثة أسباب محددة)، وعلى هذا النحو، يتعرض للآفة البشعة التي تشكّل الجسم السياسي المؤسس على السرد المعيب المكرس الذي يرتكب إرهاباً، لا يمكن سبر غوره، على أجيال، من أطفال المسلمين وآبائهم، في جميع أنحاء العالم، وإقناعهم بأن هناك خطأً راسخاً، فيما يتعلق بكينونتهم وهويتهم.

لم يعد العالم تحت رحمة هذا النشاز الفاسد للسلطة والثروة. لقد قاموا بتحليلنا وترويعنا، بما فيه الكفاية. لقد حان الوقت، للوصول إلى فهمهم، وتعرية حقيقتهم.

نُشرت، لأول مرة، على موقع الجزيرة، في أغسطس ٢٠١١

جيجك والقذافي: يعيشان في العالم القديم

قبل بضعة أيام - فقط - من سقوط طرابلس بأيدي الثوار الليبيين، طُلب من صادق مصطفى، أستاذ العلوم السياسية الجزائري البارز، أن يدلي برأيه حول الربيع العربي. أجاب مصطفى - من خلال طرحه لعدد من العوامل الرئيسة التي كان يعتقد أنها تساهم في صنع الثورات الحاسمة العابرة للحدود الوطنية، والتي تتمتّع - على وجه الخصوص - بقيادة هرمة، ومجتمع مكوّن من الشباب، مع فساد الأنظمة الحاكمة، وخلص إلى أن «*الشباب الذين أطلقوا هذه الثورة لا يتحدّرون من المؤسسات السياسية التقليدية، مثل نخب الأحزاب السياسية، أو الانقلابات العسكرية. وهذا ما يجعلنا نتطلّع إلى مرحلة التحوّل الديمقراطي، من النظام الاستبدادي، إلى نظام تعدّدي ديمقراطي*».

وعندما طُلب من مصطفى التنبّؤ بما سيحدث في ليبيا (في مقابلة أُجريت في الجزائر العاصمة يوم ١٩ أغسطس ٢٠١١، قبل دخول الثوّار الليبيين طرابلس بقليل)، أعطى إجابة مفصّلة، وسيناريو تلو الأخر، محللاً احتمالات (١) الحرب الأهلية التي من شأنها أن تؤدي إلى تقسيم ليبيا مثل السودان، (٢) انتصار المجلس الوطني الانتقالي، و(٣) كابوس العراق، أو الصومال، والنزاعات الأهلية التي يُخشى أن يكون تنظيم القاعدة في بلاد المغرب المستفيد الأكبر منها. في تلك المقابلة القصيرة جداً، وبعبارات دقيقة جداً، كان صادق مصطفى دقيقاً، ومهتمّاً، ومتفائلاً، وقبل كل شيء، محتفياً، بالربيع العربي والآفاق الجديدة، من السياسة المفتوحة النهايات التي أدى إليها هذا الربيع.

وربما كان القدر، أو القوة ما فوق التاريخية للأحداث، الذي أدى لأن

يكون هناك، وفي اليوم نفسه بعد مقابلة مع صحيفة لندن ريفيو أوف بوكس، نشرت مقالة للفيلسوف الأوروبي الشهير سلافوي جيجك، بعنوان متسرّع وغير مدروس (كما تعوّد دائماً) *«يا سـارقي العالم، اتحدوا»*؛ حيث أدلى فيه، بدلوه، فيما يخص أعمال الشغب الأخيرة، في المملكة المتحدة.

عالم جيجك المجرّد

وافق جيجك في مقالته مع آلان باديو، نظيره الفرنسي، على *«أننا نعيش في الفضـاء الاجتمـاعـي الـذي يصبـح - بشـكل متزايـد - 'مجـرداً.' إن شـكل الاحتجـاج الوحيـد الـذي يمكـن اتخـاذه في مثـل هـذا الفضـاء هـو العنـف الـذي لا معنـى لـه»*. ويتابع جيجك؛ ليشير إلى أن *«أعمـال الشـغب يجـب أن تقـع فيمـا يتعلـق، بنـوع آخـر، مـن العنـف الـذي تعـدّه الغالبيـة الليبراليـة - اليـوم - تهديـداً لأسـلوب حياتنـا: وهـو الهجمـات الإرهابية والتفجيرات الانتحاريـة»*، ولكنه يشترط قائلاً: *«يكمن الفـرق في أنـه، وعـلى عكـس أعمـال الشـغب، في المملكـة المتحـدة، أو في باريـس، فـإن الهجمـات الإرهابيـة تُنفَّـذ، في خدمـة المعنـى المطلـق الـذي يقدّمـه الديـن»*.

لذا؛ فإن ما لدينا - هنا وفقاً لجيجك، وما يحدّده السارقون والإرهابيون - هو «العالم المجرّد» (الذي يعطينا إياه كلٌّ من باديو والسارقون) والذي يحتله «المعنى المطلق» (الذي اقترحه كلّ من هيغل وأسامة بن لادن).

ثم تحوّل انتباه جيجك إلى الربيع العربي: *«ولكـنْ؛ ألم تكن الانتفاضات العربيـة عمـلاً جماعيـاً، مـن المقاومـة، تجنّـب البديـل الـكاذب للعنف التدميري الذاتـي والأصولية الدينية؟»* كان ينبغي لهذا أن يمنح الفيلسوف الأوروبي بارقة أمل، في ما بدا له عالماً مجرداً زاخراً بالمعاني الدينية المطلقة التي يتم الإلقاء بها مثل القنابل اليدوية للإرهابيين الهيغليين. ولكن هذا لم يحدث. لقد فقد الفيلسوف الأوروبي أيّ أمل: *«لسـوء الحظ، سـيبقى الصيـف المـصري مـن عـام ٢٠١١ في الذاكـرة، بمثابـة نهايـة الثـورة، ، والوقـت الـذي اختنقـت فيـه إمكاناتهـا التحررية»*.

نهاية الثورة؟ أليس هذا مبكراً جداً؟ يبدو أن الفيلسوف الأوروبي قد فقد الأمل - تماماً، في وقت مبكر للغاية - من اللعبة. كيف وصل إلى مثل هذا الاستنتاج؟

حفّارو القبور هم الجيش والإسلاميون. الخطوط العريضة للاتفاق بين الجيش (والذي يعدّ جيش مبارك) والإسلاميين (الذين كانوا مهمّشين في الأشهر الأولى من الاضطرابات، ولكنهم يحقّقون المكاسب الآن) تتضح أكثر، فأكثر: سيتسامح الإسلاميون مع الامتيازات المادية للجيش مقابل أن يحصلوا على الهيمنة الإيديولوجية.

وقد أصبح هذا على وجه اليقين مصدر القلق النمطي بين شريحة معينة من المثقّفين العرب أيضاً، ولكنْ؛ ما كان بمثابة صرخة تحدّي أكثر من كونه أمراً واقعاً ميتافيزيقياً، هو طريقة توصيل جيجك لحكمه. كان هناك نشطاء ومثقّفون عرب آخرون أكثر قلقاً، بشأن ثورتهم التي تخرج عن مسارها، والتي تم اختطافها من قِبل الليبراليين الجدد حليقي الذقون، والذين يرتدون بذلات أنيقة، من قِبل صندوق النقد الدولي، ومن قِبل البنك الدولي، ومن خلال قصف الناتو، ومن خلال المحافظين الجدد الأمريكيين الذين «يساعدون العرب، على العبور نحو الديمقراطية»، في حين يُنزلون «قوّاتهم على الأرض»، ويوقّعون صفقات تجارية مربحة.

جيجك: المنفصل

من الغريب أن الفيلسوف الأوروبي (الماركسي، كما يبدو) ليس لديه أيّ مخاوف بشأن تلك الأعمال «الخانقة» للثورة. لقد اقترحت في مناسبة سابقة أن الفلاسفة الأوروبيين المتميزين مثل جيجك، والذين يودون قول أي شيء، عن أجزاء أخرى من العالم، يحتاجون إلى استشارة مجموعة أكثر تنوّعاً من المخبرين، من سكان البلاد الأصليين. ولكن جيجك - للأسف - لم يستمع إلى نصيحتي، على ما يبدو. يحذّر جيجك الأوروبيين قائلاً إن *«الخاسرين هم الليبراليون المؤيّدون للغرب، الأضعف - على الرغم*

من التمويل الذي يحصلون عليه من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية - من أن يتمكّنوا من 'تعزيز الديمقراطية'، وكذلك العملاء الحقيقيون لأحداث الربيع، واليسار العلماني الناشئ الذي يحاول إقامة شبكة من منظمات المجتمع المدني، من نقابات العمال، إلى المؤسّسات النسوية».

ينبغي لهذه الالتباسات الرئيسة التي يقع فيها جيجك - ولا سيما بـ «يساره العلماني» المسروق - أن تحذّره؛ ليبدأ التسوّق (ببطاقة الائتمان المناسبة، بالطبع؛ لأن سرقة المتاجر غير متاحة) لغرض الحصول على معلومات أكثر موثوقية. الاستشارات التي يحصل عليها - الآن - غير صالحة، على الإطلاق. في العالم «المجرد»، المليء بالمعاني المطلقة من الإسلاميين المتشدّدين سارقي الثورات مثل سارقي المتاجر، يتمثّل تشخيص جيجك بقوله إن *«يسار اليوم يواجه مشكلة الرفض النهائي: ما هو النظام الجديد الذي ينبغي أن يحل محل النظام القديم بعد الانتفاضة، عندما تنتهي لحظة الحماس السامية هذه؟»*

لدينا في هذا العالم «المجرد» - على ما يبدو - نقص في التنظيم. نعم، بالفعل، وفي السياسات الحزبية. ينعى جيجك - بالضبط - الأشياء التي يحتفي بها صادق مصطفى. ولا يرفض جيجك سارقي المتاجر، في المملكة المتحدة، والإرهابيين المسلمين، والثورات العربية، وحسب، ولكنْ؛ حتى احتجاجات الانديغنادوس الإسبانية:

> *وفي هذا السياق، يكشف البيان الرسمي لاحتجاجات الانديغنادوس الإسبانية، والذي صدر بعد مظاهراتهم في مايو الكثير. أول ما تراه العين اللهجة غير السياسية الواضحة: «يعدّ البعض منا أنفسهم تقدّميين، والبعض الآخر محافظين. وبعض منا مؤمنون، والبعض الآخر ليسوا كذلك. والبعض منا يتبع أيديولوجيات واضحة، والبعض الآخر غير سياسيين، ولكننا جميعاً قلقون وغاضبون، بشأن الحالة السياسية والاقتصادية*

والاجتماعية التي نراها من حولنا: الفساد بين السياسيين ورجال الأعمال والمصرفيين، يتركنا دون حول ولا قوة، ويجعلنا، بدون أي صوت».

لقد قاموا باحتجاجاتهم نيابة عن «الحقائق الأساسية التي لا يمكن مصادرتها، والتي ينبغي أن نلتزم بها، في مجتمعنا: الحق في السكن، وفرص العمل، والثقافة، والصحة، والتعليم، والمشاركة السياسية، والتنمية الشخصية الحرة، وحقوق المستهلك، من أجل حياة معافاة وسعيدة». إنهم يدعون - في الوقت الذي ينبذون فيه العنف - إلى «ثورة أخلاقية»:

> *الانديغنادوس يرفضون الطبقة السياسية، برمتها، اليمين واليسار؛ لأنها طبقة فاسدة، تسيطر عليها شهوة السلطة ... وهذه هي نقطة الضعف القاتلة لهذه الاحتجاجات الأخيرة: إنهم يعبّرون عن غضب حقيقي غير قادر على تحويل نفسه، إلى برنامج إيجابي للتغيير الاجتماعي والسياسي. إنهم يعبّرون عن روح الثورة دون ثورة.*

لذلك، ليس هناك أمل في إسبانيا أيضاً؛ حيث يثور الناس هناك دون أن يكون لديهم ثورة. لم يكن من المتوقع أن يعود الفيلسوف الأوروبي، إلى اليونان، مسقط رأسه الخيالي، للحصول على العزاء والأمل: «*إن الوضع في اليونان يبدو واعداً أكثر، ربما بسبب التقليد الحديث من التنظيم الذاتي التقدمي* (الذي اختفى في إسبانيا بعد سقوط نظام فرانكو)».

ولكنْ؛ حتى اليونان القديمة الجيدة ليست مشهداً سعيداً «للبروفيسور المطلق» (المصطلح الذي اختاره جيجك من سورين كيركيغارد؛ ليصف معبوده هيجل)؛حيث «*حتى في اليونان، تظهر حركة الاحتجاجات حدود التنظيم الذاتي: يحافظ المتظاهرون على مساحة من الحرية العادلة دون وجود سلطة مركزية لتنظيمها، مساحة عامة، تعطي الجميع المقدار نفسه، من الوقت، للحديث، وهلم جراً*».

يُعدّ كل هذا - بالنسبة لجيجك - فوضى، ويفتقر إلى الانضباط الثوري، والكادر الضروري من الموالين للأحزاب السياسية، من ذلك النوع السوفيتي القديم.

«عندما بدأ المتظاهرون، بمناقشة ما ينبغي القيام به بعد ذلك، وكيفية تجاوز مجرد الاحتجاج، كان إجماع الأغلبية أن الحاجة لا تقتضي تشكيل حزب جديد، أو إلى محاولة مباشرة، للاستيلاء على سلطة الدولة، فحسب، وبل تأسيس حركة، تهدف إلى الضغط على الأحزاب السياسية. ومن الواضح أن هذا لا يكفي لفرض إعادة تنظيم للحياة الاجتماعية. يحتاج المرء للقيام بذلك إلى جسم قوي قادر على التوصل، إلى قرارات سريعة، وتنفيذها، بكل القسوة الضرورية».

وقد فتحت الهاوية، وأصبح الأستاذ ما بعد الحداثي حريصاً جداً على الشكليات - هل نجرؤ على القول أنه قد أصبح محافظاً؟ كل ما يتطلبه الأمر حدوث أعمال شغب في لندن (علاج بالتسوق، ولكنْ؛ مع إضافة المنشطات)، وهجوم ارهابي في نيويورك، ومخبر من سكان البلاد يدلي بمعلومات خاطئة عن الربيع العربي أمام هذا الفيلسوف، لتحويل العالم إلى شيء مظلم ومجرد ومليء بالتعصّب المطلق، وإظهار الهموم الوجودية لما بعد الحداثة غير القادرة على قراءة علامات هذا الزمن.

هل الربيع العربي النصف الفارغ من الكأس؟ أم النصف الممتلئ؟

من أين تأتي تلك الفروقات بين هاتين الرؤيتين، المثقّف العربي المتعلق أخلاقياً والمشارك سياسياً، ونظيره الأوروبي الغامض أخلاقياً والمتشائم سياسياً؟ الأول أمامه كل شيء؛ ليكسبه، وعالم؛ ليعيش فيه، والآخر ليس لديه ما يخسره، بعد أن فقد عالمه لصالح العالم المجرد.

يزدهر بروفيسور العلوم السياسية الجزائري على القراءة الحالمة للعالم الذي ينفيه جيجك، ويعدّ أنه عالم مجرد، بالفعل. لماذا لا يخشى صادق مصطفى من مؤامرة بين الإسلاميين والجنرالات؟ لماذا يخاف جوزيف مسعد من الليبراليين الجدد والمحافظين الجدد الأمريكيين أكثر بكثير من الإسلاميين؟ عالم يتكشّف أمام عيني جيجك، ولكنه لا يزال يرى العالم كعالم مجرّد، الثورة المصرية اختنقت، والربيع العربي هُزم. كيف ولماذا يحتفي المثقّف الجزائري بما ينعيه الفيلسوف الأوروبي: غياب السياسات الحزبية، وصعود السياسة البعيدة عن السياسة النمطية؟

ينعى جيجك العالم المجرد، ويقرر أن المعنى المطلق هو السبب في الإرهاب. إنه لا يرى العالم التي يتكشّف أمامه اليوم كعالم مفعم بالأمل، وهادف ودنيوي ومؤكداً على الحياة. وكل هذا لأن جيجك مثل القذافي عالق في أساليبه وطرقه القديمة. لا يمكنه أن يصدّق عينيه، ولا يمكن أن يقبل بما يحدث له: وبأن «عالمه» هو الذي انتهى، وليس «العالم»، وبأنه (يجسّد فلسفة أوروبية تخسر ثوابتها الميتة) يعيش في عالم مجرد، وليس في «العالم».

جيجك والقذافي يحملان نفوساً متماثلة، مصرّين - بشدة - على العوالم التي يعرفونها، العوالم نفسها التي يخسرونها - المتمردون المتحدون يدقون أبواب مجمع باب العزيزية؛ حيث هم، وهو العالم الذي إما يكون ملكهم، أو لن يكون له وجود أبداً: أنا ومن بعدي الطوفان. على الرغم من أنه جيجك قد بدأ - بالكاد - في رفض الربيع العربي، ومن ثم؛ بدأ ينعى فقدان المثالية بين سارقي المتاجر.

إنه - في الواقع - الفيلسوف الأوروبي نفسه الذي يُعدّ من حفّاري قبور التاريخ، ولا يجد ما يراه، وما يقوله، ولا شيء؛ ليحتفي به، لأن هذا التاريخ ليس تاريخه، إنه ليس تاريخاً، على الإطلاق، لأن التاريخ كان تاريخه دوماً، لا تاريخ أي شخص آخر. إنها لحظة في التاريخ عندما لا يستطيع الهيغلي

أن يعرف الفرق بين علامات المرض (السرقة والإرهاب)، كالأطروحة وفكرة العلاج (الربيع العربي) كالأطروحة المضادة - ليتخلى عن كل هذا للجنرالات والإسلاميين. إن أعمال الشغب في لندن والأعمال الإرهابية - من هذا النوع أو ذاك - هي أعراض مرض، مرض الرأسمالية والطائرات المقاتلة الإمبريالية التي تندفع في جنون القتل، من أعلى، إلى أسفل.

الربيع العربي هو نقطة انطلاق جديدة، للتاريخ ، ومشهد لعالم بدأ يكشف عن نفسه، في اللحظة نفسها التي يرى فيها الفيلسوف الأوروبي - تماماً مثل العقيد القذافي - العالم «مجرداً» لأنه ليس عالمه. كعالم لا يمكنه أن يتخيل نفسه فيه، لأنه قد تخيل العالم، من أجل الجميع. الربيع العربي هو الأفق المفتوح من الأمل للانعتاق، لقراءة جديدة للعالم، والعوالم. ولكن جيجك لا يرى ذلك؛ لأنه لم يكن في عالم، من صنعه، ووجه وقوة عالم قد هبط به هيغل، إلى ما قبل التاريخ، إلى اللاتاريخ. لقد أعلن جيجك - بالفعل - نعي الربيع العربي؛ لأن ما يظهر على شكل عالم مجرد - بالنسبة إلى الفيلسوف الأوروبي - عالم، لا يمكن فهمه، يسكنه آخرون، والذين لا يمكنه قراءتهم.

نُشرت، لأول مرة، على موقع الجزيرة، في سبتمبر ٢٠١١

ترميم روح المدينة الإمبراطورية

بعد مرور ما يقرب من عشر سنوات، على تلك الذكرى الحزينة، والانهيار المفجع لهذين العملاقين اللطيفين، في مركز التجارة العالمي، في مدينة نيويورك - العقد الذي انتهى، للتو، بتخفيض وكالة التصنيف الائتماني الرائدة ستاندرد آند بورز لمرتبة الولايات المتحدة الأمريكية، من التصنيف AAA، إلى التصنيف AA، للمرة الأولى، في التاريخ.

الإمبراطوريات: لم تعد كما كانت عليه من قبل. أيهما أسوأ، رمزي القوة AA العملاقين لإمبراطورية، انهارت وضح نهار التاريخ، أو تصنيفها AAA الذي ختن بضربة واحدة إلى AA أمام العالم كله؟ هل هذا ما كان يعنيه فريد زكريا، ربما، بقوله «عالم ما بعد أميركا»؟

هل يتذكّر أحد - أم نسينا جميعاً اليوم - الذكرى العاشرة لـ ٢ مارس ٢٠٠١، عندما بدأت حركة طالبان بتفجير تمثالَي بوذا التوأمَين، في باميان، بناء على أوامر زعيمهم الملا عمر؟ بين الصورتين المنعكستين لتماثيل بوذا، في باميان وأبراج مانهاتن، والتي سقطت، في رعب الخوف والتعصب، كم عدد المعالم الأثرية والمباني والأرواح البريئة، التي هلكت في هيرات وكابول وقندهار وبغداد والبصرة والكاظمية وغزة وبيروت وطرابلس؟ وكم عدد الأرامل والأيتام؟ وكم عدد ضحايا هجمات الطائرات، بدون طيار المتعمدة، أو غير المقصودة؟ وكم عدد اللاجئين؟ وكم عدد الكوابيس؟

قال ذات مرة الجنرال الأمريكي تومي فرانكس: «*إننا لا نعدّ الجثث*». ما الذي يعدّه الجنرالات؟ هل سيأتي وقت، يتم فيه محاسبة الإمبراطوريات؟

وسواء عدّ الجنرالات الجثث، أم لا، فإن الأشياء لا تبدو جيدة، على الجبهة الداخلية، للإمبراطورية أحادية القطب. بعد فترة أقل من عامين - فقط - من الأزمة المالية الطاحنة في عام ٢٠٠٨ التي أوصلت باراك أوباما إلى البيت الأبيض، في الذكرى العاشرة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر، فإن الإمبراطورية الأمريكية لديها ما هو أصعب بكثير من تنظيم القاعدة؛ لتخافه، وتقاتله. خطة خفض العجز التي أقرها الكونغرس الأميركي لم تكن كافية - كما هو واضح - لتحتفظ الوكالة بتقييمAAA لتلك الدولة العظمى. المستثمرون الذين من الصعب إرضاؤهم، يفقدون الثقة. مع الديون الضخمة، ونسبة البطالة التي تصل إلى ٩,١ في المائة، ووسط مخاوف من ركود مزدوج، فإن الرجل في سدة الحكم - والذي بشّر «بجرأة الأمل»، للوصول إليها - يواجه - اليوم - جبهة داخلية أضعف من تلك التي كانت في ذلك الصباح المخيف ليوم الثلاثاء في ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١.

تراجع الإمبراطورية

يأتي هذا العدوّ، من الداخل، ولكنْ؛ ليس في هيئة «خلية إسلامية نائمة». إنها خلية محلية. إنه الجشع. إنه الحزب الجمهوري الذي يلد - اليوم - الكابوس الذي يدعوه حزب الشاي. إذا كان العالم في عهد بوش (٢٠٠٠-٢٠٠٨) مهدّداً من قِبل المحافظين الجدد، فإن عهد أوباما يعاني من حزب الشاي الذي يجعل المحافظين الجدد يبدون كقطط وديعة. إذا كان المحافظون الجدد مرضى نفسيين، يأخذون ملاحظاتهم الدراسية، من محاضرات ليو شتراوس، عن الهيمنة العالمية، فإن هؤلاء المعتلّين اجتماعياً - في حزب الشاي - يستهدفون أسس المجتمع المدني.

ويمثّل هذا العقد دوامة منحدرة إلى الأسفل: الجمهوريون وَلدوا المحافظين، والمحافظون وَلدوا المحافظين الجدد، والمحافظون الجدد وَلدوا حزب الشاي. لقد ظننا أن نيوت غينغريتش كان أثراً من العصور القديمة. إننا بحاجة - اليوم - إلى فك شيفرة ريك بيري.

أطلقت الهجمات الإجرامية في ٩/١١ العنان لإرهاب الدولة، من قِبل المحافظين الجدد تجاه العالم، ويهدّد إرهاب حزب الشاي - اليوم - بعرقلة سير عمل جهاز الدولة، ومعه نسيج المجتمع المدني.

لقد فازت معشوقتهم ممثلة مينيسوتا، ميشيل باكمان، في استطلاع الرأي، في ولاية أيوا، مما أضاف المزيد من الزخم لحملتها الرئاسية الشعبوية الأصولية الإنجيلية المسيحية. كانت سارة بالين خدعة. بهذه الطريقة، ينبغي على المملكة المتحدة إرسال «شرطيّ خارق» (جيمس بوند؟) لتفريق أعمال الشغب السياسي. تخيّل المأزق الذي يعيشه العالم: تهرب من جمهورية إسلامية، تخاف من دولة يهودية ودولة الهندوس الأصولية المطابقة لها، وينتهي بك الأمر في إمبراطورية مسيحية - حيث القسّ تيري جونز في فلوريدا يحرق القرآن، والمسيحي الصهيوني جون هاجي يستعد لمعركة هرمجدون، قبل أن يكشف القس هارولد كامبينغ أن «الاختطاف» سيحدث في ٢١ مايو ٢٠١١؛ حيث ستكون نهاية العالم.

الإمبراطورية - أي إمبراطورية؟ لننس أمر الإرهابيين المسلمين، فالصين، التي تدين لها الولايات المتحدة، بأكثر مما تستطيع الوفاء به، تطلب من الولايات المتحدة - اليوم - أن تعالج «مشاكل الديون الهيكلية»، ويصل الأمر إلى مطالبتها، بإشراف دولي، على الدولار الأمريكي. السيناتور جوزيف مكارثي (١٩٠٨-١٩٥٧) يتقلب - الآن - في قبره.

كل هذا غير مفهوم، بالنسبة لنيويورك. نيويورك ليست مدينة. إنها خيال، شبح، رؤيا - آخر النقاط البعيدة، من الأراضي التي لم يغزها، أو يستعمرها أحد، ولم يطلق عليها اسماً. قد يغزو الأمريكيون كوكباً آخر، ويستعمرونه قبل أن يتمكّنوا من جعل نيويورك عاصمة لإمبراطورتهم. إنها ليست كذلك. نيويورك مدينة جامحة. إنها حصان طروادة، الذي لا يمتلئ بطنه، بالإرهابيين، بل بالمهاجرين مدمني العمل المؤرّقين الذين يعيشون جميعاً وفق جرعة عالية، من المنبّهات.

عاصمة هذه الإمبراطورية المزعومة ليست هنا - شبيهة، بالعمارة الرومانية المتوافقة، بشكلٍ غير متقن مع طبقة نبلاء الجنوب المنبوذة، تتّحد سوية داخل طوق من الخوف، من تلويث بقية العالم. مدينة نيويورك أبعد من واشنطن العاصمة، من بعدها عن القمر. واشنطن العاصمة هي جيه. إدغار هوفر، ولكن مدينة نيويورك هي جو بيشي.

نيويورك: في فئة خاصة بها

مدينة نيويورك هي التجسيد المادي لجميع حفلات التأبين فيها - التي لولاها ما كان لها أيّ ذاكرة. وتعاني من انتباه قصير المدى. لا يمكن أن تتذكّر أيّ شيء. إنها مدينة مختلفة اختلافاً جذرياً، عن لندن وباريس وطهران والقاهرة والدار البيضاء واسطنبول، أو أيّ مدينة عالمية أخرى. الطريقة الأفضل للمقارنة بين مدينة نيويورك والمدن الرئيسة الأخرى هي ليلة رأس السنة الميلادية الجديدة. باريس لديها برج إيفل، ولندن لديها عينها، وسيدني لديها جسر هاربور، وهلم جراً. يصبح كل واحد من هذه المعالم مركزاً للاحتفالات.

ماذا عن نيويورك؟ لا يشكّل تايمز سكوير سوى مساحة شاغرة. لا شيء هناك: لا وجود لنصب تذكارية، ولا أيّ مبنى، ولا أيّ صرح. كل ما يميّز تايمز سكوير في ليلة رأس السنة هو الناس الذين تجمّعوا هناك، للاحتفال. وبعد انتهاء الاحتفالات، وفتح زجاجات الشمبانيا، وتبادل القبل، يعودون إلى منازلهم، للنوم، ولا يبقى أيّ أثر لكل هذا في صباح اليوم التالي - باستثناء لوحات ضخمة، تزحف على الجدران، وسيارات الأجرة الصفراء والحافلات السياحية التي تتحرّك، في أنحاء مانهاتن. لا يوجد شيء، في مركز تايمز سكوير - أكثر مما هو موجود اليوم في ميدان التحرير. يعرّف الناس بعضهم البعض، ويبدعون النصب التذكارية البشرية المؤقتة، في قلوبهم. وعندما يغادرون، تغادر تلك النصب أيضاً - ولهذا السبب، بقي الناس في ميدان التحرير حتى رحيل مبارك. وإذا جاءت الثورة في أمريكا - في يوم ما - فلا بد أن تبدأ في تايمز سكوير: سلمية، سلمية!

لا تتباهى نيويورك، بشخصيتها الخاصة. بل توافق نفسها مع كل الشخصيات. تسلك باريس، بطريقة «إما أن تقبل، أو ترفض»، مثل لندن واسطنبول وومومباي وطوكيو أيضاً. أما نيويورك؛ فلا تفعل. نيويورك أكبر من أن تكون بهذه العجرفة. إذا أتيت لزيارة نيويورك، فسوف تسحرك، وتهزأ بك، ولكن ذلك لن يزعجك - لأن نيويورك خجولة، للغاية، فقد بنت واجهة، من كل تلك اللوحات الإعلانية البراقة؛ لتخفي تواضعها. ولإخفاء خجلها من الغرباء، فإنها تدّعي أنها مشغولة، بالقيام بشيء آخر - دائماً شيء آخر - ولكنها - في واقع الأمر - تراقبك، عن كثب، من مكان ما، في واحدٍ من تلك المباني العالية.

ولكنْ؛ إذا ذهبت إلى نيويورك، للعيش فيها، فستعاملك، بشكل مختلف، باحترام، سوف تكشف نفسها لك، وتظهر كل تلك الزوايا والشقوق، أثناء محاولاتها الدائمة لفهمك - من أنت؟ ما الذي تريده؟ أين تريد أن تكون؟ وكم من الأرق، وضع بك القدر؟ لذلك - وقبل أن تدرك - تلف نيويورك نفسها حولك، لتجعل من نفسها مدينتك - حيث لن تكون قادراً على العيش، في أي مكان آخر. لا تنتمي نيويورك، إلى أي إمبراطورية. إنها بلدة حدودية، تضمّ الملايين من المهاجرين المؤرّقين، مع ذكريات آبائهم، ومسقط رأس أطفالهم، الذين خلقوا صورة مثالية للأحلام التي تتكشّف لهم، والتي يطلقون عليها اسم «نيويورك». نيويورك هي تغريدة، من كوكب الأرض لاحتمالية وجود حياة، في مجرتنا.

الروح التي تطفو على السطح، في مدينة نيويورك، تتجدد ذاتياً. تموت المدينة، في كل مساء؛ لتولد من جديد، من أحيائها الخمس، في كل صباح - ناسية كل ما مضى. نيويورك ممعنة في القدم - لا تهتم بالتاريخ أبداً، لأنها مشغولة - دائماً - بصنعه، وإعادة صنعه. عندما احتل الصهاينة المتشدّدون الجادة الخامسة؛ ليتباهوا بقوتهم في «مسيرة الاحتفال بإسرائيل»، كان سكان نيويورك - وعلى بعد عدة مربعات سكنية فقط -

يشاهدون فيلم المخرج الفلسطيني الكبير إيليا سليمان «الزمن المتبقّي». أطلق الصهاينة المحبطون، بعد مشاهدتهم لإدوارد سعيد، يجذب الانتباه العالمي، إلى القضية الفلسطينية، من جامعة كولومبيا، في مدينة نيويورك، على جامعتي لقب «بير زيت على نهر هدسون».

المخرج الإيراني أمير نادري الذي يقطن في نيويورك منذ أكثر من ثلاثة عقود، كان يصور تحيته الرائعة إلى نيويورك، «ماراثون» (٢٠٠٢)، خلال العام المشؤوم ٢٠٠١، والذي يُعدّ أحد الأفلام الأربعة التي صنعها في مدينته الحبيبة؛ حيث كانت بمثابة مصدر إلهام للمخرج الإيراني - الأمريكي الشهير عالمياً رامين بهراني، الذي يحتل فيلماه «رجل يدفع عربة» (٢٠٠٥) و«الورشة» (٢٠٠٧) مكانهما ضمن الأفلام الأولى التي تتضمن رؤية للمدينة، من وجهة نظر المهاجرين العاملين فيها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، من داخل وخارج الإمبراطورية. كشفت نيويورك ما بين نادري وبهراني عن روحها المتجددة لسكانها المهاجرين، في حين كان زاك سنايدر وإمبراطورية هوليوود مشغولين، بصنع صور مخلقة إلكترونياً محقونة بالتيستسترون لأوهامهم الصبيانية في فيلم «٣٠٠».

نيويورك مدينة حقيقية - وكما تعلم دومينيك ستراوس - كان بالطريقة الصعبة، فسوف تكلّفك الكثير، إذا حاولت تزييفها.

لا نتذكّر - نحن سكان نيويورك - عصابة المجرمين الذين انتهكوا جسد وشعرية برجي مركز التجارة العالمي، ولا نغفر لهم - لا يمكن أن نغفر ما لا يمكننا أن نتذكّره، وبالنسبة لتلك العصابة مصير المجهول أسوأ بكثير من العار. ونستنكر - كسكان نيويورك، بشكل قاطع - إساءة استخدام المحافظين الجدد لأحزاننا، وشن حرب ضد الإنسانية. يُعدّ أسامة بن لادن ودونالد رامسفيلد - بالنسبة للكثير منا - من سكان مدينة نيويورك التمثيلية نفسها على لافتات مختلفة - روح واحدة مضطربة، في جسدين ملتويين. وقد التقى أحدهما - الآن - ربه، أما الآخر؛ فيجب تقديمه للمحاكمة لارتكابه جرائم ضد الإنسانية.

ما فعله رامسفيلد - في بغداد - أسوأ، بمئات المرات، مما فعله محمد عطا، في نيويورك، وأسوأ، بمئة ألف مرة، مما فعله زعيم الحرب المغولي هولاكو، في بغداد، في القرن الثالث عشر الميلادي. قد يكون رامسفيلد قد فرّ بفعلته - ولكن الولايات المتحدة لم تفعل. في غضون عقد من الزمن، وعلى وجه التحديد، بسبب «حملة الصدمة والرعب» التي أطلقها رامسفيلد، فقد انتقلت الولايات المتحدة، من قوة عظمى، إلى الاعتراف الشاق، بالإفلاس الاقتصادي، والعجز السياسي، وتضاؤل الأهمية العالمية، مع الصعود الديموقراطي، للربيع العربي الذي فضح تفاهة قوتها العسكرية الهائلة، وتفاهة إسرائيل، ودولتها العسكرية، على حدّ سواء.

أمام هذا السيل من الذكريات والهويات، يبقى سكان نيويورك مواطني مدينة إمبراطورية مكوّنة من العديد من الأجناس والعقائد والجنسيات - اليهود والمسيحيين والمسلمين والملحدين المحظوظين، أو العرب والإيرانيين والأفغان والباكستانيين والأتراك والكوريين والصينيين والأفارقة - ومن أي طريق، ومن كل شارع متفرع، من طريق نيو جيرسي تيرنبايك، يمكنك أن تسلكه، أو تتخيله.

في الذكرى العاشرة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر، يخطّط المتحف الوطني والنصب التذكاري لأحداث ١١ سبتمبر، والذي يقع في موقع مركز التجارة العالمي، على الموقع السابق لبرجي مركز التجارة العالمي اللذين دُمِّرا خلال هجمات ١١ سبتمبر، في عام ٢٠٠١، لافتتاح معلم رئيس. غابة من الأشجار مع مسبحَين مربّعَين، في الوسط، من تصميم المهندس المعماري الإسرائيلي مايكل اراد، على الموقع الذي انتصب فيه برجا مركز التجارة العالمي، في يوم ما، للاحتفاء، بالعملاقين الساقطين والضحايا الذين لقوا حتفهم، في ذلك اليوم. التصميم حزين ومهيب، على حدّ سواء.

سياسة الحداد

ولكنْ؛ ما هو، بالضبط الذي ينبغي للنصب التذكاري أن يخلّده في المدينة التي تعيش على ذكريات أكثر من أن تستطيع تذكّرها كل ليلة؛

لتصحو صباحاً، وقد نسيت نفسها تماماً؟ وإذا نظرنا إلى الطرف الجنوبي، من مانهاتن هذه الأيام، يمكننا أن نلاحظ أن الارتفاع الضئيل لتحفة مركزية جديدة، يتوقع أن تصل قريباً إلى علو ١,٧٧٦ قدم في منطقة الانفجار التي تبعث من جديد، تماماً مثل طفل حديث الولادة، رُزق به أبوان أفغانيان، أو عراقيان، لقيا حتفهما، في حملة «إنهاء الدول»، من خلال «الصدمة والرعب».

بعد وقت قصير من الأحداث المروعة ١١/٩، قدم جاك دريدا محاضرة عامة، في جامعة كولومبيا، تحدث فيها عن «الحداد على الشأن السياسي». كان الحكيم الجزائري يعلم جمهوره، في ذلك اليوم، في قاعة، لم يكن بها مكان لأحد سوى واقفاً قائلاً إن ما كنا نشهده - في الولايات المتحدة - لم يكن مجرد حداد، على أولئك الذين قضوا نحبهم، في ١١/٩، بل الحداد على المفهوم الدقيق «للشأن السياسي»، كما عرفناه. وفي ختام كلمته، سأله شخص فضولي، من الحضور، وبشكل صريح ومباشر، إذا ما كان يعتقد أن «سياسة الحداد» التي كنا نشهدها في المدينة قد تسبق الحداد «على الشأن السياسي»، وتتغلب عليه. وفكر في السؤال علناً بشكل رائع - على الرغم من أنه ليس بالقدر الذي يريده. وقال بأنه لا يمتلك كرة بلورية. نيويورك هي الكرة البلورية.

لقد جلبت أحداث ١١/٩ الولايات المتحدة إلى حضن العالم، إذا كنا قد سمحنا، كما قال دريدا، بالحداد المناسب على «الشأن السياسي» كما كنا نعرفه، وكما كان واضحاً لنا. في غضون أيام، كان جورج دبليو بوش في موقع هجمات ١١/٩، وآلة حربه تعمل بأقصى قوتها، والمحافظون الجدد المخادعون أصحاب مشروع القرن الأمريكي الجديد كانوا ينفضون الغبار عن خططهم، للسيطرة على العالم، وسياسة الحداد (حتى يومنا هذا، والتي تُعرف، بمهندس معماري إسرائيلي، يغمز ناحية أحد الفظائع الإسلامية) سبقت الحداد على السياسة.

لقد استعادت نيويورك روحها الجريحة، بحلول مساء يوم ١١/٩، في

الوقت الذي كانت فيه كل من قندهار وبغداد وغزة وبيروت بانتظار أن يتم إحراقها. كانت نيويورك في صبيحة يوم الأربعاء ١٢ سبتمبر قد عادت إلى وضعها الطبيعي، مزدحمة، وتغص بالناس، والعمل، والشعور، والبناء - غافلة، كما كانت دائماً عن «التاريخ». تموت نيويورك مع موت كل شخص، من سكانها، وتولد نيويورك - مرة أخرى - مع ولادة كل طفل، في أحيائها الخمسة. إننا نحزن على وفاة كل شخص، من سكان نيويورك، من خلال أولئك الذين يولدون، في كل يوم، وببركتهم.

نيويورك ليست مدينة إمبراطورية، إنها المدينة الإمبراطورية - الإمبراطورية الخاصة بها. لا توجد مدينة أخرى، في الولايات المتحدة، تشبهها، ولذلك تطمح جميع المدن أن تصبح مثلها. إنها ليست أمريكا. إنها ما تطمح أمريكا أن تكونه - ولكنها لا تستطيع. وهذا هو أسوأ جانب، في أمريكا. أن هناك - دائماً - أمل في إصلاحها.

نُشرت، لأول مرة، على موقع الجزيرة يوم ١١ سبتمبر ٢٠١١

الانتفاضة الثالثة قد بدأت بالفعل

لا يمكن أن يتطابق الاشمئزاز العالمي من خطاب الرئيس الأمريكي باراك أوباما الكاذب في الجمعية العامة للأمم المتحدة في سبتمبر ٢٠١١، والذي سعى - من خلاله دون خجل - لاستباق إمكانية محاولة إقامة دولة فلسطينية، أبداً مع قدر النفاق غير المسبوق الذي اختاره السيد «جرأة الأمل»؛ ليكون علامته الخاصة، في فترته الرئاسية.

لم يعد يهمّ بعد هذا الكلام إذا ما فاز أوباما في الانتخابات الرئاسية المقبلة، في الولايات المتحدة، أو يخسرها لصالح أتيلا الهوني، من الجانب الجمهوري. سوف يذكره التاريخ للعرض الذي حرّض فيه أمة، للبحث عن ملائكتها الأفضل في عام ٢٠٠٨، ومن ثم؛ للجبن الفظ الذي قام - من خلاله - بخيانة هذا الحلم، ورمي دلو من الماء المثلج، على أولئك الذين وثقوا، بكلماته.

لقد كان القس أرميا رايت محقاً، بشأنه: «إنه سياسي» - وهي طريقة مهذبة، للقول «إنه يكذب».

لم يعد من المهم إذا ما كان المرء ديموقراطياً، أو جمهورياً، أو أي سياسي آخر عديم اللون مباع ومدفوع ثمنه فيما بينهما: جرّت إسرائيل - أخيراً - الولايات المتحدة، وليس فقط مسؤولوها المنتخبون، بل الأمة التي تنتخب هذه الكوارث الفاسدة؛ لتصل بها إلى السلطة، إلى مستواها، بينما ترسم لبقية العالم مُستقبلاً مختلفاً.

الأمل الوحيد - بالنسبة للولايات المتحدة اليوم - هو مجموعة من الأبطال ممن لديهم الرؤية، والذين يخيّمون في الخارج ليلاً ونهاراً، يحتلّون

موقع تلك الخدعة الذي تُطلق على نفسها اسم «وول ستريت»، بينما يتمّ معاملتهم بوحشية من قِبل شرطة نيويورك العسكرية المحصّنة ضد العقاب، بشكل واضح.

لم يتّسم موسم السخط هذا، بخطاب واحد فقط، بل ثلاثة خطابات انتكاسية (لأوباما، وأحمدي نجاد، ونتنياهو) - يقابلها تصريح مثير واحد (لمحمود عباس) تتجاوز هالة قضيته النبيلة المتحدث غير البليغ الذي ينطق به. القضية النبيلة لفلسطين تشرق على بناء، تعوزه الفضيلة، في جنوب مانهاتن؛ حيث يتوالى أوباما ونتنياهو وأحمدي نجاد الأدوار، في إيداع أنفسهم، بطريقة غير مشرّفة، في مزبلة التاريخ.

كانت إدانة جميع هذه الخطب الثلاثة المنافقة على مستوى عالمي، بطريقة، أو بأخرى. ولكنْ؛ هناك نقطة معينة، أثارها روبرت فيسك، تستحق اهتماماً أكبر. كتب روبرت فيسك رداً على خطاب أوباما:

> *مع مرور الأيام، واكتشاف ما إذا كان الفلسطينيون سيردّون على أداء أوباما المتذلّل، بانتفاضة ثالثة، أو باستهجان، بضجر، لا مبال، معترفين بأن الأمور لم تختلف عن ذلك أبداً، سوف تستمر الحقائق، في إثبات أن الإدارة الأمريكية لا تزال أداة في يد إسرائيل عندما يتعلق الأمر، برفض إسرائيل إعطاء الفلسطينيين دولة.*

الانتفاضة الثالثة بدأت بالفعل

الفلسطينيون - بطبيعة الحال - لا ينتظرون إسرائيل؛ لتتفضل «بمنحهم» دولتهم - والتي ليست لهم؛ ليمنحوها. وفيما يتعلق بالمسألة الأكثر أهمية الخاصة «بالانتفاضة الثالثة» لم نعد بحاجة لننتظر لنرى كيف سيكون رد فعل الفلسطينيين، أو ما إذا كانت ستحدث في المستقبل القريب، أم لا. الانتفاضة الثالثة قد حصلت، بالفعل. ويُطلق عليها الربيع العربي.

الربيع العربي، بعد مرور صيفه، ويدخل مرحلة النضوج في خريفه وشتائه، إنه انطلاق الانتفاضة الثالثة على النطاق العابر للحدود الوطنية، ويشمل العالمَيْن العربي والإسلامي، ككل.

وقد انهارت الجدران الاستعمارية السميكة التي فصلت - حتى الآن - الفلسطينيين عن الملايين من المؤيّدين حول العالم تحت الوطأة الجبّارة، للربيع العربي. فمن المستحيل أن نبالغ في أهمية النضال الفلسطيني، من أجل العرب والمسلمين، في جميع أنحاء العالم. نتنياهو أحمق؛ ليفكر أنه يمكنه تقسيم العالمَيْن العربي والإسلامي، عن طريق دعم الأنظمة الصديقة لإسرائيل، وعزل الفلسطينيين، ليبقى قادراً على الاستمرار، في سرقة وطنهم، والإفلات من العقاب. الانتفاضة الثالثة التي كان وعصابته الصهيونية خائفين منها قد اندلعت، للتو، وانتشرت وراء الحدود الفلسطينية، ولتتجاوز قدرة الجيش الإسرائيلي، على قمعها.

حاول نتنياهو - في تعليقاته المتعالية العنصرية التي تفتقر إلى الخجل على الربيع العربي، وتحديداً في اللحظة التي عاتب فيها الأمم المتحدة؛ لأنها نددت بحقّ بالصهيونية على أنها حركة عنصرية (تماماً مثل أحمدي نجاد) - أن يقسّم الانتفاضات الثورية إلى أجزاء مختلفة؛ ليقبل، أو يرفض ما يروق له منها.

قال مشيراً إلى أحمدي نجاد:

«هل يمكنكم أن تتخيلوا ماذا لو كان هذا الرجل الذي تحدّث بصخب - هنا بالأمس - مسلحاً، بأسلحة نووية؟ ينبغي على المجتمع الدولي وقف إيران عند حدها قبل فوات الأوان. إذا لم يتمّ إيقاف إيران، فإننا سنواجه شبح الإرهاب النووي، ويمكن أن يتحول الربيع العربي قريباً، إلى شتاء إيراني. من شأن هذا أن يقودنا إلى مأساة. لقد نزل ملايين العرب إلى

الشوارع لاستبدال الاستبداد، بالحرية، وليس هناك مستفيد أكبر من إسرائيل، من فوز هؤلاء الملتزمين، بالحرية والسلام.

نسمع كل هذا الكلام من الرجل الذي يتربّع على مخزون قاتل، من الأسلحة النورية غير المصرّح عنها، والذي يرفض التوقيع على معاهدة الحدّ من انتشار الأسلحة النووية. لا أحد يجرؤ على تحدّي جنونه، ذلك الجنون الذين ينطوي على سرقة بلد، بأكملها، من شعبها.

ارتكبت إسرائيل - وعلى مدى عقود - «الإرهاب النووي» على العرب والمسلمين، في فلسطين وخارجها، مع الدعم الكامل من قِبل الولايات المتحدة. ومن بين هؤلاء «الملايين من العرب» الذين خرجوا إلى الشوارع، كان المصريون والأردنيون الذين أنزلوا العلم الإسرائيلي، ورفعوا العلم الفلسطيني، وأجبروا المبعوثين الإسرائيليين على العودة مجدداً إلى تل أبيب. هل الرجل واهم؟ أم مجرد منافق عادي؟

الغباء والحقد

يتنافس نظير نتنياهو الإيراني، أحمدي نجاد، في النفاق مع خصمه الإسرائيلي. لقد نفى المحرقة مجدداً، وانضم إلى مؤيّدي نظرية المؤامرة، فيما يتعلق بأحداث الحادي عشر من سبتمبر. ولكن كل هذا كان مجرد استعدادات لإعطاء المنظمة الدولية محاضرة، عن الطريقة السليمة لإدارة العالم ومعالجة مآسيه.

يأتي كل هذا الكلام من رجل يمثّل النظام الذي قمع، للتو، حركة واسعة النطاق للحقوق المدنية قمعاً همجياً، والذي لا يزال اثنان من مرشّحيه الرئيسين للانتخابات الرئاسية تحت الإقامة الجبرية، ومعزولين عن الاتصال بالآخرين منذ شهور، والذي تمتلئ زنازينه، بالمعارضين السياسيين والصحفيين والمحامين والسينمائيين والأكاديميين. ويحرم الملايين من المواطنين في بلاده من الحريات المدنية الأساسية، ومن بينهم المدوّنة الشابة، سمية توحيدلو التي جُلدت مؤخّراً خمسين جلدة؛ لأنها انتقدت

أحمدي نجاد في مدوّنتها. وتخضع إدارته - اليوم - للتحقيق - حالياً - من قِبل لجنة برلمانية، لأكبر قضية احتيال مصرفي، في تاريخ إيران.

يجتمع الغباء والحقد - بغرابة - في شخصَي نتنياهو وأحمدي نجاد - كل يختار الجزء الذي يريده من الربيع العربي الذي يؤيّده، والجزء الذي يرفضه، متغافلين عن حقيقة أن الربيع العربي هو الانتفاضة الفلسطينية الثالثة، على نطاق أوسع، والتي لم تعد تحت رحمة الجيش الإسرائيلي، أو آلة الدعاية التابعة للجمهورية الإسلامية.

اندلعت اليوم الانتفاضة الثالثة، ووصلت إلى درجة لم تعد تسمح لنتنياهو، ولا الرئيس الأميركي الضال، ولا ملوك السعودية، ولا الجنرالات المصريين، ولا رجال الدين الحاكمين في إيران، بالاستيلاء عليها. هذه الانتفاضة أكبر بكثير مما تستطيع مخيلاتهم المحدودة أن تستوعبه.

ما هو ذلك المدى العميق للجبن أو العمى الذي قد يحل برجل، شهد الثورات في تونس ومصر، وشهد نزول الملايين إلى ميدان التحرير، وتابع السوريين الأبطال يسيرون باتجاه الحرية، مَن لمح - فقط - الربيع العربي، ومن قبله الحركة الخضراء، ومع ذلك يلقي ذلك الخطاب السخيف الذي ألقاه أوباما، في الأمم المتحدة حول فلسطين؟

بعد ذلك الخطاب، أصبحت الانتخابات البلدية في أزمير أكثر إثارة وأكثر أهمية من الانتخابات الرئاسية، في الولايات المتحدة. مَن الذي قد يهتمّ - بعد اليوم - إذا ما فاز أوباما، في الانتخابات المقبلة، أم لا، أو إذا ما فاز جاك السّفاح، أو جين السفاحة، من حزب الشاي، في الانتخابات بدلاً منه؟!

يحافظ أوباماً على الصعيد المحلي على قاعات رقص الشركات والمديرين التنفيذيين، في حين تشتدّ الإهانة التي يتعرّض لها الأمريكيين العاطلين عن العمل. يتصاعد هذا الوضع - اليوم - إلى انتفاضة وطنية، تركّز على حركة «احتلوا وول ستريت». وعلى الصعيد العالمي، فكل ما يستطيع أوباما أن يقوله عن «قفزة» نتنياهو: «ما مدى علوّ هذه القفزة؟»

دخل أوباما إلى البيت الأبيض اعتماداً على المشاعر المشروعة لملايين الأميركيين الذين يرغبون في رؤية قرون من الظلم الذي مُورس ضد الأميركيين الأفارقة تصل إلى نهايتها الرمزية. وكانت تلك، ولا تزال، لحظة نبيلة، في تاريخ الأمة. ولكنْ؛ ماذا عن ذلك التاريخ من العبودية، بينما يقول أوباما للفلسطينيين أن يذهبوا؛ ليجلسوا في الجزء الخلفي من الحافلة، وأن يشربوا من صنبور مختلف، وأن يجعل منهم من المعذّبين في الأرض؟

لا بد أن وليام إدوارد بورغاردت دو بويز، ومارتن لوثر كينغ، ومالكوم إكس، وأجيال من الثوريين الأميركيين الأفارقة ونشطاء الحقوق المدنية الآخرين يتعذّبون في قبورهم لمشاهدتهم أوباما. سيسجّل أوباما في التاريخ على أنه يمثّل الكذب المنهجي، في السياسة الأميركية، والرهينة، للتفاهات المحضة المدعوّة آيباك، والمدعوّة إسرائيل، والصهيونية.

أول رئيس يهودي: لا يجب إهدار كرامة شعب، بأكمله، وحرمة دين عالمي، على هذا العار. أوباما صهيوني، وليس يهودياً. ولم يكن الرئيس الصهيوني الأول الذي شهدته الولايات المتحدة، ولن يكون الأخير. لقد تمتّعت الولايات المتحدة بكل أنواع الرؤساء الصهيونيين، ومجموعة كاملة من الصهاينة الذين يسعون لأن يصبحوا رؤساء بعد أوباما. ومع ذلك، فإن العالم - الذي يثور اليوم، ومن جهة إلى أخرى، ضد الإهانات التي تولدها سياسة اليأس - لم يعد يهتم. يرسم العالم - اليوم - إلى جانب الفلسطينيين مستقبلاً جيداً لنفسه - ولم يعد بإمكان تلك المصيبة المسمّاة «الغرب» أن تقف في وجوههم.

الأصدقاء الكاذبون والأعداء الوهميون

غيّر الربيع العربي - بوصفه الانتفاضة الثالثة - الخريطة الأخلاقية، لما وصفه الاستعماريون بـ «الشرق الأوسط»، وأدى إلى تقارب الولايات المتحدة والجمهورية الإسلامية من بعضهما البعض؛ من حيث مخاوفهم المشتركة أكثر مما تعتقدان. المملكة العربية السعودية وإسرائيل هما مساعدا الدولة التي أسمت نفسها، بـ «القوة العظمى».

لا يمكن أن تقدّم هذه «القوة العظمى» أيّ شيء للعالم سوى الموت والدمار. ومع ذلك، وبما أن الربيع العربي/الانتفاضة الثالثة - على وجه التحديد - غير عنيف، بطبيعته، فإن العنف المبتذل الذي يشكّل جزءاً، لا يُجتزأ، من التحالف الأمريكي الإسرائيلي، أصبح بغيضاً، ولا جدوى منه. الولايات المتحدة وإسرائيل ليسا الخاسرين الوحيدين، في تكوين هذه السياسة الواقعية الجديدة؛ بل المملكة العربية السعودية وإيران أيضاً. لننظر في المؤتمرين المتتاليين الصارخين على غرار المعتاد اللذين عُقدا في طهران. واحد عن «الصحوة الإسلامية»، والآخر عن «الانتفاضة الفلسطينية»، بمناسبة المحاولة العقيمة للجمهورية الإسلامية لاستغلال القضية الفلسطينية والربيع العربي، وتحويلهما إلى مصلحتها التي تتعرض إلى مخاطر متزايدة، في المنطقة.

لا بد من عرض هذين المؤتمرين في سياق الحقيقة المتزايدة الوضوح، والتي تقول إن الجمهورية الإسلامية تبدو غير كفؤ وحدها، وغير مرتبطة في المنطقة، لا سيما في ظل الصعود المبدئي لتركيا، كقوة رئيسة. تبدو كل من الولايات المتحدة وإسرائيل - فقط - في مثل سخافة وارتباك الجمهورية الإسلامية والمملكة العربية السعودية، في ردودها على الربيع العربي، الذي أخذهم على حين غرة، وكشف نفاقهم الأخرق الذي عفا عليه الزمن.

حاول علي خامنئي، «المرشد الأعلى»، أن يضرب عصفورين، بحجر واحد، في إشارته إلى فلسطين (باللغة الفارسية)، باعتبارها «دولة إسلامية»، تم انتزاعها من شعبها، لإعطائها للأجانب: فمن جهة، يدافع عن قضية فلسطين لأسبابه الداخلية والإقليمية الخاصة، ومن جهة أخرى، يؤسلم فلسطين أيضاً.

ليس جميع الفلسطينيين مسلمين، بالطبع. لقد ظهر الدين المدني حسن النية الذي يضم جميع الرموز والطقوس التي تشكّل مجموع الشعب الفلسطيني الذي يتشكّل من تيارات مجتمعة من الفلسطينيين المسلمين والمسيحيين والدروز والسامريين واليهود والبهائيين واللاأدريين. وبعبارة

أخرى، فإن فلسطين القابعة في خيال آية الله خامنئي، لا تتسع، لإدوارد سعيد، وجوزيف مسعد، وإيليا سليمان، أو الملايين من الفلسطينيين الآخرين، من غير المسلمين.

ولكنْ؛ حتى لو كان جميع الفلسطينيين مسلمين، فإن هذا لا يعني أنهم يرغبون في تأسيس «الجمهورية الإسلامية الفلسطينية» بعد أن اختبروا - ولستّين عاماً - التعامل مع دولة إسرائيل اليهودية. تُعدّ حقيقة وجود جمهورية إسلامية واحدة، إلى جانب دولة يهودية، تشرف عليها إمبراطورية مسيحية، في محيط الأصولية الهندوسية، حقيقة كارثية، بما فيه الكفاية، بالنسبة، للعالم كله. والسؤال لأولئك في «اليسار العربي» (أو ما تبقّى منه) الذين يعدّون الجمهورية الإسلامية حليفاً لهم، هو ما إذا كانوا يناضلون حقاً لإنشاء «الجمهورية الإسلامية الفلسطينية» ذات «مرشد أعلى» كسلطان عليها وعليهم. والجواب، بالطبع: لا. وكما قال لي مفكّر فلسطيني كبير مؤخّراً: «في كل مرة، يفتح أحمدي نجاد فمه، فإنه يدفع بقضية فلسطين إلى الوراء مجدداً عقداً من الزمن».

أسلمة القضية الفلسطينية زوراً وبهتاناً

إذاً؛ لا ينبغي على الفلسطينيين أن يتمنّوا للإيرانيين ما لا يريدونه أن يحدث لفلسطين. والقضية معكوسة، بالنسبة للموظفين الإيرانيين السابقين والحاليين في معهد واشنطن (معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى - الذراع الاستخبارية للوبي المؤيد لإسرائيل في الولايات المتحدة). قام هؤلاء متنكرين بأنهم من أنصار الحركة الخضراء، بزرع شعار معاد للمهاجرين «لا غزة ولا لبنان» من إذاعة «صوت أمريكا»، في خضم المظاهرات في إيران. المشكلة التي عاني منها الجانبان كلاهما - قطاعات من اليسار العربي وفصائل من اليمين الإيراني - هي أنهما غير مدركين تماماً، للجغرافيا السياسية الناشئة في المنطقة.

ليس رجال الدين الحاكمون في الجمهورية الإسلامية - فقط - مَن

يقومون بالأسلمة الوهمية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني. بل المعارضة الإيرانية أيضاً. دعا سيد محمد الصدر، نائب وزير الخارجية، في حكومة الرئيس السابق محمد خاتمي، التمرّد السوري «الانتفاضة الأكثر إسلامية في المنطقة». ولكنْ؛ وفقاً لمن؟

ترغب المعارضة الإصلاحية - من خلال تسويقها للربيع العربي، بـ «الصحوة الإسلامية» - في فضح نفاق الفصيل الحاكم، في تجاهله للانتفاضة السورية. ولكنْ؛ يعمل هذا - بدلاً من ذلك - على تقريب الفصيلين الاثنين، إلى بعضهما البعض، وبالتالي؛ تمديد مصيبة الجمهورية الإسلامية، في المنطقة، ككل.

ليس هناك أي شك في أن السوريين - كمسلمين - لهم كل الحق، في تحديد مستقبلهم السياسي، بالتوافق مع كينونتهم، وهويتهم. ولكنْ هذا ما تفعله - أيضاً - أجيال من المفكّرين السياسيين والفنانين والصحفيين والمثقّفين والعلماء السوريين الذين لم يعلنوا - أبداً - رغبتهم في إنشاء «الجمهورية الإسلامية السورية»، على غرار «الجمهورية الإسلامية الإيرانية» - تُبنى كما بُنيت الأخيرة، على المقابر الجماعية، والعديد من عمليات التطهير الجامعية، والثورات الثقافية المدمّرة، والمنفى القسري لأجيال كاملة من المنشقّين، وتشويه وقتل الخصوم الأيديولوجيين. لا يرغب بنيامين نتنياهو - بطبيعة الحال - في شيء أكثر من بيان استفزازي، من خامنئي، أو أحمدي نجاد، لصرف الانتباه، عن استمرار السطو المسلح الذي تقوم به حكومته، على فلسطين.

وفقاً للجزيرة:

> *ردّ بنيامين نتنياهو ... بغضب، على خطاب خامنئي قائلاً: «إن إعلانات الكراهية التي يصدرها نظام آية الله التي تنوي تدمير دولة إسرائيل تعزّز موقف الحكومة الراسخ، في تلبية احتياجات أمن مواطني إسرائيل، وطلبها الاعتراف بإسرائيل، كدولة يهودية».*

فليذهب المنطق والاتساق إلى الجحيم: تصبح المحصلة النهائية «إننا بحاجة إلى الجمهورية اليهودية الإسرائيلية». بالرغم من اعتراضاتهما، فإن إسرائيل والجمهورية الإسلامية وجهان لعملة واحدة، عفا عليها الزمن.

ينشر الربيع العربي الذي يُعدّ بمثابة انتفاضة عابرة للحدود الوطنية القضية الفلسطينية على مستوى المنطقة؛ ليترك الجانبين المشاركين كليهما في هذا النفاق لاحول لهما، ولا قوة. وهذا هو - بالضبط - السبب الذي يجعل الطرفين كليهما يريدان دفع الانتفاضات الحالية، إلى الوضع السابق، ليتولّوا هذا الموقف المتحارب السخيف، وليسلبوا العرب والمسلمين انتفاضاتهم التاريخية ضد بقايا الاستعمار الأوروبي (إسرائيل)، والاستبداد الداخلي (الجمهورية الإسلامية، والمملكة العربية السعودية وسورية، وغيرها)، والإمبريالية المعولمة (الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وحلف شمال الأطلسي التابع لهما)، في الوقت نفسه.

تشكّل كل من إسرائيل والجمهورية الإسلامية (مع سورية وحزب الله) جزءاً، لا يُجتزأ، من الآثار المجتمعة للاستبداد الداخلي، والإمبريالية الأوروبية الأميركية، وليس العلاج. ما تفشل الصحافة الإيرانية التابعة وبنيامين نتنياهو وحكومته - على حد سواء - في أخذه في عين الاعتبار أنه، وفي الوقت نفسه الذي كان يتم فيه ذلك المؤتمر في طهران، فإن خالد مشعل، زعيم حماس، دافع - في الواقع - عن تحرك محمود عباس، في الأمم المتحدة، وأثنى عليه على أنه يمثل شجاعة وانتصاراً رمزيًّين، للفلسطينيين.

يشكّل هذا الموقف انتصاراً لكل من حماس وحركة التحرير الوطني الفلسطيني، والتي أصبحت قادرة - وعلى نحو متزايد - على التنصل من الأنظمة الحاكمة التي فقدت مصداقيتها، في الجمهورية الإسلامية وسورية. لم تتصوّر الدولة الاستعمارية الاستيطانية الإسرائيلية هذا التغيير الجذري، في مجريات الأحداث عندما كان خالد مشعل في عام ١٩٩٧، وبموجب تعليمات مباشرة من بنيامين نتنياهو، هدفاً لمحاولة اغتيال فاشلة، من قِبل القَتَلة الإسرائيليين.

الانتفاضة الثالثة في أبرز صورها

إذا لم ينأ خالد مشعل، أو أي زعيم فلسطيني آخر، بنفسه، بسرعة كافية، عن كل من سورية والجمهورية الإسلامية، فسيخسر أيّ نصيب له، في الربيع العربي، والانتفاضة الثالثة.

يمثل الربيع العربي - وبكل وضوح - الانتفاضة الثالثة.

ليست هناك قضية تتعلق بالحرية واضحة ونهائية وقاطعة للعالم العربي والإسلامي، أو مؤثرة من الناحية المعنوية والخيالية، مثل القضية الفلسطينية. إنها الجرح النازف، من البقايا الأخيرة، للاستعمار الأوروبي، الذي ربط نفسه، بالإمبريالية الأمريكية. القضية الفلسطينية التي تأبى اختزالها في الإسلام، أو الاشتراكية، أو القومية، تمثل صورة مصغّرة، من صراع العالمين العربي والإسلامي، من أجل الكرامة والعدالة والحكم الديمقراطي. لا يمكن للدولة اليهودية، ولا الجمهورية الإسلامية أن تكونا مخطّط هذا المستقبل.

إن تحرير فلسطين يشكّل التحرير الأول والأخير لذلك العالم الذي وقع رهينة الاستعمار الأوروبي، والإمبريالية الأمريكية، والطغاة الصغار الذين إما أن يتعاونوا معهم، أو يدعون معارضتهم كذباً - لأنهم أوجدوا وكيّفوا الأنظمة الاستبدادية الداخلية، من طرف إفريقيا، إلى نهاية آسيا.

إننا - كشعوب - نستحق أفضل من ذلك، وسوف نحصل عليه. إسرائيل، والولايات المتحدة، والجمهورية الإسلامية، والمملكة العربية السعودية، بالإضافة إلى الطغاة العرب والمسلمين الآخرين الذي يخنقون دولهم تحت الذريعة المزيفة التي تُدعى مقاومة الإمبريالية هم الخاسرون على كل الأصعدة، في هذا الانفجار العابر للحدود للانتفاضة الفلسطينية، باسم الربيع العربي. يحاول كلّ من هذه الأطراف - بطريقته المنافقة الخاصة - إحباط وتشويه هذه الانتفاضة - ولكنْ؛ عبثاً.

نُشرت، لأول مرة، على موقع الجزيرة، في أكتوبر ٢٠١١

سلافوي جيجك وهاروم سكاروم

نشاهد في فيلم «هاروم سكاروم» (١٩٦٥) لجين نيسلون، بطولة إلفيس بريسلي، في دور النجم الهوليوودي الوسيم جوني تيرون، نجم أفلام الحركة يسافر إلى الشرق؛ ليروج لفيلمه الجديد «رمال الصحراء». يتعرّض إلفيس بريسلي/ جوني تيرون عند وصوله إلى الاختطاف من قِبل عصابة من القَتَلة بقيادة الفاتنة «الشرقية» عائشة، التي ترغب في استخدامه لتنفيذ عملية اغتيال. لن يقوم إلفيس - بفضل «الفضائل الغربية» - بأي شيء من هذا القبيل، ويتمكّن من التهرب، من هذه المجموعة من «الشرقيين» المتواطئين، باستخدام الرقص والغناء.

أدلى الفيلسوف السلوفيني سلافوي جيجك - في مقابلة مع الجزيرة - بملاحظة متقطعة مفاجئة، إلى حد ما - عمل بطولي، يشبه الكر والفر الذي يقوم به أبطال أفلام الحركة - يذكرنا مصير الفيس بريسلي ورحلته إلى الشرق:

> *أعتقد أن العالم - اليوم - يطالب، ببديل حقيقي. هل ترغب، في العيش، في عالم، يكون فيه البديل الوحيد إما النيوليبرالية الأنجلوسكسونية، أو الرأسمالية الصينية -السنغافورية، بالقيم الآسيوية؟ أزعم أننا إن لم نفعل شيئاً حيال كل هذا، فإننا سنقترب - تدريجياً - من نوع جديد، من المجتمع الاستبدادي. أنا أطلع العالم - هنا - على الأهمية التاريخية، لما يمكن أن يحدث الصين اليوم. حتى اليوم لم يكن هناك سوى حجة جيدة واحدة للرأسمالية: أنها*

إن عاجلاً أم آجلاً ستؤدي إلى المطالبة، بالديمقراطية ... وجل ما أخشاه أنه، مع هذه الرأسمالية التي تتمتّع، بالقيم الآسيوية، فإننا سنحصل على رأسمالية أكثر فاعلية وديناميكية، من الرأسمالية الغربية التي لدينا. ولكنني لا أشارك أصدقائي الليبراليين أملهم - أمنحهم عشر سنوات [وسيكون هناك] مظاهرة أخرى، في ميدان تيان آن مين - لا، لقد انتهى الزواج بين الرأسمالية والديمقراطية.

قد نتساءل - نحن الآسيويين من خلفية معينة، أو أخرى - ما هي - بالضبط - هذه «القيم الآسيوية» عندما يتحدث عنها أحد الأوروبيين الشرقيين؟ هل ينبغي على الرأسمالية - حقاً - أن تقطع هذا الطريق الطويل إلى الصين وسنغافورة (كما فعل ألفيس إلى الشرق) لتفقد جميع الفضائل الغربية اللائقة (مهما كانت هذه الفضائل)، وليتم إفسادها (أو لتصل بقواها المدمِّرة، إلى نهايتها المنطقية)؟ لذلك، هل يمكننا أن نصدق أن الرأسمالية عندما تزدهر في «الغرب» تزهر براعم الديموقراطية، وعندما تتبنّى «القيم الآسيوية» يقع الطلاق بينها وبين الفضيلة، وتتحول إلى وحش منحل؟ ألفيس بريسلي، بالفعل. دعونا ننقذ الرأسمالية، من عائشة الغادرة، وقيمها الآسيوية، ولنعدها، إلى فضائله الغربية.

ما يحذِّر منه جيجك هذا العالم هو الرأسمالية مع «قيمها الآسيوية» المكتسبة حديثاً، باعتبارها متميّزة عن ما يسمّيه «رأسماليتنا [أي رأسماليّته] الغربية»، المزيّنة - على ما يبدو - «بالفضائل الغربية» - التي أدى التشوش الذي تعاني منه - بالفعل - إلى فصل الزواج السعيد بين الرأسمالية والديمقراطية. وبعبارة أخرى، فإن الرأسمالية - وفق «النمط الغربي» - جلبت للعالم ثمرة الديمقراطية، في حين أن الرأسمالية - وفق «القيم الآسيوية» - ليست ديموقراطية، بل على العكس مدفوعة إلى أقصى غاياتها - الشمولية، الفاشية، الرأسمالية المتوحّشة ذات المد البارد - والتي لم يظهر أي شيء منها، على ما يبدو، في مسقط رأس الرأسمالية

والديموقراطية، «الغرب». تنتقل المسألة «من الغريب إلى الأغرب «ومفرطة في العجب» كما قد تقول أليس. هل استبدلت «القيم الآسيوية» للبوذية والهندوسية والإسلام والطاوية والقومية المناهضة للاستعمار واشتراكية العالم الثالث، وواقعية ساتياجيت راي، أو واقعية أكيرا كوروساوا، وكياروستامي الأخلاقيات البروتستانتية الصحيحة، وأتلفت الروح القديمة الفاضلة للرأسمالية؟ نحن المتابعون الآسيويون للجزيرة والمقابلات التي تحتويها، في حيرة من أمرنا هنا.

لماذا ينبغي أن يؤدي الزواج بين الرأسمالية و«القيم الآسيوية» - مهما كانت هذه القيم - إلى كارثة، في حين أنها عندما كانت متزوّجة بسعادة من «الغرب» منحت العالم هدية الديمقراطية؟ هل ينبغي أن ننظر إلى هذه «القيم الآسيوية»، كغانية غادرة، أو ربما كحرملك كامل من الفاتنات (والكثير من الغانيات كعائشة لألفيس بريسلي جيجك) أغوت العجوز المسكين الذي يدعى الرأسمالية، ودفعته ليطلق زوجته المطيعة «الغرب»، والتخلي عن طفلهما المدلل، الديمقراطية؟ هذه الاستعارة مسلية، للغاية فعلاً - إذا لم تكن تكشف فقط أكثر من أن ألفيس بريسلي كان يرغب، في الغناء، في هذه الصحراء، بالذات.

شجرة عائلة جيجك (أصل جيجك وفصله)

فكرة أن «القيم الآسيوية» (إننا - الآن - في موعد دون سابق معرفة؛ لأننا لا نمتلك أدنى فكرة عنها) سوف تبرز أسوأ ما في الرأسمالية - وهكذا «الشرقيون» الذين ولّدوا مثل هذه القيم التي تفتقر إلى أي أفكار، أو أحلام كريمة، أو تحررية، أو تحريرية - ليست من اختراع جيجك. بل إن هذه الفكرة متجذّرة - بعمق - في الفلسفة الأوروبية.

أكثر من مرة يبذل العالم المختص بالظاهراتية الليتواني الكبير إيمانويل ليفيناس (١٩٠٦-١٩٩٥) في أكثر من مناسبة - والذي لم يكن ألفيس بريسلي، والذي يفتقد فكره وأسلوبه، إلى كل تلك العناصر المسرحية -

جهداً لإعلان عَدِّه غير الأوروبيين أنهم ليسوا من البشر، فكتب: «*عندما أتحدث عن أوروبا، فإنني أفكر في اجتماع البشرية. لا يمكن للعالم كله أن يجتمع سوياً إلا بالطريقة الأوروبية ... ويمكن من هذا المعنى اعتبار أن البوذية سوف تكون بالجمال نفسه، باللغة اليونانية*».

المشكلة هي أنه إذا كان على البشر أن يتبعوا مرسوم ليفيناس، ويجتمعوا في أوروبا؛ ليصبحوا بشراً، فلن يرحّب بهم أحد هناك - وعليهم - أولاً - أن يقوموا، بحلق لحالهم، وأن يخلعوا بعض ملابسهم، وأن يغيّروا لون بشرتهم، وأن يقطعوا جزءاً، من أنوفهم، وأن يغيّروا ألوان عيونهم، وغير ذلك، مما لا يعلمه إلا الله؛ لكي يصبحوا بشراً. وإذا ما بقوا - كما هم، كما وُلدوا - فلن يكونوا بشراً - في عين الفيلسوف الأخلاقي الذي سعى - كما هو معروف - للعارف (الأوروبي)، من خلال لقاء مع «وجه الآخر».

يقول ليفيناس «*أقول - في كثير من الأحيان* [ليس مرة واحدة، أو مرتين، بل 'في كثير من الأحيان'] - *على الرغم من كونه أمراً خطيراً؛ ليُطرَح على العلن، أن الإنسانية تتكون من الكتاب المقدّس والحضارة الإغريقية. وكل ما تبقّى، يمكن ترجمته: كل ما تبقّى - وجميع الأفكار الغريبة الأخرى - مجرد رقص*».

إذنْ؛ ربما تكون هذه «القيم الآسيوية» التي يفكر فيها جيجك قد تكون لها صلة ببعض الحركات الراقصة الآسيوية المعتادة - كما وصف سلفه الأوروبي كل ما فكرنا به، أو فعلناه يوماً. على الرغم من أن المرء قد يحار، في سبب أن يكون هذا «أمراً خطيراً ليُطرح على العلن» مع أن ليفيناس اعتاد على قوله كثيراً. حتى إنه - في مناسبة أخرى - يطمئن القارئ بأنه «*لا يقصد أيّ عنصرية، فيما يقول*».

طبعا لا يقصد أيّ عنصرية فيما يقول - ولم يفهم أحد من هذا الكلام أيّ عنصرية، يا سيدي العزيز. إنها - ببساطة - حقيقة فينومينولوجية مجردة تقول بأننا - كآسيويين - مولعون، للغاية، بالرقص، وأننا نغدو بشراً، بقدر

اقترابنا، من الكتاب المقدّس والحضارة الإغريقية. ولكنْ يبقى السؤال: هل علينا، يا سيدي، أن نتوقف عن الرقص عندما نمسك، بكتابك المقدّس، ونقيم أواصر الصداقة مع الإغريق؟ هل يمكننا أن نجلس - بكل تهذيب - لنتعلم شيئاً، قد يصحح من أساليبنا الآسيوية؟

فليذهب التاريخ والجغرافيا إلى الجحيم - لقد ظهر الكتاب المقدّس إلى حيّز الوجود، في آسيا، والإغريق وفلسفتهم كانوا معروفين في آسيا قبل قرون، من اختراع «أوروبا» كتصنيف حضاري. أصبحنا في عقل الفيلسوف الأخلاقي، نحن الآسيويون المساكين غرباء عما أنتجنا، وعما عرفنا.

قد نتساءل - بالرغم من كوننا محاصرين في «قيمنا الآسيوية» - لماذا ينتقي فيلسوف ما التفكير غير الأوروبي، ويندد به، ليس كشيء في غير محله، بل كشيء غير بشري؟ لماذا يتميّز الأوروبيون (وتفسيرهم للكتاب المقدّس) على أنهم الشيء الوحيد المهم - وعلى أنهم الشيء الإنساني الوحيد؟

هناك اليوم صناعة كاملة مخصصة لتشريح فلسفة هيدجر ليس كفلسفة طارئة بل كفلسفة معرّفة للنازية - وهي حقاً كذلك. ولكنْ؛ هل يُعدّ ليفيناس أقلّ أهمية، للصهيونية، من أهمية هايدجر، للنازية؟! وهل من الغريب - مع هذا النوع من الموافقة الفلسفية - مَن الذي قد يعدّ الفيلسوف اليهودي الأبرز، في القرن العشرين، أن يرى الإسرائيليون أن الفلسطينيين ليسوا بشراً؟ وقد رفض ليفيناس - في مقابلة إذاعية شهيرة، حتى بعد فظائع مذابح صبرا وشاتيلا - أن يعترف أن الفلسطينيين بشر، بما يكفي؛ ليكونوا «الآخر» له. لقد قال إن تعريفه للآخر كان «مختلفاً تماماً»، وخلص إلى أن «هناك أناس مخطئون». ينظر ليفيناس إلى الفلسطينيين، ومعهم العرب والمسلمين وكل العالم خارج أوروبا، في فكره، بما يتوافق مع وصفهم، في الكتاب المقدّس العبري، من خلال منظار بندقية الجندي الإسرائيلي: كهدف متحرّك، كبطة راقصة.

من جيجك، إلى ليفيناس، إلى كانط

يمكن القول إنه لا ينبغي عَدّ ليفيناس حالة خاصة، باعتباره أصل الفكرة ذائعة الصيت لطرد الإنسانية جمعاء، من حظيرة «الغرب» الموقع الأوحد، لما يعنيه أن يكون المرء إنساناً. «ما هذا العبث القبيح الذي تحتويه المجاملات المطوّلة والمدروسة لدى الصينيين؟!» إنه إيمانويل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤)، عرّاب عصر التنوير الأوروبي. يصرّ كانط على أنه:

> *حتى رسوماتهم [يقصد الصينيين] بشعة، وتصوّر شخصيات غريبة، وغير طبيعية، لن تقابل مثيلاً لها، في أي مكان، في العالم. كما أن لديهم بشاعاتهم الموقرة؛ لأنها من العادات المغرقة، في القدم، ولا تمتلك أي أمة من الأمم مثل هذه الأمور أكثر، من هذه الأمة.*

عندما يؤكد جيجك أن الرأسمالية فاسدة اليوم على يد «القيم الآسيوية»، وأنها لم تعد تفضي إلى الديمقراطية وفق أسلوب «رأسماليتنا الغربية»، فربما يأخذ بعضاً من هذه «البشاعات» الكانطية العتيقة، في اعتباره. لا يمكن للمرء أن يعرف على وجه التحديد.

وبالتأكيد لم يكن تفكير كانط هذا منصبّاً على الصينيين. لقد كان مسكونياً، للغاية، وعالمياً، للغاية، في هذه الصدد. ها هو - على سبيل المثال - يناقش الهنود الحمر:

> *هؤلاء المتوحّشون لديهم شعور ضئيل، بالجمال، وفقاً للفهم الأخلاقي، والمغفرة الكريمة للأذى، الأشياء التي تُعدّ أشياء جميلة ونبيلة، لا تُعرف - أبداً - كفضيلة بين الهمج، بل تُعدّ سبّة وعاراً، بِعَدِّها جبناً بائساً.*

تنطبق المشاعر المماثلة - أيضاً - على الهنود وباقي البشر - ولكنْ؛

ليس في أفريقيا: فشعوب هذه القارة - بالذات - تتمتع بحقوق حصرية، للغباء وفقاً لكانط. ويقول كانط عرّاب عصر التنوير الأوروبي ردّاً على شيء، يستحق الاهتمام، قاله أفريقي ما: «*وربما يكون هناك شيء، يستحق الاهتمام، في كل هذا، ولكنْ؛ وباختصار، كان هذا الزميل أسوداً تماماً، من رأسه، إلى أخمص قدميه، مما يشكّل دليلاً واضحاً، على أن ما قاله كان غبياً*».

وكانت الطريقة الوحيدة التي قد يتقارب فيها بعض «الشرقيين» مع الإنسانية هي أن يصبحوا مثل الأوروبيين - وتطوّع كانط - بتحديد - أن يصبح العرب مثل الإسبان، والفرس مثل الفرنسيين، واليابانيين مثل الإنجليز.

لا تكمن الفكرة - هنا - في اقتباس سلسلة، من الهياكل العظمية الملوّنة المخبّأة، في خزائن الفلسفة الأوروبية، أو تقزيم هذا التقليد الفلسفي متعدّد الجوانب، إلى مجرد هذه الفضائح الكريهة، أو القيام - في الواقع - برفض مجمل التراث الفلسفي، بناء على تعليقات متناثرة هنا وهناك. الفلسفة الأوروبية - مثل أي فلسفة أخرى، في جميع أنحاء العالم - تصدر، من وجهة نظر القوة والغطرسة (ويشمل هذا التراث الفلسفي للإمبراطوريات التي شكّلها العرب والإيرانيون والمسلمون والصينيون والهنود، وغيرهم)، وتتراوح بين المفاهيم السامية، إلى المفاهيم المثيرة، للسخرية. ولا تكمن الفكرة - أيضاً - في تغذية مفاهيم القومية الفظّة، والتي - للأسف - نتجنب - بشكل ثانوي - عن كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد. فقد كان هناك العديد من ردود الفعل النقدية والتحررية واسعة، من داخل الفلسفة الأوروبية نفسها، ضد مثل هذه الميول العنصرية الواضحة. ولكن الهدف هو تحديد التمكين التاريخي لأي إرث فلسفي من قِبل القوة الإمبريالية، لإنكاره على الآخرين.

إن ما يوحّد كلاً، من كانط، وليفيناس، وجيجك (من ضمن أشياء أخرى كثيرة) هو أن فلسفات التعميم الذاتية تستند - دائماً - على نفي قدرة الآخرين، على التفكير النقدي، أو الإبداعي، من خلال تمكين وتخويل وتفويض أنفسهم، للتفكير، بالنيابة عن العالم.

ولكن هذا العالم يقترب من نهايته، والأشخاص - مثل جيجك - ليس لديهم أدني فكرة، عن كيفية قراءة التغيير. لقد كتبوا - يوماً - مقالاً، في صحيفة «لندن ريفيو أوف بوكس» يشجب كل شي، من الربيع العربي، إلى الانتفاضات الأوروبية، في إسبانيا، واليونان، عادّين أنها لا طائل منها، ثم ظهروا - في اليوم التالي - في حديقة زكوتي، في وول ستريت يقرؤون قصة سخيفة، عن قطّ، لوالت ديزني، يسقط من أعلى جرف دون أن يلاحظ ذلك - يتضح أن هذا القط يمثّل جيجك نفسه وفلسفته. وكل ما على القطّ أن يفعله أن ينظر إلى الأسفل، وينتهي الأمر.

هل يستطيع العرب التفكير؟

الفكرة التي تقول إن الرأسمالية عندما كانت مع «الغرب» وَلدت الديمقراطية، وأنها عندما ضلّت مع «القيم الآسيوية» أصبحت منحلة تماماً، هي فكرة مبينة - تماماً - على أن «الشرقيين» (بحسب قراءة كانط ولفيناس لهم) غير قادرين على التفكير، من تلقاء أنفسهم (لأنهم سود، ومشغولون، بالرقص) وإنتاج الأفكار المتمردة، والمبدئية، والمتحدية - وجهة النظر التي ظهرت على العالم، من داخل الصفحات المخفية للفلسفة الأوروبية، إلى مقالات الصحف الرائدة، في أمريكا الشمالية. تعتقد صحيفة نيويورك تايمز - على سبيل المثال، وعلى عكس الأدلة الظاهرة من جميع الثورات الأخرى - أنه لا يوجد مفكّرون ضمن الربيع العربي:

> *لم يتمخّض أيّ مشروع سياسي، أو اقتصادي واضح، أو أيّ حاملين للمعايير الفكرية من النوع الذي شكّل - تقريباً - جميع الثورات المعاصرة، اعتباراً من عام ١٧٧٦. ساعد المفكّرون والأيديولوجيون في تلك الثورات - من توماس باين، إلى لينين، إلى ماو، إلى فاتسلاف هافيل - على تقديم رؤية موحّدة، أو أصبحوا رمزاً، للتطلعات الشعبية.*

ما قد يباغت «المستشرق» الممتاز هو ذلك الشعور، بالتساؤل: لقد

كان لدينا فترة أطول من الانتفاضات، في أوروبا، من العمال في اليونان، إلى الانديغنادوس، في إسبانيا، والطلاب واللصوص، في المملكة المتحدة - وهو نمط، سبق - في الحقيقة - الربيع العربي. ومَن هو - بالضبط - من فضلكم «حامل المعايير الفكرية الرائد الذي تمكّن من تشكيل كل ثورة معاصرة اعتباراً من ١٧٧٦، فصاعداً»؟ هل يشمل ذلك جيجك؟ وماذا عن الولايات المتحدة الأمريكية - حيث ثار الشعب على إنقاذ البنوك قبل نشأة حركة «احتلوا وول ستريت» التي بدأت في خريف عام ٢٠١١، بفترة طويلة؟ مَن هو المفكّر البارز في الولايات المتحدة الذي تضعه صحيفة نيويورك تايمز في ذهنها، بالضبط، والتي ترى أن العرب فشلوا، في إنتاج مثله؟ مايكل مور؟ يُعدّ مايكل مور وجيجك من النشطاء الحقيقيين الذين يستحقّون الظهور، على قناة الجزيرة، أو في برنامج كيث أولبرمان؛ ليعبّرا عن تضامنهما مع انتفاضة اجتماعية. ولكنْ؛ كيف فشل العرب، في إنتاج مثل هؤلاء، أو أيّ مفكّر، أو ناشط، أو مفكّر عام؟!

ما تراه صحيفة نيويورك تايمز بأنه غياب لمفكّرين عرب بارزين مشاركين - بعمق - - في ثوراتهم، ليس مجرد تعبير عن الجهل. إنه خلط تام، لترتيب الأمور. لا يوجد شيء خاطئ، فيما يتعلق بالربيع العربي - أو بالصيف الأوروبي، أو الخريف الأمريكي أيضاً. إنه شتاء السخط العالمي الذي فشلت صحيفة نيويورك تايمز، في قراءته. ولهذا فإنها تطرح أسئلة معيبة، واضعة عربة هذه الثورات أمام الحصان، كما يقول المثل.

يُولّد الربيع العربي مفكّريه مثل كل الانتفاضات الثورية الأخرى. لم يولّد ماركس الثورات عام ١٨٤٨: بل الثورات هي مَن ولّدته. وبالمثل، خلقت الثورة الأمريكية توماس باين، وخلقت الثورة الروسية لينين، وهلمّ جراً. تمدّ صحيفة نيويورك تايمز يديها أبعد حتى عن حديقة زكوتي التي تقع أمام عينيها، فكيف يمكن أن تعرف نبض الربيع العربي في ميدان التحرير؟ وكيف يجري التفكير في هذا الميدان؟ وبالطريقة نفسها، يجعل جيجك «القيم الآسيوية» أمراضاً، ويرى أنها تسبّبت، في تفاقم داء الرأسمالية - وهكذا،

يمكن تطهير منهجه الفلسفي، للوصول، إلى فكر متجدد، بعد حرمان «الآسيويين» غير المؤهّلين لاعتناق أيّ أفكار تحررية - لعدم معارضتها، للوهم المسمّى «الغرب»، بل معارضة العالم الناشئ التي تساعد، في تشكيله.

إسقاط نظام المعرفة

عندما يصرخ الناس من أول العالمَيْن العربي والإسلامي إلى آخره «الشعب يريد إسقاط النظام»، فإنهم يعنون إسقاط أكثر بكثير من مجرد النظام السياسي. إنهم يعنون - أيضاً - نظام المعرفة الذي فشل في رؤية أن المذابح العرقية والمحرقة - أيضاً - جزء، لا يُجتزأ، من «القيم الغربية». النازية في ألمانيا، والفاشية في إيطاليا وإسبانيا، والحكم الشمولي في روسيا ودول أوروبا الشرقية (الفناء الخلفي لجيجك نفسه) التيارات العنصرية عبر التاريخ الأوروبي، إلى جانب غيرها من أشكال المرض الذي ينتشر من منطقة، إلى أخرى في هذه القارة - جاورت هذه التطورات الرأسمالية أثناء زواجها، من الغرب. يختار جيجك الديمقراطية على أنها الوليد الوحيد، للرأسمالية الغربية. وفي الوقت الذي تشيع فيه الرأسمالية غير الإقليمية الفوضى في جميع أنحاء العالم كالطاعون، يحدّد جيجيك سلالة من الإنفلونزا، يسمّيها «القيم الآسيوية». إن وسم الرأسمالية، بالطابع الاستشراقي، يجعل الأصالة غربية، بأثر رجعي، لتناقض ذلك مع ميل النظام إلى العولمة. تعكس رؤية جيجك - لنهاية الرأسمالية، في استشراقها مرة أخرى - محاولة ماكس فيبر، في البحث عن أصولها، في الأخلاق البروتستانتية، السلالة التي تفتقد - تماماً - النظرة غير الإقليمية، للرأسمالية منذ نشأتها.

الأكثر أهمية اليوم من أي صبغة عرقية للكارثة العالمية التي تُدعى الرأسمالية هو أفق الأفكار التحرّرية التي تصاحب - ولكنْ؛ لا تقود - هذه الانتفاضات، في مواسم متتالية، من السخط الذي نعاني منه. لم يعد - هنا - أيّ فرق - لحسن الحظ - بين الشرق والغرب، وبين كونك آسيوياً، أو

أفريقياً، أو من أمريكا اللاتينية، أو أوروبياً، أو أمريكياً. العالم الذي يدعو إلى انقسام «الغرب وبقية العالم» لم يعد موجوداً. إننا على حافة نظام جديد، بل عالم جديد، على وشك أن نكتشفه. وفي سبيل صنع هذا المستقبل، قد ننظر - نحن الناس العاديين حول العالم، في بعض الأحيان - إلى الوراء، إلى هؤلاء الفلاسفة الأوروبيين البارزين - من كانط، إلى ليفيناس، إلى جيجك - ونسأل أنفسنا - ببساطة، ودون أي ضغينة، أو سخرية - فيما إذا كان لديهم ما يقولونه عن الآفاق التحريرية لهذا العالم الناشئ، مع ذلك العمق من النبذ وتشويه السمعة، واتهام الإنسانية جمعاء خارج رؤيتهم الأوروبية المحدودة، بالمرض. يمثل جيجك - كفيلسوف آخر - ذيول هذه الظاهرة التي تُدعى «الغرب»، والتي أخافت العالم، من تطوير الثقة اللازمة لتوليد أفكار، لم يحلم بها فلاسفته أبداً. بالنسبة لهم، كل ما نقوله «بشاعة»، وكل ما نقوم به مجرد «رقص»؛ لأننا (وجيجك - هنا - موضع ترحيب، للانضمام إلينا، في هذا الهتاف التحرري) «سود - تماماً - من الرأس، إلى أخمص القدمين، مما يشكّل دليلاً واضحاً على أن ما نقوله مجرد غباء».

نُشرت، لأول مرة، على موقع الجزيرة، في نوفمبر ٢٠١١

الطابور الخامس ما بعد الحداثي

صيغ مصطلح «الطابور الخامس» في علم ١٩٣٦ على يد إميليو مولا واي فيدال (١٨٨٧-١٩٣٧)، الجنرال القومي خلال الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦-١٩٣٩). عندما كان جيش الجنرال الذي يتكون من أربعة طوابير تقترب من مدريد، صرح بأن «طابوراً خامساً» سينضم إليهم، من داخل المدينة. وكان كتاب إرنست همنغواي «الطابور الخامس والقصص التسعة والأربعون الأولى» (١٩٣٨) احتفاء بهذه الصياغة الموفقة. وقد تطورت هذه العبارة؛ لتدل على المقاتلين الداعمين لأي عدو، يقترب من بلدهم، والذين من شأنهم مساعدته ومساندته - أو تقديم «العون والمساعدة» له، كما تنص الفقرة الثالثة، من المادة الثالثة، من دستور الولايات المتحدة التي تعرّف «جريمة الخيانة» - بمجرد دخوله، إلى وجهته المستهدَفة.

يبدو أننا نصادف - اليوم، في عصر الإمبريالية المعولمة والمخلوق الوهمي الذي يُدعى «التدخل الإنساني» - مفهوماً متجدداً من «الطابور الخامس» الذي يمكن للمرء أن يغامر، ويطلق عليه «ما بعد الحداثي». والسؤال الذي يطرحه هذا المصطلح اليوم: أين تنتهي - بالضبط - المعارضة النبيلة للنظام الاستبدادي؟ وأين يبدأ التعاون الغادر مع مثيري الحروب العدوانية ضد أبناء الوطن؟

وتجتمع ثلاثة أحداث متتالية ومثيرة معاً لإنتاج «الطابور الخامس ما بعد الحداثي» الذي يغمز اليوم، ويشجّع الولايات المتحدة وإسرائيل على غزو إيران: لقد أدى التدخل العسكري لحلف الناتو، إلى سقوط العقيد القذافي، وجدد الميول الحربية الإسرائيلية العدوانية ضد الجمهورية

الإسلامية، والتلفيقات التي وضعتها كل من الولايات المتحدة وإسرائيل على تقرير الوكالة الدولية للطاقة الذرية، بشأن البرنامج النووي الإيراني.

أخذت هذه الفرقة الناشئة من الطابور الخامس الإيراني إشارة واحدة واضحة من مقابلتين متتاليتين، أدلت بهما وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون لصوت أمريكا وبرامج بي. بي. سي. الفارسية في أكتوبر ٢٠١١، وقالت فيهما إن الولايات المتحدة كانت ستساعد الحركة الخضراء، إذا طلبت منها ذلك. يسيل لعاب أعضاء هذا الطابور الخامس منذ التدخل العسكري للناتو، في ليبيا، وأصبحوا أكثر نهماً للفكرة، وبدؤوا العمل، على المشروع بعد ذلك، بقليل.

وقد طالب أكثرهم جرأة ونفاقاً الولايات المتحدة علناً بغزو إيران (ادعى أحدهم أن الإحصاءات السنوية لقتلى حوادث الطرق والسرطان في إيران ستكون أعلى من عدد الضحايا الذين قد يسقطون في تلك الحرب المحتملة، واستخدم آخر المحاسبة الخلاقة لتسجيل سقوط عدد قليل من الضحايا المدنيين في ليبيا)، في حين استخدم آخرون اللغة المخادعة الأشبه بلغة أورول، بأسوأ أنواعها، في محاولة لإخفاء خيانتهم. أولئك الذين طالبوا - علناً - بتوجيه ضربة عسكرية (والتي يُطلق عليها - أيضاً - اسم «التدخل الإنساني») ضد وطنهم، على غرار ما حدث في ليبيا، لن يغفر لهم. ليس لدي الكثير لأقوله عنهم، فالتاريخ نفسه قاض قاس، لا يرحم. وأعضاء هذه المجموعة الأخيرة - من أولئك الذين يمارسون اللغة المخادعة المشابهة لأورويل - أشير إليهم، باسم «الطابور الخامس ما بعد الحداثي».

خلط المفاهيم

بدأ هذا الطابور الخامس ما بعد الحداثي - في سبيل إنجاز مهمته - بتقويض الأسس المتينة لبعض المفاهيم الأساسية، ليجعلها - بهذه الطريقة - أقل موثوقية ومصداقية. يهدف هؤلاء إلى خلق البلبلة والفوضى، في عقول مَن يستهدفونهم، لتمهيد الطريق لضربة عسكرية لإيران، وتقديم هذه

الضربة، على أنها شيء إيجابي وتحرّري: ليس غزواً عسكرياً، بل «تدخلاً إنسانياً». يقولون إن ليبيا هي الأولى، ثم سورية، وبعد ذلك («ربما، لا لم أقل هذا، أليس كذلك، ولكنْ؛ إذا تطلبت الظروف، إذنْ؛ نعم، لم لا ؟») في إيران. إن طريقتهم في الكلام تنتمي إلى مرحلة ما قبل جورج أورويل، في الواقع، بل هي أقرب إلى لغة اللورد بولونيوس الذي يعلم رينالدو كيف يتجسّس على ابنه ليرتيس دون أن يظهر عليه ذلك: *«أرأيت - الآن - كيف تستطيع - بطعم من الكذب - أن تصيد سمكة الحقيقة، فنبلغ مأربنا، بالحكمة والتدبير، وباللفّ والدوران، والأساليب الملتوية، نسلك السبيل المعوج، لنكشف الطريق المستقيم»*. إذا نظرنا إلى فجاجة قاموسهم اللغوي، وتحمّلنا لغتهم وسياستهم العادية، سنجد أنما يفعلونه ويقولونه يذكّرنا، بكابوس أورويل: يصدرون بياناً «ضد الحرب»، والذي يمهّد - بدوره - الطريق إلى الحرب. أو بعبارات أورويل الرؤيوية، *«الحرب هي السلام، الحرية هي العبودية، الجهل هو القوة»*.

تضيف هذه اللغة المخادعة الأشبه بلغة أورويل تلفيقاً جديداً للواقع. ويقول هؤلاء في تصريحات ضد الحرب إن تهديد الحرب ليس خطيراً للغاية، وإن حتى التحذير منها يشكّل خطراً، على قضية الحرية، في إيران. يقولون هذا دون أن يهتزّ لهم جفن. كما قد يقول سايم: *«إنه لشيء جميل، أن ندمر الكلمات»*.

لا تغيب لغتهم الاستطرادية والمزدوجة، وتحدُّثهم، برأيين، عن القارئ المتأنّي، بالطبع، والذي يقوم (باللغة الفارسية) بتشريح موقفهم، وتوضيح النقاط التي يرتكزون عليها، لفضح نفاقهم نقطة إثر نقطة. يتلو هؤلاء التعويذة التي تقول إن إيران تشكّل تهديداً، للسلام العالمي، السطر الذي تكرّره آلة الدعاية الإسرائيلية، كما لو كانت إسرائيل الداعية الوحيدة للسلام والوئام، في العالم. وفي الوقت الذي يدقّون فيه طبول الحرب ضد إيران، يقومون - دائماً - بتمويه خطابهم وعباراتهم؛ ليبدوا وكأنهم «ضد الحرب». لم تعد اللغة المخادعة لا أخلاقية، وحسب، بل لقد أصبحت لغة معتوهة.

ويظهر المثال الرئيسي الآخر في أن هذا الطابور الخامس ما بعد الحداثي قد بدأ في اللعب تحت الطاولة، مع فكرة الإمبريالية. يصرّ هؤلاء على أنه لم يعد هناك إمبريالية، بل إن هذا لا يعدو كونه «خطاباً قديماً» (يعشق هؤلاء الكلمة الفارسية التي صيغت؛ لتدل على مفردة «الخطاب» - گفتمان - لذلك يستمرون - دائماً - في استخدامها واستغلالها). الإمبريالية كانت في الماضي، ولم تعد منتشرة سوى عند أولئك اليساريين المتخلّفين المصرين على استمرارية الكلمة. (يلاحظ المرء أن بعض هؤلاء الأشخاص من الطابور الخامس كانوا - في يوم من الأيام - ستالينيين متشدّدين، في شبابهم).

ولكن هؤلاء انتقلوا - اليوم - من طهران إلى (طهرانجلوس)، وهكذا تبدو الإمبريالية قد عفا عليها الزمن، وليست على الموضة: الجيش الأمريكي يقضي عطلته، في الخارج، في أفغانستان والعراق وباكستان واليمن وليبيا والصومال، وفي جميع أنحاء العالم. تمتلك الولايات المتحدة ما يزيد عن ٧٠٠ قاعدة عسكرية، في جميع أنحاء العالم، كما وثّقها الراحل تشالمرز جونسون، بشقّ الأنفس، تشمل ٢٣٤ ملعب غولف عسكري، للترفيه. نُشرت مئات الكتب والمقالات التي تتحدث - بالتفصيل - عن الملامح المحددة للإمبريالية الأمريكية - وكان آخرها ثلاثية جونسون «الضربة الارتدادية» - الخيالية، بكل وضوح؛ لأن «الجهل هو القوة».

يرافق هذا الرفض المتعجرف للإمبريالية - كظاهرة عالمية - الإصرار على أن «السيادة الوطنية» و«الاستقلال» لم تعد تعني أي شيء. يقولون استيقظوا؛ لتشموا ورود ما بعد الحداثة المعولمة. لم يعد لدى بلد مثل إيران (أو العراق، أو أفغانستان، أو ليبيا) أي حق في المطالبة، بسلامة أراضيها، واعتبارها كموقع للمقاومة المحتملة للرأسمالية المفترسة. يؤكد هؤلاء أن القومية مجرد نزعة قبلية، التي وضعت لتصوير «الغرب» كوحش.

بينما يثورون على طغاتهم المحليين، يتخلّى سكان تلك الدول المساكين أيضاً (ودون علمهم تماماً، بل بمرسوم من قِبل مناصري ما بعد الحداثة في

طهرانجلوس) عن أيّ حق، في السيادة، على وطنهم. ويقولون - في النهاية لبلدانهم المسكينة - «لقد أعذرت، يا سيدتي» كما قال دوق بروغاندي لكورديليا المسكينة. «*أضعت على نفسك، بما جرحت أباك، فلا غرو أن يضيع عليك زوجك أيضاً*». إذا كانوا يفتقرون إلى ذلك النوع من الديمقراطية التي يقرّها عليها الصندوق الوطني للديمقراطية الأمريكي، عليهم - إذن - أن يتخلّوا عن حقهم، في السيادة الوطنية.

لقد خلق البعض بعبعاً من «الاستعمار»، الكلمة التي يفضّل هؤلاء الأساتذة المغتربون ممّن يقودون سياراتهم الرياضية متعددة الاستخدامات ما بين الحرم الجامعي للكليات المختلفة في ولاية كاليفورنيا استخدامها - دائماً - بين قوسي اقتباس. إذنْ؛ لا، لا وجود الاستعمار. الفلسطينيون يعبثون - فقط - مع التدخل الإنساني الصهيوني، في غرف معيشتهم. لا، يا سيدي، من فانون، إلى سعيد، إلى سبيفاك، من خوسيه مارتي، إلى وليام إدوارد بورغاردت دو بويز، إلى مالكوم إكس، من المهاتما غاندي، إلى إيميه سيزير وليوبولد سيدار سنغور: كل هؤلاء كانوا أشباحاً، يرعبون الناس. «هل الجهل هو القوة»؟ لا، يا سيدي، الجهل نعمة.

ليس هناك أيّ استعمار، ولا وجود للإمبريالية، ولا السيادة الوطنية - كل هذا مجرد تخيلات، اختلقها «اليساريون العجائز».

فليحيا التدخل الإنساني.

يحتفل الطابور الخامس ما بعد الحداثي بفكرة «التدخل الإنساني» لتتويج تصميمه الكبير، لا، بل يصر على أنه هذا لا يُعدّ ضربة عسكرية، وأن هذه ليست إمبريالية. إنها عملية «تدخل إنساني» - كما تقول الولايات المتحدة وحلف شمال الاطلسي، المصادر التي يستقي منها هؤلاء الناس الطيبون معلوماتهم.

لا يمكن أن تكون تلك الصلة بين المعرفة والقوة واضحة بهذه الحدة، في أي مكان آخر. ولا يهتم هؤلاء - أبداً - بقراءة الكثير، فيما يتجاوز تصريحاتهم

الخاصة. تعود آن أورفورد في كتابها «قراءة في التدخل الإنساني: حقوق الإنسان واستخدام القوة في القانون الدولي» (٢٠٠٧)، إلى التسعينيات، من القرن العشرين، قبل ما يقرب من عقدين، من الانتفاضة الليبية، عندما تم لأول مرة اقتراح «التدخل الإنساني» كخطوة، تتجاوز الإمبريالية والسيادة الوطنية. تعرض أورفورد - من خلال تفاصيل دقيقة رائعة - كيف كان مفهوم «التدخل الإنساني» حيلة، في حقيقة الأمر: التصاميم الإمبراطورية القديمة التي ظهرت في شكل جديد. تنتقد أورفورد - بشدة - الفكرة الوهمية «للتدخل الإنساني» استناداً إلى أسباب قانونية وسياسية، جامعة بين نظريات النسوية، وما بعد الاستعمار، والقانون، والتحليل النفسي.

يحلّل محمود ممداني - بدوره - في كتابه «منقذون وناجون: دارفور، والسياسة، والحرب على الإرهاب» (٢٠٠٩)، الأزمة في دارفور ضمن السياق التاريخي للسودان؛ حيث بدأ الصراع على أنه حرب أهلية (١٩٨٧-١٩٨٩) بين قبائل البدو والفلاحين، بسبب الجفاف الشديد الذي انتشر في الصحراء الكبرى. يربط ممداني الصراع، بالطريقة التي صنع فيها المسؤولون الاستعماريون البريطانيون قبلية دارفور؛ حيث قسموا سكانها إلى قبائل «أصلية»، وقبائل «مستوطنة» - بشكل مشابه - للغاية - لنموذج نيكولاس ديركس، في كتابه « قولبة العقل» الذي يظهر كيف قام البريطانيون بإعادة تشكيل النظام الطبقي لمصالحهم الاستعمارية. فاقمت الحرب الباردة من الحرب الأهلية في تشاد المجاورة، وخلقت مواجهة بين القذافي والاتحاد السوفيتي، من جهة، وإدارة ريغان، المتحالفة مع فرنسا وإسرائيل، من جهة أخرى، وانتقلت إلى دارفور؛ ليتفاقم الصراع، بعنف. نتج عن انخراط أحزاب المعارضة السودانية في عام ٢٠٠٣ ظهور حركتين من حركات التمرد، مما أدى إلى تمرد وحشي، ومكافحة وحشية - أيضاً - لهذا التمرد.

ويوضح ممداني أنه - بحلول عام ٢٠٠٣ - تضمنت الحرب قوى وطنية وإقليمية وعالمية، بما فيها الولايات المتحدة وأوروبا، الذين يُظهرون الصراع، كجزء من «الحرب على الإرهاب»، وطالبوا، بغزو عسكري، في لباس «التدخل

الإنساني». اختفت جميع الحقائق التاريخية على الأرض، وبشكل قاطع تحت الإلحاح المستمر، للمناورات. لم يكن ستانلي موتس/داستن هوفمان، من فيلم «ذيل الكلب» (١٩٩٧)؛ ليتمكن من إنتاج سيناريو أكثر تعقيداً.

رأى حتى أوباما أثناء ترويجه لفكرة القيام، بضربة عسكرية على ليبيا النفاق، في قلب الأمر، عندما طالبت البحرين واليمن (كأمثلة صارخة) - بشدة - بالمعاملة، بالمثل. حاول أوباما شرح الانتقائية التي تتعلق بالتوافق بين «القيم» الأمريكية و«المصالح» الأمريكية. وكان «دعاة التدخل الإنساني» الإيرانيون أكثر جرأة من الرئيس الأميركي، في ادعاء عدم وجود أيّ تناقض فطري في أفعالهم المنافقة.

يمكن للمرء - اليوم - إذا ما استقل حافلة في نيويورك أن يلاحظ - من النافذة - أن سيارات الأجرة في نيويورك تحمل لافتات، للإعلان عن «دمى نيويورك» المتاحة، في «نوادي الرجال». لا بد أن يكون هناك شيء ما، في الأجواء. لماذا ندعو بيوت الدعارة بأسمائها عندما يمكن أن تسمّيها «نوادي الرجال»؟ وبالمثل، لماذا ندعو الإمبريالية، باسمها عندما يمكن أن نطلق عليها اسم «التدخل الإنساني»؟ تنتمي بيوت الدعارة والإمبريالية إلى تلك الخطابات القديمة والمبتذلة. اللغة المخادعة التي تفضل «نوادي الرجال» و«التدخل الإنساني» ألطف وأكثر أدباً بكثير.

من إيران إلى الجمهورية الإسلامية

الحيلة الأخرى التي يستخدمها هذا الطابور الخامس ما بعد الحداثي هي محاولة إسكات المعارضين، من خلال اتهامهم بأنهم عملاء للجمهورية الإسلامية - ليست خدعة مبتكرة، للغاية، كما قد يخيل للبعض، ولكنها - مع ذلك - تُعدّ حيلة فعالة، على ما يبدو، في ذلك التجمّع الموبوء، لمجتمعات المنفى. إذا تجرّأ المرء - يوماً - على التفوّه، بكلمة ضد هذه التفاهات المنسوجة مع بعضها البعض، فلابد أنك - بالطبع - عميل مأجور، للجمهورية الإسلامية.

حقيقة أن هؤلاء الذين يعترضون على مثل هذه التفاهات قد سُجنوا - مراراً وتكراراً - في الزنازين المظلمة للجمهورية الإسلامية، وأوشكوا على الموت، وعادوا مرة أخرى، في الإضراب عن الطعام، ورفعوا عرائض إلى خامنئي والجمهورية الإسلامية أثناء وجودهم في سجن إيفين، وحقيقة أن هناك مَن يقفون ضد مثيري الحروب ممّن نجوا - بالكاد - من الإعدام رمياً بالرصاص، وغيرهم ممّن ذُبح آباؤهم وأمهاتهم على أيدي عملاء الدولة، لا تشكّل فرقاً لدى هؤلاء السائقين الشجعان الذي يتجرّؤون على التنقّل بين شوارع دوبونت سيركل والطرق السريعة، في لوس أنجلوس.

قال أكبر غانجي مؤخّراً في إحدى المقابلات:

«لم يتلقَّ أي شخص من هؤلاء، ولو صفعة واحدة، في حياته، ولكنهم يطلقون على أشخاص مثلي لقب عملاء، للجمهورية الإسلامية». ظهر غانجي - بعد انجذابه في شبابه للثوار المسلمين، في أواخر السبعينيات - بِعَدِّه أحد الصحفيين الاستقصائيين، ونشطاء حقوق الإنسان الأكثر شجاعة بين أبناء جيله، والذي أظهر الفظائع الإجرامية للجمهورية الإسلامية، الإنجاز الذي جعله يُحتجَز مرتين، في زنازين الدولة الثيوقراطية، لأكثر من ست سنوات، مما قارب على قتله إثر إضراب مطوّل عن الطعام. لا يزال وعائلته، يدفعون ثمناً باهظاً.

يا لتلك الشرعية التمثيلية التي يفتقر إليها مؤيّدو الحرب والمدافعون عنها (والذين يُعرفون - أيضاً - باسم مؤيدي «التدخل الإنساني»)، فقد كانت صحيفة وول ستريت جورنال سعيدة بتصنيع حل سريع لهم، من خلال توريط الأصوات المعارضة داخل إيران - الحيلة التي تم الكشف عن خديعتها عندما أعطى أكبر غانجي معلومات مفصلة، عن مواقف أصوات المعارضة الرئيسة داخل إيران (والذين يقبع بعضهم، في سجن إيفين سيىء السمعة) المعارضة للتدخل العسكري. وحتى قبل غانجي، قال الرئيس الإيراني السابق محمد خاتمي - بشكل قاطع للغاية - إنه في حال شن ضربة عسكرية، فإن الإصلاحيين وغير الإصلاحيين سيتّحدون لصدّ

أيّ خطر، أو ضرر، قد تتعرّض له إيران - وهي حقيقة ذكرتها حتى صحيفة هآرتس لقرّائها الإسرائيليين، حتى لو لم ينتبه لها دعاة الحروب.

هناك فرق شاسع ومنيع بين معارضة الفظائع الإجرامية للجمهورية الإسلامية وبين أن يغدو المرء طابوراً خامساً لمخطط الولايات المتحدة/ إسرائيل لإيران. لقد خلط الطابور الخامس ما بعد الحداثي بين الاثنين، ولقد انزلق - اليوم - من نبل الخيار الأول؛ لينحط إلى الغدر الذي يجلّل الخيار الآخر.

تشير الحملات الهائلة على المعارضة، والدولة السلطانية العدائية، والكثير من العوامل الأخرى، إلى أن هذا النظام المروّع سائر، باتجاه مزبلة التاريخ. ولكنْ؛ بمجرد نزول القنبلة الأولى، على إيران، ستتّحد الامة بأكملها، في الوقت نفسه، بالضبط الذي سيقفز الطابور الخامس ما بعد الحداثي من واشنطن العاصمة، إلى لوس أنجلوس، إلى سياراتهم الرياضية؛ ليسلكوا أقرب الطرق السريعة بحثاً عن مخبأ. مَن يتذكر اليوم كنعان مكية، أو أحمد الجلبي، أو فؤاد عجمي؟ لقد نُسيت هذه الأسماء الخسيسة التي حرّضت على العنف ضد العراق نسياناً كاملاً، ولأسباب وجيهة حقاً.

ربما جاءت أفضل إجابة عن مثل «دعاة التدخل الإنساني» هؤلاء من الشخصية المعارضة الشجاعة عابد تفانشيه، الذي كان - بالكاد - قد خرج من زنازين الجمهورية الإسلامية، حين قال - في مقابلة معه أثناء وجوده في مدينة آراك في إيران، بعد ما قرأ عن تحمّس دعاة الحرب الإيرانيين الذي يعيشون في العاصمة واشنطن للأحداث في ليبيا - :

أريد أن أعيش حقاً - وإذا كان علي أن أموت، في سبيل شيء ما، فأريد أن يكون هذا، بإرادتي، وفي سبيل مثلي العليا، وأود أن أؤكد أنني يمكن أن أقرر فيما يخص حياتي الخاصة، وليس فيما يخص حياة ٢٥ من بين كل ١٠٠٠ إيراني [تقدير لعدد ضحايا الضربة العسكرية المحتملة]. أود أن أعلم لماذا أموت؟ وفي سبيل مَن؟ لا الولايات المتحدة ولا حلف

شمال الأطلسي، ولا أيّ تحالف آخر - في الواقع - مهما كان عدد الأعلام التي يرفعها، المخوّل بأي منظمة كانت، بأن يفرض علي، كإيراني يعيش في إيران أيّ نوع من «التدخل الإنساني». ولا يهمني - أبداً - إذا ما كنت هذه القنابل موجّهة، بالليزر، أو بواسطة الله سبحانه وتعالى نفسه. أرفض قبول مخاطرة أن أكون بين ٢٥ شخصاً الذين سيموتون من بين كل ١٠٠٠ شخص، وعليك - يا سيدي [مخاطباً أحد المتشدّدين في طلب التدخل العسكري متحدثاً من الصندوق الوطني للديموقراطية] - مادام أن فرصة وجودك بين هؤلاء الخمسة وعشرين شخصاً منعدمة - لأنك تعيش، في واشنطن العاصمة، ويفصل بينك وبيننا محيط وقارّتان، من الاتجاهين كليهما - أن تحتفظ، برأيك، لنفسك عني، وعن أشخاص مثلي، يعيشون في إيران، ورجاءً توقّف عن صبّ المزيد من الزيت، على نار الغزو الأجنبي. هذا كل شيء.

تغيير الجلد

كان صعود هذا الطابور الخامس ما بعد الحداثي - في الواقع - تطوراً إيجابياً، بالنسبة لمستقبل الديمقراطية، في إيران. لتبدّد أوهام التضامن الكاذبة بين المنشقّين داخل وخارج إيران، وظهور انقسامات أكثر وضوحاً. توافقت شخصيات لامعة مع معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، ومعهد بوش، والصندوق الوطني للديموقراطية، ويقودون - الآن - تحالفاً متيناً مع القوى الصهيونية/والقوى التابعة للمحافظين الجدد في الولايات المتحدة، لدرجة إقناعهم، بمهاجمة إيران، لتحريرها، من أجلهم.

لدينا - اليوم (هل أجرؤ فعلاً على الحلم) - أساس متين، لظهور اليسار الجديد، من رماد حركة الإصلاح، في التسعينيات، والتي تمّ إنقاذ عدد قليل، من القوى التقدمية منها. أما البقية؛ فعادوا إما إلى التصوّف، أو انضموا إلى الطابور الخامس، أو تخلوا عن احتجاجاتهم، وانضموا إلى صفوف اليسار الناشئ. ولن تضعف هذه الانقسامات الأصوات المعارضة.

بل ستعزّز - بدلاً من ذلك - المستقبل الديمقراطي للجمهورية الذي من المفترض أن يخلف هذه الثيوقراطية الحربية طوعاً أو كرهاً. الثقافة السياسية الإيرانية تغيّر جلدها.

نصيحتي الوحيدة للأعضاء الفاعلين، في لواء هذا الطابور الخامس، أن ينظروا إلى مصير كنعان مكية (والذي يُعرف - أيضاً - باسم سمير الخليل)، الذي كان يصرّ بالقدر نفسه، إن لم يكن أكثر، على تشجيع الولايات المتحدة، على غزو العراق لتحريره. بعد نصف عقد من الزمن، في عام ٢٠٠٧، تحوّل وطنه، إلى خراب، وقُتل مئات الآلاف، من أبناء وطنه العراقيين، وعانى مكية، من عذاب الندم، معترفاً، بخطئه المهول، عندما طلبت منه صحيفة نيويورك تايمز أن يشرح تشجيعه لغزو العراق، بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية:

كان مكية أثناء التراكمات التي أدت إلى حرب العراق، وأكثر من أي شخصية أخرى، من سَوق لقضية الغزو على أنها التصرف الصحيح الذي ينبغي عمله - لتدمير نظام شرير، وإنقاذ شعب، من كابوسهم المليء، بالرعب والمعاناة.

وعلى الرغم أنه في عام ٢٠٠٧ لم يكن قد تكشّف بعد الحجم الكامل، للمذبحة العراقية، قالت صحيفة نيويورك تايمز كلامها:

واليوم قد ولّت تلك الأحلام، بالطبع، وحملها بعيداً تياراً من الدم. لقد قوّضت الكارثة في العراق فكرة التغيير الديمقراطي، في الشرق الأوسط تماماً. وقد دفنت فكرة ... أن القوة العسكرية الأمريكية يمكن أن تحقّق الغايات الإنسانية. وجعلت من مكية والآخرين الذين برّروا الغزو يبدون كأشخاص متهوّرين وساذجين.

قد يفضّل الآخرون - بالطبع - الصفات الأكثر تعبيراً من «التهور والسذاجة.» أما الآن؛ فسأختار - بسخاء - عبارة «الطابور الخامس ما بعد الحداثي» لوصف التنويعات الإيرانية لكنعان مكية.

وبعد أن قلنا كل هذا، فسيكون من غير الدقيق وغير العادل أن نصمّ جميع أولئك الذين انضمّوا إلى قائمة المطالبين، «بالتدخل الإنساني»، على أنهم دعاة حرب متحجّرو القلب، لا يهتمون - أبداً - بوطنهم. لقد دفعت أكثر من ثلاثة عقود من الثيوقراطية الإرهابية والإجرامية - دون أي اعتبار لأخلاق البشر - العديد من الإيرانيين، إلى اللجوء إلى تدابير يائسة. قُتل الآلاف من الإيرانيين، بدم بارد، في زنازين الجمهورية الإسلامية. ولقي مئات الآلاف حتفهم، في حرب طويلة ومكلفة. وأُجبر الملايين على ترك وطنهم؛ ليتحملوا إهانة المنفى، وأُرهبت أمة، بأكملها، وأُجبرت على الخضوع لاستبداد مستمر وفاسد، وغير آدمي.

تدفّق ملايين الإيرانيين قبل عامَين إلى الشوارع، يطالبون بحرياتهم المدنية - ليُقابَلوا، بتجاهل وحشي وغاشم، للأخلاق البشرية. ملايين الإيرانيين - في جميع أنحاء العالم - فخورون بهويتهم وكينونتهم، ويتمنّون العودة، إلى وطنهم، والانضمام إلى عائلاتهم في إيران، وبناء مستقبل أفضل لأطفالهم، ولكنْ؛ لا يزال الوباء الذي يسمّى «الجمهورية الإسلامية» مسيطراً، على تلك الأمة، بإصرار شرير.

لهذه الأسباب عينها الاندفاع في الخيار العسكري الذي أُطلق عليه اسم «التدخل الإنساني»، دون أن يكون للإيرانيين - في المنفى - أي سيطرة عليه، على الإطلاق، ليس هو الحل؛ لأنه سيكون له عواقب كارثية، من كل نوع، يمكن تصوّره. ليبيا هي ليبيا. وإيران هي إيران. وسيستمر هذان البلدان، في الكفاح، في سبيل حرياتهم، بطريقة مشتركة ومتجذّرة في تاريخهما المتميّز، في الوقت نفسه. لا يمكن أن يكون أي بلد نموذجاً، للبلد الآخر.

ولكنْ؛ إذا لم تكن الحرب هي الحل - فما هو الحل، إذن؟ لا يمكن العثور على الإجابة، في صندوق خشبي، في أي صيدلية. يكمن الجواب في الروح التحررية الناشئة التي تجتاح العالم اليوم، والتي ستصل - بشكل،

أو بآخر - إلى إيران. في خضم الانتفاضات الاجتماعية والثورية لا يملك النشطاء ترف انتقاء واختيار النموذج الذي يريدونه - ليفضّلوا النموذج الليبي، على التونسي. يشكّل منطق الحركات الاجتماعية جزءاً، لا يُجتزأ، من جذورها التاريخية. وهكذا، لن يكون أمام الموظف في الصندوق الوطني، للديموقراطية، أو معهد واشنطن لدراسات الشرق الأدنى، أو معهد بوش، أو أي أستاذ جامعي مغمور، في ولاية كاليفورنيا، في وضع، يمكّنه من انتقاء واختيار نموذج مناسب لانتفاضة ديمقراطية، على الناحية الأخرى من العالم. ولا حتى أولئك الأقرب إلى تلك الانتفاضات الاجتماعية، الذين يعانون، في زنازين الجمهورية الإسلامية - ولا حتى كروبي وموسوي، اللذين سجّل التاريخ حصولهما، على ملايين، من الأصوات الإيرانية - يمكنهم تحديد الاتجاه الذي ستذهب إليه الانتفاضة الديمقراطية الإيرانية.

تلك الانتفاضة الديمقراطية - المتجذّرة والحقيقية والقوية والمصرّة على النجاح - سوف تجد طريقها الخاص. ليست مهمّتنا فرض أسلوب، بعينه، على الانتفاضة، بل اكتشاف ومساندة منطقها الداخلي. الخزي الدائم - بل العار الحقيقي - سوف يكلّل جميع أولئك الذين لا يلتزمون، بهذا المنطق، ولا يتعلّمونه، والذين يسعون - بدلاً من ذلك - إلى فرض رغباتهم الخاصة، سواء أكانت رغبات نبيلة، أو غادرة.

لا تمتلك الجمهورية الإسلامية، ولا أي دولة طاغية أخرى - ولا حتى ديمقراطية - الحقّ في تطوير أسلحة الدمار الشامل، التي يعيش عالمنا الهشّ مرتجفاً، من الخوف تحت رحمتها. ومع ذلك، فإن التكوين الحالي للسلطة الإقليمية والعالمية ليس لديه أي سلطة أخلاقية - على الإطلاق - في أن يطلب، من الجمهورية الإسلامية عدم تطوير أسلحة نووية.

بطريقة، أو بأخرى، ستتمكّن الجمهورية الإسلامية، من تطوير أسلحة النووية، ولن تتمكّن دولة الفصل العنصري العسكرية إسرائيل التي تجلس على مئات القنابل النووية وترفض حتى التوقيع على معاهدة الحدّ من

انتشار الأسلحة النووية، من فعل الكثير حيال ذلك. ومهما فعلت إسرائيل وولاياتها المتحدة وحلفاؤها الأوروبيون، فلن يشكل أي فرق كان. إذا ما تركوا الجمهورية الإسلامية وشأنها، فسوف تتحرك قدماً لتقترب من تحقيق تلك القدرات النووية. وفي حال قاموا بمهاجمتها - وتدل جميع المؤشرات وفقاً للحرب الإلكترونية أنهم قاموا، بذلك، بالفعل - فإن هذا سيؤدي - أيضاً - إلى دفع المشروع إلى الأمام. ولا يمكن حلّ هذه المفارقة إلا من خلال وضع حدّ للنفاق المذهل لتوجيه إسرائيل والولايات المتحدة أصابع الاتهام إلى الجمهورية الإسلامية، بشأن برنامجها النووي. تحدّق كل من الجمهورية الإسلامية والدولة اليهودية - اليوم - إلى بعضهما البعض مثل اثنين من رعاة البقر المجرمين - اللذين يتوقّف مصير أحدهما على الآخر. يتوهّم وزير الدفاع الإسرائيلي إيهود باراك بأن إسرائيل «فيلا في وسط الأدغال» (والتضمينات العنصرية لاستعارته المفضّلة توضح نفسها). ولكنْ؛ من وجهة نظر مواطني تلك «الأدغال»، فإن كلاً من الدولة اليهودية والجمهورية الإسلامية تظهر كحامية عسكرية، سينتهي بها الأمر، إلى تفكيك الأخرى - مما سيفيد الإيرانيين والإسرائيليين والفلسطينيين والعرب والمسلمين والإنسانية جمعاء.

وسواء تم حل هذه المفارقة، أم لا، فلن تهرب الدولة اليهودية، ولا الجمهورية الإسلامية، ولا الإمبراطورية المسيحية التي تقود - في الواقع - هاتين الدولتين، على حدّ سواء، من قوة التاريخ التي ستحلّ بهم. قد نسمّيها نحن انتفاضة في فلسطين، أو «ثورة الخيام» في إسرائيل، أو الحركة الخضراء في إيران، أو الربيع العربي في العالم العربي، أو الانديغنادوس في أوروبا، أو حركة احتلوا وول ستريت في الولايات المتحدة وحول العالم، ولكن المؤكد - حقاً - أن جميع هؤلاء المنافقين وجميع تلك المفارقات والتناقضات سوف تذوب عاجلاً أم آجلاً أمام هذه القوة.

تكمن الموائل الطبيعية للناس العاديين الذين يتمرّدون ضد الظلم والطغيان، في الموقف الأخلاقي، وليس في الموقف العسكري. وأولئك

الذين يشجّعون على الحرب، عن طريق تقديم مبرّر سياسي لها، قد تخلّوا - بشكل قاطع - عن هذا الموقف الأخلاقي. لقد ساعدوا، وحرّضوا، على أعمال عنف، تعرّض لها الملايين من الأبرياء والضعفاء، والذين لا يمتلكون السيطرة عليها، والذين لا يستطيعون حماية أنفسهم منها، ولكنهم يجب أن يتخيّلوا، وأن يحققوا عالماً أفضل وأكثر عدالة، يتجاوزها جميعاً.

نُشرت، لأول مرة، على موقع الجزيرة، في نوفمبر ٢٠١١

ميرسي مسيو باديو

يشير آلان باديو، الذي يمكن عدّه أعظم الفلاسفة الفرنسيين الذين لا يزالون على قيد الحياة، في مقال قوي، في صحيفة اللوموند، إلى المتّهم الرئيس، في نجاح اليمين المتطرّف، في الانتخابات الرئاسية الفرنسية الأخيرة التي وضعت فرانسوا أولاند، في قصر الإليزيه.

القضية - هنا - هي النجاح الواضح غير المفاجئ للسياسية اليمينية المتطرفة الفرنسية، والمناهضة للهجرة، والقومية والمعادية، للإسلام مارين لوبان - والتي منحها الناخبون الفرنسيون النسبة الرائعة ٢٠ في المائة، وهيبة المركز الثالث.

وكما حذّرت نيني بارونيا مؤخّراً من «ظاهرة الفجر الذهبي (كريسي أفجي في اللغة اليونانية)، منظمة النازيين الجدد التي حصلت على ما يقرب من ٧ في المائة، من الأصوات في الانتخابات اليونانية في ٦ مايو» إنها دلالة واضحة على أن صعود اليمين، لا يقتصر على فرنسا. تدقّ المجزرة الجماعية البشعة التي ارتكبها أندرس بريفيك ناقوس الخطر الآتي من شمال أوروبا، وتشير إلى الشبح المشترك الذي يطارد القارة، بأكملها - والذي ظهر مؤخراً، من خلال محاكمة الجنرال الصربي البوسني راتكو ملاديتش المتهم، بارتكاب إحدى عشرة جريمة حرب وجريمة ضد الإنسانية، تشمل التدبير لمذبحة استمرت ٧ أيام لأكثر من ٧٠٠٠ من الفتيان والرجال المسلمين، في سربرنيتشا، في عام ١٩٩٥ خلال حرب البوسنة.

وكما قال رفيق هودزيك، الناشط القانوني من البوسنة والهرسك، فإن الآثار المترتبة على هذا الحادث الإجرامي، لا يمكن أن تخطئها العين:

العبارة التي ستطارد وعي البوسنيين والصرب والعالم لعقود قادمة، تم تسجيلها في أعقاب سقوط سربرنيتشا، المنطقة المحمية، بجنود الأمم المتحدة، في شرق البوسنة، وهي كما صرّح بها، لكاميرا التليفزيون: «*في هذا اليوم أعطي سربرنيتشا للشعب الصربي. إن الوقت قد حان - أخيراً - للانتقام من الأتراك [مسلمي البوسنة] الذين يعيشون في هذه المنطقة*». وكانت هذه الكلمات التي تقشعر لها الأبدان مقدمة للإعدام المنهجي لنحو ٨٠٠٠ من الرجال والفتيان البوسنيين الذين لجؤوا، إلى كتيبة الأمم المتحدة الهولندية للحماية، أو حاولوا الوصول إلى بر الأمان عبر الغابة المحيطة بسربرنيتشا. بعد سنوات، تصدر المحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة (ICTY) ومحكمة العدل الدولية حكمها، في هذه المجزرة، التي قادها ملاديتش، والتي نفّذها مرؤوسوه، لتمثل أول عمل من أعمال الإبادة الجماعية التي ارتُكبت، على أراض أوروبية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية.

من المسؤول؟

يرفض آلان باديو - في هذا المقال المؤثر، والذي جاء، في الوقت المناسب - علم الاجتماع الشعبي الذي يلقي اللوم، بصعود اليمين، على الفقراء والمحرومين الفرنسيين، الخائفين - كما نفترض - من العولمة. يستنكر باديو إلقاء اللوم، على فقراء فرنسا، من قبل النخبة المتعلّمة، وتحميلهم جميع العلل التي يعانون منها هم، ويعرض - بدلاً من ذلك - عرضاً أكثر عقلانية، بأدلة واقعية لماهية ما يبدو أنه أصاب الفرنسيين - وبالتبعية، بقية الأوروبيين.

يردّ باديو أن إلقاء اللوم على الفقراء يذكّره، بالسخرية الشهيرة لبرتولت بريشت التي تقول إنه يبدو أن الحكومة الفرنسية لا تتمتع بالشعب التي تستحقه، بجدارة. يلقي باديو، باللوم على السياسيين والمثقّفين الفرنسيين مباشرة لصعود اليمينيين قالباً الطاولة عليهم. يسرد باديو أحدث العبارات

المناهضة للعمال والمعادية للمهاجرين التي قالها السياسيون الاشتراكيون، واتهمهم بتحمل مسؤولية صعود اليمين.

«السلسلة المتتالية من القوانين المقيدة التي تهاجم الحرية والمساواة بين الملايين من الناس الذين يعيشون، ويعملون - هنا - بحجة كونهم أجانب، ليست من صنع يدي 'الشعوبيين' المنفلتين». ويتهم نيكولا ساركوزي وعصابته من «العنصرية الثقافية» من أنصار «رفع راية 'تفوّق' الحضارة الغربية» و«السلسلة تأتي، لا تنتهي من القوانين التمييزية».

ولكن باديو لا يحرم اليسار، من اللوم، بل ويتّهمهم، بالرضا: «لم نر صعود اليسار بقوة المعارضة ... هذه الرجعية» في القوانين. بل على العكس تماماً، فقد استمرت هذه الشريحة من اليسار بالقول إنه من المفهوم طلب الحصول على «الأمن»، ولم يتورّعوا عن القول بأنه لا بد من تطهير الساحات العامة من النساء اللواتي اخترن لأنفسهن الحجاب.

يتهم باديو المثقّفين الفرنسيين، بإثارة موجة من الإسلاموفوبيا، ويتهم الحكومات الفرنسية المتعاقبة بأنهم كانوا «غير قادرين على بناء مجتمع مدني، من السلام والعدالة»، وعن إساءة استغلال للعرب والمسلمين، وعَدِّهم الأشباح المخيفة، في عالم السياسة الفرنسية.

ولكن هذا ليس مجرد شيء متعلّق، بالفرنسيين، وحسب.

ولا تقتصر العلّة التي شخّصها آلان باديو، على الفرنسيين، أو حتى، على الأوروبيين. ولا بد أن نضع - في اعتبارنا - أن هناك الكثير من المثقّفين الإيرانيين والعرب والجنوب آسيويين المغتربين في أوروبا يعبّرون عن هذه الإسلاموفوبيا نفسها ضد المسلمين. وهناك شريحة كبيرة من هؤلاء المثقّفين المغتربين، الحمقى الذين يرتدون أقنعة بيضاء فوق جلدهم الأسمر، وتُعدّ جزءاً، لا يُجتزأ، من ازدراء العلمانيين الأصوليين، للإسلام والمسلمين.

الإسلاموفوبيا الحالية في أوروبا مرض حقيقي - يمثّل الجنين المحدّث قليلاً عن نزعة معاداة السامية، على الطراز الأوروبي القديم. والمرض منتشر، في أمريكا الشمالية أيضاً. في الولايات المتحدة الأمريكية، يظهر الداء عينه - بكل وضوح - في حقيقة أن الضباط الأمريكيين يتمّ تلقينهم منذ سنوات بمنهج، يعادي المسلمين، بطريقة شرسة؛ حيث يتعلم أفراد الجيش الأمريكي أن المسلمين «يكرهون كل شيء تمثّلونه، ولن يتعايشوا معكم - أبداً - ما لم تخضعوا لهم».

ويذهبون أبعد من ذلك، مؤكدين أن الحرب ضد المسلمين هي حرب خبيثة؛ بحيث إن «اتفاقيات جنيف التي وضعت معايير النزاعات المسلحة لم تعد ذات جدوى»، مما «سيفتح الباب - مرة أخرى - أمام خيار نقل الحرب، إلى السكان المدنيين، كلما كان ذلك ضرورياً»، وأن «المملكة العربية السعودية [لا بد أن تكون] مهدّدة بالموت جوعاً ... تضاءل الإسلام إلى رتبة الطائفة»، وأن الولايات المتحدة ينبغي أن «تثير حرباً أشبه، بالشاملة» ضد ١,٢ مليار وأكثر من المسلمين.

وما الذي ينبغي - بالضبط - على أولئك الذين يرتدون أقنعة بيضاء، على بشرة سمراء، من هؤلاء المثقّفين المغتربين أن يقولوه عن ذلك؟ عندما اجتاحت الرسوم الكرتونية الدانماركية أوروبا، قام سلمان رشدي وأمثاله - من المثقّفين الموهوبين مثل السيدة أيان هيرسي علي، ابن وراق، تسليمة نسرين، وعدد قليل من المثقّفين الكومبرادوريين الآخرين، وعلى رأسهم برنار هنري ليفي بالذات - ورفعوا أسلحتهم، وارتفعت عقيرتهم، بالقول إنه بعد «الفاشية والنازية والستالينية»، فإن العالم يواجه - اليوم - «تهديداً عالمياً جديداً» في ما يسمّونه «الإسلامية».

ومع ذلك، فقد أصبحوا بُكماً وصُمّاً ومكفوفين عندما قام قاتل جماعي مثل بريفيك - في حالة من الهياج - بقتل العشرات من الأبرياء، بسبب بغضه المرضي للمسلمين والماركسيين. بل تعاموا - أيضاً - عن حقيقة أن

ضباط الجيش المنتسبين إلى آلة القتل الأكثر وحشية على كوكب الأرض يجري تلقينهم أفكاراً إجرامية مجنونة، كتلك التي تُدرَّس، لأفراد الجيش الأمريكي. ولا يهتمّون أبداً، عندما يتمّ إلقاء نسخ من القرآن الكريم، الكتاب المقدّس للمسلمين، في المراحيض، في سجن أبو غريب، أو حرقها، في القواعد العسكرية، في أفغانستان.

واجب أخلاقي جديد

لا يتوقّف الداء الذي يشخّصه باديو على المثقّفين الفرنسيين، أو الأوروبيين، أو القساوسة الأصوليين المسيحيين الأمريكيين الذين يحرقون القرآن، أو من يُعدّون ممثلين كوميديين، في الولايات المتحدة (هل يهتمّ أحد خارج الولايات المتحدة، بمعرفة مَن هو بيل ماهر؟). بل يمتد - أيضاً - إلى العلمانيين الأصوليين المتعصّبين بين المثقّفين العرب، والإيرانيين، والجنوب آسيويين المغتربين، الذين أدّت بهم كراهيتهم المرضية للإسلام والمسلمين، إلى أن تقود بعضاً منهم، لتشكيل ما يُطلقون عليه اسم «مجلس المسلمين السابقين»، في حين تنظّم مجموعة أخرى، تُطلق على نفسها اسم «الشيوعي» - وبدون أي خجل - مسيرات مناهضة للمسلمين جنباً إلى جنب مع النازيين الجدد. ولكن آخرين من مجموعة «المسلمين السابقين» لا يقلّون عن ذلك، في الشر والقسوة، في السخرية وتشويه السمعة، ووصل الأمر، إلى الاعتداء الجسدي، على امرأة متحجّبة، أتت، من بلدهم نفسه، في زيارة قصيرة، إلى أوروبا.

وهذا المرض الذي يشخّصه باديو - بحكمة كبيرة - مُعدٍ، إلى حدّ ما، وقد انتشر على نطاق أوسع، بكثير، مما قد كان يهتمّ، بمعرفته يوماً. أصبحت المحنة الحالية التي يعاني منها أصحاب البشرة السمراء الذين يرتدون أقنعة بيضاء، متمنّين أن يصبحوا بيضاً: المثقّفون الكومبرادوريين الذين يساعدون، ويدعمون العنصريين الأوروبيين والأمريكيين، في تشويه صورة أبناء شعبهم. وهناك خطّ رفيع جداً، يفصل بين كراهية الذات

هذه عند «المسلمين السابقين» وأندرس بريفيك - إلا أن القاتل الجماعي النرويجي يكره بشرتهم السمراء أيضاً، على الرغم من وجود أقنعتهم البيضاء.

ما يشارك فيه هؤلاء «المسلمون السابقون» نظراءهم الأوروبيين والأمريكيين هي النظرية الجوهرية المرضية المتعلّقة «بالإسلام» و«المسلمين». ويتعامون عن الحقيقة القائلة أن هناك فرقاً واقعياً ووجودياً بين «إسلام» شيخ كويتي غنيّ، يفرد بطنه المتكرّش حول الطاولة، ويشاهد - بخوف - ارتفاع نسبة الكولسترول لديه، في أحد المطاعم الفاخرة، في شارع الشانزليزيه و«إسلام» نادل جزائري مهاجر، بطريقة غير شرعية، يغسل الأطباق، في الطابق السفلي، من المطعم نفسه.

هذا الاختلاف الوجودي واجب أخلاقي، لحدس جديد، من السمو الذي يتملّص من كل هذا التهريج، ويتطلب رؤية جديدة، لما يجب أن يكون عليه الواجب الأخلاقي السامي، في عالم هشّ.

بقية السكان المسلمين - بالطبع، في العالم - يتم شملهم في أي عمل، يقوم به شخص آخر، من دينهم نفسه، فحجّة أنه «ليس هذا الإسلام الحقيقي» ليست ذريعة كافية. ولكنْ؛ بأي ضرب، من ضروب الخيال، وبأي سلطة، يمكن لصيدلي، أو مهندس كهربائي، أو صحفي متقاعد، أو «مفكّر ديني» أن يقول لآيات الله الملتحين وحجج الإسلام في إيران، أو أيمن الظواهري، أو الملا عمر، في أفغانستان، إنهم ليسوا مسلمين حقيقيين؟!

آية الله خامنئي مسلم، بالطبع، كما كان آية الله الخميني، كما هي النخبة الحاكمة، برمتها، في الجمهورية الإسلامية، في عدم تسامحهم التامّ مع المعارضة. ولم يكن آية الله الخميني - أبداً - الشخصية الكاملة التي تمثّل السلطة الإسلامية، مثلما قام - بجرة قلم - بإصدار أمر الإعدام الجماعي، للسجناء السياسيين، في إيران. كل مسلم بالطبع - ولا سيما «المفكّرين الدينيين» (كما يسمّون أنفسهم) - مسؤول عن التعذيب الشرس، في كهريزاك وغرف التعذيب الأخرى، للجمهورية الإسلامية.

الإسلام نفسه الذي خلق قَتَلَة جماعيين مسلمين، في مومباي ومدريد ونيويورك قادر - تماماً - على إنتاج - وإعطاء الكرامة، والهدف بعد أن أُعطيت الكرامة، والغرض والسلوان - الملايين، من المسلمين الآخرين الذين يعيشون حياة أكثر كرامة، ولديهم علاقة أكثر دنيوية مع الالتزامات الأخلاقية العصرية. يمثّل العجز الأخلاقي والفكري لهؤلاء «المسلمين السابقين» عن التمييز بين الثيوقراطية الإجرامية التي تحكم إيران وعامل مهاجر أفغاني، أو صومالي، في ألمانيا، أو فرنسا الحدود التي يثبت فيها آلان باديو رؤيته التقدمية.

الضرورات الأخلاقية في عصرنا

عندما يوحّد داء بين اليمين واليسار وبين الأوروبيين و«المسلمين السابقين» وبين القَتَلَة الجماعيين والمثقّفين المغتربين، بهذا الشكل، فإن هذا المرض الشائع يتطلب - أيضاً - تعريفاً جديداً «للمثقّف العمومي» الذي يركّز - بشكل وثيق - على ويلات الرأسمالية - لا سيما على حقيقة هجرة العمالة - بغضّ النظر، عن الثقافات المتنوعة التي ترتبط بها الرأسمالية، بكل إباحية.

هناك ارتباط بنيوي بين الاقتصاديات النيوليبرالية للإخوان المسلمين والنظام الحاكم في إيران، يمتد إلى الإفلاس الأخلاقي والفكري «للمعارضة» المستقرة في كاليفورنيا، وفي واشنطن العاصمة - الطابور الخامس الذي يرغب أن تقوم الولايات المتحدة، بغزو إيران و«تحريرها» حتى يتمكّنوا من العودة إليها، وحكمها. لا يوجد فرق بين الليبرالية الجديدة للإخوان المسلمين، وتلك التي اعتنقها حسني مبارك، أو الليبرالية الجديدة عند الإصلاحيين، في إيران، أو عند «معارضيهم»، في ولاية كاليفورنيا - إنهم جميعاً منسوجون، من القماش نفسه، ولهذا السبب، يكرهون بعضهم البعض.

إن مواجهتهم ضرورة أساسية لوجود اتفاق جديد مع موقف أخلاقي ذي مبدأ، يعبّر فوق الانقسامات الثقافية الوهمية بين «الإسلام والغرب»، أو «المتديّنين والعلمانيين». والضرورات الأخلاقية التي يواجهها عالمنا الذي

يزداد هشاشة، والذي يتطلب إعادة تشكيل جذرية للمبادئ الأخلاقية، بما يتجاوز الاصطفافات الطائفية، أو التعريفات المذهبية.

تحتاج الإنسانية، إلى مجموعة جديدة، من الحالمين لتشكيل أسمى طموحاتها. الحقائق الأساسية على الأرض - التي تمثّل المنارة لهؤلاء الحالمين - هي المعذّبون في الأرض، هي الملايين من البشر الذين يجوبون العالم بحثاً عن الضروريات الأساسية، للحياة والحرية، أو خائفين، من الاضطهاد. يواجه المسلمون والأفارقة التمييز المروع نفسه، في أوروبا، كما يحصل مع المهاجرين غير الشرعيين، من أمريكا اللاتينية، في الولايات المتحدة، كما يحصل مع اللاجئين الأفغان، في إيران، وكما يحصل مع الفلسطينيين (الذين انضمّ إليهم - اليوم - الأفارقة) في إسرائيل، وكما يعاني العمال الفلبينيين والسريلانكيين، في العالم العربي.

الحقيقة هي نقطة الانطلاق للمواقف الأخلاقية ذات المبادئ. والمصابون بالعمى الأخلاقي الذين يخفون كراهية الأجانب، أو الإفلاس السياسي وراء التعصّب «العلماني» القاسي، والذين لا يبالون، بالأهوال التي يواجهها عامل أفغاني، أو عراقي، أو صومالي مهاجر - لمجرد إطلاقه لحيته، أو عاملة، لمجرد ارتدائها الحجاب - ينبغي تعرية موقفهم البذيء، وبالتالي بناء تحالفات جديدة أبعد وأهم من العبارات النمطية القديمة المهترئة «للإسلام والغرب».

يتطلّب الواجب الأخلاقي - في عصرنا - تسامي إيماننا الموروث، إلى شيء، يقوم على أسس أكثر دنيوية. هل باديو مسيحي، يهودي، ملحد، لا أدري، ماركسي ... حتى يُحسن لجميع المسلمين؟ هل باديو فرنسي، أو أوروبي، أو من المريخ، حتى يكون هدية، للبشرية جمعاء؟

في الوقت الحالي، يكفي أن نقول - ببساطة شديدة - : ميرسي، مسيو باديو!

نُشرت، لأول مرة، على موقع الجزيرة مايو ٢٠١٢

الخاتمة

نظام المعرفة المستمر

في الوقت الذي تتكشّف فيه المجازر الإسرائيلية للفلسطينيين - رجالاً ونساء وأطفالاً - على قَدَم وساق، وفي وضح النهار، لمدة سبعة أسابيع متواصلة، في يوليو وأغسطس عام ٢٠١٤، وفي الوقت الذي يشعر فيه العالم، بأسره (في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وحتى عدد كبير من سكان الولايات المتحدة وأوروبا) بالذعر، من الوحشية الشريرة لما سمّاها المؤرخ الإسرائيلي البارز إيلان بابيه محقاً «الإبادة الجماعية المستمرة» للفلسطينيين[1]، كتب عالم الأعصاب البارز الذي تحوّل إلى يهودي ملحد متشدّد، سام هاريس، مقالاً ردّ فيه على السؤال المقلق: «لماذا لا أنتقد إسرائيل؟» وكان الردّ على هذا السؤال ضعيفاً مثل السؤال نفسه، كما هو متوقّع من شخص، يساند - بشدة - رفاهية الكيان الاستعماري الأوروبي الاستيطاني، في فلسطين، والسرقة المنهجية لوطن شعب آخر، والذبح الدوري المستمر، لسكانه. وسط شرحه لعذره لعدم إدانة «الإبادة الجماعية المتزايدة» الجارية، سعى هاريس، للدفاع عن هذا الموقف الذي لا يمكن الدفاع عنه، كما يلي:

> *لذلك، فإننا عندما نتحدّث عن عواقب المعتقدات غير العقلانية التي تستند إلى الكتاب المقدّس، فإن اليهود هم أقلّ المسيئين، على الإطلاق. ولكنني قلت الكثير من الأمور النقدية عن اليهودية. اسمحوا لي أن أذكّركم بأن أجزاء من الكتاب المقدّس العبري - كتب مثل سفر اللاويين وسفر الخروج وسفر التثنية - هي الأكثر تنفيراً، والوثائق الأكثر كرهاً التي يمكن*

العثـور عليهـا، في أي ديـن مـن الناحيـة الأخلاقيـة. إن هـذه الكتـب أسـوأ مـن القرآن. وأسـوأ مـن أي جـزء، من العهـد الجديـد. ولكـن الحقيقـة هـي أن معظـم اليهـود يعرفـون هـذا جيـداً، ولا يأخـذون هـذه النصـوص، عـلى محمـل الجـدّ. إنهـا - ببسـاطة - حقيقـة واضحـة أن معظـم اليهـود ومعظـم الإسرائيليـين لا يسترشـدون، بكتابهـم المقـدّس - وهـذا شيء جيـد، للغايـة.[٢]

المشكلة في قراءة هذه الأنواع من الأعذار الواهية للتهرب من المسؤولية المعنوية والأخلاقية لإدانة قتل الأبرياء - سواء في أوشفيتز، أو في غزة - ليس الاقتراح المتعصّب إلى درجة مرعبة، أنه بينما لا تؤخذ «كتب مثل سفر اللاويين وسفر الخروج وسفر التثنية» على محمل الجد فعلاً بين اليهود والإسرائيليين، فإن المسلمين - من جانبهم - يسترشدون أكثر من ذلك، بكثير، وبشكل وثيق بالقرآن - والذي يعني وفقاً لإلحاد هاريس، أن المسلمين - بشكل جماعي - يشكّلون خطراً أكبر بكثير، على هذا العالم من اليهود، أو المسيحيين.

إن خوف سام هاريس النفسي المرضي والقاطع من الإسلام والمسلمين (والذي يُعرَف بـ «الإسلاموفوبيا»)، إلى جانب عدم قدرته على انتقاد إسرائيل، حتى عندما (أو على الأخص عندما) يتعلق الأمر، بذبح المسلمين، في حالة من الهياج، أو إلى «جزّ العشب»[٢] يصل - في نهاية المطاف - إلى تلك العبارة الثانوية «أسوأ من القرآن»، لأنه - هنا - يُظهر قلقه الداخلي، واقتناعه بأن الإسلام، وبالتالي المسلمين، هم المقياس الأساس الحقيقي للهمجية. إنه مقتنع، لدرجة أن الكتاب المقدّس العبري قد يتشارك في بعض من هذه الصفات، ولكنه مقتنع - أيضاً - بأن اليهود والإسرائيليين لا يؤمنون بها. وفي الوقت نفسه، فإن معرفته الواسعة وبحوثه في الإسلام (والتي لا يوجد عليها أيّ إثبات عام) أقنعته بأن الشيء الأول الذي يرغب ١,٥ مليار مسلم، بالقيام به عندما يستيقظون، في الصباح، وقبل وجبة

الفطور، هو العثور على امرأة لرجمها حتى الموت، أو أن يقوموا - على الأقل - بالبحث عن كافر ما، وقطع رأسه.

إن وجود حالة واحدة، أو اثنتين، أو حتى عشرة، أو أكثر من الأصوات الإسلاموفوبية المتشددة، في الولايات المتحدة وأوروبا، لا يهم حقاً سوى في أنه يشير، إلى شكل أكثر خطورة بكثير، من إنتاج المعرفة، يفضي إلى أوضاع قاتلة، من السيطرة الإقليمية والعالمية، التي ثار ضدها المسلمون وغير المسلمين، على حد سواء، في انتفاضات متعاقبة ومتزامنة. ينظر هؤلاء العقائديون العدوانيون إلى هذه الثورات (التي يعتقدون أنها ستكون على غرار الانتفاضة الفلسطينية التي يخشونها، كما يخشون الطاعون) على أنها ضارّة لطبقتهم ومصالحهم التي تستند على العِرْق. وليس هناك أيّ شك - اليوم - في أن الملحدين المتشدّدين من اليهود (سام هاريس)، والمسيحيين (كريستوفر هيتشنز)، أو المسلمين (سلمان رشدي) يشتركون - في الحقيقة - بقاسم مشترك، في الإسلاموفوبيا المسعورة. هناك ارتباط بنيوي بين خوفهم من الإسلام وإلحادهم - أو، بالأحرى، الإلحاد المعلن الذي لا يرقى إلى أكثر من مجرد الكراهية غير العقلانية، وغير المنطقية، وغير الأخلاقية، وبالتالي المتعصّبة، للمسلمين. وبسبب خوفهم من الإسلام يختلق إلحادهم موقفاً نقدياً، بالقدر نفسه تجاه اليهودية، أو المسيحية، ليزيدوا ضرباتهم، في المسلمين، وفي إيمان آبائهم وأجدادهم.

أعتقد أن هذه الإسلاموفوبيا المرافقة للإلحاد الجديد أصبحت - اليوم - مفيدة في «الحرب على الإرهاب» الأمريكية والأوروبية، وبالتالي حاسمة، بالنسبة للإيديولوجية الإمبراطورية العنصرية عند الأمريكيين (وبالتبعية الأوروبيين والأستراليين والكنديين) التي تسعى للسيطرة والهيمنة على العالم الإسلامي[٤]. يمكن للإسلاموفوبيا التي تتخفّى - اليوم - باسم «الإلحاد الجديد»، والتي توفّر أساساً نيوليبرالياً متيناً، للنزعة العسكرية الأوروبية والأمريكية (الأمريكية/الإسرائيلية) التي تعرف وتحدّد اللحظة التاريخية التي نعيشها - الآن - على مسار نقدي. يولد المجال العام المفتوح تحت تصرف

الدعائيين - فقط - مثل هاريس، هيتشنز، ورشدي نظاماً من المعرفة، ويحافظ عليه، ويسعى هذا النظام المعرفي، للتعتيم، على تاريخ واسع وثقافة متعددة الأوجه، والتي يتجاهلونها، ويخافون منها، ويربط مصالحهم المكتسبة - بالتأكيد - بالأولويات الأيديولوجية لهذا الزمن، ويسعى للحفاظ، على هيكل رسمي، من السلطة، يمنحهم الامتيازات التي يريدونها.

يُعدّ هذا الكتاب وكتاباي الآخران السابقان، من دار زد بوكس للنشر، من بين الخطوات الأولية التي اتخذتها لتحقيق تغيير، في بنية، وموقف، ومزاج تفكيرنا ضد تكوين تلك الإيديولوجية الليبرالية الجديدة التي تحافظ - بشكل منهجي - على مصالح الإمبريالية الأمريكية وحلفائها في المنطقة، والمستفيدين حول العالم. لم أقم بذلك، من خلال معارضة السلطة وشكل التمثيل من الموقع الإمبريالي الذي يغني منه الكورس النيوليبرالي مثل هاريس، وهيتشنز، ورشدي أغانيهم التافهة، بل من الموقع الفعلي للأحداث التاريخية، في العالم التي أرعبتهم إلى درجة بيع هذا الهراء. ولذلك فإن ما كتبته - هنا، بالتالي - ليس مخالفاً لتلك الأيديولوجية السائدة، وحسب، بل يتوجّه عمداً نحو عالم بديل، ومكبوت، ومخفي - الكونية الإمبراطورية العظمى التي كانت تأسيسية، بالنسبة للعالم الإسلامي، على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية؛ لتتحوّل - اليوم - إلى أنقاض تحت أقدام القوة الجبارة الكاذبة للإمبريالية المعولمة. تلك الإمبريالية التي لم يعد لديها أيّ مركز اليوم. إن التضاريس الكاملة للهيمنة والمقاومة تتغيّر - اليوم، في الحقيقة - من خلال ما أسمّيه في كتابي «الربيع العربي»، باسم «جغرافيا التحرر».

المشكلة مع الملحدين الجدد والإسلاموفوبيا أن القليل الذي يعرفونه، أو يهتمّون، بمعرفته عن الإسلام، يقومون، بإحالته، إلى كل ما عرفوه عن اليهودية، أو المسيحية. الإسلام الذي يشترك في عقيدة التوحيد الأساسية مع اليهودية، يختلف - إلى حد كبير للغاية - عنها، بحكم تراثه الإمبراطوري. منذ الغزو البابلي لفلسطين (القرن السادس قبل الميلاد) وتدمير الرومان للهيكل الثاني فيما بعد (٧٠م)، والظهور اللاحق للشتات اليهودي، كانت

اليهودية، وحتى وقت قريب جداً، إيماناً جماعياً، بكل تأكيد، محصّلة تجميع التقاليد المتناثرة لجيوب مشتّتة داخل أطياف سياسية، من غير اليهود، منها الإمبراطوريات الإسلامية والمسيحية، وبهذا المعنى، فإنها تختلف اختلافاً جذرياً، من حيث الخبرة التاريخية، عن الإسلام، الذي كانت لشمولية الإمبراطورية أهمية كبيرة وأساسية لانتشاره التاريخي. ويمتلك الإسلام والمسيحية - في هذا الصدد - أكثر بكثير من القواسم المشتركة، على الرغم من أن المسلمين قد خسروا في التوسع الإمبراطوري المنافسة مع المسيحية، في لقاء مصيري مع فتوحات العالم الجديد والاستعمار.

كانت السياقات الإمبراطورية الملحمية المتعاقبة - من العباسيين، في القرن الثامن حتى السلاجقة، في القرن الحادي عشر وصولاً إلى العثمانيين، في القرن السادس عشر، وما بعده - أساسية، في إنتاج المعرفة، في الإسلام، ومعناها في تعددية دلالاتها، وبالتالي تأسيسها للمسلمين، كذوات معرفة. كانت العواصم العالمية الكبرى مثل بغداد، في العصر العباسي، وأصفهان، في عهد الصفويين، واسطنبول في عهد العثمانيين، أمثلة كلاسيكية لإنتاج المعرفة (الذاتية) في الإسلام، وقد عزّزت معرفة المسلمين، بالثقافات واللغات المتعددة، ومجموعة متنوّعة، من البؤر المتعددة للخطابات المتعددة - التي تتراوح ما بين القانون واللاهوت إلى الفلسفة والتصوف[٥]. ودون فهم أولي لهذه الديناميكية، فإنه من المستحيل أن تنسب إلى الإسلام شيئاً ما، أو غيره. وفي أعقاب انهيار الإمبراطوريات الإسلامية الأخيرة - العثمانيين، والصفويين، والمغول - وفي ذلك اللقاء المشؤوم للمسلمين مع الإمبريالية الأوروبية، فقد شهدنا شكلاً مختلفاً، للنزعة الكونية، بشكل جذري، في المجتمعات الإسلامية. يجهل الإسلاموفوبيون الملحدون المتشدّدون هذا التطور.

ويُعدّ هذا الكتاب تدريباً مستمراً، على التفكير، في الاسترجاع المعرفي لدنيوية المسلمين، والتي تتجاوز سلالتهم الإمبراطورية. وتستفيد - بذلك - من إمكانية التفكير خارج التقاليد الفكرية الأوروبية واسعة الأثر، ولكنْ؛

ليس بعيداً عنها أيضاً، والتي تشجّع على الخلاف والتحدي، في حد ذاتها. المفكّرون مثل إدوارد سعيد، إعجاز أحمد، بانكاج ميشرا، والتر ميغنولو، سليمان بشير ديان، كوجان كاراتاني، وغيرهم الكثير الذين لا حصر لهم (بغضّ النظر عن الاختلافات الهامة، فيما بينهم) ليسوا مدينين، بالفضل، لتلك التقاليد الأوروبية، ولا مخالفين، أو معادين لها[٦]. انعكست أصداء الحداثة الأوروبية الاستعمارية، في جميع أنحاء العالم. ولا تنفي هذه الحقيقة - بشكل قاطع - المشروع، ولا تستنفد الأوضاع البديلة للتبعية والنيابة حول العالم[٧]. الدافع للتعامل مع هؤلاء المفكّرين أو أمثالهم، ليس هواية فكرية مجردة، ولكنها ناتجة عن تغييرات تاريخية هائلة، في زمننا، والتي تؤثر - اليوم، وعلى نطاق واسع - في العالمَيْن العربي والإسلامي، والعالم غير الإسلامي، على حد سواء. الصعود السريع للإسلاموفوبيا الشريرة، في أوروبا والولايات المتحدة - والتي يتنوع أنصارها الرئيسون، من القاتل الجماعي النرويجي أندرس بريفيك، إلى السياسي الهولندي غيرت فيلدرز، إلى الدعائية الصومالية أيان هيرسي علي، إلى الروائي الهندي سلمان رشدي، إلى الصهيوني الملحد سام هاريس - يمثل جانباً واحداً - فقط - من هذا التطور المعرفي للنظام المعرفي السائد، في خدمة الإمبريالية المعولمة وجنون «منطقها» الرأسمالي الأخير. يشكّل النظام العسكري المصري - بقيادة الجنرال السيسي، والنظام السوري المتوحّش، برئاسة بشار الأسد، وعصابة المرتزقة القَتَلَة في داعش - جزءاً، لا يُجتزأ، من هذه الجغرافيا السياسية للسلطة والهيمنة.

كما يشكّل هذا الكتاب - أيضاً - وثيقة إثبات وتوضيح - على طريقة ساحة المعركة بين الأنظمة الحاكمة والمتغيّرة للمعرفة - لما ورثناه، وما ينشأ اليوم في العالم، بحكم التغيّرات التاريخية التي نشهد حدوثها، أثناء قراءتها وكتابتها واسترجاعها وتسجيلها. ما قصدته من ضرورة «تفكيك النظام المعرفي» مَبنيّ على «ثورة مفتوحة»، ليس موجّهاً لأي شخص، يحاول تحقيق ذلك، على وجه الخصوص، ولكنْ؛ بحكم الحقيقة التاريخية للمرور، بتلك التجربة. وقد قمت - من هذا المنطلق - بعرض كتاباتي - سواء كانت رد فعل فوري

ملح على الأحداث أثناء وقوعها، أو هنا في مجموعة من وجهات النظر والأغراض - كعمل من أعمال التضامن مع آمال وتطلعات الناس، في جميع أنحاء العالم، بما يتجاوز أيّ طائفة دينية. وعن طريق السعي، إلى إعادة توجيه قراءتنا، للعالم، سواء كنا في مسيرة في الشوارع، أو إذا كنا نفكر بها ملياً، في الخصوصية العامة لأفكارنا، فلا يوجد أمامنا - نحن أهل القلم - إلا أن نقاتل - جنباً إلى جنب - مع الثبات رابط الجأش للفلسطينيين، في غزة، وللأكراد، في كوباني.

هوامش الخاتمة:

١. انظر ايلان بابيه، "الإبادة الجماعية الإسرائيلية المتزايدة في غيتو غزة" الانتفاضة الإلكترونية، ١٣ يوليو ٢٠١٤.

http://electronicintifada.net/content/israels-incremental-genocide-gaza-ghetto/13562.

٢. انظر سام هاريس، "لماذا لا أنتقد إسرائيل؟" ٢٧ يوليو ٢٠١٤،

www.samharris.org/blog/item/why-dont-i-criticize-israel

(١٠ أكتوبر ٢٠١٤).

٣. كما كتب بول فالي لصحيفة الاندبندنت "هذه هي الحرب الرابعة في غزة خلال عشر سنوات. يتحدث العسكريون الاستراتيجيون الإسرائيليون، بشكل تقشعر له الأبدان، عن 'جز العشب'". انظر ما كتبه بول فالي تحت عنوان "الجز الإسرائيلي لعشب غزة حرب ظالمة"

www.independent.co.uk/voices/comment/israelgaza-conflict-israels-mowing-of-gazas-lawn-is-an-unjust-war-9659364.html

(١٢ أكتوبر ٢٠١٤).

٤. تيري إيغلتون، في حديثه عن "الإلحاد الجديد والحرب على الإرهاب" في جامعة كولومبيا في نوفمبر تشرين الثاني عام ٢٠١٠، متناولاً جذور البنية التحتية الرأسمالية المتعلقة بهذه المسألة. يمكنك مشاهدة المحاضرة على الرابط: http://vimeo.com/16769197. وعلى نفس القدر من الأهمية كتاب تيري إيغلتون: "التفكير المنطقي، والإيمان، والثورة: تأملات في حوار الله" (٢٠١٠).

٥. ذكرت نظرية إنتاج المعرفة الإسلامية بالتفصيل في مناسبات عديدة، كان آخرها في كتابي "أن تكون مسلماً في العالم" (٢٠١٢).

٦. في كتاب "من أنقاض الإمبراطورية: الثورة ضد الغرب وإعادة صياغة آسيا" (٢٠١٢)، يدرس بانكاج ميشرا تاريخ هذا التفكير الجدلي في سياق الإمبريالية الأوروبية في القرن التاسع عشر.

٧. ولقد بحثت في وجود مثل هذه الإمكانية من الخضوع والوكالة خارج نطاق الحداثة الأوروبية في كتاب "عالم العلوم الإنسانية الأدبية الفارسية" (٢٠١٢).

فهرس المحتويات

حميد دباشي: أستاذ كرسي هاكوب كيفوركيان بقسم الدراسات الإيرانية والأدب المقارن في جامعة كولومبيا. ولد دباشي في إيران، وحصل على درجة الدكتوراه المزدوجة في علم اجتماع الثقافة والدراسات الإسلامية من جامعة بنسلفانيا، تلتها زمالة ما بعد الدكتوراه من جامعة هارفارد. كتب دباشي وحرر العديد من الكتب، منها «إيران والحركة الخضراء والولايات المتحدة الأمريكية» و«الربيع العربي - نهاية حقبة ما بعد الإستعمار (منشورات المتوسط)» و«ما بعد الأستشراق - المعرفة والسلطة في زمن الإرهاب (منشورات المتوسط)» بالإضافة إلى العديد من الفصول، والمقالات، والمواد ومراجعات الكتب. يعتبر دباشي ناقداً ثقافياً عالمياً، حيث ترجمت أعماله إلى العديد من اللغات.

يكتب دباشي عموداً في صحيفة «الأهرام ويكلي» المصرية منذ أكثر من عقد من الزمن، ويعتبر معلقاً سياسياً دائماً في قناة الجزيرة وموقعها الإلكتروني، وقناة «سي إن إن». وبالإضافة إلى عمله المتفاني في مهنة التدريس منذ ما يقارب ثلاثة عقود، فإنه يعمل أيضاً في إلقاء المحاضرات العامة وكتابة المقالات عن الشؤون الجارية، كما أنه ناشطٌ فعّال في مجال مناهضة الحروب ومؤسس مشروع الفيلم الفلسطيني «أحلام وطن- Dreams of Nation». يعيش دباشي في نيويورك مع زوجته الإيرانية -السويدية غولبارج باشي المصورة الفوتوغرافية والباحثة النسوية ولديه أربعة أطفال.

المتوسط

"يجمع كتاب حميد دباشي «هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟» استفزازاته المهمة بصدد قضايا تتدرج من ما بعد الكولونيالية إلى الديمقراطية. هذه المقاطع من أجل أن نتصارع معها، ونفكّر بها، ونناقشها ونجادلها. إن قراءة دباشي أشبه بجلسة قهوة طويلة بصحبة صديق ذكي جداً".

فيجاي براشاد

«يعدُّ كتاب دباشي هذا نقداً بانورامياً، للأشكال السائدة للمعرفة، وتمرداً ضدها في الوقت ذاته. إنّهُ واضح ومنفتح على نحوٍ مميز. قراءة جديرة بالاهتمام».

وائل حلاق، جامعة كولومبيا

«يفسّر دباشي ببلاغة الرحلة الفكرية لجيل كامل من مفكري مرحلة ما بعد الكولونيالية: يجبُ أن نستمع إلى نتائجه».

إليزابيث سوزان كسّاب

«اعتماداً على معرفته الداخلية الفريدة بالتقاليد الفكرية المختلفة، كتبَ دباشي، بفطنة وعاطفة وخفة دم، توليفة نقدية للفكر الغربي من وجهة نظر «الأعراق المظلمة».

مامادو ضيوف

مدير معهد الدراسات الأفريقية، جامعة كولومبيا.

ISBN 978-88-99687-00-7
9 788899 687007
المتوسط

يصوغ هذا الكتاب منظوراً جديداً في نظرية ما بعد الاستعمار، حيث يتساءل حميد دباشي: ما الذي يحدث للمفكرين الذين يشتغلون خارج السلالة الفلسفية الأوروبية؟ ومن خلال الخوض في هذه الجدلية الإشكالية، يناقش حميد دباشي اعتبارهم مهمّشين وموظّفين ومزيّفين.

نجد دباشي هنا مشاكساً كبيراً، ومتحدياً عنيداً، ولكنه، كما اعتدناه دائماً، أنيقاً. حيث يدرس، بحلّة جديدة، الطريقة التي يستمر من خلالها النقاشُ الفكري في ترسيخ نظام كولونيالي للمعرفة، مستنداً لسنوات من الدراسة والنشاط، ليقدم لنا في كتابه هذا مجموعة حصيفة من الاستكشافات الفلسفية التي تثير الحفيظة والفرح على حد سواء.

الناشر

«لعقود طويلة، خلُص حميد دباشي من تواريخ اللاغربية إلى مُناقشة طرق التفكير التي تُعتبرُ غير شرعية من قِبل الأوصياء المحدودين، الأقوياء مع ذلك، على الحياة الفكرية في الغرب. في كتابه «هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟» ينتقلُ دباشي بجدليته الخفية المفعمة بالحيوية إلى مستوى آخر».

بانكاج ميشرا

«هذه المقالات محددة المعالم، وبارعة واستفزازية وخبيثة، وفي عين الهدف».

سليمان بشير ديان، مؤلف كتاب تعليق الفيلسوف في الإسلام.

«بمفارقة راقية، يعيدُ كتاب «هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟» توجيه قراءتنا للعالم. إنّه رد لاذع سريع وعاطفي على أولئك العاجزين عن رؤية ما هو أبعد من التأطير والتأصيل الأوروبي».

سلمان سيد، مؤلف كتاب إحياء الخلافة.

المتوسط